إسحاق ماشباش

جاسوس

رواية تاريخية صدرت عام 2011

ترجمة

وليد تحقاخه

مايكوب 2017

جرت أحداث الرواية التاريخية التي كتبها بعنوان "جاسوس" إسحاق ماشباش كاتب شعوب جمهوريات الأديغية والقبرتاي – بالقر وقرشاي – شركيسيا، والحائز على الكثير من الجوائز الأدبية في روسيا، بين عامي 1835 – 1837، إبّان حرب القفقاس. وفي ساحة هذه الأحداث الضابط الروسي النقيب الركن تورناو الذي أُسرِ في الأبزاخ فقضى فيه سنتين.

يُطلِعنا إسحق ماشباش مستفيداً من مذكرات فيدور تورناو على أحداث تلك المرحلة من جهة، وعلى طبائع الناس الذين التقى بهم، وعلى نمط حياة الأديغة. ومن جهة أخرى على موقف الأقوام الأخرى من الأديغة وعلاقاتهم بهم. يكشف الكاتب عادات الأديغة وتقاليدهم على نحو عجيب، عن رجولة هؤلاء وصلابتهم، وعن حبهم للحرية. وفي ملازمة هذه الأحداث يكشف متألماً دون تجميل للوقائع عن فُرقة الأديغة، وعن استنزافهم قواهم في تنافسهم على الزعامة.

والرواية تعتمد على الأحداث الواقعة فعلاً. وقد خلق منها إسحاق ماشباش رواية مشوقة تعكس مجريات الماضي، وأفكاره ووجهة نظره فيها بأسلوب جذّاب.

الشراكسة (الأديغة) من أقدم العروق البشرية التي ما تزال تعيش على الأرض. وباستثناء الصين ومصر والفرس فتاريخ الأديغة قديم جداً. ولم يخضع هؤلاء لأي دولة غريبة.و كانوا يحتمون حين يتغلب عليهم أحياناً أعداء أقوياء جداً بتقاليدهم الخاصة ريثما يحررون أنفسهم. ولا تخطئ إذا قلت: إن الشراكسة يعيشون عِرقاً مستقلاً مُصِرّين على معرفة تاريخ قومهم. ويعرف الناس الذين ساهموا في تطوير الحياة قديماً هذا الشعب: هيرودوت وفيريا وسترابون وبلوتار. ويظهر اسم الأديغة في مؤلفات غيرهم من المشاهير. ويثمّن هؤلاء جداً عاداتهم والعلاقات الاجتماعية بينهم. ويُبرِزون تاريخهم وحكاياتهم وبطولاتهم ونضال عرقهم. والشراكسة يحمون حريتهم منذ ألفين وخمسمئة عام على الأقل.

مجلة "غليسون" لندن عام 1854.

I

تفليس التي أرهقها قيظ صيف 1835 تنزاح عنها الشمس. والجنرال روزين قائد فيلق الجيش القفقاسي يقف أمام النافذة مزرّراً معطفه كأنه غيرُ عابئ بالحر،راضياً عن سير أعمال الجيش الروسي في الأبخاز. وهو متفاهم إلى الآن مع القبرتاي – الأديغة الذين أخضعَهم يرمولوف بالدم. ولكنّ من يصدع رأسه كل يوم هم الأديغة القاطنون إلى الغرب، والذين لا يستطيع الجيش الروسي إخضاعهم.

والأديغة لا يقبلون اتفاق أدريانوبول[1] للسلام بين تركيا وروسيا قائلين: ما شأن الدولتين الغريبتين عنا حتى يرتّبوا أمورنا.

ابتسم روزين حين تذكر في هذا الربيع ما قال له الفارس الأديغي الذي التقى به في بروجني أوكوب فيما هو عائد من سان بطرسبورغ: "هل يجعلكم ادّعاؤكم أن الترك منحوكم ما ليسوا مالكين له؛ أعطيك إذن ذلك العصفور على هذه الشجرة فأمسِك به! نحن نشبه هذا العصفور الطليق. لا تتوقعوا منا أن نسمح لكم بأن تفعلوا ما تريدون في أرضنا. كثيرون من يطمعون فيها، ولستم وحدكم. كفاكم،عودوا إلى وعيكم، ستندمون!"

فكّ الجنرال أحد أزرار معطفه دون أن يدري السبب. وحين فهم الضيق الذي جعله يفعل هذا ترك الأزرار الأخرى. وبعدما ذرع أرض الغرفة بضع مرات انتصب أمام عينيه النقيب الركن تورناو الذي لم يستطع الوصول إلى شراكسة الساحل انطلاقاً من الأبخاز. "كان حسناً لو أطلقناه من جهة بروجني أوكوب حيث الجنرال زاس ودفعناه إلى اختراق صفوفهم؛ كان أطلعَنا على كثير مما لا نعرفه. أنا لم أقبل منه وقتها ولكنه كان ذكره لي أكثر من مرة. أظن أن موعده حان تَبَعاً لسير أمورنا في شمال القفقاس ولاسيما في الغرب منه. وكان القيصر أوصاني أن أجد مثل هذا الإنسان. صحيح أننا لسنا لأول مرة نتابع هذا الموضوع، كان الرؤساء في نوفيسك وشاكوفيسكوي يبحثون عن مثله. وقدم أمثالُه نفعاً كبيراً ولو لم يقيموا طويلاً بين الشراكسة. ولكن أمثال هذه المحاولات

[1] عام 1829 إثر هزيمة للدولة العثمانية تنازلت بموجه تركيا عن القفقاس لروسيا (!). وكل ما يرِد في الكتاب من حواش هي للمترجم ما لم يُشَر إلى غيره.

قليلة. والآن إذ قررنا أن نتوغل في أراضي الشراكسة ونقترب من الساحل لن نستطيع عبْر القوزاق وحدهم،وعبْر الاحتفاظ بالجانب الأيسر لنهر بشزه،أن ننفذ المهمات التي كلّفَنا بها القيصر، وتفرضُها علينا الظروف الحالية. لا يجوز إلا أن نستولي على القفقاس التي حاربنا من أجلها تركيا سنوات عديدة! لِنكن نحن شجرتها، ولْيتشبّهِ الشراكسة بالعصفور الطليق.."

– ما حال الرجل المجروحة للكابتن تورناو؟ – سأل روزينُ الجنرالَ فولخوفسك الذي استدعاه.

– شُفيتْ يا سيادتكم. يرقص في احتفالات تفليس المسائية. ويعبث بقلوب النساء. يرقص كل يوم.

– حسنٌ إذا كان وضعُه مع النساء كما تقول – ولكن أفضل شيء هو أنه ينتظرني. وهكذا لم يرتعب من المهمة التي أنطْناها به في الأبخاز، ولا يزال مخلصاً لها، وقيصرنا المنير واثق منه، بل سأل عنه حين التقيت به في زيارتي الأخيرة إلى سان بطرس بورغ. وكذلك بنكندورف. كان القيصر قال لي: "مظهره شركسي تماماً، يمكنه أن يضيع بين حراسي الشراكسة. دعوه يختلط بالشراكسة ويتفقد نقاط ضعفهم وقوتهم. ونفذوا له طلباته، ولكن إن بدرت منه خيانة فلا تغفروها له!" وقرأ كتاباته عن الشراكسة الجبليين المعادين لنا، وأعجبته. وقائد سرية الحرس القفقاسي سلطان خانجري عرّفه بهؤلاء. وشهد على قُرب الكتابات المتعلقة بالشراكسة من الحقيقة.

– ولكن يا سيادتكم يطلب النقيب الكثير. وبعضها قد يصعب...

– وأنا أعرف هذه يا جنرال، – لم يدع روزين محدِّثه الجنرال فولخوفسك يكمل كلامه.

– إذا كان في هذه المطالب فائدة للبلاد وجب تنفيذها له. أقول لنفسي ولك: من أجل هذا جئنا إلى القفقاس، ومن أجله نسفح دماء أبناء قومنا. لا نتكلم في ما لا نفْعَ فيه! استدعوا النقيب تورناو[1].

II

وصل النقيب تورناو إلى بيتاغورسك في أواخر شهر آب / أغُسطس بعد الظهر. وكان قد عولج هنا حين جرح في العام الماضي في حرب الشيشان.
وسبب مجيئه الآن إلى بيتاغورسك موضوع آخر: كان عليه أن يتناسى اسم أسرته الألماني، واسمه الروسي، وكونَه ضابطاً في الجيش الروسي، ثم يعوّد نفسه على اسمٍ حسن بيه، الاسمِ الشيشاني الذي أطلقوه عليه، وإن كان لا يُتقن لغة الشيشان. وكان مُلمّاً بالأديغية ولكن عليه استخدامها تبعاً للمواقف التي يجد نفسه فيها. ولم يكن مطلعاً على الإسلام فحسبُ – كان ماهراً في الأدعية

---

[1] "مرضتُ مدة طويلة نتيجة جرح خطير أُصبت به في الشيشان.– ونتيجة تكليف قائد جيوش القفقاس روزين حين عدت إلى تفليس، أرسلني إلى الجنرال فولخوفسك، وطلب مني أن أترك المجموعة المرحة من الجنود الذين أعايشهم، وأن أسافر إلى الشراكسة الذين أشبههم شكلاً لتلقُّط أسرارهم. ولم يكتم عني خطورة المهمة التي تنتظرني. وكنت أنا أيضاً أعرف هذا جيداً. ولما كانت مهمتي غير اعتيادية وجب عليهم أن يحصلوا على موافقتي دون اعتبارها من صُلْب خدمتي. ومع أني كنت جاهزاً للتضحية بحياتي من أجل الوطن فقد طالبت، مُزيحاً مصالحي الشخصية جانباً، بالامتيازات الخاصة بمهمتي: ووافق البارون روزين على مطالبتي أن أعمل بحرية، وأن أتصرف بوقتي كما أريد، وأن أتجاوز الأنظمة السائدة فأقابل الشراكسة الذين صالحونا والذين لم يصالحونا، ووعدني بتقديم هدايا لمساعديّ، وأن يعفو عمّن عليه عقوبات جزائية. وأنا من جهتي بدأت مهمتي واثقاً من تنفيذها. وكنت أحتاج في عملي إلى مستطلِعين نشيطين وموثوقين، ولكن العثور على أمثال هؤلاء كان صعباً. وكان عليّ التغلغل إلى الأماكن التي يقيم فيها الأديغة فعلياً. كان الشراكسة في أزمة، وفي خوف، بسبب ظهور طلائع جيشنا في الجانبين: جانب الأبخاز، وجانب نهر بشزه. وكان عليّ استطلاع شركيسيا كاملة... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

والوضوء والصلاة. وقد عمل على تعلم هذه الأمور طوال سنة كاملة في تفليس. وأما مظهره فيوحي بأنه لم يولَد بين البارونات الألمان[1]، بل بأنه من الأقوام التي تعيش في القفقاس باستثناء النغوي والقوموق. أسمر، واسع العينين، كبير الأنف، ولحينه وشارباه تناسب وجهه المتطاول. جسمٌ نحيف متين، لا هو ضخم ولا هو ضئيل. وكساؤه الأديغي وقبعته وخنجره، انتهاء بجزمته الرقيقة، مفصّلةٌ عليه.

في اليوم نفسه كان راضياً حال خروجه من العربة عن مناداة المرأة الشابة القصيرة التي تبحث عن مستأجر لغرفتها:

– إن كنت يا شركسي تريد استئجار غرفة فلن أغالي في السعر.

– نعم إن لم تطلبي كثيراً، – ابتسم تورناو للمرأة القوزاقية وهو ينقل الكيس الخفيف إلى اليد الأخرى، – ولكني شيشاني، لا شركسي.

– هل أنت شيشاني؟.. – توقفت المرأة القوزاقية لحظة من اسم العِرق الذي سمعته.ولكنها حين رأت غيرها يتخاطفون من يخرجون من عربات الركاب تداركت الموقف بسرعة: – ها، وهل عجيب إن كنت شيشانياً؟ نحن ننادي من ليس من عرقنا بالشركس.غير أني لا أكتمك أن عندنا خنازير، وهذه لن تؤذيك، ستقيم في غرفة مستقلة. وسيكون لك طعامك الخاص. وكيف كنت أربي أولادي الذين تركهم لي زوجي المسكين في هذه الظروف الصعبة لولا أني أرعاها، وأؤجر غرفة... قتلوا زوجي بانتالي العام الماضي في السوق وأنا أنصحه ألا يخالطَ الشراكسة ولا يسمحَ لهم أيضاً أن ينشئوا علاقات معه... لم تكن المرأة التي تقف مقابله تتوقف عن الكلام. وأضافت ما كان تورناو يريد أن يسأل عنه، – تباً، كيف يمكن لك أن تعثر على قاتله!.. ذبحوه في عزّ الظهيرة وهربوا... حقاً تخدع نفسك إن توهمت أنك ستعثر على الشراكسة – القبرتاي الذين أخمدهم الجنرال يرمولوف بصعوبة...

– حقاً، حقاً، – وافق تورناو المرأة التي لا يعرف اسمها بعدُ. – ألا تخبرينني باسمك!

---

[1] مرتبة عالية في الكنيسة الكاثوليكية.

– كان بانتالي المرحوم يناديني "فروسيا" وأنت أضِفْ إليه إيفان فنادني: إفروسينيا إيفانوفا. غير أني لستُ عجوزاً فنادني إذن: فروسيا، وأنت أيضاً أنظر إليك فأراك شاباً.

– ما الفائدة فينا يا إفروسينيا إيفانوفا؛ الشركس ونحن الشيشان لسنا أناساً صالحين. نرتكب كثيراً من الأخطاء بذريعة حمايتنا لأرضنا. وكل هذه الذنوب نتيجة للثأر. سامِحيني، لا أعرف اسم والد زوجك بانتالي، هل كان في الجيش الروسي؟ هل حارب؟

– كان زوجي المسكين بانتالي إيميليانيك في الجيش القوزاقي. لم يحارب فحسبُ بل دفع يده اليمنى في الحرب. وكان على جسده آثار سيوف أيضاً. دفع حياته ثمن رجولته. ولكن الدولة لم تعوّضه بشيء، ولم تلتفت إلينا نحن.

– وهل يُعقل ألا تعوضكم الدولة بشيء؟ – استغرب النقيب تورناو وهو حزين لما يسمع. وأنهى وهو غيرُ مصدِّقٍ: – هذا مستحيل، هذا حرام!

– وهل يعرف الحرامَ من يتسببون في قتلك؟! – عصر الألم قلب تورناو حين نظر في وجه إيفروسيا إيفانوفا التي التفتت إليه بوجه خالٍ من أي شعور بالألم أو الحزن. وفي اللحظة نفسها أضافت المرأة المرائية وقد شعرت بمبالغتها: – لن أكتمك السبب في هذا، سأقول لك: بدلاً من أن ينضم إلى الجيش الروسي ألّف هو، بصفته قوزاقياً، مجموعة من الفرسان القوزاق، يحمي بها ضواحي بيتاغورسك. وما أكثر ما نصحته ألا يفعل هذا!.. ربما هذا ما لم يغفره له الشراكسة... ولكن ألم يحمِ غيرَ أسرته أيضاً؟

– نعم، نعم يا أختي، معك الحق في هذا. – أيّد تورناو الأرملة التي لم تكن تكفّ عن الكلام مشفقاً عليها. وأضاف راضياً عنها: كان يحمي أبناء قومه، هذا يستحق كل ما تقدمه له.

– تناديني "يا أختي" ولكن كيف أكون أختاً لك؛ أنت مسلم وأنا مسيحية!..

– عادت إيفروسيا إيفانوفا وقد ارتعبت من تصريحها إلى ما كانت تودّ أن تقوله بادئ الأمر: – نعم، صحيح، يستحقّ ولو إكراماً لولده الوحيد أيّ مكافأة.

– أعندك ولد واحد فحسبُ؟.. ظننت أن عندك كثيراً من الأطفال...

– وهذا الوحيد أربيه بمشقة... – قالت إيفروسيا إيفانوفا، واستدارت بحركة من مقعدتها: – وهل أنا عجوز جداً يا شركسي حتى تتألم لحالي إن أخبرتك أن عندي أولاداً؟!

– لا، لستِ عجوزاً، سامحيني، تكادين تبلغين الثلاثين.

– سبعاً وعشرين، لا ثلاثين. تعال إن كنت تريد غرفة، الناس ينظرون إلينا.

"هذه المرأة التي صادفتها ذكية، – ابتسم تورناو في قلبه، ونظر إلى قوامها غير المتناسق وأضاف: – مفرطة في النشاط خلافاً لما تحمله من ورائها ولا تراه... أعدتُ النظر فيها فرأيتُ وجهها مقبولاً، ولكن ليس لها قوام امرأة مطلقاً. ما حاجتي إليها، يكفي أن يكون لي ما أنام فيه. تفاصيل مهمتي ستأتيني من الجنرال زاس الذي ينتظرني في بروجني أوكوب متى أخبرته بما أني وصلتُ إلى بيتاغورسك. وإلى وقتها ماذا إن ألحّتْ عليّ هذه المرأة المفرطة في الذكاء؟.. ألستَ رجلاً يا نقيب بارون؛ ما هذا الذي يشغلك؟! لا ضرورة لتميز في ما تفعله في فراش المرأة جميلةً من قبيحة؛ أم هذه أول مرة تفعلها فيها؟..."

أعجَبت الغرفة النقيب تورناو "حسن بيه". وتقرب من الصبي "كولكا" ذي الأعوام السبعة الذي استقبلهما وهو يمسح على رأسه. وأعطاه عشر كوبيكات يشتري بها حلوى.

– الغرفة نظيفة، أعجبتني، كم تطلبين مني؟ سأل صاحبة البيت.

– نصف سومة شهرياً.

– ليس كثيراً يا إيفروسيا إيفانوفا، أنا موافق.

– ألم أطلب منك مناداتي "فروسيا"؟ – لامت المرأة مسرورة مستأجِر الغرفة إذ لم يساومها.– نحن من عامة الناس. وأنت أنظر إليك فلا أراك من المتكبرين.

– لم أعتدْ بعدُ على اسمك الشعبي يا إيفروسيا إيفانوفا... شيئاً فشيئاً.

– نعم يا حسن بيه ستعتاد. ألسنا بشراً ولو كنا من أصلين مختلفين! ولكن، لا تؤاخذني، يسرني أن تثق بي وتدفع أجرة الشهر مقدَّماً. ليس لأني غيرُ واثقة منك؛ اختفى أحد مستأجري الغرفة في العام الماضي دون أن يدفع الأجرة. وتعلمت من الحادثة درساً.

– إن كان هذا رأيكِ فلن أؤاخذك. وسأدفع لك حالاً أجرة الشهر. وأضيفُ إلى نصف السومة نصفاً آخر.
– أهي أجرة شهرين؟ – سألت إيفروسيا إيفانوفا لا تعرف سبب الزيادة.
– لا يا إيفروسيا إيفانوفا، قد لا أقيم في بيتك شهراً واحداً تبعاً لمصير أعمالي. وهذا يتعلق بقرار طبيبكم الماهر مير. وسبب مجيئي إلى هنا هو إجراء فحص طبي عنده. أما نصف السومة الآخر فباسم من سقط زوجُك من أجلهم ولم يقدموا لك شيئاً. سينفعك، أنت أرملة.
انفجرت إيفروسيا إيفانوفا باكية من النقود التي صارت لها، ومن الكلمات الدافئة التي سمعتها. ومدت يديها عدة مرات إلى عينيها، ونادت الصبي الذي انسلّ من الغرفة، ولم يسمعها. وحين عادت إلى وعيها قالت له تنظر في عينيه خجلة جداً:
– لا أعرف بِمَ أعلّق على هذا إذ أن الدولة لم تمدَّ يدها إليّ بشيء طوال السنوات الثلاث التي مضت على ترمُّلي. حياك الله، نحن نسمّي شركس ونغوي وشيشان... لن أنسى معروفك إلى الأبد. وأرجو أن يوفقك الله في ما تطلب من الدكتور مير، ويشفيك. هذا طبيب غالي الأجرة، يصعب التعامل معه. مثلي لا يستطيع الاستشفاء عنده. ومرة أخرى سألتِ المستأجرَ الذي صار محدِّثها بصوت أدفأ، منادية إياه باسمه: – أنظر إليك يا حسن بيه فأراك في عزّ رجولتك، ما الذي تشكو منه؟
– لا أستطيع تحديد سبب لمرضي، أحياناً تتشنج كتفي.
– هذا من أمراض البرد. ليس مشكلة، الشفاء عند الطبيب. أعرف عجوزاً ماهرة في أمراض البرد، إن شئت رافقتك إليها. هذه أجرتها متدنية خلافاً لمير.
– شكراً لك، وسأعرض نفسي أيضاً على هذه العجوز.
– نعم، هذه عجوز ماهرة. ما حالك في هذه اللحظة؟ ألا تؤلمك كتفك؟ يمكنني أن أفيدك إن لم تستحيِ مني: سأدلّكها لك، لا ترجُ أحداً، أدهن جسدك بما يقدمون لك من أدوية. كنت أعالج زوجي المرحوم بهذه الطريقة... أين أنت يا كولكا؟ هيا أدخِل جراء الخنازير إلى الحظيرة، لا تتركها في الدار.

نحن نبيع الخنازير حية ولا نتناول لحومها في البيت فلا تتقزز!.. استرِحْ ريثما أُعدُّ لك الشاي. وسأُعدُّ لك حساء طيباً.

– شكراً يا إيفروسيا إيفانوفا، لا أحتاج إلى شيء. سأزور المدينة بعد أن أصلي العصر. وسأبحث عن الطبيب. الطعام لاحقاً، لاحقاً. أنا مسلم وشيشاني لا أقرف من رائحة الخنزير ومن منظره ولكن لا آكل منه. والشراكسة مسلمون ولكنهم يروون أنهم كانوا في زمان ما يربون الخنازير ويأكلون لحمها.

لم يستطع النقيب تورناو أن يلبي وعده للمرأة أن يعود من المدينة باكراً. تبيّن في الإدارة العسكرية أن مهمته مختلفة. وأُبلِغ أنه كان عليه قبل ثلاثة أيام، لا قبل يوم، أن يتجه إلى بروجني أوكوب، وأن عليه السفر حالاً، والعربة بانتظاره. وإذا كان زار المدينة على رجليه فالآن وضعته العربة مسرعةً على باب إيفروسيا إيفانوفا التي لم يمهله الوقت أن يناديها بفروسيا.

لم تفهم فروسيا بادئ الأمر كلام حسن بيه، وسألته لا تفهم سبب استعداد المستأجر للرحيل على عجل:

– هل وجدت بيتاً آخر؟

– لا، لا، عليّ الوصول غداً إلى ستافروبول. الدكتور مير سيعالج المرضى عدة أيام هناك، ثم يتوجه إلى سان بطرسبورغ...

– والغرفة؟.. ونقودك؟.. – الآن أفلتَ من فروسيا ما يُقلِقها.

– يمكنك تأجير الغرفة إن لم أعد في غضون ثلاثة أيام تقريباً، ولا تنتظريني في تأجيرها. وما دفعتُ لك حلال عليك.

– ما أسوأ ما حدث، ما كان يجب أن يحدث هذا. – إيفروسيا إيفانوفا واجمة لا تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل. ثم انفجرت باكية وقد تذكرت: – النقود ليست مشكلة، هذه تأتي وتغادر، أنا كنت حضّرتُ لك حساء طيباً... ولا يزال ساخناً. يسرني أن تذوق منها ولو ملعقة. أُعجِب بك الصبي كولكا خلافاً للمستأجرين الآخرِين...

– حياك الله يا إيفروسيا إيفانوفا، العربة تنتظرني.

– ما العمل إذن، وأنت مستعجل... – ودّعت إيفروسيا إيفانوفا المستأجر إلى عربته، وأتبعتْه ملهوفة: – سأنتظرك ليس ثلاثة أيام بل أسبوعاً...

III

تقع قلعة بروجني أوكوب على الضفة اليمنى العالية حين تنحدر بضع فِرسْتات من قرية يرمل حابله حيث يصب نهر وارب الجبلي المتوسط الطول في نهر بشزه. وأمام تلك القلعة سهل لا تحيط به العين. يبدأ السهل طولاً من جهة ستافروبول، ويتجاوز إيكاترينودار ويلتقي بأماكن نمو القصب على ساحل بحر آزوف. وعلى يسار وارب، ابتداء من مركز جبال القفقاس حيث منبع النهر يمر نهر لابا في الأراضي المليئة بالغابات والمرتفعات. ويتوقف على يمين نهر شحَغواشه. وعلى الجانب الآخر غابات الأبزاخ الأزلية الممتدة إلى البحر الأسود.

منظر قلعة بروجني أوكوب مريع. بضعة بيوت متصالبة مسقوفة بالقصب تكاد ترتفع عن سطح الأرض لا تعرف سبب إهمال تطيينها. وهذه البيوت محاطة بأسوار عالية فلا تستطيع الاقتراب منها. وكانت هذه بيوتَ القوزاق حراس القلعة. والخنازير تهيم على الشارع الوحيد. ويُسمع من هنا وهناك صوت الصبيان والصبايا يلعبون. وترعى على جانب الطريق عجول مقيدة وأسراب من الإوزّ. ومن البيت المطل على منعطف الشارع يُسمع صوت امرأة تعنّف زوجها السكران. وترى بالإضافة إلى القوزاق بعض الفرسان الأديغة.

بدا بيت الجنرال زاس وأرضه حين اختفت عربة النقيب تورناو وراء المنعطف.

– ما هذه؟!.. – صرخ النقيب تورناو حين رأى رؤوساً بشرية على أعمدة[1].

---

[1] يكتب ن. ي. لورير الذي شارك في حرب القفقاس: "كان الجنرال زاس أجابني حين صارحتُه باستيائي من ممارساته الحربية فيما أتحدث إليه: " ما تريده روسيا هو الاستيلاء على القفقاس بأي وسيلة. كيف يمكن الانتصار على خصومنا إن لم نُرهبهم؟.. لا يجوز التحلي بأي شفقة في هذا الشأن... استطاع يرمولوف أن يحقق إنجازات أكثر منا بفضل الإعدامات وإحراق القرى... " وتحقيقاً لسياسة الإرهاب التي كان يستغلها زاس علّق رؤوس الشراكسة على مرتفع بروجني أوكوب حيث مقرُّ الجنرال. وكانت الرؤوس معلَّقة دائماً والريح تعبث بلحى أصحابها... ومرة دخلتُ غرفة الجنرال فشممت رائحة كريهة. سحب زاس وهو يضحك صندوقاً كبيراً فيه عدة رؤوس. كانت الرؤوس تنظر إليّ بعيونها الزجاجية على نحو

قال السائس القوزاقي متصنعاً الضحك وقد اعتاد على هذا المنظر:
– هاه! هذه رؤوس شركسية... يرعب بها الجنرال قطاع الطرق القادمين من يسار نهر بشزه. وأحياناً يسرقها الشراكسة فيستعيدونها. الشراكسة قساة ولصوص وقتلة ولكنهم شجعان. مضى على حربنا ضدهم سنوات ولم نستطع اقتحام أرضهم. وإذا دخلت فلن يدَعوك تخرج منها.
قال النقيب لنفسه مخفياً غضبه من الكلمات الأخيرة للسائس القوزاقي الأشقر الملتحي الذي يريد حثّ الأحصنة التي تعبت من المسير: "لا تراجُعَ عما قررتُ مهما تصرف الشراكسة معي. – ولكنه سرعان ما أضاف لنفسه ما لم يعجبه.– لا أوافق على ما يفعل الجنرال زاس برؤوس الشراكسة. ولن تستطيع أن تُرهب بهذه الطريقة من يحمون أُسرَهم وأرضهم وقومهم".
حين بقي النقيب تورناو والجنرال زاس وحدهما في القاعة المزيّنة بالبُسُط الجدارية المزخرفة لام المضيف ضيفه مبتسماً في وجهه:
– جعلتني أنتظرك أسبوعاً كاملاً أيها النقيب. – وأضاف له بالألمانية مسرعاً:
– تفضّل يا بارون حسن بيه الشيشاني. أنت شيشاني ابتداءً من هذا اليوم. لا تعرف الروسية ولا الشركسية ولا الأبخازية، بل لا تعرف لغتك الأم الألمانية.
– ثقْ بي من ناحية اللغات يا سيادتكم. – قال البارون، وبرّأ نفسه من سبب عتاب الجنرال. – أنا وصلتُ إلى بيتاغورسك موفّراً يوماً من موعد وصولي. وكان المقرر أن أقيم فيها شهراً أختلط خلاله بالشراكسة وغيرهم من سكان القفقاس.
– من أين تعرف جماعة روزين وخولكوفسك الذين حبسوا أنفسهم في تفليس ما يجري عندنا، – قال زاس لنفسه راضياً: "هذا الجالس مقابلي يبدو، على حداثة سنه، عنيداً لا يعرف التراجع. هذا ألماني حقيقي" – نحن هنا على لهيب نار الشراكسة...تتغير أوضاعنا، لا كل يوم، بل كل ساعة. وجدت لك ثلاثة أشخاص يوصلونك إلى ساحل البحر الأسود.
– من هم؟ – لم يُطق النقيب تورناو صبراً.

يثير الرعب. وحين سألته: ماذا تفعل بها؟ أجابني: "هذه الرؤوس أطلب من الخدم سلْقَها وتجريدها من اللحم وأرسِلُها إلى أصدقائي في برلين، العاملين في التشريح..." المؤلف.

– أخَوان وصديقٌ لهما. ليسوا شراكسة. هم من النغوي. والثلاثة يعرفون اللغة الشركسية والروسية والأبخازية. ولكن النغوي الجشعين يطلبون الكثير. فإن وثقتَ بهم ووافقتَ فلن تُمسك عنهم شيئاً. ولا تسألني غيرَ هذا! الآن نحن نتغدى ويمكنك أن ترتاح. سيأتون في منتصف الليل.

اضطجع تورناو الذي قضى على الطريق ليلة ونصف نهار قطع خلالها ثلاثمئة فِرسْت[1] بعض الوقت يفكر في رفاق الطريق كيف هم، وهل سيصدُقون معه. وأفاق قبل أقل من ساعة على استغراقه في النوم. وكان لا يزال في جو الأحلام أو ما يشبهها، ويتذكر شيئاً منها ولا يتذكر. سأل تورناو نفسه: "لماذا تدخل في هذه الأحلام فروسيا المرأةُ الصغيرة الممتلئة التي لم أتحدث معها ساعة كاملة؟.." وابتسم لها عن وُدٍّ. "النساء ضعيفات يشتهين ما ليس لهن، ولا يستطعن حماية ما لهنَّ. ولكن لا يجوز وصف فروسيا الأرملة الشابة بهذه الأوصاف..."

تفحّص النقيب وهو في الفراش الغرفة التي يغمرها المساء، ودون أن ينسى أنه "حسن بيه" توجه إلى ماء الحوض ليتوضّأ.وحين أنجز الوضوء مدّ سجادة الصلاة التي يحملها باتجاه القبلة، ثم رسم الصليب مؤكداً إخلاصه لدينه، وبدأ يتمرن على أداء صلاةِ العصر التي فات وقتها، وصلاةِ العشاء التي لم تحن بعد. أدى الصلاة دون أن يفوته أيُّ ركوع أو سجود أو انحناءة وإن لم يتقبلْها في قلبه. وحين انتهى منها فعَلَ كما قبل بدايتها فرسم الصليب من جديد، وتوجه إلى النافذة المفتوحة على أرض الأديغة التي سيدخل إليها بين عشية وضحاها.

الجانب الأيسر من نهر بشزه سواد ممتدّ رغم أن الليلة مقمرة، وعالمٌ آخرُ مخيفٌ. وحين تعتاد العين على الظلام ترى في ذلك السواد أنواراً شبه عمياء تتلامع فيه. ونباح الكلاب يصل ولا يصل. والظلام المتكاثف يزرع الرعب في القلب. "كل مكان لم تكن فيه، لا تعرفه، مخيف دائماً... – قطع صوتُ حوافر الخيل أفكار تورناو، – وصل من ننتظرهم. الثلاثة بوجوه ملتحية وشوارب. من

[1] مقياس روسي قديم يساوي 3500 قدماً.

يتقدمهم، يجب أن يكون أكبرَهم، طويلُ القامة، والاثنان الآخران متساويا الطول..."[1]

ابتعد النقيب عن النافذة بهدوء، وفيما هو يستعد لمقابلة رفاق الطريق أرسل الجنرال وراءه. وقبل أن يخرج من الغرفة ذرع أرضها بضع مرات يفكر في طريقة التعرف على زوار الليل. ولما وصل إلى الباب توقف وخرج وهو يرسم الصليب. ولكن أمور النقيب لم تجرِ كما استعدّ لها، فما إن خرج من الباب حتى بادره الجنرال قبل أن يجد الوقت ليفتح فمه:

– تعرّفوا على حسن بيه الشيشاني. لا اسم آخر له اليوم وغداً. تحادثوا، ومتى اتفقتم انتهت علاقتي بكم. ولكن إن خدعتموني فسأجدكم أينما كنتم. ثم خرج دون كلمة زائدة تاركاً الأربعة وحدهم.

لم يكن تورناو تجاوز السادسة والعشرين ولكنه يتذكر نفسه وقع في مخاطر كثيرة في الحروب. إلا أن جهله بما سيتصرف به هؤلاء الثلاثة الجالسون قريباً جداً منه

---

[1] "حان الوقت فوصل من سيرافقونني، وحين نام كلُّ المقيمين في المنعة ليلاً جاءني الجنرال بالأخوين قَرَمرز، وغازي إمام. فعرّف بعضنا على بعض، وتركّنا نتحدث في المهمة القادمة. وبما أني كنت أعرف ما يريد هؤلاء وسيرتَهم الماضية فلم أجد صعوبة في التصرف: هؤلاء يجب الحديث معهم بصراحة لأن خُبثهم غير مقبول. وعلى عادة الأديغة جلسنا بضع دقائق صامتين، وكلٌّ يدرس نوايا الآخرين. وأنا كنت مشغولاً بدراسة طبيعة كلٍّ منهم. كان مظهر تيمبولات الأخ الأكبر طلقاً: وجهه الشاحب متناسق، ولحيته السوداء جذابة، ويوحي إليك بأنه جدير بالثقة. والأخ الثاني "قَرَمرز باي" لم يكن شبيهاً بالأول: ليس طويل القامة، بل عريضُ المنكبين، كبيرُ العينين الزرقاوين، ولكن نظرته منكسرة، ومظهره يوحي بالخوف. وتكتشف من سحنته خبثه. وغازي إمام كان ذا وجه أحمر سميك، له سحنة منغولية، ويبدو عليه الخبث. ساوموني طويلاً، وتباحثوا في ما بينهم، وعادوا فوافقوا على ما عرضتُ عليهم. كان أمامنا ثلاثة طرق تنطلق من "لينيه" إلى البحر الأسود: الأول يخترق الحاتيقواي والشابسغ، والثاني يخترق الأبزاخ والوبيخ إلى مصبّ نهر شاكه في البحر، والثالث ينطلق من آجِبْسو إلى مِزِمته وآدليه. وتصبح غاغرا قريبة في الجانب الآخر...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

في اجتماع الليلة، وإن لم يكن ساحة حرب، أدعى للخوف من أي معركة خاضها إن اتفق معهم فرافقهم في الطريق الخطير. كان يعرف أنه هو من يجب أن يبدأ الحديث، ولكن عادات الجبليين غيرُ هذه، فقال كبيرهم الجالس في الصدارة، والذي يقارب عمره الخمسين، بما يشبه الروسية، حين لاحظ في النظرات المتبادلة مماطلتهم:

– أنت شيشاني حقيقي يا حسن بيه من مظهرك. والآن سنقدّم أنفسنا لك: أنا اسمي تيمبولات، والجالس قربي هو غازي إمام، والآخر أخي الأصغر باي.

– تنهّد وأكمل: كنا أربعة إخوة...

– نعم، نعم، – نقض غازي إمام الصمت الذي ساد الغرفة فجأة، – هؤلاء آل قَرَمرز كانوا أربعة إخوة... ليفتح الله باب جنته للأخوين اللذين انتقلا إلى جوار ربهما مُكرَهَين... كانا يتحليان بالرجولة والصدق.

انتفض باي الجالس قريباً من الباب بأعلى كتفه، ونظر من تحت جبينه إلى تورناو. ثم توجه بنظرته العدائية إلى أخيه الأكبر بما يعني: ألا ترى الكافر الذي اصطحبتنا إليه. ولما كان تيمبولات يعرف نزق أخيه فقد أتى على سيرة الموضوع الذي جاؤوا من أجله شاهداً على صحة ما قاله غازي إمام:

– حياك الله يا إمام على ذِكرِك أخوينا قِرْمز ومَمّقاي بالخير، ونحن واثقان أنهما من أهل الجنة. والعهد الذي ألزمَنا به المرحوم ممقاي هو ما جاء بنا إلى هنا. نحن ننفذ عهدنا إليه، وغازي إمام شاهِدنا. – تنهد تيمبولات ثانية عميقاً، وانتصب أمام عينيه مقتلُ أخيه على يد الفرسان الكثيرين المغيرين في هدأة الليل، والذين جاء بهم الخائن الذي أرسله الروس. ولم ينس النذر الذي أوصى به: "ما العمل؟ الله وضعنا بيد الروس. قتلوا أخانا الأكبر قرمز بالرصاص، وأنا جلب إليّ الأجل إغراء الذهب. وأنتم ترون بأعينكم، أن نهايتكم ستكون على أيدي هؤلاء. ومن أجل ألا يحدث هذا، ولا تفنى أسرتنا من الوجود، ضعوا كبرياءكم جانباً، وتعايشوا معهم". – هذا ما جرى لنا آل قَرَمرز، ونحن، ومعنا غازي إمام،لم نهجر أرضنا للتسلية فنتحولَ إلى قطاع طرق في أرض الشراكسة الذين من قوم آخرين، متقاسمين معهم مصيبتهم. نسمعك أيها الضابط الروسي حسن بيه.

– الكلمة الأخيرة "الضابط الروسي" لم يكن من الضروري إضافتُها إلى النذر الذي سردْتَه لكسب ثقتي. لست جاهلاً تماماً بما جرى لكم. ولكن، وكما قال لنا الجنرال قائدي، تناسَوا، وأنتم تنفذون وصية أخيكم ممقاي، أني ضابط روسي. نعرف أن الشراكسة يقدّرون رجولتكم، ويحترمونكم، ويعرفونكم في كل مكان، وتحفظون شرفكم في ساحة الحرب. ولكن في هذه المرة، وأنا لا أخفي عنكم، يتوجب عليكم أن تبيعوا شرفكم.

– وكيف؟! – رفع باي الذي كان جالساً كأنه لا يستمع رأسَه الكبير. – لم أفهم.

– صبراً يا باي! نصح تيمبولات أخاه الأصغر لأنه يعرف حميّته. وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟ من الواضح أننا نبيع شرفنا أمام الشراكسة الذين وجدنا ملجأ في أرضهم. ونحن نأمل من الله أن يتفهمنا في هذا الموضوع؛ أليس كذلك يا إمام؟

– طبعاً يا تيمبولات. الشراكسة أثبتوا صحة كلامهم المأثور "ساعِد المضطرَّ ولو كان عدوَّك". نقول لهم شكراً. وإن لم نقل لهم فلن يقبل منا الله الذي يبتهل إليه المسلمون ولا يبتهل إلى أحد صِدْقَنا. – أنهى غازي إمام حديثه وهو يمسح براحتيه وجهه الغليظ بكلمات كاذبة لا يؤمن بها هو نفسُه. – الشكر يا ربي نحن راضون عنك يا إلهي. – مسح الأخوان وجهيهما بالطريقة نفسها.

ابتسم تورناو قائلاً في نفسه: "أأنتم أم نحن أعداء الشراكسة؟ تتضامنون معهم إن كان في التضامن مصلحتكم، وإلا تفرقتم... ومع ذلك علينا التعرف على أرض الشراكسة الذين يقاومونا، فإن أردتم فانظروا إلى الموضوع بغضّ النظر عما إذا كنا مضطرين أم لا، ونحن سنقوم بواجبنا. وكلٌّ يعمل لصالحه. ما أسعى من أجله اليوم ليس مصلحتي الشخصية، ولكن هل يجوز أن تثق بهؤلاء العاملين لمنفعتهم الشخصية وتضع حياتك رهن أيديهم أم لا؟ تيمبولات وغازي إمام طباعهما مقبولة وإن كنت أجهل ما ينويان لي، ولكن ما لا أفهمه هو غِلظة الأخ الأصغر باي وجلافته... قد أكون مخطئاً فليس كلٌّ من يبتسم لك يودُّك، والعبوس كما يقول الجبليون ليس ثوراً عنيداً. هؤلاء تعرف حقيقتهم حين تصبح على الطريق فحسبُ، حين تتشاركون موقفاً صعباً. وإن

خدعوني؟.. الجنرال يعلن ثقته فيهم. يبدو أني متردد في شأنهم... لا يجوز أن تكون هكذا. يجب أن تشعر بالحماسة لأي مهمة. أأطلب منهم القَسَم لأن الشراكسة والجبليين كلمتهم صادقة؟.."

– نسمعك يا حسن بيه. – أخرج تيمبولات بتدخله المفاجئ النقيبَ تورناو من أفكاره. – تُماطلُ في قرارك، ننتظرك.

– ربما لا يثق بنا... – ابتسم باي كما لو ببراءة قلب.

– لا، أيها المحترمون، لم يخطر لي مثلُ هذا. ولكن عندي ما أفكر فيه بعمق لأني أثمّن حياتي وأُخلصُ للمهمة التي كُلِّفْتُ بها. لن أسيء الظن بكم مادام الجنرال واثقاً منكم.

– ونحن لا نأتي إليكم فنشارِكَكم مهمتكم دون ثقة فيكم.– قال تيمبولات وهو يرفع من نبرة صوته. – لِيسمحْ لنا الجنرال زاس بالعودة إلى قريتنا قَرَمرز كما وعدَنا، ولْيُعِدْ إلينا أملاكَنا. فإن نفّذتم لنا هذين المطلبين عاهدْنا الروس على أن نخلص لهم إلى الأبد. ولما كان باي أخي الأصغر فلن يخالفني، ورأينا هو رأي غازي إمام.

– وأنا أشهد على صحة موقف تيمبولات. – وافق غازي إمام بيد يسرى مرفوعة على كلام الأكبر وإن لم يُسأل.

– كل هذا حسنٌ. حياكم الله، فهمتُ. ولكني أريد أيضاً عهداً آخر منكم.– كشف النقيب تورناو عن سرّه. – أريدكم أن تقسموا باسم المرحوم أخيكم الأكبر.

امتُقِع الأخوان قَرَمرز مما سمعا. وارتجف جفنا تيمبولات المغمضان. ونظر باي إلى أخيه بعينيه المعكرتين. ثم نظر بطرف عينه إلى تورناو، ورفع طرف كتفه كعادته حين يمتعض من موقف ما، واستدار بكامل ظهره نحو صورة الإله المعلقة على الجدار. وألقى غازي إمام المتينُ الضامر نظرة تساؤل على الثلاثة الجالسين مقابله. ولم يبق في الغرفة إلا هسيس الشموع. كان قلب النقيب يغلي وإن بدا مرتاحاً من جِلسته. وبعدما طال القلق بعض الوقت في الغرفة نهض تيمبولات، وقال متصبّراً:

– أفهم أنك لن تسلِّمنا روحك دون قسَمٍ. ورغم أنه يصعب عليّ أن أقسم باسم أخويّ اللذين سقطا في القتال ضد الروس الذين يسلبوننا أرضنا فإني أعاهدك على أن نحميك كما نحمي أنفسنا لأن الله كتب علينا هذا. والموتُ لي إن لم أبرَّ بقسمي!

– وماذا سيقول باي؟

– باي أخي الأصغر، وقسَمي قسَمُه.

– أعرف أن تقاليد الشراكسة تمنع الأصغر من نقْضِ عهد الأكبر. ولكني أريد أن أسمع عهده بأذني وتسمعوه أنتم أيضاً.

– نحن لسنا شراكسة... – نهض باي مغمغماً.

– ما هذا الكلام يا باي، أُسكتْ! – لم يوافقه أخوه.

– سامحني يا أخي الكبير، أفلتَ مني ما في قلبي. عهْدُ تيمبولات عهدي. أقول هذا لا أمام أخي الوحيد الباقي لي بل أمام غازي إمام أيضاً. ولكن ليتعهد أيضاً هذا الذي يريد أن يستفيد من خدمتنا. إذ كيف لي أن أعرف ما سيتصرف به معنا متى نفّذنا له طلبه! هل أنا مخطئ أيها الضابط الروسي؟ نعم، نعم – حين بدا على وجه النقيب انزعاجُه من تعبير "الضابط الروسي" غيّر بيه كلامه دون أي رغبة، – قررنا ألا نستعمل هذا التعبير، ولكن هل قلتُ ما لا يجوز يا حسن بيه؟

– لا، لم تقل. وعلى هذا يشهد أخوك الأكبر تيمبولات وغازي إمام. وأنا أرسم الصليب أمام صورة الإله تلك متعهداً بتنفيذ ما طلبتم باسم مسيحيتي، وبشرفي كضابط.

حين دخل إلى الغرفة الجنرال زاس الذي لم يودع الضيوف وقف إلى جانب النافذة وضحك وهو يفتحها. وقال لمن وراءه:

– المهم يا فيدور فيدوروفيتش الطيب أن يكون ضيوفك غادروا دون أن يسببوا لك الإغماء. هؤلاء النغوي تفوح منهم رائحة قوية ما.

– أنا لم ألاحظ عليهم مثل هذا يا غريغوري كريستوفوروفيتش. ولكننا تبادلنا عهداً صادقاً.

– أعرف هذا. لا تستغرب أيها النقيب. هل تظن أني تركتك وحدك مع هؤلاء الباحثين عن منفعتهم ونمت؟! وهل عجيب إن كان بيتي الذي في القلعة قلعتكم. لا يجوز أن تثق بهم وإن عاهدوك وعاهدْتهم. ولكن الحق أني راضٍ عن الأخوين قَرَمِرز. ولا أظن الإمام رجلاً سيئاً. ولكنهم يبالغون في جشعهم.

– ومع ذلك يا سيادتكم، – نهض النقيب شاهداً على احترامه للضابط الذي يعلوه كثيراً في الرتبة، مخفياً عدم رضاه، – لا بد أن ننفذ التزامنا.

– اجلس أيها النقيب.لِنكنْ واثقين بأنفسنا من هذه الناحية، دون أن يعني هذا اتخاذهم موضع ثقة. ومع ذلك لا أشك أن الطامعين في المال سيحمونك.

– وأنا ما كنتُ عاهدتهم لو لم أكن واثقاً في من سيعرّفونني أرض الشراكسة. ولكن هؤلاء لا يطالبون بمُلْكٍ لم يُسلب منهم بالقوة.

– وأنا كنت أعرف هذا من الإخوة قَرَمِرز فأبقيتهم تحت رعايتي. ونحن مدينون لغازي إمام كالأخوين قَرَمِرز، لم نكن أحسنّا التصرف معه. ولكن ما مضى مضى فلا فائدة من الكلام في الموضوع. الأهم من كل ما عداه الآن هو ما كلّفَنا به قادتُنا. استرحْ حتى الظهر يا حسن بيه. ثم أُطلِعك على قراري.

غير أن الجنرال أخفى عن النغوي وعن النقيب مفاوضاتِه مع الأميرين حَمْزِقوه وتامبي، وقبولهم بادئ الأمر ثم تراجُعَهم.

IV

تبيّن أن النقيب تورناو يعرف نوايا الجنرال.

– وهل تعرف هذه أيضاً؟ – سأل الجنرال ضيفه مستغرباً.– يبدو أن النغوي رووا لك اتفاقي معهم دون أن يُسقِطوا كلمة منه.عجيب، عجيب، يسرّني أنهم تبيّنوا عن ذكاء ونشاط. لو لم يكن تيمبولات وغازي إمام من هذا النوع لما استطاعا تطويع قطاع الطرق الشراكسة الأبزاخ.

– وباي العبوس المتكتم ليس مجنوناً.

– أنانيّ أكثر مما ينبغي. – جزم زاس، وأضاف بسرعة.– هذا إنسان مهووس بالثأر لأخويه، احذر منه!

– وكيف وثقتَ بمثله؟

قال الجنرال يضحك عن خبث:

– أعرف إن كنت أذكى ممن رهنت حياتك بأيديهم.
– ربما أخطئ، ولكن وثقت به آخذاً بالاعتبار أنه لن يخالف أخاه الأكبر تيمبولات.
– لستَ مخطئاً يا بارون في استنتاجَيك الأول والثاني. هل تعرف أصل آل قَرَمرز؟ إن كنت لا تعرف، – ابتسم زاس من أعماقه، أظنني سأسدي لك معروفاً بهذا. أنت وأنا لا نثمّن كوننا من أصل ألماني، ولكن هؤلاء يعدّون أنفسهم أحفاد ابنة ابنة جنكيز خان. ويعتدّون بهذا النسب. يتعالَون علينا وعلى الشراكسة دون أن يُفصِحوا.
– الآن فهمتُ لماذا انتفض باي حين رويت لهم علاقات الاحترام بين الكبار والصغار لدى الشراكسة، قائلاً باستياء "نحن لسنا شراكسة!". – ابتسم البارون تورناو من بين لحيته وشاربيه السود. وأنهى بمديح غير مقصود للأديغة الذين سيخالطهم سراً، – والشراكسة عِرقٌ بشري عجيب. ولو لم يكن عندهم إلا شِرعة الأديغة الشفهية...
– إن كان هذا رأيَك في الشراكسة أيها النقيب أطلعتُك على معلومة لا تعرفها بعدُ. كنت أفكّر قبل أن أتكلم إلى النغوي آل قَرَمرز في اثنين من قطاع الطرق الشراكسة القبرتاي، اللذين ليسا من هنا. وهذان ما كانا ليعصيا لي أمراً لأنهما يحاولان أيضاً استرجاع أملاكهما. ولكني وضعتُ في الاعتبار أن النغوي سيحرصون على حياتك أكثر من الشراكسة. لو كان العالَمُ مُرَكَّباً كما نريد...
– تنهد الجنرال وأضاف: – وهذان اللصان اللذان آتي على ذِكرِهما لا أخفيهما. من يعرف؛ قد نحتاجهما يوماً ما. ولكن يسرّني احترامك للشراكسة دون اعتبار لسلوكي معهم، واطّلاعك على عادات القوم الذين يرسلونك إليهم... – سوّغ زاس القسوة التي يعامل بها الشراكسة وهو يجيب على ما قيل له وقد بدا عليه ارتياحه واستياؤه.– نحن، كما قال ألكسي بيتروفيتش يرمولوف الذي نشأتُ في جيشه، عسكريون، نذهب إلى حيث يأمروننا، نقف في وجه الشراكسة الذين صارت أرضهم بيدنا. حين يهاجموننا لا نقصِّر في القسوة معهم. وهم يعاملوننا بالمثل... أظننا أنت وأنا أيها الرجل الطيب خرجنا قليلاً عن موضوعنا الذي اطَّلع عليه القيصر.ما شأننا نحن بما جرى للنغوي

والشيشان والشراكسة، ومَن أيضاً: الأبخاز؟ كلُّ من يعادينا، كائناً من كان، عدوّ لنا. والأفضل من كل هذا مناقشة وضع الطريق الذي قررتموه إلى البحر الأسود من بين الطرق الثلاثة. أيّ طريق اخترتم من بينها؟

– اعتبر رفاقي يا سموكم أن الطرق الثلاثة ممكنة. ولكني أظن الطريق الخارج من الأبزاخ إلى شرق الأبخاز يعجب قَرَمرز الأكبر.

– هل تعرف سبب اختيار قَرَمرز تيمبولات هذا الطريق؟

– أعرف يا سموّكم. قرمرز تيمبولات ربيب مَرشان مَفَدِق. وأنا يناسبني هذا الطريق فقد تعرّفت على الجهة الغربية من الأبخاز، ورتّبت ما رأيت من أماكنَ كتابةً، وأرسلت تقريري إلى سان بطرس بورغ. ولو اختبرتُ الطرق الأخرى المؤدية من أرض الشركس إلى شرق الأبخاز، ولاسيما المؤدية إلى الساحل، لأفادنا جداً...

قطعت الفتاة التي فتحت الباب فجأة إلى الغرفة أفكار النقيب تورناو. ولم يكتف بقطع الحديث بل نهض لأجلها مع شارات الاحترام.

– سامحني يا بابا، ظننتك وحدك. توقفت على الباب فتاة الثانية والعشرين، الممشوقةُ القوام، الصبوحُ، وحيّت بصوت حبيب خجول.

– تعالي يا ابنتي، يا روحي الوحيدة. هذا هو النقيب تورناو، ونحن من أصل واحد. وهو من بارونات الأساقفة الألمان. يأتي من تفليس إلى بطرسبورغ. وهذه ابنتي ليزا.

قالت ليزا حين قرع المنبه الكبير المثبت على الجدار وكأنها كانت تنتظره:

– الساعة الآن الثانية، حان وقت الغداء.

– هل ترى يا بارون نظام أسرتنا الدقيق في ألمانيّته؟ – ابتسم زاس لابنته دون انتظار الجواب: – نحن قادمان حالاً يا ليزونكا.

V

اتخذ الجنرال والنقيب في اليوم التالي الطريق إلى بيتاغورسك مع شروق الشمس. كان الجنرال ماضياً لملاقاة قائد فرقته الذي يُمضي استراحة فيها. وكان على النقيب تورناو أن يلاقي في قرية بارسكوفسك القوزاقية غازي إمام الذي يجب أن يعبر به نهر بشزه.

كانت العربة المحروسة من الأمام والخلف بالقوزاق المسلحين تترك وراءها قرية يرمل حابله المتناثرة على يسار نهر وارب حين بدأت الشمس تطلّ من المرتفع الذي يتباعد فاتحاً الطريق إلى ستافروبول. والإقليم الذي يصحو من ليله هادئ حتى لَيخيَّلُ إليك أنه لم يبق في العالم إلا قرقعة عجلات العربة ووقْعُ حوافر خيول الحراس. ومراصد القوزاق على الضفة بين الواحد والآخر قرابة عشرين فِرسْتاً. ويبدو على مسافة أقرب أو أبعد في تلك الناحية جنود الاستطلاع القوزاق. كل الاتجاهات آمنة إلا أن يوحي لك شروقُ الشمسِ الصامتُ بالرهبة.

–كانت الطبيعة هادئة أول من أمس وأنا قادم إليك كما اليوم.– قال تورناو الذي ملّ من تسريح النظر هنا وهناك. – وقلبي يحدّثني أن نهارنا أيضاً سيكون هادئاً.

– حسنٌ يا بارون أنَّ قلبك لا يخدعك، غير أن تهدئة قُطّاع الطرق الشراكسةِ تحتاج إلى جهد كبير. أقول شكراً للقوزاق الذين يحرسون الهدوء والأمان على الضفة اليسرى لنهر بشزه. ولكن أقول لك الواقع إن أردت الحقيقة: اختبرت هذا الهدوء الخادع فوجدته قد يأتيك بما يقلقك. لا أقصد تخويفك بل أريد أن تنتبه إلى نفسك على طريق الشراكسة.

– حياك الله يا جنرال على لهفتك عليّ، لن أنسى كلماتك التي تحمل المعروف لي. لا أعرف مهمة تُنفَّذ في القفقاس دون أن يرافقها الخوف والأمل. فكرت في كثير من الأمور قبل أن أوافق على هذه المهمة. ولم أستبعد ما يمكن أن يحدث لشخصي. أثق بقدرتي على تنفيذ ما أنيط بي على قدر طاقتي، وإن لم تكن طاقتي كافية أن أجعلها كذلك، اللهم إلا إن داخلتْها خيانة ما. ولما كانت الخطوة الأولى انطلقت من عندك فثق بي.

– أنا مطمئن من جهتك يا بارون. – أجاب الجنرال بسرعة، وأضاف ضاحكاً: – وثقت بك منذ لقائنا الأول من النظرة الأولى، ومن الكلمات الأولى بيننا، وإن لم أكن قادراً على التفاهم مع أيٍّ كان. لا أعرف السبب، فإن كنت تعرف فأخبرني.

– أقدّر ثقتكم يا سموّكم. ولكني لا أستغرب سرعة الثقة بيننا. أنت وأنا ننفذ مهمة واحدة، كلٌّ حسب موقعه. نحاول كلانا تنفيذ المهمة التي أُنيطت بنا في تفليس وسان بطرس بورغ. ولكن ليس هذا كلَّ شيء.

الكلمات الأخيرة للنقيب جعلت الجنرال ينتفض برأسه:

– ماذا بإمكانك يا بارون أن تضيف أيضاً إلى كلماتك المؤثّرة التي تملؤك اقتناعاً؟

– ألا يمكن أن يضاف إليها انتماؤنا إلى عرق واحد؟

– هذا ما تريد قوله؟.. أفحمتني، أفحمتني. أسمعُ مثل هذا الكلام لأول مرة في الجيش الذي كرّستُ له حياتي. أين يحدث هذا؟ في القفقاس. يسرني ما سمعتُ.لم أنسَ هذا طوال عمري، وأطلعْتُ الشراكسة عليه، وأريّ أسرتي على هَدْيِه. ولكنك أثَرتْ فكرة في نفسي فأكشفُها لك: كلانا لا نتناسى أننا من أصل ألماني. ونحارب الشراكسة بعيدَين عن موطننا، ونتكلم فيه، نعتدّ بعاداتنا وطبائعنا، ونحميها. ولكننا نستغرب أن يحاربنا الشراكسة الذين يحمون أنفسهم، ولا نقبل منهم هذا الدفاع عن حريتهم... ولا تظن يا بارون أن لي قلبين وأني منحاز إلى من لا يصالحوننا.

– لا آخذ عنك مثل هذا الانطباع يا سيادتكم،– قال النقيب والأعمدةُ التي عُلِّقت عليها رؤوس الشراكسة تنتصب أمام عينيه، – رجولتك الحربية صلبة، يمتدحونك ويرهبونك.

– إن أردت الحقيقة أيها النقيب فالشراكسة الذين ستخالطهم يكرهونني حتى العظم. – قال الجنرال زاس وضحك من كلامه، – أضِفْ هذا إلى ما سردتَ لي. هذه مجرد مزحة، ولكن أشكرك على عدم نسيانك روحك الألمانية.– وبعد قليل فاجأه وهو يعبر بعينيه نهر بشزه: – ومع ذلك لي عتبٌ عليك يا بارون.

– لا أتذكر يا سموكم أني ارتكبت خطأً في اليومين أو الثلاثة التي تعارفنا فيها. قل لي؛ فإن كنت مذنباً استدركت ذنبي.

– ومتى ستستدركه بعدما حدث ما حدث؟ هل بعد أن تعود من شركيسيا؟ متى سيحدث هذا؟

– لم أفهم ما تريد أن تقوله يا سموّكم، – قال تورناو حذِراً.

– فكّرْ أيها النقيب، تُفني نفسك في ما لا تعرف أنك فعلته... – توقف زاس قليلاً وأكمل، – ثم إنك تمتدح الألمان قائلاً إنهم أناس طيبون صادقون، وأصدقاء مخلصون، يحمون عِرقهم، وفهمُهم واسع... ومع ذلك لم تلتفت إلى ليزونكا التي كانت ترقبك من النافذة.

– هذا ما تريد قوله يا سموَّكم، غريغوري كريستوفوروفيتش؟ – عاد الدم الذي كان هارباً إلى وجه تورناو، واستدرك وكونُه ألمانياً واضحٌ عليه: – ودّعنا بعضنا أنا وإليزابيتا غريغوريفنا. وقررنا أن نتراسل، ونتعارف على نحو أفضل إن عدتُ من حيث أسافر. ليزا فتاة عاقلة. قرأتْ كثيراً من الكتب. تحب أشعار بوشكين، وتحفظها عن ظهر قلب.

– يبدو يا بارون أني انتزعتُ من فمك ما كنتُ أريد أن تقوله. – مرة أخرى ضحك الجنرال زاس.– لم أكن أعرف ما تقوله، حسنٌ أنكما جلستما معاً العشية، أنتما الألمانيان. ولكن أيها النقيب الركن، – قال ناسياً أن من يأتي على سيرتها ويُثني عليها هي ابنته، كاشفاً بهذا عن ألمانيته، – لا أظن الشباب يسمحون لليوزنكا أن تبقى عازبة بانتظار عودتك من شركيسيا. القوزاق يحومون حولها، وبعض الأمراء الشراكسة الذين صالحونا يصارحونني بأن عندي ابنة جميلة ليتها كانت مسلمة لدفعوا من أجلها مهراً غالياً.

تظاهر النقيب بالضحك ولكنه لمح قائلاً:

– ألا يهددونك باختطافها يا سيادتكم؟

– وصلني شيء من هذا أيضاً. من أين تعرف؟ ارتعب الجنرال.

– وهل بقي الآن سرٌّ!.. سمعتُ في تفليس.

– بعض الديسمبريين[1] الذين هاجموا القيصر من سيبريا من أمثال الكاتب فيستوجيف – مارلينسك الذين جيء بهم من سيبريا ونشروهم في القفقاس

[1] هم مجموعة من النبلاء والضباط ذوي الميول الإصلاحية انتفضوا على القيصر نيقولاي الأول في 14 ديسمبر / كانون الأول عام 1825، ومن هنا التصق بهم اسم الديسمبريين، احتجاجاً على تولّي نيقولاي الأول العرش، وحرّكوا قرابة 3000 جندي إلى ساحة مجلس الشيوخ في العاصمة القيصرية سان بطرسبورغ. ولكن الانتفاضة قُمعت، وأعدم بعض

أشاعوا عنا، ليس هنا فحسبُ بل في روسيا كلها، أننا نظلم الشراكسة. وهل لورير الذي يدعي أنه صديقي أحسنُ منهم؟ أقول هذا ولكن ما الذي يجعله صديقاً لي؟ يورطني في مشكلات في طريقه من وإلى سان بطرسبورغ بحجة أنه صديقي... ومع أنه يحارب هؤلاء فإنه ليس راضياً عن رؤوس الشراكسة عندي... – غضب الجنرال فجأة بينه وبين نفسه فيما يروي هو هذه الأخبار والنقيب ينصت:– لا يجوز أن تثق بالشراكسةِ الجبليين المتمردين. هؤلاء يستحقون، لا أن تشنقهم فحسبُ، بل أن تطهّر القفقاس منهم! – ثم اختتم بصوت شفيق: – الجنرال يرمولوف قاهرُ نابليون أُستُبعد من هؤلاء الديسمبريين ومن الشراكسة، وأُخلِد إلى الاستراحة.

– الجنرال يرمولوف، ومعه الجنرال كاسيريف، مارسا الظلم على القبرتاي الشراكسة يا سيادتكم!

– ظلموهم لأنهم يستحقون، لأنهم رفضوا مصالحتنا! – انفجر زاس غضباً من الكلام الذي لم يُرضه. وردّ على جليسه دون أن ينظر في وجهه: – ليست ساحة الحرب كما تتخيلها أنت يا بارون. العدوّ عدوٌّ في كل زمان، لا يشفق عليك: إما أن تقتله وإما أن يقتلك. الحق يا بارون أستمع إليك فأجدك تقف مع الشراكسة ومع الديسمبريين. أتكون تؤيدهم؟

– أنا يا سيادتكم أخدم روسيا بلادي وقيصري المنير. وأنا مخلص لهما، – حسم النقيب تورناو النقاش.

– أنا أصدِّق هذا يا بارون، – قال زاس الآن بصوت ألطف، – يقال إن الديسمبريين مخلصون لبلادهم ويخدمونها بصدق ولو أنهم يعادون القيصر. ولكن هؤلاء يقدّرون الشراكسة بما لا يستحقون. الحق يقال يا بارون يحدث كثيراً أن نسيء معاملة الشراكسة الجبليين. وتبدأ محاولات تمردهم مع مثل هذه التصرفات من قِبَلِنا. ومثل هذه الممارسات هي السبب في تحوُّل الأخوين قَرَمرز وغازي إمام إلى التمرد. قرية قَرَمْزايَه التي سنتجاوزها عن يميننا كانت قرية النغوي الذين سيرافقونك. ويمكنني أن أروي لك ما جرى للأخوَين النغوي حتى تحولا

زعمائها، ونُفي غيرهم. على أنها أثّرت إيجابياً على الوضع في روسيا، كتحرير الأقنان عام 1861. وتكلم عليها الأدباء مثل تولستوي في روايته الشهيرة "الحرب والسلم".

إلى التشرُّد لأن أمامنا وقتاً طويلاً للوصول إلى قريةِ بارسْكوفسكا، مكانِ افتراقنا. ربما يقرّب الخبر الظالم قلب أحدكم إلى الآخر. وهذا هو السبب في رعايتي لهما. الأفضل أن تكون عادلاً أحياناً، – ابتسم الجنرال زاس كمن يحاول تبرئة نفسه، – من أن تكون ظالماً.

– العدالة فوق كل شيء، – قال النقيب كأنه هو مصدر العدالة.

– إن كنتَ قادراً على هذا يا بارون... ألم تسمع أن الخير يجلب معه مأساة؟ – أضاف الجنرال إلى الحكاية التي كان يريد أن يرويها.– الإخوة قِرمز وممَقاي وتيمبولات وباي وُلِدوا في قرية قَرَمْزَيَه الواقعة على ضفة النهر، وكانت القرية مكان إقامتهم ومورد عيشهم،ويملكون الأُسر التي تعيش فيها، وكثيراً من الأرض، ويربّون في تخوم القرية مئات من رؤوس الماشية. ويعيشون مكتفين، محافظين على عادات النغوي وتقاليدهم. ولم يكونوا يسرقون من الأديغة الذين دخلوا أرضهم. وباختصار لم يكن النغوي، أخلاف جنكيز خان الذي كان ينوي احتلال العالم كله من الشرق والغرب، ضيوفاً في غير أرضهم، ولا كانوا مُضيفين. غير أن الاتفاق الذي عقدوه مع الشركس كان يقيدهم. ومع ذلك يتعايشون بسلام إذ ليس هناك ما يتنازعونه دون استبعاد أن يحدث بينهم أحياناً نوع من الخصام. ولم يكن أحد الطرفين ينظر إلى الطرف الآخر بصفته عدواً وإن كانت علاقاتهم محدودة. حين يكون عددك أقل من أصحاب الأرض التي وجدت نفسك فيها فإنك تتعلم لغتهم، وتتخلق ببعض أخلاقهم. ومتى جمعكما دين واحد قويت العلاقة بينكما، وزاد الاختلاط.

فيما يعيش النغوي الذين وجدوا أنفسهم في شمال القفقاس على هذا النحو وجد الأديغة والنغوي والأباظة والقرشاي معاً أنفسهم في الحرب الدامية الآتية من الشمال، والتي كان لتركيا يدٌ فيها. الصدقُ لا يسمح لك بالكذب، فمن صالح الروس والقوزاق قبل غيرهم هم النغوي. وكان من بين هؤلاء أسرة قرمرز.

لا تستطيع التكهن بمصدر المأساة ولا بسببها. في أحد الأيام حلّت مصيبة مفاجئة بالإخوة قَرَمرز. أوقَف الإخوة عند قرية قرمزايه طاحونةَ الماء التي كان يجرفها نهر بشزه الفائض. فلما عرفوا أن صاحبها هو أتامان[1] قرية نيفينّوميسك

[1] حاكم محلي عند القوزاق.

العمالية أعادوها إليه، ولكنهم كوفئوا بالشر بدلاً من الخير: ادّعى الأتامان أن الإخوة سرقوا القطع الحديدية من الطاحونة فأحالهم إلى المحكمة. ولم يقبل الإخوة الحكم الذي أصدرته المحكمة لمصلحة الأتامان. وبعد محاكمة طويلة عرف الإخوة أنهم سيُسجنون فالتجؤوا إلى الشراكسة. وتحولوا هناك إلى قطاع طرق قساة. وقد تسببوا لنا بالضرر أحياناً كثيرة. والآن توسلوا إلينا عارضين مساعدتهم لنا مقابل مساعدتنا لهم. أنا عملتُ ما عليّ إن كنتم تستطيعون أنتم الاتفاق... – أنهى الجنرال كلامه دون حزم.

– ما سمعته ليس حكايةً طيبة أيها الجنرال. ولكن يمكنك الوثوق بأمثال هؤلاء. ولا أظن غازي إمام ارتحل من تلقاء نفسه.

– وحكاية غازي إمام لا تختلف كثيراً عن حكاية الإخوة. هو ضحية الوشايات التي بين الناس منذ الأزل. لم نتسبب له نحن بالضرر. وسأروي لك باختصار خبر نكبته على يد أحد أبناء قومه الذي كان يحسده: كان قد وشى به فسُجن بحجة أنه سيساعد قطاع الطرق الشراكسة حين يزور غازي إمام أهله الذين يعيشون على يسار نهر بشزه. ولكنه هرب من السجن.

– وهذه رجولة. – قال النقيب تورناو وهو يتفكّر في ما سمعه. واختتم سريعاً برأيه هو. – حقاً، تسببنا له أيضاً بالأذى.

"هذا البارون ابن قومي الذي أمتدحُه إنسان عجيب"،– ما سمعه الجنرال جعله يفكر، – إن لم يتبيَّن عما أتأمّلُ منه؟ في هذه الحالة أنا مَن سيحمِّله ضباطُ تفليس المسؤولية... وبغضِّ النظر عن هذا يسمونني "الجنرال الذي يركب حصاناً عنيداً" لأني أقود جيشاً من الفرسان. وقد أرسلوني إلى أشق المواقع لأُجابه الشراكسة. وهذا الرجل الذي نرسله جاسوساً إليهم يبرّئهم... ماذا يريد أن يُفهِمني بقوله "وهذه رجولة" و"تسبّبنا له بالأذى "؟.. "

– لا تصدع رأسك دون جدوى يا سموكم بما تفكر فيه، – قاطع النقيب تورناو أفكار الجنرال، – لا تظن أني أنقض وعدي إذ أتحدث عن العدالة.

– وكيف لك أيها النقيب أن تعرف ما يصدع رأسي؟!.– احتدّ الجنرال زاس ولكنه تراجع سريعاً: – هل تقصد عدالتك وصدقك؟ هذان يمكنك أن تعلِّق عليهما بالكثير. غير أنهما يتعلقان بالقائل وبالسياق الذي يقال فيه. من

الصعب تطبيقهما على العلاقة بين الشخصين أو الدولتين المتجابهتين. المنتصر هو صاحب الحق. أعرف ماذا ستقول، وأنا لا أَعدَمُ رأياً في الموضوع. على أننا كلينا عسكريان ننفذ ما نؤمر به. والتاريخ هو من يحكم على صحة ما فعلنا. لماذا، حسب قولك، نهتم بما ليس من شأننا؟ انظر إلى هذا الصقر كيف يستعد للانقضاض! مرة يسبح في الفضاء بجناحين مفتوحين، وأحياناً ينقض بجناحين مضمومين؛ ألا يذكِّرك هذا بشيء يا بارون؟

– نعم يا سموكم!

– قُلْه، قله، – لم ينتظر الجنرال جواب النقيب، – هل ما تريد قوله هو تشبُّهُ الشراكسة بالطيور البرية؟

– ذكّرتني يا غريغوري كريستوفوروفيتش، في شأن تشبُّهِ الشراكسة بالطيور، بما قاله أحد الفرسان للجنرال روزين، – يجيب الآن تورناو بلهجة ألطف.

– لا يستغربِ الجنرال روزين إن قالوا له مرة هذا الكلام. وأنت أيضاً. أنا هنا أسمعه كل يوم. أعرف عجوزاً شركسياً لا هو صديق ولا عدوّ اسمه نَقّار... وربما هو من حدّث روزين. إنسان عجيب مخادع، ولكنه صادق. يبيعك غير أنه يعود فيشتريك إن كان محتاجاً إليك. ولا تسألْ عن رجولته! – يخوض النار ويخرج منها. ويحب أرامل القوزاق وإن كان لا يحب الروس... – التفت الجنرال بسبب ضجيج الحراس القوزاق خلف العربة. وتعرّف ثالثَ الفرسان الثلاثة المسرعين من بعيد. – لا خطر، هو نَقّار الذي كنت أروي سيرته. لا أعرف من أين يدري أني مسافر فلا يفوّت الفرصة لمتابعتي... استرْ وجهك يا بارون بأي شيء وتظاهرْ بالنوم!

– مع السلامة يا زاسّ،– قال له الرجل الأسمر النحيف الذي صار إلى جانب العربة. – لن نوقظ صديقك النائم. وإن تذكّرني الجنرال الذي تسافر إليه فبلّغْه تحياتي.

– حياك الله، إن لم يكن لك معي حاجة أخرى فسأبلّغ سلامك. هو يأتي على ذِكرك دائماً.

– يشبّهني بهذا الصقر الطليق؛ أليس كذلك؟.. حسنٌ ألا ينساني. ولكن اعلموا أنكم ستندمون إذا عبرتم نهر بشزه. هيا يا أسلانبج إن ودّعتم هؤلاء

فلنتابع طريقنا نحن أيضاً. سأزورك في مساءٍ ما يا جنرال. – ثم التفت إليه وأضاف: – متى نزعتَ رؤوس الأديغة من أمام دارك!

VI

انتظر النقيبُ تورناو غازيَ إمام حتى موعد العَشاء في المضافة بقرية بارسكوفسك متوقعاً وصوله في أي لحظة. ولم يُغمض له جفنٌ إلى منتصف الليل وهو نُهبة للوساوس. وبعد قرابة الساعة أيقظ الرعدُ والمطر العنيف المرافق له النقيبَ. وحين حدّث نفسه بأن إمام لن يستطيع القدوم في هذا الجو الماطر أجفله صوت قرعٍ على الباب، فهُرع حافياً إليه، وسأل[1]:

---

[1] "خرجت من بروجني أوكوب برفقة الجنرال، وركبنا الطريق. ولما وصلْنا إلى قرية بارسكوفسك في وقفتنا الثالثة تركني الجنرال زاس هناك وتابع طريقه. وكان يُخبر من يصادفهم أنه تركني في مشفى بروجني أوكوب. كنا نتأمل بهذا الأسلوب أن نموّه على الناس الذين قد ينتظرونني فأتوغلَ في عمق الجبال دون أن يشعروا بي. التقيت بغازي إمام في بارسوك، وعبرنا نهر بشزه تحت ستار الليل الممطر المظلم. ولما قطعنا عشرة فرسخات تقريباً وجدْنا الأخوين تيمبولات وباي ينتظراننا في وهدة عميقة. كنتُ ارتديت عمامة حجاج كي لا يتعرّفني الشراكسة. وغيروا لي لباسي وحصاني وسرجه. كان أصعبُ ما عليّ هو اجتياز السهل المستوي بين نهر بشزه وتخم الجبل. كنا ننهب طريقنا مغطين وجوهنا بأغطية الرؤوس كما يفعل قطاع الطرق. وفي المساء هطل مطر غزير. ثم توقفنا في الغابة بعد مسير أربع عشرة ساعة دون استراحة. وأصبحنا ولا شيء جافاً على أجسادنا، والجوع يهدّنا. خرجنا من الغابة واجتزنا نهر وارب. مشينا باتجاه قرى البسلني الواقعة على نهر لابا الكبير. والبسلني شراكسة – أديغة. يعيشون منذ الأزل على أرضهم. وقد استسلموا للروس منذ سنة. ولا يمكن أن تحسدهم على حالهم: كانوا يؤكدون عليهم من جهةٍ أن يُثبتوا إخلاصهم لروسيا، ولم ينسجم هذا مع حياتهم التي اعتادوها ومصالحهم. ومن جهةٍ أخرى كان الأبزاخُ، وأعداؤهم الميدوفيه (يعني العسل. وهو جبل غرب نالشيك قريب من شركيسيا. وورد الاسم في مدخل فيفيان المترجم الفرنسي ليوميات جيمس بيل الذي أقام في القفقاس أكثر من سنتين في زمن تورناو نفسه بين القبائل أو الأعراق الرئيسة في القفقاس ويقول إنهم مشتتون في مآوي الصخور إلى الشرق من الوبيخ. المترجم) والوبيخ ينهبونهم في ظل عداء الأبزاخ لهم. لم يكونوا يغفرون لهم مصالحتهم لنا. كانت سمعة أمراء البسلني قانَقوه وشَلَخُ ذائعة كأبطال. ولكن وُقوعهم بين الروس والأديغة الآخرين أفقد الأمراء فائدتهم. اقتربنا بعد مسير ثلاثة أيام بلياليها من قرية " شَجْراي " التي كان يعيش فيها تيمبولات. كنا نتوقف في النهار في أماكن

– من هذا؟
– أنا، – سُمع صوت إمام، – وعرّض به الداخل والماءُ يقطر منه: – ألستَ جاهزاً إلى الآن يا حسن بيه؟
– انتظرتك يا إمام منذ بعد الظهر. من عرف أنك ستظهر في هذا الجو الرديء... حالاً.
– ما العمل يا حسن بيه؟ عالَمُنا هو عالم قُطاع الطرق الذي أُجبِرنا على ولوجه. أنت لا تعرف ولكن الله قدّر لنا ليلة مناسبة جداً حيث القوزاق مشغولون يمكن مخادعتهم.
اقترب الفارسان المتخفيان مخترقَين المطر الذي لا ينقطع. وقال غازي إمام الذي لم ينبس ببنت شفة إلى وقتها:
– أراقبك يا حسن بيه فأراك ماهراً في ركوب الحصان كأنك فارسٌ من أول عمرك.
– يسرني هذا يا إمام، هل كانت نظرتك إليّ مختلفة؟
– خفت عليك من الحصان لأنك لستَ قوزاقياً، ثم إن زاس كان أخبرنا أنك مدفعيّ.

عارية من الشجر كي لا يداهمنا أحد. وفي الليل نستريح في الغابة دون إشعال النار، ودون أن نرفع السروج عن أحصنتنا، والأسلحة جاهزة في أي وقت. اصطدمنا مرة ونحن نعبر نهر لابا بحوالي خمسين فارساً يقودهم أميران. امتُقِع غازي حين رأى الأميرين، وأمرني أن أبحث عن مخبأ على جانب من الطريق ريثما يجد تيمبولات ما يحدّثهم به. وكان هؤلاء لصوصاً يقودهم حمزقوه أسلانجري وتامبي أسلانبج، ويسببون صعوبات كثيرة للينيا العائدة لنا. وصلنا في هذا اليوم إلى شجراي، وقضيتُ فيها أربعة أيام. فضّل تيمبولات قضاء المدة المتبقية على استئناف رحلتنا في الغابة الواقعة بين نهري لابا الصغير ولابا الكبير.وكان قد أعلمَ أنه يجمع حشداً من أجل الهجوم على لينيا. وفي اليوم المقرر لاستئناف الرحلة جاء مَرشان مَفَدِق، أتاليكُ تيمبولات، برفقة ابنه سفربي من أجْبَسَو لمناقشة موضوع رحلتي. وكان من المستحيل تحقيق شيء من نوايانا دون علم هؤلاء. كان تيمبولات محبوباً من قِبَلِ أسرة مَرشان التي ربّته. ولذلك وعدوه أن يساعدوه في أي مهمة. وقرروا أن يحموني كما يحمون ربيبهم. وكان من المستحيل إخفاء ما أخشى منه وطريقي عنهم...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– لا يجوز أن تعتب عليه. يعتبر كل الراجِلين غير جديرين بالركوب لأنه قائد جيش فرسان. ولكنْ ليس كل من يركب حصاناً خيّالاً.

– سنعرف هذا حين نقفز من الضفة إلى نهر بشزه. يعدُّ القوزاق هذه الضفة مأمونة إذ لا يستطيع أحدٌ اجتيازها. اتبعني، ولا تشدَّ اللجام بقسوة. ولا تحثّه بطرف حذائك. سيعبر بك دون أن يصل الماء إلى زنارك.

يبتعد الرعد الذي كان يلازم ضفة النهر إلى لابا الصغير ويِنْجِج ووارب. ويتناقص شيئاً فشيئاً. وبعدما جرى الفارسان مدة بدأ المطر بالانحسار. وتوقفا بعدما دخلا عمق الغابة بغلوة[1] حصان واحدة. ولا يسمعان الآن غير وقْعِ قطرات المطر المتساقطة من أوراق الأشجار.

قال إمام حين انكسر غصن لم يتحمل ثقل الأوراق المبلولة:

– يحدث لك مثل هذا حين تكون هشّاً؛ لا خوف. رحِمَنا الله يا حسن بيه ربما لأنك تصلي له ولو كنت كافراً. اغفر لي يا إلهي – رفع غازي إمام يديه ودعا إلى الله بلغة النغوي – خدمتي لرفيقي الكافر. يقولون إنك تدخل الجنة إن قتلت كافراً، ولكني لن أسعد إن قتلتُ هذا ودخلت الجنة في حين تقيم أسرتي في جهنم الروس. افهمْني ودَعْني أسير على طريقك المستقيم. لو استطعتُ أن أهدي هذا إلى دينكم لكان أفضل من كل ما سواه. لن آلُوَ جهداً؛ من يدري فقد يهتدي إن حاولت جِدّيّاً.

لم يستطع النقيب إلا أن يسأل من دعا إلى ربه معيداً كلمتي "الله" و "كافر" بلغة النغوي:

– فهمت بعض الكلمات وإن كنت لا أفهم لغتك يا إمام. قل لي ماذا طلبت من إلهك؟

– ليس إلهي فحسبُ يا حسن بي، إذا كنا اعتمدنا كونك شيشانياً مسلماً فهو إلهك أيضاً. وإن لم نتفق على هذا فلن تنجح مهمتنا ولا مهمتك. لن أخفي عنك ما رجوته من الله العزيز الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد: رجوته أن يغفر لي اصطحابك إلى أرض الشراكسة الذين هم من ديننا رغم

[1] قدر رمية سهم أو ثلاثمئة ذراع إلى أربعمئة. والذراع خمسون سنتيمتراً تقريباً. وعلى هذا تكون الغلوة مئة وخمسين متراً تقريباً.

معرفتي أنك كافر، وأن يحقق لنا ما وعدتمونا به. وماذا بعدُ؟ كشفتُ له عن أشياء صغيرة أخرى، ولكن هذا لاحقاً، فيما بعد.
– لا بأس إن كان "لاحقاً"... – أعاد تورناو السؤال متظاهراً بالابتسام: – ولكن هل تعرف يا إمام معنى "لاحقاً"؟ يعني عدم الثقة!
– هذه مبالغة في الصراحة!لا تنسَ أننا لا ننقض عهدنا. إياك أن تُسمِع هذا صاحبنا " باي" الذي أقنعناه بصعوبة.
فيما يسير الفارسان عند الفجر في الغابة بلا طريق محدد قال إمام الذي كان يجتاز الفسحة ذات الساقية:
–لن نقيد الحصانين، لن يتركانا ويبتعدا إلى أي مكان. سنجفف ملابسنا.
– وكيف؟ – حملت كلمة " نجففها " النقيب على السؤال.
– ونحن النغوي، كما يقول الشراكسة، لا نشرب الماء من أنوفنا. نعرف شيئاً من ضرورات الحياة. وكان عندنا قادة كبار يعلِّموننا. ولكن ما فقدناه ونسيناه في غمرة حرب الاستيلاء كثير. شكراً للشراكسة الذين بقينا بينهم؛ علّمونا أموراً كثيرة لا نعرفها. يكفي أنهم علّمونا أن نملّح لحوم حيواناتنا[1]. هاتِ الحطبات اليابسة. سنشعل النار كما يقول الروس بقدحة واحدة. لا يأسَ يا حسن بيه مادام الله في قلوبنا. سندعو إليه أن يحقِّق لنا مرادنا ما دمنا معاً. ألا تصلي له وتبتهل إليه؟ ها هي شمسه تشرق كأنها ولدت اليوم، وسيحقق لك مرادك... – مدّ غازي يده إلى ظروف الرصاص على صدر كسائه وأخذ واحداً منها. ونثر البارود في القطن الجاف، وببضع نفخات عليه انبعثت شرارة بقدحة واحدة، فارتفع اللهب.
الغابة التي تجاوزها مطر الرعد والبرق تصحو شيئاً فشيئاً: تُسمع أصوات عصافير متفرقة، وتبدأ الحشرات تزحف وتطير، وعلى الشجرة اليابسة غير البعيدة يبدأ نَقّارُ الخشب وجبته الصباحية. وحين بدأ غازي إمام يتوضأ ليقضي صلاة منتصف الليل وصلاة الصبح معاً فعل مثله النقيب تورناو وعدمُ حماسته بادية عليه. وبعد الصلاة قال الإمام:

[1] لم يكن التتر يملِّحون اللحم كما ورد في رواية الشرق والغرب للمؤلف نفسه.

– هل تسمع يا حسن بيه صوت نَقّار الخشب يتناول إفطاره؟ ونحن ماذا ننتظر؟ لن ينفعنا الشاي وحده، مُدَّ يدك! صَبّ في راحته شيئاً مما في ظرف الرصاص.

– ما هذا؟ – شمّ النقيب ما في راحة يده.

– ضعْه في فمك واشرب فوقه الشاي. هذا مطحون اللحم المجفف. هذا زادُ الشراكسة على الطريق. سيدعمك حتى الظهر. لن يدعك تجوع ريثما يأتينا تيمبولات. وهذه الجبنة الشركسية مضى على تجفيفها زمن طويل، ربما خمسون عاماً. ولن تفسد حتى بعد ضعف هذه المدة. تتصلب ولكنها لا تفسد.

– سمعت بحكاية الجبنة الشركسية غير أني لا أعرف إن كان اللحم المقدد يُطحن.

– نحن النغوي كنا نصطحب اللحم المجفف على الطريق طبعاً ولكننا فضّلنا عليه لحم الشراكسة المطحون. لا يصعب حملُه ولا يبتلّ. يكفي أن تأكل ملْءَ ظرف فارغ منه حتى يمنحك القوة طوال النهار. يكفي امتداحاً لأنفسنا باسم الشركس والنغوي. اِحكِ لنا شيئاً من تقاليدكم المفيدة أنتم الروس. أمامنا وقت غير قصير إلى الظهيرة. ونارنا متقدة، وحصاننا يرعيان، وتيمبولات لن يتأخر. سيأتي في موعد الظهيرة الذي حدده.

– لا يخلو قوم على الأرض من منفعة ما. وأنت تعرف هذا يا إمام وإن لم أذكر. والروس من هؤلاء.

– نعرف هذا. لا تستغربْ يا حسن بيه. عليك أن تعرف كل ما في رفيق السفر، خيرَه وشرَّه، حتى القمل الذي في ثيابه. لستُ صاحب هذه الفكرة بل المرحوم ممقاي الذي أمر ابنُ قومك زاس بقتله. ما كان أذكاه وأشجعه! ودونه ربما ما اجتمعنا أنت وأنا. ما العمل؟ كنا نعيش في بساطة، لا همّ لنا إلا أولادنا، نربيهم فرِحين بهم حتى جئتمونا فرميتمونا في مصيبة لا مهرب منها... أسمعك يا حسن بيه، وسامحني على مقاطعتك!

– لا تُفن نفسك يا إمام، الأفضل ألا يكتم كل إنسان ما في نفسه. أنا ألماني أباً وجَدّاً. ومنذ إيكاترين الألمانية تحوّلنا إلى روس ونعيش في روسيا. سفحنا دمنا فيها، وحميناها، وما نزال.

– سامحْني،سأقاطعك مرة أخرى. في بلادنا مثلُ هؤلاء الألمان الذين تأتي على ذِكرِهم. لا أعرف إن كانوا يُعَدّون خونة، عندنا رجلٌ لا تعرف إن كان من النغوي أم من الشراكسة،يحالف قيصر روسيا الذي يحاربنا، اسمه سلطان خان جري. وفي روسيا عدد من أمثاله من القبرتاي والشركس ممن يعدّون شراكسة، وانتقلوا من الإسلام إلى المسيحية.

– أعرف جيداً سلطان خان جري الذي أتيت على سيرته بالذمّ. حاربتُ معه في بولونيا. إنسان مثقف يتحلى بالرجولة، وهو الآن قائد حرس القيصر.

قلّد غازي إمام وهو يضحك بصوت رفيع جداً الكلمات التي سمعها "يتحلى بالرجولة"، "إنسان مثقف"، "حارس القيصر". – ثم انتفض بصوت عالٍ لا يليق به: –كان الأفضل له أن يبقى مع الشراكسة الذين ربَّوه!– وفي الحال غيّر لهجته وسأل برياء: – يا حسن بيه ألا تتوجس من مقاربتنا للموضوع الذي كنا نتحدث فيه؟ دعْنا ننسَ روحك الألمانية، وروحنا الشركسية – النغوي! ولنعدْ إلى فضائل الروس التي لا تستطيع الإفصاح عنها.

– ما من عرقٍ بشري إلا فيه فضيلة أو فضائل كما قلتُ سابقاً، – استأنف النقيب حديثه بالكلمات السابقة. – الروس ليست مُساكنتهم ومعاشرتهم سيئة. يتفهمون ما تحتاج إليه، ويقاسمونك ما عندهم. ومتى تعلمت لغتهم وتكلمتها واستعملتها في مرافق حياتك تناسوا أصلك واعتبروك واحداً منهم حقاً.

– ويغيّرون دون استشارتك اسمك الذي سماك به والداك، أليس كذلك؟ – سأل غازي إمام بالنبرة نفسها التي يتكلم بها النقيب. – اِحْكِ، اِحْكِ، أنا في انتظارك، خطر له أن يناديه: يا "حسن بيه "، ولكنه أنِف من نُطقه.

– ما تتكلم عليه لا أعده عيباً فيهم. ها أنتم أيضاً تنادونني: حسن بيه.

– إن كنتَ في ما قلتَه، – تظاهر غازي إمام بالتأكد من أمان المكان، ثم أضاف الاسم الحقيقي لرفيقه، – يا فيدور فيدوروفيتش تورناو النقيب الركن تعدّني شبه مجنون فأنت على خطأ.أنتَ من جعل من نفسه شيشانياً ولسنا من أجبرك على تصرفك. طلبتَ منا أن نناديك "حسن بيه" فناديناك. نعم، قررنا

أن نتناسى اسمك الروسي، ما تمتدح به أعداءنا الروس وأنت ألماني اضطرني أن أقول ما قلت.

– ليس هذا وحده يا إمام!.. – بدا من صوت النقيب تورناو ما لم يعجبه، ثم صحا فاختتم بكلمات لطيفة أخرى، – شكراً على إبرازك بالخير أصلي الألماني. ولكنك تتناسى أنت أيضاً العهد الذي بيننا نحن الطرفين. سأقول لك يا رفيقي الطيب نظرتي الأخرى إلى الموضوع إن لم يسؤك: كلٌّ يعمل من أجل مصلحته.

– مهلاً، مهلاً، أعِد ما قلته... يبدو أننا نبحث عن مصلحتنا مجبرين. وأنتم تعملون لصالح دولتكم المحتلّة النهّابة. ألم أفهم كلامك على نحو صحيح؟

– نعم، ولكن لا يعني هذا أن ننقض اتفاقنا.

قال غازي إمام لنفسه وهو يقلّب بالعود النارَ الآيلةَ للانطفاء: "أتبادل بعض الحديث مع من يجلس أمامي ولكنه رجل صلبٌ. يربّينا وهو في غير أرضه... نحن،حسب كلامِه، نبحث عن مصالحنا الشخصية، وهو، لأن دولته فوق الجميع، يضحي بروحه لقيصره الكافر. ونحن؟ نحن النغوي هل لنا دولة مستقلة؟ أكنّا نفعل ما نفعل الآن لو كنا نقيم في بلادنا؟ ما الفائدة من مماراة مثل هذا الرجل؟ ونحن وقعنا في مأزق من أجل الشراكسة. ما حاجتنا إلى البلاد التي يحميها الشراكسة إن وجدنا أملاكنا وأرضنا وحريتنا؟ افهمْني يا إلهي إن قلتُ ما لا يقال! أعرف ما يستحق الكفار ولكني لن أنقض العهد الذي أقسمنا عليه في حضرتك نحن الثلاثة الذين من عرق واحد. وأنت لن تقبل منا إن فعلنا. سأحاول أن أهدي هذا الرجل إلى الإسلام إن استطعتُ.لا أحد يعرف نيتي غيرُك يا إلهي. ولم أخبر به الأخوين قَرَمرز. ولا أظنني سأخبرهم في هذا الوقت".

رفع غازي إمام الذي أرعبته الأفكار المفاجئة رأسه، وأكمل باسماً ما كانا يتحدثان فيه:

– فهمتُ يا حسن بيه. ثقْ بقسَمِنا. نحن أعلنّاه أمام اللهِ والقرآنُ العزيز في قلوبنا باسم الأخوين قرمرز اللذين قضيا على أيدي الكفار. وأنت إن داخلتك بعض الريبة فينا فسيغفره لك الله؛ إنه رحيم. – وفي هذه اللحظة غيّر غازي

إمام الموضوع كأنْ بلا رياء: – سأقول لك يا حسن بيه سبب حذري أحياناً ونحن نتحدث، ليس بسبب خطر ما، بل لأني أعرف قولاً شركسياً مأثوراً يتعلق بالغابة والظلام.

– لا يذاع سرٌّ في غابة أو ظلمة، – ابتسم النقيب تورناو.– أهذا كان سبب حذرك؟

– نعم، حفظتَه جيداً. من أين تعرف هذا؟

– عليك أن تعرف محاسن القوم الذين ستخالطهم ومثالبهم. أودُّ يا إمام أن أسألك عن أمر يُقلقني منذ صباح البارحة.

– أجيبك إن عرفتُ ما يشغل بالك، وإن كان عندي فكرة عن الجواب.

– هل سمعتَ بأسماء نَقّار وجانسعيد وأسلانجري وأسلانبج؟

– وكيف لا أسمع! هؤلاء يجب أن تنهض احتراماً حين تُذكَر أسماؤهم.– رفع غازي إمام جسمه من مقعده، وجلس. – الاثنان الأولان من رجالات الأبزاخ الصلبين. والاثنان الآخران من القبرتاي الأديغة. وعليك أن تتجنب الأربعة يا حسن بيه إذا كنت روسياً كافراً. تقول لي يا حسن بيه أموراً عجيبة ولم نقض معاً يوماً كاملاً، وأرى فيك أموراً عجيبة. من أين لك هذه المعلومات؟

– صادفناهم أمس على الطريق. لا تفزعْ، هؤلاء هم من تحدّثوا إلى الجنرال زاس.

– وأنت؟

– أنا تظاهرت بالنوم مغطياً وجهي بالصدار.

– لا مشكلة هكذا. ماذا قالوا للجنرال الأصهب[1]؟

– لم يكن ممكناً فهْمُ ما يريدون. ولا معرفة للجنرال بالأمر. أسرَعوا إلى العربة التي نركبها، وتبادلوا بضع كلمات غير مهمة مع الجنرال، وفارقونا مع تمنياتهم بالسلامة.

– عجيب؛ أتكونون تُخفون عنا أمراً ما؟

– أما اتفقنا يا إمام أن لا أسرار بيننا؟

---

[1] لون غيرُ صافٍ بين الأحمر والأصفر، والأكثر أن يكون من يتصف بهذه الصفة بديناً طافح الوجه. وهي صفة مكروهة عند الأديغة.

– اتفقنا، ولكن ألا ترى ما يحدث لنا قبل أن نبدأ مهمتنا؟.. مهلاً يا حسن بيه.هل ترى كيف يتنصت علينا حصاننا بأذن مفتوحة ؟

– ومن الأغصان الأخرى تفرقت الطيور. أكّد النقيب وساوس غازي إمام.

خرج قرمز تيمبولات من المنعطف وقد رُبط إلى جانب حصانه حصان آخر.

– يبدو من سرجه وتجهيزاته حصاناً قوزاقياً!.. – نهض النقيب تورناو غير مدرك حقيقة ما يرى.

–لم تخطئ. – نهض غازي إمام ايضاً.– أين من كان يركبه؟

ترجّل تيمبولات متمهلاً، وحيّاهما.

– وعليكم سلام، – قابله الآخران بتحية متناغمة.

– لا أظن أني تأخرتُ عنكما طويلاً. قال تيمبولات مُشعِراً إياهما من شدّه حزام الحصان أنه لن يُطيل الوقوف. – ناركم انطفأت... أحّرَني من كان يركب هذا الحصان.

فزع النقيب تورناو مما سمع.وسأل غازي إمام بمزاج واضحٍ أنه معكَّر:

– هل قاومك؟..

– وكيف يقاومني... – ابتسم تيمبولات ولكن ظهر عليه إشفاقه على من يأتون على ذِكرِه: – لو قابلني بسيف مسلول لكان حسناً... وجدته في الغابة مجروحاً جرحاً خطيراً، فظللتُ أواسيه حتى فاضت روحه. لم يكن تجاوز العشرين.

– هل قلت إنك كنت تواسيه؟.. – سأل غازي إمام غير راضٍ.

– ما الأمر يا إمام، – انتفض تيمبولات برأسه، – ماذا كنتَ تريدني أن أقول للفتى الذي فاضت روحه وهو يحدّق في عينيّ؟ سجّيتُ جثمانه.

–لم يكن من الضروري تسجية كافر... – غمغم إمام ثم أضاف ناظراً نحو تورناو: – أليس إنساناً ولو كان كافراً فنتركَه للحشرات والوحوش! كان الأفضل أن يوارى في الثرى.

– حياك الله يا إمام، – لم يستطع النقيب الذي تألم قلبه لخبر الشاب القوزاقي الذي لا يعرف عنه شيئاً إلا أن يقول، – الإنسانية والرحمة فوق كل الأديان، – رسم خفية الصليب كي يغفر الله له ما قاله.

والمسلمان اللذان وافقاه قائلَين: "هذا بديهي" استغفرا إلههما أيضاً. ولكن إمام تظاهر بتطوير أفكار الإنسانية والرحمة التي طرحها مَن ليس على دينهما:
– صحيح يا حسن بيه، روح الإنسان غالية. هذه يمنحها الله مرة واحدة فحسبُ. متى منحك إياها فطريقة الاستفادة منها...
– يا غازي إمام، – كان تيمبولات يعرف أن صاحبه يُجيد التعمق في مسائل الدين من خلال الاستطراد فقاطعه دون إزعاجه، – أراكما غير جائعين، أظنكما استهلكتما أحد ظرفي البارود. سندفن إذن الشاب الذي غطيتُ جسده بأغصان الأشجار. إن تحلّينا هكذا بالإنسانية ارتاح هو، وارتحنا نحن.
لم يستغرق حفر قبر للشاب القوزاقي وقتاً طويلاً لنعومة الأرض. استعجل إمام لحظة إنزال الجثمان في القبر:
– لا، لا، لن ندير وجهه إلى القبلة. اقلبوا الجثمان. – وقف الثلاثة إلى جانب القبر غيرِ العميق، وأهالوا عليه التراب بسرعة. وحين رأى غازي الصليب الخشبي الذي يجهزه تورناو لم يقبل. – هذا ما لا يجوز يا حسن بيه... لا يجوز نصبُ صليب على أرض الأديغة...
– يا غازي، – قاطع تيمبولات رفيقه، – اطمئنَّ! لا تُطل الحديث في آرائك. والأفضل من هذا أن ندعو أنت وأنا للمرحوم إلى إلهنا العزيز، ولْيدعُ له حسن بيه إلى إلهه. قولوا: آمين! – رفع تيمبولات وغازي إمام أيديهما ودعَوَا، في حين كان تورناو يصلي من أجل المرحوم، ورسم الصليب بسرعة.
التفت تورناو ساعة ركوب الثلاثة طريقهم إلى قبر الشاب القوزاقي الذي لا يعرف اسمه. وسأله تيمبولات:
– هل ارتاح ضميرك الآن يا حسن بيه؟
– حياك الله، – أجاب دون تأخُّر، – متى واريت أي جثمان الأرض دون اعتبارٍ لـ " لك – لي " ارتاح ضميرك.
– لا داعي للشكر على هذا يا حسن بيه. كان الأفضل،كما يقول صديقاي نَقّار وجانسعيد، أن نعيش دون أن يُشهِر أحدنا سلاحه على الآخر. سأعرّفك عليهما يوماً ما إن عشنا.

– كان يسرّني، على ألا يسبب تعرُّفُهما الأذى لمهمتي... – أوضح غازي إمام دون نية خبيثة، وإن ابتسم،، مخفياً أن تورناو يسمع اسميهما منذ البارحة للمرة الثانية:

– هذان سمعتَ صوتيهما يا حسن بيه وإن لم تتعرف عليهما.

– متى؟!.– شدّ تيمبولات لجام حصانه فسمّره في مكانه.

– هل تتحدث يا غازي عن الفرسان الشراكسة الذين لحقوا أمس بعربة الجنرال زاس؟ – سأل النقيب كأنه لا يعرف من يأتون على ذكره.

– إذا استطاعوا مجانبة عربة الجنرال زاس، – نظر تيمبولات إلى غازي بما يعني: هل رأيت ما حدث، – فهؤلاء أصدقاء خلافاً لما نتوقع... – وما شكّ فيه تغير إلى فكرة أخرى. – العالم مركَّب بطريقة صعبٍ فهْمُها. يخيَّل إليك في البداية أنه سهل الفهْم كالليل والصباح والظهر والمساء، غير أن قلب الإنسان يتغير إلى الأحسن وإلى الأسوأ خلال يوم وليلة؛ فاعرف ماذا ستقابل منهما.

– هذا من صنعِ من يبتهل إليه الناس ولا يبتهل إلى أحد، الله الواحد، ولذا صعبٌ بلوغه. – الآن وصل غازي إمام إلى ما يريد – إن حاولت معرفته فسيوعز إلى ما يطوّعُ من رعد وبرق وريح ومطر وصحو ونار وخسوف وكسوف ألا تسمح لك. أليس صحيحاً يا حسن بيه؟

– صعبٌ أن يُجاب على السؤال الذي تطرحه يا غازي إمام. سامحني إن كنت أدينك غير أنك تخلط بين الله وبين الآلهة المتعددة.

– هذا رأيك؟ ألا تخطئ؟ – ضحك غازي إمام كمن يسأل ببراءة.

– لِنُسرعْ! دعونا نعبر الغابة قبل حلول الليل، – توجه تيمبولات بالكلام إلى الرفيقين اللذين بدأا بالتنافس، وحثّ حصانه، – واللحم المسلوق الدافئ الذي جلبته لكم يبرد، وخبز الذرة المعجون بالحليب يتجمد. إن قطعنا بضع غلوات مسرعين وصلنا إلى قرية شجراي، وجمعنا هناك غداءنا وعشاءنا. وباي الذي وعدتُه أن نوافيه في هذه الساعة نجده هناك.

– ألن نعبر قرى أخرى؟ – سأل تورناو قلقاً على مهمته.

– سنُجانب عدة قرى من البسلني والأباظة. ولن ندخلها. وسأخبرك بأسمائها، وأروي لك حالها ونمط معيشتها.

– سيكون حسناً لو أطلعتَني على أعداد سكانها، وكم من الذكور في كل منها يستطيع حمل السلاح.
– هل ستكتب تلك المعلومات أم تحفظها في قلبك؟ فسّر غازي إمام سبب السؤال فيما يسأل كأنه بلا هدف، – أسأل هذا لأني لم أرك تُثبِت كتابة ما سألتَ عنه العشية والصباح.
– ما تكتبه لا يعود سراً يا إمام. وما تحفظه في قلبك لا يستطيع أحدٌ انتزاعه منه.
– هذا صحيح، ولكن الله يعرف ما في قلبك، لا شيء يغيب عن علمه.
– يا غازي يا من أدعو له أن يغمره الله برحمته، – مرة أخرى قاطع تيمبولات كلام غازي بطريقة بين المديح والمزاح، – أنت لست جائعاً كما يقول الشراكسة الذين صرنا بينهم في هجرتنا الثانية: "لا يتعارف الجائع والشبعان". كان حسناً لو تناولنا العشاء في منعطف نهر يِنْجِج الظاهر أمامنا. ما رأيُك؟
لم يقبل إمام ما يفعله تورناو الذي اقترب من الحصان القوزاقي وربت على ظهره في أثناء توضُّئه هو وتيمبولات.
– قل يا تيمبولات لهذا الذي يمسح على ظهر الحصان ألا يفوّت صلاة العصر!
– اترُكْه ينفِّس عن ضيقه!
– لا، لا، لا يجوز! يقال إن سبع عيون تتقاطع في الغابة. سيشك فينا الشراكسة الذين سيخالطهم إن لم يروه يصلي معنا... نحن كتب الله علينا أن نعيش مع الشراكسة ونتكيف معهم. أما هو، فإن لم يُقتل، عاد إلى الكفار الذين خرج منهم. – ثم نادى النقيبَ غير قادر على الصبر.– دع الحصان يرعى على راحته يا حسن بيه، اقترب موعد صلاة العصر!
أنهى الثلاثة بعدما فرغوا من صلاة العصر عَشاءهم بسرعة مكتفين بتناول اللحم المسلوق الفاتر وخبز الذرة دون إشعال النار. وقُبيل الركوب أخرج تيمبولات من كيس مربوط إلى جانب السرج قبّعة مما يلبس الحجاج، وألبسَها للنقيب تورناو.

– على قياس رأسك يا حسن بيه، وتليق بك جداً. أنت حاجٌّ ابتداء من هذا اليوم. كنت في الكعبة التي يتقرب الناس فيها من الله.
– وإن سألوه عمّا فعل هناك وما رأى؟ – قلِقَ غازي إمام.
– لم أرافقكم يا إمام جاهلاً بالإسلام. – أكّد تورناو الذي لا يتقبّل قلبُه هذا الدين، – لم يكن عندي شاغل طوال العام غيرُه.
– نعم، نعم يا حسن بيه، – وافقه غازي إمام. حسنٌ أنك تعرف الإسلام الغالي الذي أنزله الله علينا معرفةً عميقة، لا مجرد اطلاع عليه. ولكننا على طريق خطير. حتى الحصان يتعثر رغم أن لديه أربع قوائم. من يعرف، قد نُفاجَأ نحن أيضاً... لا، لا، لا أسمح لمثل هذه الأفكار المقلقة أن تغزو رأسي، أقول: من يعرف، فحسبُ... تراجعَ عن أقواله معاتباً نفسه، ووجد لها عُذراً ومخرجاً معاً.– سأستطلع، إن لم تعارض يا تيمبولات، أرجاء الغابة القريبة التي سنخرج منها.
بدأت الغابة المسائية تُظلم بسرعة. وكان لا يسمع فيها ظاهراً إلا وقْعُ حوافر بضعة الأحصنة. والحق أن هذا الهدوء خادع إذ أنك متى أرهفتَ السمع أحسست بما تحضِّر بها نفسها لليل. هزّ الهواء الخفيف الذي يُشعرك باقترابك من عمق الغابة أوراق الأشجار المرهقة من حرّ النهار. ومن الجهة الأخرى سمِع صوتُ طائر ليلي. وجاوبه طائر آخر. والهوام التي تتكاثر شيئاً فشيئاً تبعث الخيل على النخير. ويشتدّ خرير نهر بِنجج. ومن خلال السحب السوداء التائهة في السماء تبزغ بعض النجوم.
– لا تؤاخذني يا تيمبولات، – لم يُطق النقيب تورناو صبراً حين بقيا وحدهما.
– أود أن أسألك عما يُقلِقني طوال النهار ولا أريد أن يسمعنا غازي إمام. ألم يطلب منك القوزاقي الذي كان يركب هذا الحصان شيئاً ساعة احتضاره؟ هل دفنّا إنساناً لا نعرف اسمه، ولا نسبه، ولا مكان إقامته؟
– لا أرى عيباً في ما سألت عنه يا حسن بيه. إن كنت تريد أن تعرف فأنا كنت أنتظر سؤالك. الشاب الذي فارق الحياة قبل أوانه أخبرني بكل هذه المعلومات. ما العمل؛ نحن نعيش حياتنا مضطرين؟ ولكني نذرت دون أن أعرف السبب، أن أخبر أهله بكل ما أوصاني به متى انتهينا من مهمتنا هذه.

لا تسألني في هذه اللحظة عن اسمه ونسبه وقريته. لاحقاً، فيما بعد... ربما نجا هذا الشاب لو كان يركب حصاناً شركسياً... كل نوع من الماشية يعود إلى أصحابه، إلى الدار التي خرج منها. هل تعرف ماذا يقول نَقّار الذي أتينا على ذِكره في هذا الموضوع؟ لا تسلبْ أرضاً ليست لك، ولا تركبْ غير حصانك! ما قلتَه بشأن غازي إمام فيه نصيب من الصحة. ولكن إن كنت واثقاً بي فثق به. كل رجل دين ينفِّر الناس منه معتقداً أنْ لا أعزَّ من دينه، وأنْ لا أحد يعرف ما يعرفه هو. ألم يروِ لك الإمام كيف نجا من أيدي القوزاق؟ – إذن متى صرنا في مكان أكثر أمناً، – ضحك تيمبولات ضحكة خفيفة، – فسنطلب منه كيف استغل خروجه ليلاً لقضاء حاجة، فهرب.

VII

من الصعب أن تعرف في منتصف الليل المظلم مساحة قرية شجراي وعدد بيوتها. ولكن تورناو فهم بعينه الثاقبة وبدقة ملاحظته امتدادها طولاً على نهر لابا الصغير ببيوتها المبنية من الحجر، ومن سقوف القش المعتمِدة على عيدان الخشب. وتعرف حرصها رغم هدوئها من خلال كلابها. وتسمع صياح دِيكة هنا وهناك كأن وقع حوافر الخيل أيقظها. ويخيم صوت جريان النهر على القرية كأنه يسخر من تلك الديكة.

بيت تيمبولات الخشبي كبير بالقياس إلى البيوت الصغيرة التي مرّوا بها. متطاول وعريض وذو دار واسعة. وترى في جانب آخر إسطبلات المواشي وأماكن مسقوفة أخرى. وأشجار الفاكهة تملأ الدار. وما يستغربه النقيب أكثر مما عداه هو ارتفاع السور الحجري والباب المفتوح فيه: لا تبدو فيه، حتى وأنت تركب الحصان. قال تورناو: "سيكون من الصعب الاستيلاء على ما وراءه حتى لو أغرت عليه" ثم ضحك من نفسه على الفكرة التي خطرت له، وصحّح: "نحن استولينا على مِنَع أشد تحصيناً في بولونيا وبلغاريا والشيشان..."

قال تيمبولات للرجل الممتلئ المتين الخارج من الظلام:

– اصحبْ ضيفنا الشيشاني إلى غرفته يا ياغز! لا أرى أخي باي. ألم يصل بعدُ؟

– سيصل باي سريعاً حسب ما أخبرنا.– ولما انصرف تيمبولات تراجع عن كلامه وهمس في أذنه: – والفتاة الأباظة التي كنتم قررتم اصطحابها اختطفها، ويحتفظ بها في بيت بعيد عن النهر.

– وكيف مظهرها؟ هل يمكن أن تجني منها شيئاً إن بدّلتها أو بعتها؟

– ليست جميلة الوجه؛ وهل بين الأباظة فتاة جميلة! ولكن بنيتها الجسدية صلبة. وأحسنُ ما فيها أنه لا أحد يتابعها. هي ابنة أرملة موتورة. رشيقة، نظّفت البيت الذي احتجزناها فيه من نفسها دون أن يأمرها أحد.

– كفى، كفى، تابِع متطلبات الضيف، – صرف تيمبولات بصوت عالٍ الرجل الذي تعلق به.

عاد تيمبولات إلى المضافة قبل أن يجد الوقت لمقابلة زوجتَيه. ولكنه أكّد على ياغز لما تبيّن أن تورناو نام دون أن يأكل شيئاً من الطعام الذي أدخلوه إليه:

– احرصوا على الضيف، دعوه ينام على راحته.

جاء باي مع صلاة الصبح من قريته "بَرَقاي"، إلى أخيه الأكبر. ولما رأى تورناو يتوضأ قال له فرِحاً به، مُسمِعاً الخدم الذين في أرض الدار:

– سلام عليكم يا حسن بيه. لو عرفت أنكم ستصِلون الليلة لاستقبلتكم على باب دار أخي الأكبر. كيف حالك؛ ألست بخير وبصحة جيدة؟ ماذا يجري في الشيشان؟

– وعليكم سلام يا باي، مضى زمان على افتراقنا. أظن آخر لقاء بيننا كان في العام قبل الماضي. أذكر أننا التقينا في "بْسِه فابَه[1]"، وسألت عنك بضع مرات. وكنت أرسلتُ إليك سلامي. وماذا سيجري في الشيشان؟ لا سلام فيها كما لا سلام هنا. وليست الأوضاع في الداغستان حسنة أيضاً. وفي القرشاي اضطرابات. يتناسون أنهم من سلالة الترك – المغول فلا يستطيعون استخلاص تاريخهم. يتشبهون بمن لا يشبهونهم. يعجزون عن تقبُّل واقعهم الرديء. وأنت ما أحوالك يا باي؟ أنا على اطلاع محدود على أمورك. ستقابلك مفاجآت كثيرة ما دمتَ على قيد الحياة. وما حدث لأسرتكم ما كان ليحدث...

---

[1] المياه الدافئة.

قطع تورناو حين رأى باي رافعاً رأسي كتفيه دهشةً حديثه المرتقب عن المأساة التي تنتظر الشراكسة. ثم وقف، وقد وجد لنفسه ذريعة، على سجادة الصلاة التي مدّوها له على عتبة مدخل الدار. وتظاهر بأنه يصلي من أعماق قلبه غير أن ما لا يفارق ذهنه إن وقف أو سجد أو ركع هو باي الذي سيرافقه في طريقه المخيف.

قال النقيب تورناو لنفسه: "لا ثقةَ لي به منذ عرّفوني عليه، طلبت منه أن يُقسم على الإخلاص للمهمة التي نتابعها ولكن باي يكرهنا. تحمرّ عيناه فيما يتحدث إليك فيرتفع رأسا كتفيه، ويغيّر حديثه. وكما حدثني غازي إمام قبل أيام معتبراً نفسه يُفشي سراً خطيراً فإنه يفقد وعيه ولا يصحو حين تثور في رأسه فكرة الثأر لإخوته إلا أن يسفك دماً بشرياً. أخوه تيمبولات هو الوحيد الذي يسمع كلمته ويهدّئه. ولولا حرصه عليه لقُتل منذ زمن بعيد. ليس باي محروماً من الرجولة على ما يقال، وهو إنسان صادق شفيق خلافاً لِما توحي به قسوته. وفي كل الأحوال ليته لا يخرّب المهمة التي نتجهز لها طوال عام كامل. وإن فعل هكذا فلن أتردد في قتل الأخوين قرمرز. وأُلحق بهم غازي إمام!.. غير أن مريم العذراء ستحرص عليّ، وسيحميني الله، ويجعلني أحمي نفسي..."

بعد العشاء، وبعدما بقي الأربعة وحدهم، أعلن تيمبولات أنهم لن يسافروا اليوم:

– سننتظر أتاليكي[1] مَرشان مَفَدِق المقرر أن يأتي من الأبخاز مع ابنه الأكبر سفربي. سيكونان خير رفيق. ولن نكتم مهمتنا عنهما يا حسن بيه. إن لم أخبر من ذكرت اسميهما بما أعرف فاعتبِرْني أعيش غير جدير بثقة أحد. مفدق بمثابة والدي، وسفربي أخي الأكبر. لم آت على ذِكرِهما في لقائنا الأول. غير أنهما في قلبي باعتبارهما مُعينَين لنا في مهمتنا.

[1] تقليد شرقي خلاصته تربية أولاد الأمراء في أُسَرٍ أدنى مرتبة من أُسرهم لتنشئتهم على نوع من شظف العيش من جهة، ولاكتساب حُلَفاء جدد عن طريق هذه القرابة المصطنعة من جهة أخرى. والأتاليك هو المربّي.

– هذا بديهي يا تيمبولات. هذه الأسرة ربّتك وأنشأتك. – أيّد غازي صديقه الأكبر سناً. – صعبٌ ألا يكون لك ثقاتٌ في الدنيا العارية التي أنارها لنا الله. وربما يظهر لك ثقةٌ آخر لم تنتظره.

– لا، لا. استعجل تورناو النقيب، – لا حاجة لأن يطّلع كثير من الناس على مهمتنا.

– ما أسرع ما ارتعبتَ يا ضيفنا! – تعجَّبَ باي، غير أن رأسي كتفيه لم ينتأا.

– صحيح يا حسن بيه، – نظر تيمبولات نحو أخيه، ووافق حسن بيه. – العينان لا تحتاجان إلى عشر عيون. – وصاح إلى خارج الغرفة: – يا ياغز، أخبِرْ أيَّ طارقٍ بابَنا اليوم وغداً أننا لسنا في البيت. سنستريح، وعندنا أمور نتباحث فيها. ألستُ على حق يا حسن بيه؟

– أنا ضيف، الرأي رأيك.

– سنلعب النرد إذن. أتعرف شيئاً من ألعابها؟

ابتسم تورناو ،وقال:

– يمكنني أن أنقل الأحجار.

– إذن أنت يا إمام وأنا؟ – سأل باي وإن أعجبه كلام أخيه، – ماذا سنفعل؟

– هل قليلٌ ما يمكن أن تفعلاه!.. – استغرب تيمبولات ما سمع. – أنتما حرّان ريثما يصل ضيفنا مَفَدِق. عودا إلى بيتيكما وآنِسا نساءكما. واملأا ظروف الرصاص. واشحذا الخناجر والسيوف. ولاطفا أولادكما. وامسحا على رؤوسهم... – وأنهى وهو يبتسم في وجه تورناو: – وأوصياهم ألا يجبنوا أمام أعدائنا الروس الذين يهاجموننا.

كان تيمبولات قرر أن يبقوا في شجراي يومين تقريباً غير أن من ينتظرونهما قادمَين من الأبخاز وصلا في ظهيرة اليوم نفسه. عمّ الفرح دار قرمرز الأكبر تيمبولات. واجتمع من سمع الخبر من رجالات البسلني في مضافته.

مَرشان مفدق البالغ من العمر تسعين عاماً جالس إلى الموقد بقامة صلبة تكذِّب هذا الرقم. وابنه سفربي ذو الستين عاماً لا يرى من اللائق الجلوس في حضرة والده فيقف إلى قائمة الباب اليمنى. وإلى القائمة اليسرى يقف تيمبولات جاهزاً لتلبية أيّ طلب للضيوف. والأخ الصغر باي يشرف على

خدم المائدة. وغازي إمام رغم صغر سنه، يجلس بصفته رجل دين مقابل أميري البسلني قانَقوه آيتَج وشَلَخُ خُطاط. والوحيد الغائب عنهم هو تورناو الذي أخفوه في البيت البعيد عن ضفة النهر حالما سمعوا بقدوم الضيفين.

على المائدة المتطاولة التي يجلس إليها الضيوف الأربعة لحمٌ مشوي ساخن، ولحم مجفف، ولبن بالثوم. وباستا، وجبن طازج، وشراب الباخسمه، وعناقيد عنب، وإجّاص مبكّر.

قال الأمير قانَقوه ذو الخمسين عاماً تقريباً، ملتفتاً نحو رفيقه خُطاط:

– يا مفدق، يا كبيرنا المبارك، لا تؤاخذني، أريدك أن تتخطى بعض تقاليد المائدة عند الأديغة – الأبخاز: بالله عليك أن تطلب من سفربي وتيمبولات الجلوس!

– يا آيتج، يا أمير البسلني – الأديغة العزيز، – ابتسم مَرشان مفدق وعيناه تلمعان بما لا يتناسب مع سِنِّه: – حلّفتني بالله، وأنا أُعزُّ الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد، ولكن لن أنقض عادات الأديغة – الأبخاز لأجل أي إنسان. فإن فعلنا باسم التطور مع الزمن خسرنا العادات التي نتوارثها عبر القرون. هذان لن يتعبا إن وقفا على خدمتنا. ما يخدماننا به يخدمان به نفسيهما. أُدْعُ يا إمام، ودعنا نذوق من الطعام.

كان الإمام غازي ينتظر آخر كلمات الكبير فلم يتوقف عند كلامه "لن أنقض من أجل أي إنسان"، ورفع يديه قائلاً في نفسه: أظن أن الأبخاز لم يتقبّلوا بعدُ " الإسلام الذي منّ به الله الأحد علينا".

– أيها المسلمون المؤمنون بالدين العزيز الذي أنزله علينا الله عزّ وجلّ. قولوا "آمين". أدعو إلى الله لمن جُهّز له هذا الطعام من رزق الله، ولمن جَهّزه، ألا يفتقروا إلى طعامه المبارك. وليحيَ الناس الذين يُضمرون لنا الخير ونحن نضمره لهم. ولمن لا يُضمرونه لنا أن يفتقروا إليه دائماً. لنفتتح المائدة التي تكرّم علينا بها آل قرمرز باسم الله، فلنمدّ إليها أيدينا بنيّة الخير، ولْيتقبّلْه الله منا. أُدعوا إلى الله أن يرسل إليكم الخير، وأن لا يحقق للكفار الذين يضمرون لنا الشر ما يُضمرونه، ولتكنْ نهايتهم على يد الظلم الذي ينهبون به خيراتنا.

كان آيتج أشدَّ المتحلقين على المائدة حرصاً على نظافة يديه ونظافة المائدة. وكان مَرشان مفدق حريصاً على النظافة أيضاً مراعياً عمره. ولم يكن تيمبولات يغفل عنه لحظة: يضع في صحنه أنعم ألوان الطعام، ويُبعد عنه العظام. ويبدّل له المنديل وما يمسح به فمه. ويقرّب إليه الطعام السهل عليه. ولم يكن سفربي يهمل الضيفين القادمين من البسلني. ويتدخل في أعمال الخدم جاعلاً من نفسه مضيفاً مِثلُه مثلُ تيمبولات. ويصدر تعليماته إلى باي.

يسأل شَلَخ حُطاط في لحظة انقطاع على المائدة:

– تبعاً للخبر الذي وصلك يا طويل العمر يقال إن الأبخاز سيصالحون روسيا. هل هذا صحيح؟ كيف يتصرفون معكم؟

– لن أجيبك باسم الأبخاز. ولم يفوّضني أحد بهذا. إن شئت الحق فأين نبتعد عن جماعتنا الأديغة؟ نحن مثلُكم أيضاً. ولكن سأقول لك الفرق بيننا: أكثر بلاد الأبخاز صالحَ روسيا. وهؤلاء هم المسيحيون والوثنيون عبدةُ الآلهة المتعددة. ولا أزعم أن بعض الأبخاز المسلمين لا يقفون معهم. – جفل مفدق فجأة مما تذكّر.– وفي هذا السياق سأروي لكم كيف استطاعت روسيا أن تقرّب إليها مجموعة من الجيغيت – الأبخاز المسلمين، ليسوا بضعة أشخاص بل كثيرين، تعيش في غاغرا قريباً من أحد قادة الجيش الروسي: حين قدَّمت لهم من الذهب والفضة والنقود والقماش والتبغ، هدايا أخرى، طلب منهم القائد الروسي عهداً على قرآن مزيف.

– ليس هناك قرآن مزيف! – اعترض غازي إمام.

– نعم، نعم يا إمام. ولكن ما من شيء لا يخطر ببال من ينوون خداعك. عند الروس كاتب نسبُه " كيريلوف". وحين وقع أعداؤنا الكفار في مأزق إذ لا يجدون مُصحفاً وضعوا كتابه الذي يتضمن أشعاره في كيس، وطلبوا منهم أن يضعوا أيديهم عليه، ويُقسِموا[1].

[1] "كان يجب تعليم رجالنا الراشدين... كيفية إجراء العهود. يكتب ج. س. فيليبسون: في هذه اللحظة ظهرت مشكلة كبيرة وهي عدم توفر نسخة من القرآن يُقسم عليها الجيغيت المسلمون. ثبت أن أحد الضباط عنده نسخةٌ من مجموعة قصص ساخرة لكيريلوف، شبيهةٌ بنسخة القرآن المخطوط التي كان يحملها الشيخ، في وساختها وحجمها. كان كتاب

– وماذا كان ردُّ فعل الأبخاز حين عرفوا أنه تزوير؟ – سأل غازي إمام ثانية، ولكنه دعا إلى الله دون انتظار الجواب: – ارحم يا إلهي من ضحكوا عليهم. كان الكفار يريدون إبعادهم عن طريقك بالخديعة. ولكني واثقٌ من أنهم سيعودون.

– لن يعودوا! – أسرع بالقول باي الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن. ونظر بطرف عينه إلى أخيه الأكبر وتمتم: – من أجل هذا أقول إنه لا يجوز القسَم للكفار... – ثم أضاف مبتسماً للأمير آيتج: لم تتناول شيئاً من الطعام يا أمير.

– حقاً يا باي، وهذا رأيي أيضاً. وافق الأتاليكُ مفدق الأخَ الأصغر لربيبه. – وأنا عاتبت أبناء قومي الأبخاز بقدر استطاعتي. ما العمل؟ هناك مَن وقف إلى جانبي، ومن سخِر مني. والرجال الذين أغراهم المال اشتروا لأنفسهم الخناجر والمسدسات والطلقات – البارود. والنساء فصّلْن أثواباً جميلة كسَوا بها أطفالهم. هذه طبيعة حياتنا نحن الأبخاز أيها الأميران.

– لا أوافقك يا مفدق، يا من جعل الله يومه مئة، على كلماتك الأخيرة. لا يجوز أن نبيع أرضنا، أرض أولادنا، مقابل هذه التفاهات الصغيرة التي لن تنفعك غداً في شيء. كان الجنرال زاس أيضاً يريد أن يمارس مثل هذه الخديعة في نواحينا. ولكننا أفهمناه أنه لن تظهر بيننا أمثال تلك الخيانات. ولسنا

كيريلوف في محفظة جلدية خضراء لها عِلاقة من القماش من اللون نفسه، وإلى عصا معقوفة. كان الجيغيت يأتون واحداً واحداً إلى هذا القرآن المزيف ويقسمون. وكان يدير العملية كلها العجوز الكسيح الممسك بالعصا. وحين يقتنع العجوز بصحة القسم يقول للرجل: صحيح، كفى!

لم تكن معرفتنا بأنسابهم آخر ممسك لنا عليهم. كانت معي هدايا لكل أسرة من هذا الفرع، وكان عدد من مُنحوا هدايا يزيد على المئة. وعليك أن ترى كيف كان هؤلاء المتمردون ينظرون إلى الهدايا من الذهب والفضة والحرير والجلد. لم يكن من يفكر في ذبحنا والاستيلاء على أملاكنا شخصاً واحداً فقط بينهم. كنت أنطق بأسماء الأسر التي ستمنح الهدايا بصوت عالٍ، وكلما نطقت اسماً من تلك القبيلة المتمردة استغربوا كيف أعرفهم جميعهم وأنا الذي لم يرهم في حياته ". المؤلف.

وحدنا بل القرشاي والنغوي والأبخاز الذين يعيشون معنا. وقد تحلّى مضيفونا آل قرمرز بالرجولة في هذا الصدد. لم يتفقوا مع القوزاق فلجؤوا إلينا.

– صحيح يا أمير، – وافق خُطاط صديقه، – يحمون معنا أرضنا وسماءنا. ويحمون في الوقت نفسه شرفهم.

– الإخوة قرمرز رجال أقوياء من هذه الناحية. أقول لهم: عفارم! – بدأ مفدق يمتدح من ربّاهم، آل قرمرز، مخفياً انفعاله مما لُمِّح به إليه. – أنا راض عن هذا الولد، الأخ الأصغر لسفربي، وهو بالمقابل لم يخذلني. وأنتم الأديغة لم يُحرجكم في أي موقف. التجأ إليكم وهم يسلبونه ما عنده، وها أنتم ترون أيّ حياة اكتفاء يحياها الآن.

– ولكن يا كبيرنا، سامِحني، – نتأت الكتف اليمنى لباي، – القرية التي سلبها منا الكفار، والناس الذين ساقهم الروس إلى بلادهم...

استعجل تيمبولات غير راضٍ عما يقول أخوه:

– هيا أبعِد الصحن من أمام خُطاط. الحق أن الذين التجأنا إليهم خاليْ الوفاضِ لم يُحيجونا إلى شيء، – وفي اللحظة نفسها غيّر موضوع كلامه: – أظن يا والدنا أن ضيفينا من البسلني لا يعرفان الخبر المتعلق بالروس في نواحيكم آجِبْسو، لم أجد الفرصة لروايته لهم لأننا لم نلتق منذ مدة غير قصيرة.

– هذا تصرفٌ سيء منك يا ربينا، – مازحه مفدق باسماً، – تكون إذن نسيتَ شيئاً مما ربَّوك عليه. ماذا كان كبارنا يقولون؟ لا تتكلم على من تصرف معك بسوء. ومن أحسن إليك فأطلِعه على خيرك وشرك. سأُطلِعكم على ما يريد ربيب آل مرشان أن أرويه: لم نسمح لأعدائنا جيش القيصر الذين يسموننا " ميدوفيه " أن يتوغلوا في جبالنا. وإن أردت حقيقة الحال فلسنا من اعترضهم، بل جبالُنا المنِعُ الممتدةُ على ساحل البحر في غاغرا وعلى مخرج سوخوم، والتي لا طُرُق إليها. وكان الروس أرسلوا إلينا موفَدَين من أبناء قومنا الأبخاز، ولكننا أطلقناهما وأرسلناهما في الجبال وقد أنسيناهما درب المشاة الذي جاءا عليه.

– تصرّفتم جيداً مع من تحالف مع الكفار... – ارتعب غازي إمام وقد تذكر ما يفعلون هم مع النقيب تورناو، فأكمل اعتباطاً: – هذا ما يحدث!..

– نحن سمعنا هذا الخبر المفرح وإن لم يجد تيمبولات الوقت لإخبارنا.– قال الأمير قانَقوه متظاهراً بأنه يرفع مؤخرته عن المقعد. – وشكرناكم عليه. ويمكن للخارج من جبالكم أن يصل إلينا على الطريق الوحيد ما بيننا.
– نحن سنغلقه بإتقان يا أمير. – قال سفربي الذي اكتفى إلى الآن بالاستماع.– إن لم يأتوا من جهتكم.
– ثقوا بنا أيضاً – عبّر الأمير خُطاط عن رأيه، – كما نثق بكم من هذه الناحية. هذا ما يقوله نَقّار المعروف عندنا وعندكم.
– صحيح، – وافق الأمير قانَقوه كلام صديقه الأمير.– إن لم نفعل هكذا فسيمزقنا، نحن الأديغة، الجنرالُ زاس كما فعل الجنرال يرمولوف بالقبرتاي. يقولون متى أكل الضيف اتجه بنظره إلى الباب، واللهِ يا أمير خُطاط جلسنا ما يكفي، وأظننا أرهقنا كبيرنا مفدق بشكاوانا الأديغية التي لا نهاية لها. وهؤلاء قطعوا طريقاً طويلاً فليستريحوا، ونحن سنعود إلى أسرنا التي فارقناها. وإن كنتَ ستمضي بعض الوقت في شجراي يا ضيفنا المبارك التقينا مرة أخرى. وستزورنا، وستطّلع على أحوالنا. إذا كنت تريد يا مفدق – ابتسم بعينيه الصافيتين المرائيتين، – الالتقاء بالجنرال زاس فسنخبر نَقّار ونؤمن لك لقاء معه... لا، لا يا ضيف، لا أتكلم على نَقّار الذي كنت تعرفه قبل بضع سنوات، بل على نَقّار اليوم الرجل الخشن الحكيم.
– ولم يكن جباناً في السنوات التي عرفته فيها. لم أعرف أن لنَقّار الفلاح[1] مثل هذه الإمكانات... لا يهمني إن كان الجنرال زاس حياً أو لا. غير أن نَقّار إن كان رجلاً فالأفضل له أن يأتي برأس الرجل الذي يعلق رؤوس الشراكسة على أعمدة داره من أن يشبّه الأديغة بالطيور البرية فيجعل أعداءنا يسخرون منا. لو فعل لكانوا استحسنوا بسالته، وغنّوا له أغاني التمجيد .
– يتعهد نَقّار أن يأتينا برأس زاس متى غضب. وسيفعل هذا. ولكننا لا نقبل منه لأن هذا التصرف سيسبب لنا مآسي كبيرة. – نهض الأمير قانَقوه. – لن

[1] في الأديغية "فقولأ". وتترجم بالفلاحين الأحرار، ويُفهم من السياقات المتعددة للكلمة أنهم الفلاحون غيرُ الأقنان، ولكنْ المرتبطون بمالك الأرض نوعَ ارتباط.

نختتم أمسيتنا الجميلة بالكلام على زاس اللعين. سيجد عقابه يوماً، ويُكسَّر أنفُه على مبدأ: " من لا يهدأ يجد نفسه أخيراً خارجاً ".
كان أكثرهم ارتياحاً لانصراف الضيوف البسلني هو تيمبولات المحرَج. أمر بتنظيف المائدة وإخراجها من الغرفة خلال بقاء الأتاليك في أرض الدار. وهوّى الغرفة من خلال النوافذ المشرَعة، ثم دُعي الأتاليك مفدق ثانية إليها.
ظلت المضافة بعض الوقتِ صامتة ومفدق وابنه جالسان، وتيمبولات وأخوه وغازي إمام واقفون. لاحظ الأتاليك اضطراب تيمبولات فقال له:
– أراقبك طوال المساء يا ربيبنا فأراك مهموماً. أخبِرنا إن لم يكن سراً نتفهمْك.
ربما ما كان تيمبولات ليجيب حالاً على سؤال الأتاليك لولا أنه أنهاه بعبارة "نتفهمك".صبر تيمبولات بعض الوقت، وتظاهر بالنظر إلى أخيه. ونظر بطرف عينه إلى غازي إمام البادي عليه ارتياحُه في داخله لجلوسه في حضرة العجوز الأبخازي المكرَّم واحترام الحضور له. ونظر إلى سفربي نظرةَ موافَقةٍ، نادماً على أنه لم يُطلعه على سرّ آل قرمرز. ولكن سؤال العجوز الذي يجد فيه راحة أطلق لسانه:
– والله لا أعرف يا والدنا كيف أصارحك بالهمّ المزعج الذي يشغلني... أقسمنا مضطرين أمام الجنرال زاس أن نعبُر بضابط روسي أرض الأبزاخ إلى نواحيكم.
– أيُّ قسمٍ هذا؟! – صاح مَرشان مفدق وقد جحظت عيناه الزرقاوان.
وأجاب بنظرة تحمل مزيداً من الاحتقار: – ألا تعرفون أن في هذا نكبَتكم ونكبتنا! متى سمع الأديغة بالخبر مزقوكم كما تمزق الذئاب الخروف!
– سامحني يا والدنا، لم يكن لنا حلٌّ آخر لاستعادة قريتنا وأرضنا.
– لا تُسمِعني! – نهض الأتاليك مصلِحاً حدبته، – هات السوط المعلق هناك، – مدّ تيمبولات ظهره حين صار السوط في يد العجوز. – اغربْ عن وجهي! لم أربّك على الخيانة! اغربا كلاكما عن وجهي! – صاح على سفربي وباي. – وأنت يا غازي إمام أين تنصرف؟ – سأله بصوت ألطف، – اِبقَ أنتَ!

ذرع مَرشان مفدق أرض الغرفة بضع مرات ويداه خلف ظهره، يتخطى السوط على الأرض. ثم قال لنفسه والإهانة تحرقه بعدما ركل السوط متشفياً به.- أيّ مصيبة وقعتُ فيها... وأنا آمرُ هناك باقتلاع عيون الخونة من الأبخاز...

– نعم يا مفدق يا مبارك، ربما كان الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد قدّر هذا. تحلَّ بالصبر!

– هل تعرف يا إمام ماذا سيحدث لنا إن تصرّفنا دائماً على مبدأ تقدير الله لكل شيء؟ – وقف بسرعة من كان يذرع أرض الغرفة، وقال. – سيسلبنا هذا الذي ستعبرون به الأرضَ الجميلة التي منحَنا إياها الله. وسيضموننا إليهم منكرين كوننا بشراً. الحقُّ يا إمام، – سأله سؤالاً مفاجئاً، – وأنت هل أقسمت؟

– ماذا بيدنا؟ وأنا أقسمتُ بعلم الله. فكرت كثيراً، فعلتُ ما سألتني عليه لأن الله يحمي المكرَه. غير أني لا أسمح لفكرة مصالحة الكفار أن ترِد إلى ذهني. اغفر لربيبك فِعْلته يا مفدق. يتأمل منك ذلك. لا أمل غيرُك لتيمبولات الذي قضى أخواه على يد الكفار...

– من عنده عِلمٌ بأمر هذه الخيانة؟..– جلس الآن الأتاليك يسأل بنبرة أقلّ حدّة.

– بعد الله الواحد الأحد يا مفدق خمستُنا من يعرف. لا أتكلم على جانب الكفار الروسي، هؤلاء بيدنا أحدُهم. والبسلني وأباظة الباشِلْبي لا يعرفون. بل إننا لم ندعْ لجماعتنا النغوي أيّ شكّ. إن وقفتَ إلى جانبنا في هذه المسألة فحسبُ رضينا عنك. ولا يقتصر الأمر على هذا؛ الكفار، وأنت تعرف هذا،لا يتورعون عن شيء في أمر المُلك...

– حسنٌ أنكم تستطيعون المحافظة على سرِّكم... – قاطع مَرشان مفدق الإمامَ الجالس في حضرته، وفي عزِّ صحته،، بعدما فهِم ما يريد قوله بشأن الملك. ثم أضاف بصوت أشدّ وثوقاً: – على ما يبدو، وجب عليّ أن أقف أنا أيضاً معكم، ليتفهمْني الله وليغفرْ لي... أين أصحاب البيت يا ولد؟ نادى إلى مَن هم خارج الغرفة. وقال لتيمبولات الذي دخل قبل الشخصين: – هيا أعِد

السوط إلى مكانه يا عديم الشرف! لا تفعل بي مثل هذا مرة أخرى. الآن حالاً سنستأنف طريقنا سواء كنتم جاهزين أم لا.

– حياك الله يا والدنا، – قال تيمبولات الذي يعرف منذ صغره طبيعة مربّيه، – إن أردت التعرف على من سيرافقنا عرّفتك عليه.

– لا أريد! – جزم مفدق، ولكنه أضاف: – أمامنا طريق طويل، – وسأل على سبيل التذرُّع حين رأى باي قد رفع طرف كتفه اليمنى: – ماذا يا باي؟ وأنت هل يقلقك أمرٌ ما؟

– لا يا كبيرنا، قولُكم قولي بعد أن حدث ما حدث. ما الفائدة الآن من إدانة تيمبولات؟.. – مرة أخرى ارتفع رأس كتف باي وانخفض رغماً عنه.

– ماذا بيدنا إذن،كما يقول غازي إمام، – تنهد الأتاليك العجوز ثقيلاً، – لو كانت الرياح تجري بما تشتهي سفُنُنا... لولا أن هناك ما يلجمني هل كنت أمرتُ بإرادتي في العام الماضي باقتلاع عيني الخائنَين الأبخازيين؟

– نتكلم في هذا لاحقاً يا والدنا، – قال سفربي حريصاً على والده، – لم يكونا خائنين بل موفَدَين.

– نعم يا ولد، صححت كلامي جيداً... – قال مفدق ثم أضاف بعد قليل.– لا تعلِّمني أنتَ ! ليس امرأً صالحاً كلُّ من يهددك بالقتل إن لم تستسلم ولم تفتح له باب بيتك، بل هو قاتل. وإن أردتم قلت لكم حقيقتهم. كل الوساطات، كائناً من كان الفاعلون، أبخازاً، أديغة، روساً، نغوي، منبعُها الخيانة... وأنتم فعلتُم بأنفسكم هذا. وأنا تجبروننني أن أفعل هذا في شيخوختي... كنا محظوظين فهمَنا اللهُ ورحِمَنا. وإن حدث غيرُ هذا فنحن نستحق أي عقاب... تعال يا إمام، دعْنا نركب أنت وأنا قبل الفجر، ولْيلحقْ بنا هؤلاء بعد وقت.– وعلى نحوٍ لا تعرف معه إن كان غاضباً أم لم يكن، همس بعدما أركبوه، في أذن تيمبولات الذي كان يمسك له الزمام والركاب: – سأعاقبك على ما فعلتَ يا عديم الإيمان،سنتقابل ثانية في غابة تْحَجأغ. وأنت تعرف المكان.

VIII

كان الليل مظلماً حتى لَيمكن أن يذوب فيه الفارسان المتخفيان لولا وقع حوافر الخيل. ولكنهما حاذيا الضفة التي يصخب فيها ماء النهر أكثر من الأخرى كي لا يثيرا ضجة في القرية النائمة، وتوغلا سريعاً في عمق الغابة القريبة. وحين صارا بغلوتي حصان على الطريق القديم للأبزاخ قال مفدق لغازي دون أن يلتفت إليه:

– الآن قفْ إلى جانبي يا إمام. سنريح الحصانين أيضاً، ونحن سنرتاح قليلاً من ركوب السرج.

– سأقف إلى جانبك يا كبير إن سمحت لي.

– إن لم نتصرف هكذا ضاع منا ما تركه لنا كبارنا من احترام الصغار للكبار. ما السبب في رأيك في سوطِي ابني – ربيبي الذي دخل عامه الستين؟

– ربما لأنه يستحق يا كبير.

– ليس لهذا السبب وحده بل لأني أعرف أنه لن يردّ على والده مهما آلمتُه. ولو وقفتَ إلى يميني، لا إلى يساري، حين طلبت منك أن تقف إلى جانبي، لفعلتُ بك ذلك متجاوزاً كونَك إماماً.

– لا يا كبيرنا الطيب، لا أسمح لنفسي بالخطأ في مثل هذه المواقف. – ابتسم غازي، – ونحن النغوي نعرف هذه الأمور البسيطة.

– تعرفون لأنكم تعلمتم من الأديغة.–قال مَرشان مفدق وشيء من المزاح بادٍ عليه، وضحك، وأضاف بسرعة: – لا يؤاخذْني النغوي، يقال إن الله نفسه يحب المزاح، فمزحتُ. نحن لا نجهل حكمة و رجولة كباركم جنكيز خان وخانباتي وتوخْتَمِش. سمعنا بسِيَرِ هؤلاء يرويها كبارنا. جعلوا العالم، شرقه وغربه،يرتجف رعباً. ولكن لم يستطيعوا احتلاله كاملاً. لماذا حدث هذا؟

– وأنا فكّرتُ في هذا كثيراً. وصدعتُ به رأسي، غير أني لن أستطع تفسيره. أمراؤنا الكبار الذين ذكرتَهم نعتدّ بهم، ونُعزُّهم، ونحتفظ بذكراهم في قلوبنا، ولكن نعتب عليهم أحياناً حين نقع، كما اليوم، في مأزق. بعثرونا في أنحاء الأرض دون أي قيمة لنا، وبقيت أسماؤهم في تاريخ العالم؛ سواء بالخير أم بالشرّ.

– كيف نفهم ما فعله القادة الكبار في حين لا نستطيع فهْم ما يجري لنا؟.. ولكننا لا نتكلم عليهم إلا لأننا مهمومون بهم فأقول لك وجهة نظري، ولا أظنك لا تعرف ما سأقول، حدث أن تكلمنا أنا وتيمبولات كثيراً على كون جنكيز خان وخانباتي من أسلاف آل قرمرز. وسأعرض عليك رأيي: لن تستطيع الاحتفاظ بالبلاد التي تبعد عنك آلاف الأيام، باقتحامك لها وانسحابك منها، دون أن تثبّت أقدامك في البلاد التي ولِدتَ فيها، ودون أن يسود الوئام أسرتك.

– ألا يحدث هذا إذن لمن يغيرون علينا الآن؟

– لا، لا أوافقك في هذا. استعدّ حكام روسيا طويلاً لاقتحام القفقاس. كم مرة حارب هؤلاء تركيا والفرس لهذه الغاية؟ سفكوا دمهم من أجل الكرج والأرمن مسترخِصين أرواحهم. لماذا فعلوا هذا، ولماذا جعلوا من هؤلاء حلفاء لهم؟ هذا السؤال يا إمام، رعاك الله، لا يحتاج إلى إجابات كثيرة بل إلى جواب واحد: – الروس والكرج والأرمن من دين واحد. نحن مسلمون، وأكثر الأبخاز يدينون بالدين الآخر، فخدعوا المسلمين البسطاء، فأنجزوا مصالحة القيصر بأسرع من غيرهم.

– وأنتم يا كبيرنا الطيب؟ كيف استطعتم أن تحافظوا على استقلالكم؟

– ونحن ماذا نكون؟.. نحن عانينا من أعدائنا، وحاربونا كثيراً، بصفتنا مسلمين حقيقيين.

– يبدو أن كل الحروب تقوم على أساس ديني.

– ليس إلى هذا الحد. بل يُخيَّل إليّ... ولكن أضف إلى هذا السبب طبيعة الأقوى في سلب الأضعف ما عنده. وأظن أن هذا يحدث لنا في الحرب التي شنها علينا حاكم روسيا.

سار الفارسان مدة يتحادثان. كانت غابة تْحَجأغ ما تزال مظلمة ولكن كليهما يُحس بالنهار الذي يقترب من الشرق. والحشرات التي أيقظها النهار غيرُ المرئي تزعج الحصانين فيصوتان باستياء. ويهزان رأسيهما، ويخالفان بين أذنيهما. وينفضان ذيليهما. وكلما مر الوقت اتسعت الغابة الصامتة بأصوات

الطيور التي يوقظها الصباح، وصمتت أصوات حوافر الحصانين التي تبدد الليل. وخُيِّل إليك أن نهر لابا الذي كان صوته قريباً يبتعد الآن.
قال مفدق حين رأى الشمس المحمرة تنظر من خلال أغصان الأشجار مدركاً سبب تنهُّدِه:
– النهار الذي سيُنسينا البارحة قادم إلينا... ماذا يحمل إلينا يا تُرى؟..
– سنرضخ لأي شيء يحمله إلينا لأنه بعلم الله تعالى يا مفدق، – قال غازي إمام، وأضاف بسرعة: – لا تدعْنا نفوّت صلاة الصبح!
– لا بأس أن نصلي الصبح، غير أني سأدعو إلى الله في حضرة الشمس العظيمة المشرقة. لا تحظْ بعينيك! لا عجيب في هذا. اتركْني وصلِّ أنت صلاتك.
جلس غازي إمام إلى الساقية التي تنبع من أسفل شجرة وهو يتمتم بينه وبين نفسه قائلاً "انظرْ ما سيفعل الآن من قال: "نحن انكشفنا لأعدائنا عن مسلمين حقيقيين"، واختتم صلاة الصبح بمثل هذه الكلمات: "اغفر يا إلهي مرافقتي لمن لا يتقبّلك بما يكفي إلى الآن. يبدو أن الأبخاز، وليس الشراكسة وحدهم، من لم ينسَوا بعدُ آلهتهم. سيتوه كل من ينحرف نظره عن سراطك الوحيد يا إلهي، ولكني واثق أن هؤلاء سيعودون بقلوبهم إلى وعيهم. ولن أدّخر جهداً في هذا السبيل".
ثم قال وهو يعلّق السجادة بطرف السرج بعدما فرغ من صلاته:
– ليرسلْ لنا الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد نهاراً جميلاً يا مفدق!
– وهذا ما رجوته من إلهي – شمسي العظيمة. – عبّر مفدق باختصار عن رأيه.
– إن اتفقنا على هذا الرأي فلْيكنْ معروف إلهنا الأحد العزيز خيراً علينا. ولْيحقق أمانينا. ولكني يا كبيرنا المبارك أظننا أخطأنا في ديننا الذي نمارسه. سندعو إلى الله الرحيم لأنه يتفهم موقف الضالين.
– أتقصِد ابتهالي إلى إلهنا – شمسنا العظيمة؟.. – ابتسم مفدق.– إن كان هذا ما تتحرج من قوله فأنت مخطئ يا إمام. لا يعني دعائي إلى إلهي الشمس

أني نسيت الله. لا يمكن أن تقول إن الله لا يعرف صعوبة التوفيق بين ديننا الذي مارسناه من الأزل وبين الدين الوافد علينا حديثاً. ولا يحدث هذا دون علمه. إنه يعرف كل ما يجري في العالم. إنه رحيم، يحمينا لأنه يفهمنا.

– هذا صحيح. – أنهى غازي وقد أعاد إليه كلام العجوز لونه وروحه: – إن كان هذا رأيك فليرضَ الله عنك، وأنا راضٍ.

– صعبٌ إرضاء الإنسان يا إمام. وإن حاولنا تحليل الموضوع تطرقنا إلى أمور كثيرة، وصدعنا رأسينا. – ما يشغل بالي في هذه اللحظة هو عدم قدوم من طلبتُ منهم اللحاق بنا. – نظر مَرشان مفدق لحظة انتهائه من كلامه إلى الجهة التي تصدر منها أصوات حوافر الخيل. – ها هم قادمون، كان خطر لي كثير من الوساوس. عالمُنا عالمٌ غير مأمون. كلٌّ يبحث عن مصلحته فحسبُ. – سأل العجوز ربيبه تيمبولات إذ لم ير بين الفرسان القادمين الضابط الروسي الذي أخبروه عنه: – أين هو الضابط الذي شغل بالي الليلة؟

– أوقفناه مع باي في المنعطف الآخر.

– وهذه؟ ما نيّتكم نحو هذه المرأة؟

– وماذا ستكون؟ – قالت فجأة بلغة الأباظة المرأةُ المتينةُ البِنية التي يتراوح عمرها بين السابعة والعشرين والثامنة. – يأخذونني إلى الساحل على نيّة بيعي إلى أحد الأتراك... – ثم أرسلتْ صوتها بالبكاء متأملة أن يُشفق عليها أحد كبار السن في القافلة.

– لماذا تثيرين الضجيج في الغابة يا عديمة الشرف؟! – نهرها ياغز، – ألا تعرف طبيعة من تُقيمين مناحة أمامه؟

– اتركْها!.. – أضاف مفدق باسماً، غير مهتم بكونها مِن قومه. – كل النساء يصعب معرفة ما في قلوبهن. الله وحده من يعرف. – ثم أنهى بصوت أرقّ: – متى ما تحقق لها مرادها عاشت سعيدة وقد نسيتْ ما قالتْ وما فعلتْ.

– لينتقمِ الله منك أيها العجوز القميء مقابل ما سعِدتُ وما سأسعدُ! إن كان هذا مقدار فهمِكم فلن أبكي بل سأرقص أمامكم. هيا أُرقص معي يا أتاليك النغوي، يا ابن قومي.

– أبعِدوها عني! – قال مَرشان مفدق باختصار لتيمبولات، وأنهى باختصار:
– تعال إلى الحاج الشيشاني. – وبعدما مشوا قليلاً قال له أيضاً: – ألم تجدوا غير هذه المرأة الثرثارة تصطحبونها معكم؟
– تتصنّع،وليست غير راغبة في المكان الذي نصحبها إليه. – أجاب تيمبولات دون اكتراث.
– وأنت هذا رأيك؟ وأنا رأيتها هكذا. أهي بِكرٌ أم ثيِّب؟
– يقول من سرقوها إنها عانس.
– لا أحسد من ستدخل بيته إن كانت بكراً أم أرملة... ولكني أعدت التفكير فرأيت أنكم فعلتم خيراً باصطحابها. طريقنا طويل، عند الضرورة تحضّر لنا الشاي. وتقلي لنا لحم الغزال. تعال عرّفْني على الحاج حسن بيه. – وبعدما ساروا مدة ضحك مفدق ثانية وأضاف: – سنرضخ إن قال غازي إمام إنه بمعرفة الله. سنلبي لمن حلّفوكم ما يريدون. لن يكون بلا فائدة لكم ولنا. لِيفرحْ إن لم يتُه في هذه البلاد.
– لا تدعْ مسألة الضياع تدخل في مهمتنا يا والدنا.– جزِع تيمبولات.
– كيف يخطر لي هذا؛ ولكن أتساءل: من يعرف! إن جرى مثلُ هذا فلن نكون بلا فائدة فحسبُ بل سننتكب من ورائه. سأسألك يا ولد إذ لا سرَّ بيننا. هل رفيقنا خالي الوفاض أم بيده بعض الذهب أو الفضة؟
– لا أعرف ما في جيبه، – أجاب تيمبولات أتاليكه دون إبداء استيائه من السؤال. – ولكننا لم نر في كيسه غير التبغ والأوراق والقلم.
– يستحيل ألا يكون معه شيء من الذهب والفضة والنقود. – جزم مفدق، وسأل ثانية: – ألا يلبس خاتماً؟
– طلبنا منه أن يلبس في إصبعه الصغرى خاتماً على طريقة شيوخنا.
– فعلتم حسناً بهذا. – تعجّب مفدق حين رأى النقيب تورناو عند شجرة البلوط الكبرى على منعطف الطريق وهو يحفر على قشرتها بطرف الموسى الحادة. – كسوتم جيداً هذا الذي تُخفونه: كساؤه، وقبعة الحج مناسبان له، ومظهره أديغي حقيقي. سلام عليكم يا حاج!

– وعليكم سلام يا مفدق، – ردّ النقيب التحية كأنهما متعارفان منذ زمن بعيد. – يسرني أني تعرفت على أحد رجالات القفقاس الذين يُذكرون بالخير، والذي أتأمل منه صداقة مخلصة.

– الصداقة والصدق والإنسانية لا تباع ولا تشترى يا حسن بيه. ولكنها لا تُختبَر في موقع الرخاء بل في موقف الضيق. ولذا سنتشارك مشاقّنا إذ وقفنا معاً تحت نير واحد. غير أني أريد أن أعرف ماذا تنقش على هذه الشجرة.

– حفرتُ اسمي وأنا مالٌّ لا أعرف ما أفعل بانتظاركم.

– ليس مستحبّاً أن تقف مالّاً... – ضحك مفدق، – ولكن لا أظنه السبب الوحيد لما فعلتَ. إذا كنت قلت إنه يجب أن نتعامل بالصدق فمن هذه اللحظة نتناسى سِرّنا.

– لم يحفر اسمه فحسبُ، – ساهم باي مرتاحاً، – بل اسمي أيضاً.

– أيّ اسمٍ حفرت؛ الاسم الشيشاني أم الروسي؟ حمل عدم الارتياح تيمبولات على السؤال.

– اسمي الشيشاني. – أصلح النقيب حاله. – ليست أسماءٌ من قبيل " حسن بيه، و" باي " قليلة عند الشراكسة.

– إن كنتَ تفكر هكذا فهو تفكير صحيح. – وافق مفدق النقيب الذي تعرف عليه، ثم أكّد: – ولكن لا تستغل اسم باي، ولا اسمنا في مهمتك. – وبعد سكتة قصيرة أنهى كلامه مصدِّقاً إياه. – سأقول لك غيره أيضاً إذ بدأتُ: ستمضي قرون طويلة قبل أن يقرأ الروس ما كتبتَ[1].

– يا كبير، يا من أقدّره، لا تغترّوا بمثل هذه الآراء الهائمة. روسيا قوية جداً، غنية بالجيش والسلاح والمال. لن تقدروا عليها.

تفحّص باي المكان بكتفين ناتئتين وأجاب من رافقه مكرَهاً:

---

[1] "... حين عرفّني الأخوان قرمرز على مَرشان مفدق وابنه سفربي لمساعدتي كانا يعتقدان، رغم عهدهما الغليظ بمساعدتنا، أنهما سيقطعان أملنا من الاستيلاء على جبالهم التي تعدُّ مِنعاً، وأنهارهم السريعة، وغاباتهم التي لا مدخل ولا مخرج لها، ومرتفعاتهم الميئوس من اجتيازها.." المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– أيها الروسي الكافر!.. يا حاج حسن بيه، لا تقل ما يأتي على رأس لسانك أمام كبيرنا. يكفي ما فعلتم بنا ولو لم تقتحموا أرضنا.
– ما يقوله باي صحيح. – قال مفدق حذِراً. – ولكن الأفضل أن تعرف ما في قلب رفيقك. هذا يقول ما يريد، ونحن نفعل ما علينا فِعْلُه. الطريق الذي نُبدي فيه صِدقنا واستقامتنا لا يزال أمامنا.
قال مفدق فجأة لتيمبولات وقد تجمع الأشخاص الذين سيستأنفون طريقهم:
– أريد إن سمعتم كلامي أن أقترح عليكم شيئاً لن يسبب اختلافاً بيننا. لماذا نسافر معاً وقد أصبحنا مجموعة غير قليلة؟ سنعيد باي وياغز إلى شجراي...
– ما الأمر يا كبير؟! – أسرع باي قبل أن يُكمل مفدق اقتراحه، ورفع رأس كتفه مرتين. وانتفض الآن بسؤال أخطر: – أتريدون التخلص منا؟
– لا تستغرب يا باي اقتراح كبيرنا، أنا مطّلع عليه. – نصحه تيمبولات مهدِّئاً: – لأننا لم نترك وراءنا رجلاً يحرص على الأسرة.
– قلتُ له اسمك يا باي لأني فكرت في هذا، – أضاف مفدق إلى كلامه. – لم نكلف الولدين سفربي وتيمبولات بما لا يستطيعان إنجازه. ثم إني معهم. وسأكلِّفكم بغيره إن أطعتموني: هذه المرأة التي اصطحبتموها أعيدوها إلى حيث خرجت.
– هكذا إذن؟! – قالت المرأة التي فهمت أنها المقصودة بالكلام حين سمعتهم يأتون على ذكر امرأة، مُفهِمة ياغز بنظرتها.– سرقتموني ولوّثتموني والآن لم تعودوا بحاجة إليّ!
– إن كان هذا رأيَك فأنت حرة. أنا كنت أود أن أُحسِن إليك. – قال مفدق بلا اهتمام بها.
جزم باي مرة أخرى بوجه شاحب:
– لا أوافق أتاليكنا مفدق وأخي الأكبر تيمبولات على ما قرراه بشأني. يكفي ما جرى لنا نحن الإخوة الأربعة. لن أدع أخي يخاطر في طريق غير مأمون دون أن أرافقه.
سأل النقيب تورناو نفسه وقد لاحظ النقاش الدائر بين رفاقه، كاتماً عنهم عدم رضاه، متحلياً بالصبر:" من، وما الذي لا يستطيع هؤلاء تقاسُمَه؟ أهو أنا؟ ".

– أكثر من أسمع اسمَه هو باي، وأسمع أيضاً اسم ياغز. ولكن ما لا أفهمه هو الصوت العالي لهذه المرأة، ونِظرتُها. وماذا إن انكشف هؤلاء عن أناس آخرين وأنا أطمئنُ نفسي بأني جعلتهم يُقسِمون ووثقت بهم؟ إن كانوا نسوا أن دولة روسيا تساندني فسأذكّرُهم دون أن أُبديَ على نفسي الخوف "

– يا تيمبولات، ويا باي، وأنت أيضاً يا غازي إمام؛ أنسيتموني؟

صحا باي قبل غيره:

– لستَ يا حسن بيه مَن لا يستطيع هؤلاء اتخاذ قرار بشأنه، بل أنا. يريدون أن يعيدوني إلى شجراي. ولكن أخي تيمبولات وغازي إمام يتناسون أننا، ثلاثتَنا، أقسمنا لك.

– لا يخطرْ لك يا حسن بيه أن الجماعة التي يتزعمها مفدق الذي نحترمه يمكن أن يختلفوا، ويمكن أن يتكلموا بسوء عليك في غيابك، – قال غازي إمام وهو يمط كلامه، وينصّب نفسه رجلَ دين. وفجأةً اتهم المرأة التي هي رفيقة الجميع.

– كنا نوينا أن نُحسِن إلى هذه المرأة التعيسة فنعيدها ولكنها لا تقبل. تريد أن تصبح ضجيعة أحد أغنياء الترك فقررنا أن نحقق لها ما تريد. اسمح لنا يا مفدق، يا من جعل الله يومه مئة، أن نركب.

كان يبدو أن مشكلة الجماعة الخليطة التي يرافقها النقيب تورناو انحلت فجأة كما بدأت، ولكن كان أمام النقيب أمور كثيرة ينبغي التفكير فيها. كم من العقبات المتنوعة ستنتصب على طريقه أيضاً؟ ثم ماذا ستكون طبيعة هذه العقبات؟ من مِن بين الثلاثة الذين أخذ عهدهم سينقضه؟ أهو باي الذي لا يثق به، أم صاحب اللسان المعسول غازي إمام، أم تيمبولات الذي وضع ثقته فيه؟ ومَرشان مفدق وابنه سفربي لم يلتق بهما في الطريق بالمصادفة وإن لم يأخذ عهدهما. – هؤلاء أتاليك آل قرمرز. والأتاليك حسب شرعة الأديغة فوق الجميع.

همس غازي إمام في أذن النقيب بعدما ساروا قرابة الساعة:

– هل تعرف طبيعة باي؟

– أعرف، – أجاب لا يعرف سبب سؤال إمام.

– لا تخف، ليس موعد نوبته اليوم لأنه ليس الانتقال من شهر إلى غيره.

– حسنٌ إن كنتَ مطمئناً إلى حالته.
زمَّ غازي إمام كتفيه يريد أن يقول: من يعرف؟
– احذرْ ؛ إياك أن تُغضِبه!

IX

الرعد الذي بدأ من أعالي نهر لابا البعيدة يتردد صداه في جبال الأبزاخ التي تسرّح النظر بقممها الثلجية الهادئة. ويدويّ في السحب المسودّة التي تزحف منقبضة ومنبسطة بصوت مريع بعد أن تبرق السماء، ثم يضيع الصدى في جبال الأبخاز من الناحية الأخرى.
– الريح تحمل معها المطر والبرَد ولكن لا داعي للقلق يا حسن بيه، – قال مفدق غير عابئ بهياج الطبيعة في أعالي نهر لابا. – هذه طبيعة بلادنا: هنا صحو وشمس، وهناك مطر وغيم. اهدؤوا لحظة! ما هذه المجموعة من الفرسان أمامنا؟.. أوّلُهم، مِن طريقة ركوبه، يشبه برزج جراندوقوه... ما الذي جاء بهؤلاء إلى هذا المكان البعيد؟ – همس لأخيه باي، – أنت وحسن بيه توغلا في الغابة من الطرف الآخر... وهم ونحن على الطريق. أيّ حديث سنتبادل إلا التحية؟ ثم نفترق. – تحية يا جراندوقوه، أراكم مجموعة غير قليلة، – قال مفدق محيّياً ببرود الفارس الوبيخ الذي ترجل من الحصان، وأضاف: – ستصبح غنياً، لم أتعرّفك.
– ولك تحيتي أيضاً يا مفدق، وأنتم أتيتم من مسافة أبعد. لم نلتق منذ زمن بعيد. لم أتوقع أن نلتقي هكذا في أرض البسلني – الأبزاخ. – ثم التفت برزج إلى تيمبولات وغازي قائلاً في نفسه " ما كان أحوجَني إليك يا مفدق!" – وأنتم يا إخوتنا النغوي نسمع سيرتكم ولكن لقاءاتنا قليلة. ألا تسافرون إلى جهتنا، جهة البحر؟.. – عاد فتوجه إلى مفدق غير عابئ بإجابات أسئلته: – حياك الله يا مفدق على توقُّعك الغِنى لي، ليسمعِ الله منك! ولكن أملاكي تنقص ولا تزيد. كنا آتين نسرق من القوزاق على ضفة نهر بشزة بعض المواشي

فتوجّبَ علينا زيارة حجرت نَقّار[1] أحد رجالات الأبزاخ، ولم أر من اللائق أن نغادر حفلة الجابشه[2] التي يقيمونها له إلى السرقة... تعرفون كيف يهتاج القوزاق حين يحدث مثلُ هذا...

– ما مرضُ نَقّار؟ – سأل مفدق.

– أغاروا على قوزاق نهر بشزه قبل أيام فوشى بهم أحد من أودعوه ثقتهم، فاستقبلهم القوزاق جاهزين لحربهم فأصابوهم. ونَقّار نفسُه أصيب بضربة سيف شديدة. والأبزاخ كلهم يتناوبون على حضور حفلات الجابشه التي يقيمونها له.

– والله ما عندنا خبر، – قال تيمبولات، ونظر إلى مفدق نظرة تساؤل.

– نعم يا تيمبولات، – وافق مفدق ربيبه منادياً إياه باسمه، لا بـ "ولد"، ما سمعتُه خبر مؤسف. لن أعود إلى الأبخاز جماعتنا دون أن أُعرّج على نَقّار الرجل الصالح.

– ليشملك الله برعايته يا نَقّار، – ساهم غازي إمام أيضاً في الحديث. ليكن في حماية الله. نجا من الموت لأن الله قرر سلفاً سلامته. وسيشفيه ويوقِفُه على قدميه.

– نعم، نعم يا إمام. نجا نَقّار من كثير من أمثال هذه المهالك، – أيّده برزج جراندوقوه، – ذكروا في الجابشه عدد الجروح على جسده فكان هذا الأخيرُ تاسعَها. يُخفي ألمه وإن كان الجرح ثقيلاً. – كان برزج لاحظ قبل وقت طويل المرأة التي مع مفدق وجماعته فسأل كأنه يلاحظها للتو: من هذه المرأة، وماذا تنوون بحقِّها؟

---

[1] حجرت، ويقال أيضاً: أبرِك، يطلق على أشخاص مغامرين إشكاليين، يقومون بغزوات ضد الروس أو القوزاق بمبادرات فردية، ويسطون أحياناً على أملاك أبناء قومهم.

[2] حفلات سمر ببرامج متنوعة تقام لمن جراحهم أو كُسورهم ثقيلة مؤلمة للتخفيف من آلامهم. والفقرة المهمة فيها هي تقديم نوع من المعجّنات القاسية المستديرة، تتفنّن الفتيات في زخرفتها، وتعلّق بالسقف، ويتبارى الشبان دون استعمال أيديهم في اقتطاع جزء منها بأسنانهم.

– هذه المرأة، – أجاب تيمبولات بسرعة، – تريد أن تلتحق ببيت أحد الأغنياء الأتراك.مهلاً يا خيرت، اهدئي!– قال للمرأة التي كانت صامتة. – نعطيك إياها يا برزج إن أردت إذ صادفتها.

– إن كنت تقارنني بأحد الأتراك، – ابتسم برزج، – فأنت مخطئ. ولكن يمكن أن أشتريها منكم من أجل ألا أعود خالي اليدين إلى الوبيخ.ألن تقبلوا إن أعطيتكم مقابلها أحد هذين الحصانين؟

– الحصان الواحد قليلٌ يا برزج، أضف إليه الآخر. – جزم مفدق دون استشارة أحد. وقال له مباشرة لأنه يعرف طبيعة الأمير الوبيخ. – لا نجهل، لا أنتم ولا نحن، ما ستربح منها متى بعتها على ساحل البحر. ونراعي كرامة نَقَّار حجرت في هذه العملية لأننا نذهب إليه. ليشفِ الله من نهاود في السعر كرمى له، ولْيوقِفْه على رجليه! هذا الرجل الحكيم معقِدُ آمال الأديغة والوبيخ والأبخاز. بل النغوي أيضاً، أليس صحيحاً يا ولد؟!

غمغم ياغز الذي لم يتكلم إلى الآن بعدما قايضوا المرأة الأبزاخية بالحصانين القوزاقيين وافترقوا:

– من حُسنِ حظنا أننا تخلصنا من هذه المرأة اللعينة...

– بعدما لوّثْتَ شرفها يا عديم الإيمان! – نهر مفدق ياغز غير متحمّلٍ كلامه.– هيا يا ولد، لستَ من أتكلم إليه بل سفربي، ستصحب أنت وياغز الذي غسلنا عاره حسن بيه وباي ريثما نعود من زيارتنا. لن نتأخر، سنعود مع المساء.

لم تكن قرية نَقَّار بعيدة: وراء ظهر المرتفع الذي يبدو متى عبرتَ نهر لابا. وعلى يسار القرية يمر نهر شْحَغواشَه الذي لا يزال نهراً غير كبير. وإلى اليمين يبتعد نهر ملغوش الصغير ويصب في نهر شحغواشه في طرف القرية عند الصخرة البيضاء الكبيرة. ونهر ملغوش الصغير هذا هو ما لا يفارق مخيلة مفدق الذي لا يأتي إلى القرية لأول مرة. كانت عيناه نحو هذه الجهة رغم أن الرعد والبرق اللذين استقرا فوق الجبل غادراه منذ مدة. وتيمبولات الذي لاحظ الأمر أراح الأتاليك العجوز:

– لا تقلق من الناحية التي تنظر نحوها يا والدنا، لم يهطل من المطر ما يسبّب فيضان النهر.
– الرعد والبرق إنما يخيمان فوق جورجيا، – ساهم غازي إمام برأيه، وتعجب بلا أي سبب. – أفكر فأرى الأرض التي منحها الله للأديغة جنةً أرضية.
– وأرضنا نحن الميدوفيه؟ ليست أرضنا أقل جمالاً لولا افتقارنا إلى البحر.
– أسرع مفدق بالردّ على غير عادته كأنه نسي الأبخاز التي ولد فيها.
– وأرضكم جميلة يا كبيرنا الخيِّر، – لم يغيّر غازي إمام رأيَه، ولكنكم لا تملكون الأرض المتنوعة التي عند الأديغة. أنتم تقطنون رؤوس الجبال فحسبُ في حين أن الأديغة ساكنو سهول وجبال. يملكون الأرض التي تمتد من غاغرا، عبْر أنابه، وتنتهي عند البحر الأسود مروراً ببحر آزوف.
– هذا صحيح يا إمام... – ضحك مفدق، ثم تنهد، وأكمل بصوت أشد وثوقاً: – ولكننا ندور برَجُلِ هؤلاء الطامعين في هذه الأرض،المتخفي معنا، ونسمح له باستطلاعها...
ما سمعه قرمرز تيمبولات جعل رأسه ينتفض:
– على اتخاذنا لك ثقة يا والدنا...
– يا ولد! – قاطع مفدق كلام ربيبه وقد فهمه. – لا يخطرْ لك مثلُ هذا، هل تعرفني اليوم فحسبُ! ما أفكر فيه هذه اللحظة شيء آخر: ماذا إن وشتْ بنا المرأة التي قايضناها بالخيل؟ وبغضّ النظر عنها فبرزج المحبّ لنفسه يكرهنا. سيجعل الأديغة كلهم أعداءنا، ويجعلونهم يقطعون رؤوسنا. أنا عشتُ عمري، لم يعد يهمني شخصي بل أنتم.
– يا زعيم الخير، يا من جعل الله يومه مئة، – قال غازي إمام بلسان معسول،
– وهذا الاحتمال فكّرنا فيه نحن أيضاً. لم تقع عيناها على حسن بيه؛ بل لم تسمع سيرته.
– وهل أنتم واثقون من ياغز؟ – سأل مفدق عن الرجل الذي كان يخشاه أكثر مما يخشى المرأة التي تخلصوا منها.
– معرفتي بياغز مضى عليها زمن غيرُ قليل، ومع ذلك لا أستطيع أن أعلّق عليه بشيء. – التفت غازي إلى تيمبولات، وتملّص من سؤال الأتاليك.

– أنا لا أُطلِع ياغز على مهامي السرية!– وأضاف تيمبولات: – ولكن إن أوقع في نفسي شيئاً من الريبة...
– وهل ستنتظر إلى أن تشكّ فيه؟ – قاطع الأتاليك كلام ربيبه. – ثم فكِّرْ من أجل ألا تقول: " ولكن ".
– إذا كان الله قال: " أنا أحميكم، وأنتم احرصوا على أنفسكم " يا مفدق،
– اختتم غازي إمام بدلاً من تيمبولات، – سنعتبر أمر ياغز منتهياً في هذه الأيام.
– لا ألحّ عليكم، ولكن كلما قلّ عدد من يعرف سرَّنا كان أفضل. تعالوا نسرعْ. سنقابل من نزور مريضهم ونعود بالسرعة الممكنة.
قرية نَقّار لا هي كبيرة ولا هي صغيرة. في القرية الأبزاخية المتناثرة بين النهرين قرابة مئة وثلاثين أسرة. ويعيش فيها الأبزاخ والبسلني. وفي أعلى القرية، أسرتان من النغوي أعطاهما أهل القرية أرضاً تبنيان بيتاً. ليس في القرية بيوت متميزة، ولكن بيت حجرت نَقّار يبرز من بينها. ومئذنة الجامع تعلو الجميع. وظهْرُ المرتفعِ غيرِ العالي الذي تتناثر فوقه بيوت القرية مملوء بالأبقار. وعلى السهل الضيق في مدخل القرية ترعى المواشي. وعلى ضفة النهر، فوق الأعشاب التي بدأ الخريف يوهِنها يلعب الأولاد لعبة "دق الحابي[1]".
حين التقى الفرسان الثلاثة الخارجون من القرية بجماعة مفدق تفارقوا وكبيرا المجموعتين يتبادلان التحية بالأيدي على الصدور. وسأل الأتاليك ربيبه:
– من هؤلاء؟
– هم بسلني إن لم أُخطئ.
– نعم، نعم. أكّد غازي إمام المعلومةَ. – هم بسلني ممن يعيشون شمال المخوش. ربما هم عائدون من عيادة المريض.
– لاشكَّ في هذا يا إمام. – صحّح تيمبولات معلومات صديقِه رجلِ الدين،
– لا همّ في هذه القرية اليوم غيرُ مرضِ نَقّار.

[1] هكذا تسمّى في بلاد الشام. وتسمى شعبياً: بُري. وعند الأديغة: باي. وهي لعبة تُستخدم فيها عصا تُضرَبُ بها قطعة من الخشب صغيرة.

– أليس لأجل هذا يقول الأديغة: "اعمل المعروف وارمِه في البحر"؟ – استمع مفدق إلى الإجابات المتداولة لسؤاله، واختتم برأيه هو، – فضائل نَقّار من رجولة وكرم، على حداثة سنِّه، هي ما دفعتنا إلى زيارته. فعلْنا خيراً إذ جئنا إلى هنا رغم إشفاقي على من تركناهم في الغابة، ولكن لن نطيل زيارتنا. أعلِموني بأعينكم أن موعد انصرافنا حان بعد أن نجلس قرابة الساعة.

كان الطريق إلى الحيّ الذي يقيم فيه نَقّار مليئاً بالفرسان على نحو لا تستطيع أن تحيد فيه عن مكانك: لم يبق مكان فارغ على مرابط الخيل أمام باب الدار. الخيل مربوطة إلى أعمدة الأسوار، والناس يملؤون الدار. ويُسمع طرْقُهم على السندان[1] كلٌّ في دوره. وكلما سُمع الصوت خرج من غرفة المريض بالرتل أكثرُ ممن يدخلونها. أجبر المنظر مفدق على القول "ما هذا يا رجل! هل أتى الأبزاخ كلهم؟! وربما ليسوا وحدهم... ليتني جعلت الروسي الذي تركناه في الغابة يرى هذا المنظر حتى يعرف من نحن، ويرويه لمن أرسلوه!.."

اقترب مفدق من باب الدار دون توقف ولو أن كلّ من في الدار وعلى الطريق لا يعرفون مفدق من وجهه لأن العجوز القادم من الأبخاز كان يعرف تكريم الأديغة للكبير فوقف على الباب دون أن يوقف حصانه. استقبله المضيفون الأحدث سناً وأنزلوه من الحصان ممسكين بالزمام وبالركاب. ولما كان مفدق مطّلعاً جيداً على تقاليد أعراس الأديغة ومناحاتهم وحفلاتهم فقد طرق بالمطرقة السندان القائم على باب الغرفة ثلاث مرات. أفسح له الخارجون من الغرفة الطريق احتراماً لسِنّه. ونهض له بضعة الأشخاص الباقون في الغرفة. وحين رأى نَقّارُ الممدِّدُ ظهرَه على وسادتين مفدقَ شدَّ بيده اليسرى الحبل المربوط إلى الجدار فجلس في سريره. ومازح العجوزُ المريضَ:

– ماذا يا نَقّار، يا من جعل الله يومه مئة؛ أتُدلِّلُ نفسك وتتظاهر بالمرض فتدعو الناس لزيارتك؟ أعِد ظهرك إلى الوسائد! ما كان عليك أن تجلس معرِّضاً جنبك الجريح إلى الخطر. وأنتم لا تبقوا واقفين! اجلِسوا. هل أنت أسلانجري، وأنت أسلانبج؟ والله لم يخطر لي يا إخوتي الصغار أن نلتقي هنا اليوم. كيف

[1] كانت العادة وضْعَ مطرقة على باب الدار التي يقام فيها الاحتفال، يطرق بها القادمون على سندان بجانبها إيذاناً بمجيئهم.

حالكم؟ وصحتكم؟ ونحن كما ترونا نشغل أنفسَنا كي لا نشعر بالملل. أتيتُ لزيارة ربيبي هذا، ولو أنه كسول، قبل أن أموت من أجل أن أعنّفه وأعاتبه. نحن ليس موضوعنا مهماً؛ كيف أنت يا نَقّار؟ أنظر إليك فأراك لا تسمح للمرض أن يهزمك.

– حياك الله يا مفدق على تكريمك لي. لتكنْ شيخوختُك سعيدة. وليُطل الله عمرك يا كبير الخير حتى ترعانا أطول ما يمكن. وما سألتَ عنه بِمَ أجيبك عليه؟ وهل يُعدُّ جرحاً إن كان سيف قوزاقي أصاب جنبي. ولولا أن جماعة صديقي أسلانبج ألزموني أن أبقى في الفراش لما أتعبت هؤلاء الناس في زيارتي. سأعود إن شاء الله إلى حالتي الاعتيادية خلال بضعة أيام.

– نعم، نعم يا نَقّار.– ساهم غازي إمام في الحديث. – الله الأحد له علمٌ بكل ما يقولون ويفعلون. وتعيشُ حياتك كما يقدّر. ونحن سندعو إلى الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد أن يحقق لك كل ما في قلبك من خير.

– حياك الله يا إمام، – قال نَقّار مُخفياً ابتسامته بينه وبين نفسه. وليكن دعاؤك مقبولاً، لا من أجلي فحسبُ، بل من أجل كل الجالسين هنا. غير أني كنت أريد أن أسألك عما طرق أذني من كلام قبل أن يجرحني القوزاق. هل صحيح أن شيشانياً كان ضيفك؟

فهم قرمرز تيمبولات ارتعاب غازي في سرّهِ فأجاب بسرعة بدلاً من إمام:

– ربما تقصد الحاج حسن بيه يا نَقّار. حقاً عرّج علينا قبل ذهابه إلى إستانبول في تركيا فاستراح عندنا ليلة. ولم يسمح لنا باستقباله رسمياً كسائر الضيوف بحجة كونه على الطريق.

– نعم، نعم، لم يرض أن يقيم بيننا أكثر من ذلك. – وافق غازي إمام الآن تيمبولات وقد عاد إليه شيء من الأمان. عرضنا عليه أن نقابله بزعماء الأبزاخ والجمكوي والبسلني فلم يقبل مؤجِّلاً اللقاءات إلى حين عودته. وكنتُ أتيت لك على ذكره يا مفدق إن كنت تتذكر.

– ربما شخص بهذا الاسم، – ابتسم مفدق قائلاً في سره: انظر فيمَ يورّطني! – ولكن لا أتذكر تماماً أني سمعتُ بأذني. وإن كان حاجاً فلْيكنْ! أين نذهب لو

أن كل حاجٍّ شيشاني وعد أن يعود في حِجّته الثانية!.. – وفجأة غيّر مفدق موضوع الحديث الذي نشأ بينهما، مدركاً أنه لا يمكن الاستمرار في الزيارة. واجداً الحجة للانصراف، – الحقّ يا تامبي أسلانبج ما أشدّ اكتئابك اليوم! لا تكاد تتكلم؛ أهناك ما يُقلِقك دون عِلمنا؟

– لا يا كبير، لا شيء يُقلِقنا بفضل الله إلا ما جرى لصديقنا نَقَّار. قال الأمير تامبي مصلّباً جسده المتين، وأكمل دون فاصل. – ولكن إن أردت الحق فقدوم الروس الذين طردونا من القبرتاي نحو الأبزاخ التي وجدنا فيها ملجأً يحزنني.

– هؤلاء الكفار الذين أتيتَ على ذِكرِهم يا أمير، – قال مفدق وهو يهزّ برأسه، – احتلوا أكثر بلاد الأبخاز بالحيلة، وأوقفتهم جبالنا "ميدوفيه"، وإن كانوا رجالاً فلْيتسلقوها!

– الروس يا ضيفنا الخيِّر، – حمل امتداح العجوز نفسَه نَقَّارَ على القول – لا يمكن اعتراضهم بالجبال. لا بد أنكم سمعتم أنه في عهد الجنرال سوفوروف ذي الوجه الأجرد كان في بلاد أوسيتيا جبال، وفي الشيشان والقبرتاي والداغستان ليست الجبال صغيرة. وأنهارنا سريعة، وغاباتنا بلا حدود ولا طرق، والبحر الأسود الذي يحدُّ أرضنا ليس بِركةً...

توقف نَقَّار عن السرد فسأل الأمير حَمْرِزْقوه أسلانجري:

– فهمتُ ما تريد أن تقول يا نَقَّار. ولكن ما المخرج أمامنا؟ ما العمل؟

– ما نحتاجه هو وحدة الأديغة من أجل ألا يفعلوا بأعراقنا الأخرى ما فعلوه بالقبرتاي الأديغة، – جزم حجرت نَقَّار، – هذه هي التي ستكون مِنْعتنا. وإن لم نفعل هذا فالدولة العظمى المغيرة علينا ستحتل بلادنا عِرقاً عِرقاً.

– هذا صحيح، – وافقه تامبي أسلانبج، وأنهى مغمغماً، – لم نتَّحِدْ يوماً من الأيام في تاريخنا...

– ألا يجوز أن نتّحد يوماً؟! – انفجر حجرت نَقَّار وإن كان حريصاً على نفسه. وفي اللحظة نفسها نهض مرشان مفدق متحججاً بطرق السندان الآتي من جهة الدار:

– والله جلسنا بما يكفي وتحدثنا. احرص على شفاء نفسك. ولا تسمح للقوزاق أن يجرحوك مرة أخرى. أمثالُك يا أمير أسلانجري، وأمير أسلانبج،

وأمير بولتقوه يحتاج الأديغة إليهم. أتركُكم بالسلامة، نحن نستأنف طريقنا. وأنا عليّ أن أعود إلى ديارنا الليلة.

حين خرج الفرسان الثلاثة من قرية نَفَّار، وتوغلوا في عمق الغابة، لجم مفدق حصانه، وقال لتيمبولات وهو يلوّح له بالسوط:

– ألم أحذِّرك يا ولد، وأنت يا إمام، من معرفة غيركم بسِرِّكم! لا تعدّونا أنا والولد سفربي بين هؤلاء. ثم تدافعُ عن ياغز!..

– أنا أتيت بحسن بيه من قرية بارسوك ليلاً ولم أسمح لإنسان أن تقع عينه عليه. – نظر غازي إمام واجماً إلى الفارسين متسائلاً إن كانا واثقَين منه أم لا.

– ولم نسمح لأحد أن يشكّ فينا ريثما قدمتَ بل أخفيناه في بيت تيمبولات. أنت يا كبير إن كان شكُّك في ياغز...

– أنا لا أتّهم أحداً يا إمام! – ردّ مفدق عليه بقسوة، ثم أنهى بصوت أهدأ. – أنا أتكلم على المصيبة التي ستوقعكم فيها المهمة الخيانية التي تعهّدتم بها...

– ما العمل إذن يا والدنا؟ – سأل تيمبولات كاظماً نفسه بصعوبة.

– أتسأل بعدما فعلتم فِعْلتَكم؟! هناك مخرجان: أعيدوا من وعدتم، أو انتهوا من أمر ياغز الآن!

– لولا الخوف من اقتراف إثمٍ لأنهينا موضوع ياغز يا إمام... – قال تيمبولات كأنه يستشير غازي.

– ليكنْ من يكون! – لم يدعْهم غازي إمام ينتظرونه. – يجب معاقبة الواشي بما يستحق.

– لا حاجة إلى المماطلة في هذا. – اختتم مفدق، وحثّ حصانه.

همس تيمبولات بعد مدة إلى غازي بالأمر المزعج الذي يشغل باله:

– أيّ وسيلة تفضِّل لحل موضوع ياغز؟

– تذكَّرِ الطريقةَ التي قضى بها أخوك مَمَقاي ليلاً...

– ومَن مِنا، نحن الاثنين، سيفعل هذا؟

– سنُجري قرعة بيننا، ومن ترسُ عليه ينفِّذْ.

X

كانت ساعة غروب شمس الخريف في غابة تحَجأغ جميلة ولطيفة. والغابة تكنس الضِّيْقَ العكِر المتوطن فيها بحفيف أوراق الأشجار التي يداعبها النسيم البارد الرقيق القادمُ ساعة اختلاط الليل بالنهار. والعصافير صمتت في كل مكان كأنها تنتظر انبثاق النجوم.

وياغز يراقب النار التي يتطاير من جمراتها اللهب، مغنياً لنفسه أغنية من النغوي، ممسكاً بعصا من خشب التنّوب الذي لا يحترق، يشوي بها لحم الغزال. يُخرج ما نضج منها،ويقدّم غيره. واللذان أدَّيا صلاة العصر يتحدثان جالسَين تحت شجرة. وتيمبولات وسفربي يصليان. وباي وحده هو من يتدفأ على النار. وغازي إمام الذي رستْ عليه القرعة ولم يماطل في صلاته يقول لياغز:

– هيا يا أخي اذهب وأدِّ صلاتك، لا تفوّتْها!وأنا سأشوي قطعتي اللحم المتبقيتين.

– وهل تستطيع شيَّهما يا غازي؟ احذر، اللحم المحترق لا يناسب كبيرنا الصالح مفدق. – والمنصرف يلتفت إليه ويسأله:– ماذا يجري إن أهملتُ هذه الصلاة يا إمام؟

– لا، لا. كيف تذوق طعام الله دون أن تقف في حضرته، وقلبك غيرُ مخلصٍ له، وكيف تخلد إلى النوم؟ ها هي جماعة تيمبولات أنهت الصلاة، ونحن سنجهز المائدة.

حين جلس الخمسة إلى المائدة بدأ مَرشان مفدق حديثه بلسانه العذب برضاه عن الله الذي أنزل عليهم الطعام، ودعا لجميع الجالسين حتى لياغز الذي أرسل لحم الغزال. ودعاهم إلى مباشرة الطعام. وحين انتهوا من العشاء بـ "الحمد لله" شدّد مفدق على رفاقه:

– سننام دون تأخير، ونفيق في منتصف الليل لاستئناف طريقنا. هل عيّنتم يا ولد من سيحرس الخيل ويحمي نومنا؟

– نعم يا والدنا، – قال تيمبولات الجاهز للإجابة. – غازي وياغز سيتناوبان على الحراسة.

– حسنٌ إن كان هذا قرارَكم. تعال يا حسن بيه سننام أنت وأنا في مكان. والبقية تصبحون على خير!
كان سفربي أول من رأى ياغز يسبح في دمه فنادى رفاقه إليه. وتورناو، الوحيد الذي لا يعرف ما جرى، الواقف إلى جانب مفدق همس له الأخير:
– لا تهتم بما تراه يا حسن بيه! ما مِن سرٍّ يحتاج إلى شاهد غير ضروري. – ثم قال مُسمِعاً الجميع: – ادفنوا من قضى بِعِلم الله تعالى!
النقيب تورناو الذي كان يقلّد أصحابه رافعاً يديه إلى السماء سأل نفسه: "على من سيأتي الدور بعد هذا القتيل؟" واستعرض أسماء رفاقه الخمسة في ذهنه ولكنه لم يستطع الجزم بواحد منهم. ثم ركب معهم محدّثاً نفسه: لا يزال أمامنا طريق طويل.
وفيما الفرسان يسيرون على الضفة اليمنى لنهر لابا، وجّهوا خيلهم نحو تلٍّ على رأسه قبران.
سأل غازي إمام تورناو:
– هل تعرف مَن في هذين القبرين؟
– أعرف، – أجاب تورناو دون تفكير.
– من أين تعرف؟
– ليس صعباً تذكُّرُ ابتهال الأخَوَين قرمرز أمام أخويهما الأكبرين.
– نعم يا أخي، – قال الإمام بصوت واثق، – لا تُحزِن تيمبولات وباي متناسياً أن الروس قتلا أخويهما. يمكن أن يسببا لك المتاعب.
منذ الأزل يتبدل الجو عادة في الجبال: غطت السحب السماء فجأة، فانهمر المطر البارد مبللاً الجبال والغابات والسهول. ووجب على مجموعة الفرسان أن يبحثوا عن مكان جاف يقفون فيه. وأناخوا في مرعى غير كبير مليء بالعشب. وشرعوا فوراً في البحث تحت شجرة بلوط كبيرة عن مكان مناسب لنصب عريشة.
كانوا معتادين على إقامة العرائش فجهزوا واحدة من الأغصان المتماسكة قبل أن يحلّ التعبُ بمفدق العجوز والنقيب تورناو. وكان الأولُ في دور الحراسة باي، فاتّخذ مكاناً على باب العريشة ملتحفاً بكسائه، جالساً على مقعد

وطيء ينصت إلى صوت المطر والخريف والأخبار المتعلقة بالقوزاق. ثم استغل سكتة فتوجه إلى الجالسين في العريشة:

– لو طلبتم من غازي إمام أن يروي لكم كيف هرب من القوزاق لكان أفضل من حديثكم الذي لا فائدة فيه.

– لا مانعَ عندي، – قال الإمام كأنه كان ينتظر ما طُلب منه، – وكنت بدأت أروي لكم هذه الحكاية قبل أيام فلم أجد الوقت مناسباً. حقاً، ساعدني الله في الهروب من الكفار، وشملني برعايته، وحماني. أنت يا حسن بيه، لا تؤاخذني، لا أعرف من سيرعاك. ونحن البقية كلنا، الله الأحد يرعانا.

– وأنا يا إمام، – قطع النقيب تورناو حديث مَن كان يسخر منه، – يرعاني الإله الذي أؤمن به، ويحميني.

– حسنٌ إن كان عندك مثل هذا الإيمان. – قال غازي، وبدأ في سرد حكايته.

– تحررتُ، كما ترون بفضل الله وأنا في طريقي إلى سيبريا، بعد ما حكم عليّ القوزاق بالسجن. لا أحد غيرُ الله يعرف ما تعذبت حين وشى بي أحدُ أبناء قومي الحاسدين على أمل احتلال منصبي فسُجنتُ. ادّعيتُ المغصَ، فضربت بالإبريق الملآن الحارسَ الذي رافقني، فصرعته وهربت. وإن كان من صرعتُه قد عاد إلى وعيه فهذا من حسن حظه. وإن كنت قتلته فلستُ مذنباً. سيغفر لي ربهم، ما اسمه؟ عيسى. وإن لم يغفر لي فلست مهتماً به إذ فعلتُ ما فعلتُ وانتهى.

– ألم تستطع أن تنتقم ممن وشى بك؟ – لم يستطع العجوز مفدق إلا أن يسأل.

– صرعتُه في العام الماضي جثة نافقة أمام الله. – ضحك الإمام بصوت رفيع رقيق جداً.

– لا بأس إذن، – اختتم مفدق الحكاية.

كان النقيب تورناو قد غفل فجأة والأفكار المتضاربة تصدع رأسه، ولكن نوبة البرد التي ترجّ جسده أيقظته. قال له باي الذي اضطجع إلى جانبه بعدما استلم أخوه مكانه في الحراسة:

– أظن البرد قد أثر فيك.

– وأنا يُخيَّل لي هذا. – أجاب بصعوبة تورناو الذي كان يضبط سعاله بمشقة.
– أشعر بألم في أعضاء جسدي.
– اقتربْ أكثر مني، أدفئك بجسدي وتدفئني. سحب باي بساط الحصان الجاف وغطى به تورناو. وهكذا، والمسلم والمسيحي يتبادلان الدفء الجسدي، وباي يكظم غضبه مع منظر أخيه الأكبر مَمَقاي القتيل الذي امتثل لناظريه، سأل النقيبَ:– ألا تخاف أن تنام إلى جانبي هكذا؟
– ولماذا الخوف؟ – وفيما النقيب يتظاهر باستغراب ما سمع، أجاب باي على سؤاله بنفسه:
– ألا تعرف لماذا يجب أن تخاف؟ أخواي الأكبران قتلهما الروس، وأنت روسي. لا أسهلَ عليّ من أن أقتلك وأشرب من دمك.روحك الكافرة بين يديّ.
– أنت تخطئ في هذا. لستَ من يقبض على روحي، بل الله. إن كان الله قدّر أن أموت هنا، في غابة لابا، فلن أموت إلا بتدخُّلٍ منك. لا تنس أنه إن لم يقدِّر الله فالخنجر الذي ستغرسه في صدري سينبو عن قلبي وينغرس في قلبك أنت.كلٌّ سيلاقي ما كُتب على جبينه. واسأل الإمام إن لم يكن كلامي صادقاً. ما هذا الحديث بيننا؟ نحن أيدينا وخناجرنا مقيَّدة بالعهد الذي بيننا. أنا لا أخاف أحداً، تصبحْ على خير! – قال تورناو لصاحبه وأدار ظهره له بكل اطمئنان.
– نَمْ مطمئناً، – أجاب باي مَن أدار ظهره، – أصدِّق أن من هو مخلص لعهده لن يخاف منا.
قضى تورناو بعد هذا الحوار وقتاً طويلاً لا يستطيع النوم. وكل يوم يأتيه ما يصدع رأسه ويدعوه إلى التفكير. كيف تفهم الحوار المفاجئ بينه وبين باي؟ يبدو أحياناً كمن يخاف عليه ويحرص، ولكنه يتفوه أيضاً بكلمات حادة عن الانتقام. ومثلُ هذه الكلمات توجَّه إلى العدو، لا إلى من يُجزَع عليه. أكان يريد اختباره من خلال المزاح؟ أيكون مزاحٌ مع استعمال كلمة القتل؟ مثل هذا ممكن في الحياة ولكن باي منذ أن عرفه، ورافقه في الطريق، لم يكن المزاح وارداً في سلوكه؛ بل لم يصدف أن نظر إلى تورناو بوجه طلق. "أيكون الثلاثة الذين

وضعوني على الطريق تراجعوا عن عهدهم؟ لم يجعلني تيمبولات أتوجس من مثل هذا. وغازي إمام يبش في وجهي لا يعرف غير الله. وأما العجوز مَرشان مفدق فما في ذهنه شيء آخر – ينفِّذ لك أي شيء تريد إذا أكرمته خفية عن أصحابه بشيء من المال. وابنه سفربي كما خلقه الله، لا يخالف أمر والده. أيكون العجوز أخبر ابنه بأني أعطيته قبل أيام نصف النقود التي حملتها معي في السفر؟ لا أظن ذلك. ثم إن نظراته كانت موجَّهة إلى الخاتم الفضي في يدي... لا مشكلة مع مفدق وابنه سفربي. هذان وضعتهما في صفي برشوة مالية سرية، مشكلة المشكلات هو باي... [1]"

– أتساءل: ألا تستطيع النوم إلى الآن؟– سأل باي.

– أحرِص على نفسي منك!

– هذا حسنٌ. – ابتسم باي، – ولكن التفَّ على ظهري تشعرْ بالدفء!

– ماذا تقولان؟.. – غمغم العجوز مفدق الذي أيقظاه بحديثهما. – اطمئِنّا وناما!

– مرِض ضيفُنا حسن بيه يا كبير، – ما إن نطق باي هذه الكلمات حتى سيطر على النقيب السعال الذي كان يكظمه بصعوبة.

---

[1] "هاجمتني وساوس كثيرة في ذلك اليوم. تراودني أفكار تجعلني أندم على ثقتي بالأخوين قرمرز وركوبي الطريق معهم. ولكن أموري انكشفت، لِحُسن حظي، عن النقيض تماماً. توجهنا، فيما نحن نسير على الضفة اليمنى لنهر لابا، إلى التل الذي عليه قبران. وحين وصلنا إليهما ترجّل الأخوان قرمرز وجثوَا على الركب وبدأا يدعوان لهما ونحن واقفون قربهما... وحين ركبنا ثانية كان وجها الأخوين حزينين حتى إنك لا تجرؤ على النظر فيهما. ولم نتبادل أي كلام طوال نصف نهار. ومشينا حتى المساء وهما لا يُطيقان النظر إليّ. عبرنا نهر لابا فتوغلنا في عمق الغابة. وأنشأنا في أحد المراعي القريبة مكاناً للاستراحة. وضفرنا من الأغصان مستراحاً لخيولنا في الليل. وبدأ المطر الخريفي البارد الذي سيستمر بضعة أيام يُطفئ نارنا. ولم نكن نفارق ليلاً ونهاراً الأكسية القصيرة المبلولة، ولكن رفاقي المعتادين على مثل هذه الأجواء لم يتأثروا. في حين كنت أخاف أن يصيبني البرد... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– هذا لا يمكن السكوت عليه! – استوى مفدق جالساً، – أسرِعوا وأشعِلوا النار حالاً!

لم يكن مطر الخريف الناعم يعرف توقفاً، على وتيرة واحدة لا تزيد ولا تنقص. لا ترى شيئاً من الطبيعة يشبه الماء كأن الأرض والسماء التحمتا. والغابة لا تزال إلى الآن هادئة على نحو يثير الرعب كأنها ليست الغابة التي كنت تسمع فيها عشية البارحة أصوات الغربان المرِحة مع الشمس الحارقة. لا يُسمع إلا هسيس النار، ونخير الأحصنة المتجمعة رؤوسُها. ولا تسمع صوت نهر لابا السريع إلا إن أنصتَّ.

طبقوا على النقيب تورناو حتى الظهيرة كلَّ ما يعرفون من علاج لأمراض البرد. وسخنوا له شيئاً من لحم غزال البارحة، وأطعموه دون أي رغبة منه.وسقوه شاياً ساخناً. ونقعوا رجليه بالماء الساخن. وبحث العجوز مفدق في الغابة، وطلب من النقيب أن يمص الأعشاب التي وجدها فيها حتى يبلع نسغها. ومسّد باي وغازي ظهره. غير أن سعاله كان يزداد مهما عالجوه.

– ما العمل؟.. – سأل باي بصوت منكسر.

– لا داعي لليأس؛ اطمئنَّ! – قال النقيب تورناو لرفيقه الذي لم يكن يثق به.

– أنا أعرف ما سأفعل إن لم أتحسن حتى الظهيرة.

– لا تتكلم يا حسن بيه بلغة الألغاز، – غضب تيمبولات الذي كان يشعر بالملل،لا يعرف ماذا يفعل. أخبِرْنا ماذا ستفعل إذ لا سِرّ بيننا.

– هل تقصد أن تعود إلى حيث اصطحبناك منه؟ – أسرع باي بالاستفسار.

– لا أظنك رافقْتنا وليس فيك إلا هذا القدر من الصدق. – ساهم غازي إمام أيضاً.

– لماذا تلحّون على الرجل؟ – غمغم سفربي رافعاً رأسه عن النار التي يقلِّب جمراتها.

سأل مفدق الذي كان يُدَفِّئ ظهره على النار باسماً:

– أُنصِت إليكم جميعاً فأتساءل: هل السعال رجلٌ ترونه لأول مرة؟ سأخبركم بعلاجه إن أردتم. سيظلّ متى ركبنا يتقلب على السرج حتى يسخن جسمه، فيقضي على مرضه الناجم عن البرد. ويتوقف سعاله.

خلع تورناو ملابسه ريثما نطق العجوز بهذه العلاجات وقذف بنفسه في النهر. وغطس في الماء بضع مرات قبل أن يعرف رفاق الطريق تفسيراً لِما يرون، ثم خرج منه.

– هل جُننت؟ ماذا فعلتَ بنفسك؟! – صرخ تيمبولات على النقيب الذي يقطر الماء منه. – وأنت هل تريد أن ندفنك في غابة تِجَجأ غ كذلك الشاب القوزاقي؟ – سأله بقسوة، ثم أضاف: – ذاك القوزاقي كان عليه ما يُميته من الجرح... لم أعرف أنك إنسان متسرع هكذا!

– لا تعتبوا عليّ في ما فعلتُ.– قال النقيب تورناو وهو يرتدي ملابسه للذين لم يصحوا بعدُ مما رأَوا. ذكّرني مرضي الناجم عن البرد بالمبدأ المعروف: وداوِها بالتي كانت هي الداء، ففعلتُ ما فعلت. أظنه سينفعني، ولكن أرجوكم إن قبلتم: اسقوني من الشاي الساخن وغطّوني. ما أحتاج إليه هو تعرُّقٌ واحدة!قال الرجل الذي غطَّوه بأربعة أكسية حتى لا يَبينُ منه غيرُ وجهه لمفدق:– كنت أريد أن أتكلم إلى تيمبولات وحده إن سمحت لي يا كبير.

– ما تقوله للولد تيمبولات ولي واحدٌ.ولكن إن لم تكن بحاجة إلى أذن زائدة لبّينا لك رجاءك. – نهض مفدق متناسياً شعوره بالإهانة، – هيّا، لنبتعِد، وسنجعل من النار التي تنطفئ شريكتَنا في السرّ.

قال تورناو حين بقي الرجلان وحدهما في العريشة:

– لي عندك رجاء.

– إن كان سراً وجب على الرجلين اللذين أخذت عليهما عهداً أن يكونا هنا.– جزم تيمبولات الذي ما يزال تحت تأثير نوبة الغضب.

– لا يا تيمبولات. ليس سراً أخفيه عنهما، – تظاهر النقيب تورناو بتصحيح موقفه، – يمكنك أن تخبرهما بما سأقوله وإن ليس بصراحة. أفعل هذا لأني لم أشأ أن يتناول كلٌّ الموضوع كما يريد. لستُ مريضاً كما أوهمتكم.

– ألستَ خدعتَنا جميعاً هكذا؟

– ألم أقنعكم بصحة سعالي؟

– صحيح حسب كلامك.

– ما سنتكلم فيه الآن موضوع آخر وقد حدث ما حدث. أنا لاحظت في هذه الليالي المقمرة كثيراً من الأمور في البسلني والأبزاخ مما لم تلاحظوا. وهذه الملاحظات احتفظت بها في الذاكرة، وليس لي الحرية في تدوينها على الورق. فمن يعرفُ... إن جرى شيء كان هذا ضاراً بكم. ولذلك عليّ أن أدلي بما في رأسي لمن أرسلوني. وهذا له مخرج: ليس موقع جيش فوزنيسينسك الروسي بعيداً من هنا؛ فإن اتخذتَ مرضي حجة وتركتني أقيم في ذلك الموقع ثلاثة أيام كان حسناً. ومن المقرر أن يمنحوني هناك بعض النقود والذهب وما شابه. وعليّ أن أغيّر ملابسي الداخلية فيه.

– ألم يكن معك حين سافرتَ معنا نقود وملابس؟ – حملت سيرة النقود والذهب والفضة تيمبولات على السؤال.

– كان معي، ولكن قدمت لمفدق شيئاً منها؛ لا تأت له على ذِكر الموضوع، توسَّلَ الرجلُ إليّ.

– لن أقول شيئاً ولكني مستاء من جشع والدنا.

– ماذا بيدنا؟ – ابتسم تورناو في سِرّه، – كل المسنّين هكذا!

– لا، هو هكذا من وقتِ ما وعيتُ عليه... تفهّمتُ ما رجوتَني من أجله. إذا كنا نعيش حياتنا كلها بالأعذار فسأجد لك عذراً. وإن أردتَ أرفقتُك بباي. هو يعرف الطريق جيداً. ولكن لا تمرض مرة أخرى فتلقيَ في قلوبنا الهلع!

تحققت مهمات النقيب كما خطط لها. واصطحب باي راضياً وغير راضٍ عن اصطحابه إلى جهة أرض روسيا. وأرسلوا غازي إلى قرية شجراي بحثاً عن طعام وعن معلومات. وبقي الثلاثة الآخرون: مفدق وتيمبولات وسفربي ثلاثة أيام في الغابة الخريفية دون أي عمل.

والنقيب تورناو الذي ادّعى المرض وغطس في ماء النهر البارد مرِض حقاً خلافاً لِما توقّع. ورغم إحساسه بتمكُّن الحمى منه فقد ترافقا هو وباي على طريق قلعة فوزنيسينسك. والأمر الوحيد الذي لم يكن يعرفه هو: كيف سيوفِّق رفيقُه خلال ثلاثة أيام مع الناس الذين سيلتقي بهم. ولكن باي الذي كان مصدر توجُّسِه انكشف عن إنسان آخر.

XI

تقوم قلعة فوزنيسينسك في سهل خال من كل الجهات لا تكاد تحيط به العين. وبين القلعة وبروجني – أوكوب مسير عدة ساعات. وإن مشيت في الريف من أربعين إلى خمسين فرستاً جهة الشمال وصلت إلى الضفة اليسرى لنهر وارب. ومن الجهة الأخرى متى خرجتَ من المرتفع المتطاول غيرِ العالي، وسرت في حدود مئة فرسخ نحو مخرج الطريق وصلت إلى ستافروبول. ويقع على الاتجاه نفسه على مسافة مئتين وخمسين فرستاً مدينة إيكاترينودار القوزاقية. وإلى الغرب ستصل على حصان جيد إلى بحر آزوف في يوم واحد. وإلى الجنوب تصل إلى الساحل الشرقي للبحر الأسود حيث يعيش الشابسغ والوبيخ، والذي لم تكمل روسيا احتلاله بعدُ. ومتى تجاوزت شَجْ ووصلتَ إلى غاغرا لا تعود جبال ميدوفيه التي يعتدُّ بها مَرشان مفدق بعيدة. وإن مشيت جهة الشرق أكثر من ثلاثمئة فرست تجاوزت بيتاغورسك ودخلت أرض القبرتاي. وفي الجانب الآخر نهر تيريك وفلاديقفقاس الأوسيتية. والأنغوش والشيشان وبحر قزوين، والداغستان...

وفي قلعة فوزنيسينسك التي تطلّ على أرض الشراكسة كلهم يتمركز فوج من الجيش الروسي وجيش فرسان من قوزاق الدون. وإن لاح في الجوّ خطرٌ أمكن أن ينضم إلى هاتين المجموعتين العسكريتين كل من يستطيع حمل السلاح من ثمانين أسرة قوزاقية تعيش قربها. وإلى يسار القلعة ويمينها، وعلى مدى خمسة عشر إلى عشرين فرستاً، مراصدُ قوزاقيةٌ. ويقود كل هذه المراصد النقيب ليفاشوف، الصديق الحميم للنقيب تورناو.

بالقياس إلى المنطقة الجبلية من الأبزاخ التي كان يأتي منها تورناو وباي فالجو صاحِ على ضفة لابا ظهراً. ويخيّل إليك أن السحب كلها التجأت إلى الجبل فلا ترى سحابة في ما تراه العين من السماء. والأرض جافة لأنها لم تذق قطرة ماء فتثيرُ حوافر حصانيهما الغبار. والهواء الخفيف ينثر ذاك الغبار على أعشاب جانب الطريق المصفرّة. ولولا أن الهواء الزاحف على الأرض يُفزع بعض الطيور فتهبّ من أكمات البرقوق على المرتفع، ولولا بعض الفئران التي لا تستطيع

تغيير طريقها، لخُيِّل إليك أنْ لا حيَّ في البرية كلها. وربما كان مثلُ هذا ما دفع النقيب تورناو إلى القول:
– الطبيعة اليوم هادئة.
– يُخيَّل إليك هكذا، – ابتسم باي، – ستعرف إن كانت الطبيعة هادئة متى وصلنا إلى ذلك المنعطف.
شهد بضعةُ الفرسان القوزاق على صحة كلام تورناو باي.
– من أنتم، وإلى أين؟ – سأل كبير القوزاق.
– ألا ترون الشركسي المسالم الذي معنا؟ – أجاب تورناو المرتدي زياً شركسياً وقبعة حُجّاج جواباً ساخراً باللغة الروسية، وأضاف بلهجة ألطف: – نذهب ضيوفاً إلى صديقنا النقيب ليفاشوف.
– أفسِحوا الطريق، – أمر قائد القوزاق رفاقه، – مع السلامة.أوصِلا يا بودينكا وتاراسوف الضيوف الشراكسة إلى القلعة.
– الشراكسة يتكلمون الروسية جيداً، – تابع أحد القوزاق الضيوف بالتعقيب.
– وجب علينا أن نتعلم لغتكم فتعلمناها. – التفت "حسن بيه" تورناو النقيب، وردّ عليهم.
– هل يمكن أن يفهم القوزاقي ما رددت به عليه، – ابتسم باي، وحثَّ الحصان.
– لا يفهمْ إن شاء!.. – قال تورناو لنفسه "عندي كثير مما يهمني" دون أن يأبه لسؤال باي.
حين ارتقى الفارسان المرتفع غير العالي بدت قلعة فوزنيسينسك قريبةً جداً في السهل. وبدا لعينيهما رجلان يتقاتلان بالسيف على مدخل البوابة الكبيرة: الشخص الذي هبّ الجنود القوزاق من القلعة لنُصرته ضابطٌ روسي، والغريم كان يرتدي زياً أديغياً. كان يحاربهم راكعاً على ركبتيه مما يدل على أنه جريح والسيف بيد والخنجر بالأخرى...
– هيا بسرعة يا حسن بيه! صاح باي ناسياً أن من يناديه ضابط روسي. – القوزاق يقتلون أحد الشراكسة!.. وفي اللحظة نفسها سقط من كان يحارب جاثياً.

رأى القوزاق الفارسَين فأسرعوا معترضين وأوقفوهما:
– لازِما مكانكما! – من أنتما وماذا تنويان؟ – سأل رئيسهم بجلافة.
– نريد مقابلة النقيب ليفاشوف – أجاب تورناو بهدوء تام.
– وهذا الشركسي كان يريد هذا. ولكن ترون كيف قضى بالسلاح الذي شهره في وجهنا.
–كفاك ثرثرة يا قوزاقي! – قال باي عاجزاً عن تحمُّل ما يسمع.– أبلِغْ ليفاشوف رغبتَنا في مقابلته. وبعدها ستعرفون من نحن وماذا نريد إن وجب.
– اِهدأ يا باي! نصحه النقيب تورناو، ثم صرخ على القوزاقي بصوت عالٍ: – نفِّذْ ما يقال لك! نريد أن نقابل النقيب ليفاشوف!
سمع النقيب الذي ما يزال سيفه مشهراً على الجثة صوت تورناو فالتفت إليه. ونادى القوزاقيَّ:
– اسمحوا لأصدقائي الشراكسة بالدخول!
حين أُدخل الضيوف غيرُ المنتظَرين إلى الغرفة اختلس ليفاشوف نظرة إلى باي الذي لا يعرفه، وقال للنقيب تورناو دون أن يسمّيه:
– لا أفهم لباسك.
– هذه مهمتي يا بافيل ليفاشوف، لاحقاً... إذا كنتُ أثق برفيقي فثقْ به أنت أيضاً. ولكننا نريد أن نعرف ما جرى أمام بابكم. لماذا قتلتم العجوز الشركسي؟
– لم تكن عندنا مثلُ هذه النية أيها النقيب... لو عرّفْتني على هذا الشخص الذي لم تقل لي اسمه لكان خيراً.
– اسمه باي، وهو من آل قرمرز إن كنت سمعت بهم.
– وكيف لا أسمع... أظنه من آل قرمرز المجاهِدين[1].
– أنا أخوهما يا ليفاشوي[2]... – قال باي يكظم نفسه بصعوبة. – كنّا أربعة إخوة فلم تُبقوا منا إلا على اثنين.

---

[1] المقصود ما يُعرف في بلاد الأديغة آنذاك باسم "حَجْرت" أو "أَبْرِك". وهم كما ورد في حاشية سابقة مجاهدون فرديون ضد الروس والقوزاق. وأحياناً قُطّاع طرق.

[2] النطق الأديغي لاسم ليفاشوف.

– نعم يا باي، – استلم النقيب تورناو الكلام الجارح الذي كان باي يريد قوله.– أنتم كنتم أربعة إخوة، ونحن نعترف بأننا أضررنا بكم. ولن ننسى قسَمَنا قبل أيام. سامحْنا يا نقيب على مقاطعتك، نسمعك.

– شكراً، فهمتُ، – قال ليفاشوف، وأضاف متناسياً ما بدأه بشأن آل قرمرز المجاهدين. الحقُّ أني أنا أيضاً لا أعرف ماذا كان ينوي العجوز القتيل؛ قيل لي إن هناك عجوزاً شركسياً يريد محادثتك ولا يقبل الدخول إلى الغرفة، فخرجت من أجله بكل براءة إلى الباب. طلب مني أن أشهر سيفي، وأسرع هو بإشهار سيفه. وتعرفان ما جرى له. لا أعرف إن كان يهذي: ظل يردد: كافر، كافر، ويقاتلنا حتى أجبرَنا على قتله.

– العجوز الشركسي الذي دفع بنفسه إلى الموت مدفوعاً برجولته لم تكن عنده مهمة محددة. – لم يُطق باي الذي كان يصغي متجهماً. – كنت أعرفه جيداً. واحدٌ من نبلاء شجراي... – ثم سأل رافعاً كتفيه:– ماذا تنوون بالجثمان، هل سيبقى مرمياً هكذا؟

– إن لم يظهر اليوم وغداً من يسأل عنه دفنّاه بعد غد.

نظر باي إلى تورناو منتفضاً برأسه، ثم قال رأيه دون أن يعبأ بموافقة النقيب له أو معارضته:

– اعتبِرْني إذن يا ليفاشوي جئت أطالب بجثمان الحاج عمر.

– نعم يا نقيب، – أيّد تورناو رفيقه، – اعتبِرْ باي آتياً من أجل الجثمان.

– سأحقق لكما ما تريدان. وسأرفق بباي رجلين قوزاقيين.

– لا أحتاج إلى رفاق من القوزاق!– حسم باي الأمر، – سأوصله إلى شجراي، وأعود صباح الغد.

– لا تستعجل يا باي، – نهض تورناو واثقاً ممن سماه، وأمسك بيده،– يكفي أن تعود خلال ثلاثة أيام.

نفّذ القوزاق أوامر النقيب ليفاشوف، وأطلقوا باي على طريق شجراي. ولما بقي النقيبان وحدهما في الغرفة قال تورناو لصاحبه:

– أنت يا نقيب لا تعرف اسمي، ولا نسبي، ولا كوني ضابطاً روسياً. ولا تسألْني عن المهمة التي ألاحقها. أنا الآن شيشاني، واسمي حسن بيه. تعارفنا حين

كنت تحارب في الشيشان، وأنا في هذه الساعة حاجّ قادمٌ من الكعبة. ورفيقي باي عائد معي. وأنا محتاج حالاً إلى غرفة مستقلة، وورقة وقلم.

– ألا نتعشى معاً يا حسن بيه؟ – سأله النقيب ليفاشوف واضعاً النبرة على اسمه الشيشاني.

– هذا شأنُ المضيف. – ابتسم حسن بيه. – وقبل أن نرفع كأس العشاء هناك مهمة أخرى: أصدِرْ أمراً إلى مستطلعيك القوزاق أن يسمحوا بعد غد لأحد الفرسان الشراكسة بمقابلتي متى نطق اسمي الشيشاني.

عندما نام تورناو، وفيما يفكر في ما مرّ أمام عينيه اليوم، بمن فيهم النبيل الشركسي القتيل، امتثلت له دون أن يعرف المصدر إفروسينيا إيفانوفنا بيترينك " فروسيا ". وفيما هو يستغرب هذا نظرت ليزا ابنة الجنرال زاس من ورائها. ثم غرق في النوم وهو يتخيل ليزا تقول له، معاتِبةً إياه بعينيها الزرقاوين الجميلتين: أيُّ أرملة قوزاقية تبتسم لها؟!

أيقظه في الصباح صوت المرأة التي يعرفها، والقادم من جهة الدار، وحين نظر من النافذة رأى قرمز باي وإفروسينيا بيترينك، ومعهما عدد من القوزاق، دخلوا الدار. ولما خرج من الغرفة استقبلته فيروسيا التي لم يخطر له يوماً أن يراها في قلعة فوزونيسينك، بذراعين مفتوحتين، تصيح باسمه الشيشاني:

– يا حسن بيه، أيها الغالي، حين سمعني هذا الرجل الشركسي الممتاز أقول لمن سرقوني اسمك أفلتوني لا أعرف ماذا قال لهم ولا ما قدّم لهم.

– لستُ شركسياً يا امرأة، أمَا قلتُ لك! – غمغم باي رافضاً اعتباره شركسياً.

– أنت إنسان صالح ولو لم تكن شركسياً. أنقذتني على مرأى من قومي القوزاق. أطال الله عمرك، وحقّق أمانيك!– والآن استدارت إفروسينيا إيفانوفنا إلى النقيب محتارة في تفسير ما ترى، وسألتْ:– ألم يكن من المفروض يا حسن بيه أن تكون في ستافروبول، عند الدكتور مير، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل اختطفوك؟

ضحك تورناو ومازح فيروسيا:

– هل أنا امرأة حتى يخطفوني يا إفروسينيا إيفانوفنا؟! – ثم استدرك بسرعة: – لا، وجب عليّ أن آتي إلى هنا في مهمة. وأنت كيف وقعتِ بأيدي الشراكسة؟ وما أخبار ابنكِ الصبي؟

– أليس ابني هو المشكلة؟.. لم يعد شخصي يهمني. تركت ذلك المسكين وحيداً في البيت، وفيما آتي إلى ستافروبول من أجل نُزُلِ زوجي بانتالي، سرقني الشراكسة في عزّ الظهيرة، وحملوني إلى هنا. أنا قلقة على صغيري كولكا يا من لن أنسى اسمه أبداً حسن بيه، وأنت أيضاً يا باي. إن لم أر صغيري إلى الغد انفجرت. ساعِداني مرة أخرى أيها الرجلان الصالحان في هذا الموضوع. وسأدعو لكما إلى الله ما دمتُ حية.

– هذا لا يحتاج إلى رجاء يا إفروسينيا إيفانوفنا. – واسى النقيب ليفاشوف المرأة مُبرِزاً كونه قائد القوزاق المجتمعين. – نحن المسؤولون عما جرى لك، ولذا سأطلب من جنودي إعادتك إلى بيتك، ليس غداً، ولا اليوم، بل في هذه اللحظة. ولن ينتهي موضوعك هنا بل سنعوِّض صديقنا باي ما أنفق عليك.

– أهو نُزُلُ زوجها المرحوم ما كانت ستدفع حياتها من أجله؟ – سأل باي الذي كان صامتاً إلى الآن، وأجاب نفسه: ألا يجب على الأرملة أن تربي صغيرها؟ نحن لا حاكم عندنا، ولكنكم أنتم الذين ترسلون الجيوش إلينا تحاربنا، عندكم سلطان. والأولاد الذين تركهم لنا أخوانا اللذان أمر القيصر بقتلهما نربيهم تيمبولات وأنا.أنهى باي منفساً عن غيظه برفعة من كتفيه.

" لا أثق بباي ولكنه، – لام النقيب تورناو نفسه، – ليس كما توقّعتُ: رحمته تصل إلى الكثيرين. ليس انتقامه المصدر الوحيد لقلقه. وربما لو كان شخص آخرُ محله لما خدم المرأة التي ليست من قومه كما فعل. ولا يكفي أنه أنفق ماله عليها بل هو مشغول البال بالصبي الذي لم يره. يا ترى ممن افتدى إفروسينيا إيفانوفنا؟.."

– حياك الله يا باي على لهفتك من أجل المرأة التي وقعت في مأزق، – قال النقيب ليفاشوف راضياً، – لن نضيّع معروفك. ثقوا بي من ناحية نُزُلِها. سأتابع الموضوع من الغد. وسأفهِم الموظفين في ستافروبول الموضوع. وبعد أن

تستريحي قليلاً سأرسلك على حصان – إن كنت تركبين – مخفورة بفارسين من الحرس.

– ولماذا لا أركب الحصان؟ ألستُ قوزاقية؟ أنا جاهزة منذ هذه اللحظة؟ – اهتاجت الأرملة القوزاقية التي استردت حريتها. ثم سألت بسرعة: – من سيرافقني؟

– سأُرفقك بفارسين يعرفان مخرج الطريق إلى بيتاغورسك، – لم يتأخر النقيب ليفاشوف بالجواب.

– ألا يمكن أن يصحبهما حسن بيه أو باي؟

– هذان خدماك بما يمكنهما، يا بيترينكو،– قال النقيب ليفاشوف بصوت أعلى، – ونحن نخدمك بما يفرضه علينا الواجب.

– إن كان هذا رأيَكم، – لم تستطع إفروسينيا إيفانوفنا رغم اقتناعها باستحالة مرافقة مَن طلبتهما لها إلا أن تسأل مَن هي مدينة له بأجرة غرفتها. – أنت يا حسن بيه متى ستعود إلى نواحينا، أحتفظ بأجرة الغرفة التي دفعْتَها لي.

– لا تحتفظي بها، إن عدت يوماً ما سنحل المسألة...

حين بقي ليفاشوف وتورناو وباي وحدهما كان النقيب تورناو مهموماً بالعجوز الذي نقلوا جثمانه أمس إلى شجراي أكثر من اهتمامه بالأرملة المحررة، فسأل باي:

– ما حكاية الجثمان الذي أعدتَه إلى شجراي[1]؟

– هذا المسكين، – تنهد باي بعمق، – نبيلٌ دفع حياته مقابل إهانة. ليس الشراكسة وحدهم من ليس من عادتهم ألا يتكلموا بسوء على الكبير، ولا يسخروا منه ولا يفتروا عليه، نحن النغوي أيضاً ندين بمثل هذه التقاليد. حين

[1] "هذا العجوز كان في شبابه فارساً ممتازاً شجاعاً، عاش حياته ملتزماً بمجابهة الروس وقتالهم. وكان اعتزاله القتال في سنوات شيخوخته الأخيرة. وفي إحدى المضافات،، لما بدأ، في غمرة الحديث عن الشجاعة والبطولة، يتكلم بمبالغة على طريقة اجتراح البطولات، قيل له: ومن أنت لتعلِّمنا؟ إذا كنت تقاعدتَ عن القتال فاقعد ودفِّئ عظامك. فركب على أثرها إلى القلعة ليقتل قائدها أو يُقتَل فيُثبت للحضور اجتراحه للبطولة... وطوال إقامتي في فوزنيسينسك ظل النقيب ليفاشوف يحدثني بالحكاية... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

افتخر أحد المسنين خلال سهرة بشيء من رجولته أيام شبابه في سياق الحديث عن مثلها قال له الحضور ساخرين: ما الفائدة من التغني بالماضي؛ إن كنتَ رجلاً فأتِنا برأس الجنرال زاس، وإن لم يكن فبرأس النقيب ليفاشوف، ركب إلى هنا ناوياً قتْلَ القائد الذي يحرسه جيش قوزاقي.

– لو لم يستمر من جرحتُه في قتالي لما ضربته ضربة قاتلة، – قال النقيب ليفاشوف مبرّئاً نفسه، وأضاف بعد سكتة قصيرة: – ما العمل؟ هذا العجوز الشركسي جرى له ما قاله أحد قادة جيشنا الروس: من يرفع السيف يقضِ على يد من رفعه في وجهه.

عبس باي مما سمعه:

– إن كان قائدكم الروسي قال هذا فهو رجل حكيم. ولكن ما قاله لا تحققونه يا ليفاشوف. غزوتمونا بسلاح مُشهَر.

– أتريد أن تقول: كما أتاني العجوز الشركسي بالسيف؟.. – مازحه النقيب مخفياً انزعاجه من تلميح محدِّثه.

– ربما هو يا ليفاشو. – عبّر باي عن موافقته للنقيب، وعرّض له بما لا يوافقه فيه: – ولكن الجريح لا تسدَّدُ له ضربة قاتلة!

– لو كنت في موقفي لما قلتَ هذا!

فهم تورناو أن المشاحنة يمكن أن تنتهي بما لا تُحمد عقباه فساهم في الحديث:

– في كلام باي وفي كلامك يا نقيب نصيب من الصحة. سنعيد النقاش في الموضوع يوماً ما، ولكن كان يسرني يا باي لو رويت لنا كيف التقيت بالمرأة التي أعرفها، وكيف افتديتها.

–لم أعرف أن هذه المرأة الكافرة من معارفك... – غمغم باي مدركاً إلى أين يصل خبثُ تورناو. – إن كان يسرّك فسأروي حكايتها باختصار. حين سلّمت جثمان العجوز حاج عمر الذي قتله رفضُه للإهانة ورجعتُ، التقيت بحمرزقوه أسلانجري وتامبي أسلانبج في عمق الغابة القريب. ولما سمعتُ المرأة التي يمسكان بها تنادي " الشيشاني حسن بيه " عرضتُ عليهما أن يبيعاها لي فقالا: إن كانت أعجبتك فلا بأس نبيعها لك،وافعل بها ما تشاء. لم يدعاني

أكرر الطلب، باعاني إياها بست سومات، لم أخطئ، تبيّن أن بينك وبين المرأة القوزاقية معرفة جيدة...

– سيكافئك الله يا باي على المعروف الذي أسديتَه للمرأة القوزاقية. – قال تورناو متجاهلاً ما يقول باي.– حدث أن أُضطُررتَ أن تشتري في الأرض التي يحميها النقيب ليفاشوف ولذا سيعوّضك نقودك. وأنا سأكافئك.

– وهل تظن أني عملتُ معروفاً من أجل النقود؟.. – برّأ باي نفسه كأنه غير عابئ بالعرض المقدم إليه. – ما طمعي أنا في هذه الدنيا العارية القبيحة سوى أن يتفهّمني الله، ويفتح باب جنته لأخويّ الكبيرين اللذين قضيا على أيدي الكفار؛ افهمنا يا الله واشملنا برحمتك!

– آمين، – تقرّب النقيب تورناو من قلب باي، دون أن ينسى أنه الحاج حسن بيه.

وفي هذه اللحظة سُمع صوتُ القوزاق الذين كانوا يتدافعون مسرعين إلى الخارج:

– يأتي جنود الاستطلاع بفارس شركسي آخر!

ثم تبيّن أن الفارس الذي يُخبر عنه القوزاق هو غازي إمام.

XII

ما سَرَّ النقيبَ تورناو من بين ما جاءه به غازي إمام من بروجني أوكوب من نقود وأدوية وتبغ هو الرسالة المختصرة التي كتبتها إليه ليزا ابنةُ الجنرال زاس: "نهارك سعيد أيها البارون. لا أذكر اسمك تبعاً لتعليمات والدي المشددة. لم نجتمع إلا مرة واحدة غير أني لا أكتم أني أحتفظ باللقاء في قلبي، وأردد اسمك كثيراً. وأبتهل إلى الله أن تنجح مهمتك. ومتى عدت تبادلنا حديثاً ألطف. أدعو لك بالسلامة والصحة. وحقق الله كلَّ أمانيك. وأكتب الاسم الذي تعرفه بحيث لا تبصره العين".

عمل النقيب تورناو مع نفسه ثلاثة أيام بلا توقف. جمّع على الورق كل ما شاهده في وارب، ينجج، ضفاف لابا، البسلني، المخوش، الجمكوي، الأبزاخ، من طرقات وغابات ومعابر للأنهار ومداخل للجبال ومخارج، وتعداد الناس القاطنين في القرى التي عبرها، إلى قطعان المواشي الخارجة منها، وجهّز مشاهداته لإرسالها إلى بروجني أوكوب. ولم ينس موضوعَ نُزُلِ إفروسينيا إيفانوفنا

مع المعلومات السابقة. ولا اسمَ ونسب الشاب القوزاقي الذي دفنوه في الغابة، واسم قريته بارسكوفسك الذي عرفه من تيمبولات. وكتب على الورقة الدربَ الموصل إلى القبر، وكيف تجد شجرة البلوط التي دفن تحتها.

وفيما يعالج النقيب تورناو هذه المعلومات وغيرها كانت إفروسينيا وليزا تقتحمان خياله فجأة، وتغادرانه. " ما السبب في هذا؟ يسأل نفسه كأنه غيرُ مهتمٍّ بشيء، ولكنه لا يملك إلا أن يسأل عن السبب. – أفهم ما تريد الأرملة الشابة فروسيا: تحملك على حبها إذا كنت رجلاً. ولن تسمح لنفسها أن تنساك. وعجيب ما تودّدتْ إلى باي الذي لم تره إلا مرة واحدة: كانت تنظر إليه بطرف عينها وتغازله وهي تنطق اسمي. ومن أين لك أن تعرفي أيتها البائسة أن باي يكرهنا؟! أقول هذا ولكن ألا يمكن أن يكون ما أتخيل عليه باي غير ما تَعاملَ به معها؟ أيكون اشتراها من حمرز وتامبي لأنها كانت تنطق اسمي؟ حسناً فعل إذ اشترى المرأة الملهوفة منهما! هذا حسنٌ، ولكن كيف تفهم ما كتبت ليزا؟ هل كانت المبادرة منها أم دفعها أبوها إلى الكتابة؟ ومهما يكن فليزا هي من كتبت بيدها.أقول هذا ولكن هل يعرف القلبُ واليد أحدُهما الآخرَ كما يعرف القلب والروح؟ " رغم أني لم أرك إلا مرة فاسمك لا يفارق قلبي ولا أكتم أني أردده كثيراً " – يمسك رسالة ليزا ثانية ويقرؤها لنفسه. – أي قضية لا قيمة لها لا تستطيع حلّها أيها النقيب الركن في اليوم الذي ستستأنف فيه رحلتك إلى بلاد الشركس؟– نهر تورناو نفسَه، – أأنتَ من لا نساء له في تفليس وفي سان بطرسبورغ؟.. "

كان وقتُ احمرار الجبل الخريفي الشرقي هو الموعد الذي خرج فيه الفرسان الثلاثة من سهل فوزنيسينسك، وتوجهوا إلى ضفة نهر لابا. النقيب وغازي إمام يسيران جنباً إلى جنب، وباي يسبقهما قليلاً مؤدياً دور المستطلع. ولا أحد يعترضهم في طريقهم السرّيّ بناء على تعليمات النقيب ليفاشوف إلى الحراس القوزاق. وتورناو وغازي إمام اللذان مشيا كل هذه المسافة دون كلام بدءا الآن فحسب يتبادلان الحديث:

– سأروي لك يا حسن بيه الخبر المفرح الذي لم أجد منذ البارحة الموقف المناسب لأرويه لك. وقد لا يكون هذا جديداً عليك. ولكن لا يساويه شيء بالنسبة إليّ.
– أتقصد اختفاء رؤوس الأديغة من أمام مقر الجنرال زاس؟
– ومن أين تعرف؟
– أليست منعة فوزنيسينسك قوزاقية؟
– حقاً هي كذلك، – ضحك الإمام وعلّق برأيه. – ولكننا لا نهتم نحن بهذا. ما يهمني شيء آخر. من جهة لا يقبل حجرت نقار ما يفعل الجنرال زاس بهذه الرؤوس، ومن جهة أخرى يصادقه.
– أعتقد يا غازي إمام أنك اطّلعت في بروجني أوكوب على معلومة لا نعرفها نحن.
– ما لا تعرفه يا حسن بيه لا عرّفني إياه الله! تعاهدنا على ألا أسرار بيننا.يقال إن حجرت نقار زار قبل أيام الجنرال زاس، وجعله ينزع رؤوس الأديغة.
ابتسم تورناو:
– كأنكم لا تعرفون طبيعة زاس... أهو من أمر بإزالتها أم الشراكسة من حملوه على هذا؟
– وهل تعرف أن الشراكسة سرقوا هذه الرؤوس؟.. نعم يا حسن بيه فهمتُ، لا يجوز أن نخفي ما في قلوبنا. هذا لن يقبله الله مني ولا منك.
– المهمة التي نتابعها واحدة يا إمام بعلم إلهكم وإلهنا.
– من تسميه إلهك لا أعرفه، ولكن لا يحدث شيء في العالم دون معرفة إلهنا العظيم.وإن اقتنعت بهذا يا حسن بيه فقد تتحقق المهمة التي بدأناها مضطرين.
– لم أفهم يا إمام، – سأل تورناو متظاهراً بلجم الحصان. – ألا تثق بنفسك؟ أم يُقلقك جزء من مهمتنا لم ننفّذه أنا والأخوان قرمرز؟
– لا يتعلق الأمر بعملٍ ما أخفيه عنكم نتيجة عدم ثقة. – قال إمام مماطلاً، – ولكن اعتقادي هو أن كل ما نريد سيتحقق إن احتفظنا بالله في قلوبنا. أم لك وجهة نظر أخرى؟

– نعم يا إمام، – جزم النقيب تورناو، ثم أضاف: – لم يختلف فعلي عن قولي منذ اليوم الأول لعهدِنا، ليس لساعة واحدة، بل لدقيقة.
– هل تريد أن تقول إنه حتى حين تصلي أمام الله كما يصلي المسلمون يكون الإله الذي تتكلم عليه في قلبك؟ – كان الإمام أوقف حصانه ولكنه لحق برفيقه الذي لم يفعل مثله، واصطفّ إلى جانبه منتظراً ما سيقوله. وبعدما سارا قليلاً سأله:– لماذا لا تقول شيئاً يا حسن بيه؟
– انتهيت مما أريد أن أقوله لك يا إمام ولكنك لم تفهمه.
– ولماذا لم أفهم؟ – احتد غازي إمام للتلميح، ولكنه ابتسم وسأله عما كان يشكّ فيه. – أتتكلم على صلاتك الاضطرارية؟
– سامحني يا إمام، – غضب تورناو الذي كان يتمالك نفسه بصعوبة. – اِفهمِ الأمر كما تظن، ولكن سأقول إذ بدأنا: المهمة التي كلفوني بها لا إكراه فيها لأني ضابط. أنفذ ما يجب عليّ. إذا كنت أرتدي ثياباً ليست لي، وأصلي صلاة لستُ مؤمناً بها، فلا يعني هذا أني حِدت عن الطريق الخطير الذي ركبته، فاقداً حبي للناس الذين أودعوني ثقتهم. وإن أردت الحقيقة المجردة فأنا لا أدينكم في ما تقدمون لنا من خدمات.
قال غازي إمام على نحوٍ لا تفهم معه إن كان يدين نفسه أم يبرّئها:
– لا أعرف بم أعلّق على المهمة التي أجبرتمونا على تنفيذها... – لا يغبْ عن بالِك يا حسن بيه أن الله الذي تصلي له دون اقتناع تام به إلى الآن يتفهمنا بهذه الحجة، أعني أن ما تحملوننا على فعله فنفعله مجبرون عليه يا حسن بيه. البلاد التي يدورون بك فيها بلاد إسلامية.
" هل دخلنا جاهزين إلى القفقاس التي نحارب من أجلها منذ سنين؟..– ارتعب تورناو من السؤال المفاجئ ولكنه وجد في نفسه قوة – دفع فكرته المتشائمة إلى الأمام: أينما كنا، في الشيشان أم في الداغستان أم في شركيسيا لا نسمع إلا " أرضنا "، " سماءنا "، " بلادنا ". كل من لا يعتنقون المسيحية، أقصد غيرَ الغروزين والأرمن والأوسيت، لا يسمونا إلا "كفاراً"، " نهابين "... لِينادونا كما يشاؤون!.. لو لم نأت نحن لجاء الأتراك منذ زمن بعيد! أليس من جاؤوا إلى القيصر إيفان غروزني يرجون مساعدته ضد الأتراك والقرم كانوا من

هؤلاء الشراكسة القبرتاي؟ أليسوا من زوّجوا ابنتهم ماريا تيميريوكوفنا من القيصر؟ ومن نذكّرهم بالتاريخ يجيبوننا بأن هذا جرى في زمان آخر، قبل قرون... ما العمل؟ كما يقول الحاج جانسعيد: " كلٌّ يسعى وراء أهداف عصره...".

قال غازي إمام الصامت إلى الآن لتورناو الذي قيّدته أفكاره:

– الأفق الشرقي يحمرّ، وموعد صلاتنا يقترب.

توقف باي عند أجمة البرقوق كي يلحق به الفارسان. وخرير لابا السريع مسموع. والغمامة الشاحبة على سطح الماء تتناثر في البرية. والغابة التي زينها الخريف بالحشائش المتنوعة الألوان تختفي تحت السماء دون مظهر يوحي بالفرح. والبرية الباهتة تنزاح دون أن تلتفت إلى الوراء نحو التلال غير العالية، والغابات الصغيرة الكثيفة، والأشجار الشعثاء المنفردة، متجاوزة الفرسان الثلاثة، إلى الجهة التي خلّفوا فيها وراءهم قلعة فوزنيسينسك. ومتى عبرت نهر لابا ارتسم أمام ناظريك عالم آخرُ من قمم ثلجية، وغابات واسعة، وقرى متقابلة متباعدة، وطرق متعرجة تقصد تلك الأماكن، ودروب للفرسان وأخرى للمشاة، وقطعان مواشٍ.

" ما أجمل الطبيعة التي منحها الله للشراكسة!" – لحظة صاح تورناو في قلبه لام باي الفارسين اللذين انتظرهما:

– ما أكثر ما تتحادثان كأنكما صرتما في تخوم قريتكما! هيّا نُسرعْ! – حثّ باي حصانه دون انتظار جوابهما. وما إن وجد نفسه على ضفة النهر حتى أوقفه ما رآه: الفرسان الستة المترجلون يصلون صلاة الصبح – وهم جماعة نَقّار... – لا يظهرْ عليك أي انفعال، سنصلي معهم...

يقف في الصف الأمامي حجرت نَقّار، وحمرزقوه أسلانجري، وتامبي أسلانبج. ووراءهم يقف الثلاثة الآخرون. وكلٌّ يضع سلاحه إلى يمينه على نحو يستطيع معه التقاطه عند الضرورة. والخيول الستة متجمعة جاهزة لأي طارئ، ولا يُسمع منها غير نخيرها. والأمواج تتدافع متكسرة غير عابئة بما ترى. وبخار الماء الرقيق يتبدد في الهواء بعدما تزداد رقةً.

حين نظر نَقّار إلى الفرسان الطارئين بطرف عينه تعرف على اثنين، وشكّ في الثالث.
أنهت المجموعة الأولى صلاتها، قبل أن يُكمل غازي وباي الدعاء. وكان الفرسان الذين تبادلوا التحية ينتظرون الحاج حسن بيه الشيشاني المماطل في صلاته. لم يعد النقيب تورناو مهموماً بصلاته الاضطرارية: كان يفكر في تعارفه مع من ينتظرون فراغه، وما سيتبادل معهم من أحاديث.
– تقبَّل الله صلاتك يا حاجّ! – قال حجرت نَقّار للحاج، وحياه بتحية المسلمين كلهم: – سلامٌ عليكم يا ضيف!
– وعليكم سلام، – ردّ النقيب تورناو على تحية نَقّار.– يسرني أني تعرفت على رجالات شركيسيا حَجْرَتْ نَقّار، وحمرزقوه أسلانجري، وتامبي أسلانبج.
– وهل تعرفنا؟ – سأل تامبي أسلانبج مستغرباً سماع اسمه.
– لم أكن أعرفكم من وجوهكم، غير أني أعرف أن رجولتكم وحكمتكم وصلت إلى الشيشان البعيدة.
– حياك الله، ونحن سمعناهم يُثنون عليك في نواحينا مراراً. – قال حمرزقوه أسلانجري، – تفضّل، سنكرمك ونقضي واجبات الضيافة.
– بيتكم عامرٌ إن شاء الله! لو لم أكن على طريق تركيا لتشرفت بقبول دعوتكم. – قال النقيب تورناو، ثم سأل حجرت نَقّار كأنه يعرفه طوال عمره:
– وأنت ما أحوالك يا نَقّار؟ الحمد لله على السلامة، " راح الشرّ". روى لي مضيفاي باي وغازي إمام أن الكفار يرتعبون متى سمعوا اسمك ويكرهونك. لا تدعوهم يغلبونكم، وفي نواحينا يسحقونهم أيضاً.
لم نألُ جهداً يا ضيفنا... – ابتسم نَقّار. – هؤلاء لا يُغلبون بشخص أو بغارة مجموعة من الأشخاص. سأروي لك إذن يا حاج شيئاً مما كان يقوله لي والدنا المرحوم، كان يردد: " الشجرة الواحدة والشجرتان والثلاث ليست غابة. الغابة هي مئات ألوف الجذور المجتمعة المتساندة ". والآن فحسبُ فهمتُ معنى كلامه، حين وقعنا، نحن الأديغة، في موقع صعب. نعيش وقد قسمنا أنفسنا إلى أعراق متعددة: هذا يقول أنا قبرتاي، والآخر أبزاخ، والثالث شابسغ، جمكوي، بجدوغ، بسلني، فيعيش كل عرق منعزلاً. وأعجبُ من هذا ما يحدث

لنا: هؤلاء الذين عددت أعراقهم نسمي أنفسنا "أديغة" فإذا سمانا الغرباء "شراكسة" اعتبرناه مديحاً لنا. وأنتم يا ضيف منقسمون إلى أعرق كما سمعت.
– صحيح، ونحن منقسمون إلى أعراق ... – قال تورناو، ورمى رفيقيه غازي وباي بنظرة خفية تقول: " ألا تقولون شيئاً لهذا المحب للكلام الذي يحشرني في زاوية صعبة "
وأنهى حجرت نَقّار كلامه ضاحكاً كأنه لاحظ مأزق النقيب:
– ما الفائدة من أن نتكلم على قضايانا الأديغية المتنافرة وقد حصرنا أنفسنا في هذه البقعة الضيقة. إن قررت ألا تتفضل إلى عندنا يا حاج فسننصرف دون عتب من الطرفين.
حين افترق الفرسان الذين كانوا التقوا فجأة، وركب كلٌّ طريقه، قال النقيب تورناو لنفسه دون أن تختلج عضلة من أعضاء جسمه: "هذا أول اختبار لي، ولا يزال أمامي الكثير من هذا..."
– هل قلتَ شيئاً يا حسن بيه؟ – سأل باي على غير عادته، وأجاب نفسَه بسرعة: – لا، سألت هكذا اعتباطاً، كل شيء بخير.
– طبيعي أن يكون بخير. – نفّس غازي إمام أيضاً عن ضيقه، – ألا تعرف دهاء حجرت نَقّار؟.. والآخران كانا ينصتان بآذان مفتوحة.
لاحظ تورناو رغبة غازي إمام في معرفة اتجاه الجماعة التي يتزعمها حجرت نَقّار، فقال دون اهتمام شاملاً باي الذي ليس عنده مثلُ هذه النية:
– لا تلتفتا!
– لن نلتفت، غير أن من الصعب الوثوق بهؤلاء. – صرّح باي بما كان يقلقه، واختتم بعد سكتة قصيرة: – أنا واثق أنهم يقولون الشيء نفسه عنا.
– طبعاً... – وافق غازي إمام باي مرة أخرى، واختتم بكلمات حزينة:– ماذا بيدنا، وما الذي نحن أحرار فيه؟ دنيانا دنيا اختبار لنا من الله... أريد أن أسألك يا حسن بيه: لماذا أطلتَ صلاتك بعدنا كثيراً؟
– هل تعني أني زرعتُ الشك في قلوب من كانوا ينتظرونني؟
– لا... أليس نَقّار إنساناً ذكياً، التفت إليّ...

– ألا يدعو الشراكسة بعد الصلاة لأنفسهم؟ – سأل تورناو باسماً، وأجاب نفسه بنفسه. – ألا يجوز أن أختلف عنكم قليلاً أنتم الشركس والنغوي بصفتي شيشانياً؟.. – ثم شهد على صحة قوله دون مزاح: – فكرتُ في ما سأقول وما سيقول لي الناس الذين التقينا بهم فجأة. وها أنتم ترون، يُخيَّل إليّ أن الله فهمني فجعلنا أصدقاء دون شكوك بيننا.

– عفارم يا حسن بيه كما يقول الشراكسة.قال باي الذي كان يرفع رأسي كتفيه. – عدم ثقتك بهم موقف صحيح. أنا من جهتي لا أثق بأحد غير الله.

نصح النقيب تورناو بايَ بالكلام المختصر الذي كان ينصح به تيمبولات قرمرز أخاه الأصغر:

– اصبرْ، اطمئنّ!

– نعم يا باي، نعم، الله الأحد موضع ثقتنا. – أيّد غازي إمام قرمرز الأصغر.– أفهم حالك إذ التقيتَ بحمرزقوه وتامبي اللذين لا تودّهما... ولم يجرِ هذا دون علم الله. إنه رحيم واسع الفهم.

– لولا أن حجرت نَقَّار وهذا الكافر يلجمانني لكنتُ... – قال باي مغالباً حِقدَه، متناسياً إرفاق النقيب بحجرت: – أرحتُ نفسي وكن لا أعرف ما يُريح حمرزقوه البغيض... تامبي الأهبل ليس إنساناً صالحاً. أنتما تابعا سيركما، أمَا نبّهتُكما إلى أن هؤلاء لا تجوز الثقة بهم؟! أنا سأسير في الغابة التي إلى جانب الطريق، وسأتأكد إن كانوا يتابعوننا.

– لا ضرورة! – قال النقيب تورناو بنبرة حاسمة، – سيظنون أننا نختبئ عنهم.

– وهذا صحيح، – اختتم باي أقواله.

XIII

كان حجرت نَقَّار وحمرزقوه أسلانجري وتامبي أسلانبج وأبِده جانسعيد من "المجاهدين" المشهورين في الأبزاخ والبسلني والجمكوي، بمن فيهم أصدقاؤنا النغوي. لم يكن عند الأبزاخ أمير حسب علاقاتهم وطبيعة حياتهم، ولم يكونوا راغبين فيه. وكان قانَقوه عند البسلني، وبولتقوه عند الجمكوي، قائمَين على شؤون العِرقين بمثابة نبيين مرسلين من الله. ولم تخل القرى من أمراء صغار آخرين، غير أن قانَقوه آيتج وبولتقوه جامبولات كانا أميرين يحلان أي مشكلة.

وكان بين "المجاهدين" أمراء اضطُرّوا للهروب من ديارهم، وأشخاص من عامة الناس. وكان الأمير بيسلان والد الأمير حمرزقوه أسلانجري أميراً غنياً قبل أن يهاجم الجنرال يرمولوف القبرتاي. ولم يكن أخوه الأصغر أقل منه ثراءً. وكان لدى الأخوين ولدان في سن الزواج، أحدهما أسلانجري، والآخر عادلجري.

ويروون أن الشابين أسلانجري وعادلجري،ولدَي آل حمرزقوه كانا في حدود العشرين يحاربان مع أبويهما حين احتل يرمولوف القبرتاي عام 1821. وكان كل من يسمع بسيرة الأميرين الأخوين الأكبرين وولديهما وغيرهما من القبرتاي يتعجب من رجولتهم. ولكنهم لم يستطيعوا مجابهة الجيش القيصري المدجج بالسلاح والمتمرس بالقتال في حروب كثيرة فغادروا أرض القبرتاي، وتوجب عليهم الحياة في جبال البسلني والأبزاخ. وحين افتقروا إلى أي مقوّم من مقومات العيش توسلوا إلى يرمولوف أن يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم ولكنه لم يأذن لهم بهذا بل أذِن لهم أن يقيموا بين قرابة خمسة آلاف من القبرتاي كانوا هاجروا إلى نواحي وارب. وسرعان ما نُصِّب حمرزقوه بيسلان أميراً – والياً على هؤلاء.

وفي هذا العصر عاش أسلانجري وعادلجري يتنافسان على من يستحق لقب البطولة منهما، وعلى من يحظى بوُدّ الفتيات أكثر من الآخر. وكثيراً ما أدى هذا التنافس إلى الخصومات والحروب. وبالمقارنة بينهما كان عادلجري أصغر بعام واحد، وأجمل وجهاً في حين كان أسلانجري أعظم شجاعة وذكاء ودهاء. كان عادلجري محبوباً من الجميع بطبيعته الرقيقة وتهذيبه. وكان من يعرف أسلانجري ومن لا يعرفه يخاف منه ويتجنبه.

وتسببت فتاة جميلة اسمُها غُشَفِج من البسلني في العداء بين الأخوين حمرزقوه، وهي الأخت الصغرى لقانَقوه آيتج. وكان هوى الفتاة الحكيمة في عادلجري لا في أسلانجري. وأذاع قانَقوه آيتج كي لا يسيء إلى خُطّاب أخته أنها هي من ستختار من بين المتنافسَين زوج المستقبل. ولكنه تخلّص من المأزق بأن سمح لعادلجري أن يختطفها سراً، فبرأ نفسه بأنها هي من اختارت.

وكان من تُحرِقه الإهانة التي أُلحقت به، ولا يجد مكاناً له في الدنيا الواسعة، ويدين عمه وابن عمه هو أسلانجري. ولما سمع بالخبر المُمِضّ صرّح قائلاً "سيندم من اختطفها ومن سمح باختطافها". وشرع أسلانجري مدفوعاً بحقده

في تنفيذ خطته لا يلجمه أحدٌ عما قرره. وبدأ يبحث عن طريقة لإهانة عادلجري الذي جعل الناس يسخرون منه في شأن قصة حبه، بل عن طريقة لقتلِه. ولما بدأ أسلانجري يُضيّق الخناق على الأسرة الجديدة حتى سدّ عليها منافذ العيش رغم محاولات الأصدقاء مصالحة الأخوين التجأت إلى الشيشان في نواحي نهر تَرْج. ولم يمض وقت طويل على الهجرة حتى مات حمرزقوه بيسلان. فلما وجد أسلانجري نفسه الآن بوفاة والده حراً ليس هناك من تردعه كلمته قتل عمه الوحيد.

شقّت المأساة التي حلّت بأسرة الأمراء حمرزقوه الأديغة المقيمين في نواحي وارب ومضيق بِنْجِج إلى قسمين. ووجد القاتلُ الهارب حمرزقوه أسلانجري والجماعةُ التي يتزعمها تامبي أسلانبج ملجأ عند الأبزاخ الجبليين. واستطاع حمرزقوه أسلانجري بذكائه وخبثه وشجاعته، خلافاً للأمير تامبي، التقرب والاندماج في زعماء الأبزاخ المتهورين في الشجاعة. واغتنى بينهم في زمن قصير.

كان حمرزقوه أسلانجري يعيش بين الأبزاخ وكأن شيئاً لم يحدث له، ولم يقتل عمه، ولم يطرد ابن عمه، ولكنه على عداء إلى الآن مع قانقوه آيتج. ولا يعني هذا أنهما لا يتبادلان أي حديث حين يلتقيان ولكن العداء بينهما ظاهرٌ حتى لمن لا يعرفهما فيتوقع أن يتعاركا في أي لحظة.

ومن كانوا يقولون:" ما أشد حِلم هذين الأميرين المتخاصمَين! " كثيرون. ولهذا النوع من العداء المكظوم جذور في الطبيعة الأديغية: ما على ألسنتهم غيرُ ما في قلوبهم. هل يندرج هذا في الروح الأديغية؟ ربما يجد تصرُّفُ الأمير قانقوه بتزويجه أختَه سراً مكاناً له في طبيعة الأديغة، ولكن العار الذي ارتكبه أسلانجري بجرحِه ابن عمه وقتلِه عمه، من أجل ابنة آل قانقوه،مبتعداً بهذا عن الروح الأديغية كلَّ البعد،ملوّثاً سمعة الأسرة كلها، أطلق ألسنة الناس، ولو سراً، خوفاً منه. وكان بين الناس من يدين ما فعلته ابنة قانَقوه، وهم جماعة أسلانجري. وهؤلاء كانوا مقسومين إلى فئات صغيرة من اثنين أو ثلاثة. ورغم أن أسلانجري الذي أساء إلى سمعة الأسرة كلها كان يتظاهر بعدم الاهتمام بما يقال في غيابه فإن ما كان يجعله متردداً في طريقة التعامل مع أمير البسلني الذي أهانه هو عيشُه في كنف البسلني هاجراً رغماً عنه مسقط رأسه. ولم يكن هذا السبب الوحيد بل كانت

هناك رغبة لم تتحقق له يكتمها فلا يعرف بها حتى صديقه تامبي أسلانبج. ولم يكن راغباً في إبداء جفاء علني نحو من فعل به هذا رغم اعتبارِه إياه العدو الأول واستيائِه من المهمة التي كان له فيها فائدة كبيرة ثم لم يوكلوها إليه لعدم ثقتهم فيه. وحين تأكد ممن كان يشك فيه مضى الصيف وحل الخريف وهو يفكر في ردِّ فعله ضدّه.

صرخ حمرزقوه أسلانجري في نفسه: " على ما يبدو فقد بان اليوم من وقفوا في وجه مشروعي! " ولمح للمجاهد نَقَّار مناوراً حول من يشكّ فيه:

– النغوي يتصرفون في أرضنا بحرية.

– هل تقصد آل قرمرز؟ سأله نَقَّار وإن فهم ما يدور محدِّثُه حوله.

– نعم، ويدورون بالحاج الشيشاني في أرضنا.

– يبدو لي أن هذا الذي يماطل في صَلاته صديقٌ لغازي إمام.– وساهم تامبي أسلانبج برأيه في الموضوع فقال بصوت جازم: – وهو، غازي، يجر وراءه الشيشاني في أرضنا كأنه يمارس الإسلام وحده كما صديقُه. هل نسي هو الآخر أنه غريب!

– صحيح، – وافق حمرزقوه صديقه، – يسرني أنك صحوت أخيراً.ما موقع الشيشاني بيننا؛ ألا يكفي ما نعاني من الروس؟ – ودون اكتراث بالسؤال الذي وجّهه إلى نفسه توجه إلى حجرت نَقَّار: – هؤلاء أصابوا جسدك بكثير من الجروح العميقة. ونحن حين طردونا من القبرتاي فالتجأنا إلى ضفة نهر وراب عادوا فطردونا منها أيضاً. ولا أظنهم سيسمحون لنا بالإقامة هنا حيث وجدنا ملجأ. ماذا بيدنا يا نَقَّار؟ هؤلاء يثمّنون رجولتك وإن جابهتهم بقسوة. يفهمون أنك قادر على تطويع الأديغة رغم أنك لستَ أميراً مع اعتقادي أن لا علاقة بأمير أو غير أمير بالموضوع. حتى زاس اللعين الذي لا يُطيقنا لا أستطيع أن أقول إنه يكرهك.

– "اسمع إلى أين وصل هذا الآن!" ابتسم نَقَّار. – يبدو من كلامه أنه يعرف الكثير عني مما لا أعرفه أنا عن نفسي. هو يعتبر نفسه من طيور الجنة لا علاقة له بشيء. وزياراتك الليلية لزاس؟.. الحق أيها الكذاب النمّام ليس عندي ما أخفيه. صارِحْني بما في قلبك دون رياء. إن كنت تسمي النغوي في أرضنا

بالغرباء فلا تنس أنك أنت نصف غريب. تدّعي أنك طُردت من القبرتاي، ولم يُسمح لك بالإقامة في مضيق وراب، ولا يدَعونك تستقر هنا، ولكن هذا غيرُ صحيح. وفي السنوات التي لجأت فيها إلى الأبزاخ جمعتَ ما ليس عندهم من المال. وربما ما كان لدي اعتراض لو جمعت هذه الثروة بكدِّ يمينك. لا أقول إنك خالٍ من الرجولة تختبئ من سيوف القوزاق، ولن يقبل من يسمع مني مثل هذا الكلام، ولكن إن لم تنته عن خبثك وجشعك فليس أسهلَ علينا من وضعِ حدٍّ لك... الأفضل لنا ألا نسمح للأعداء أن يقولوا عنا: حين وضعنا الأديغة في مأزق شرعوا يتقاتلون في ما بينهم. وبغضِّ النظر عن هذا فنحن الأديغة نعيش كشجرة بلوط كثيرة الأغصان، موزعين على اثني عشر عرقاً تعصف بنا الخلافات... "

– يا نَقَار الذي أكِنّ له الود والاحترام،، أراك لا تقول شيئاً؛ أتكون عاتباً عليّ؟

– ولماذا أعتب عليك إذا كنتَ مهموماً بما أنا مهموم به. ما الفائدة من الاعتداد بالذات وكلٌّ منا همُّه النجاة بشخصه؟ تنهد حمرزقوه، وسأل صديقه:

– وما رأيك أنت في الموضوع؟

– وهل يُلام قائل الحق يا أمير؟! أجاب تامبي بجوابٍ – سؤالٍ كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

– كلامك صحيح يا أسلانبج، أنت على حق، لن تدَعني أقع في الخطأ... – أجاب أسلانبج من خارج قلبه.

– أستمع إليكما أيها الأميران فأتعجب: لا تفهمان سبب إخفاق الأديغة.لم تفكرا في ما فعل بكم غُزاة أرضنا في القبرتاي، ولا في ما جرى لكما على ضفاف وراب. ولم تتّعِظا بالإهانة التي لا تليق بكما. لا أقصد أن أقف منكما موقف المعلم ولكن ما يُفهِمك الأمر كلمةٌ واحدة: الوحدة! أين هي الآن؟ أكانت عندنا أم لم تكن؟ لو امتلكناها لما قال كلُّ أديغي عن أرضه في ساعة الشدة: "كلُّ يعود إلى بيته الوضيع وأنا بيتي من ذهب" وافترقوا، ولساعد أحدهم الآخر، ولما جرى لنا ما جرى. بقينا في مضافاتنا نردد في أثناء سفك يرمولوف دم القبرتاي: ماذا يجري في تلك الناحية يا ربي؟ ليتهم صدّوا الجيش

الروسي عن ديارنا. هل تعرفان ماذا يقول لنا البجدوغ والشابسغ، والآن نحن، بمن فينا الأبزاخ والبسلني والجمكوي؟
– ربما يقول هؤلاء أيضاً: لا تسمحوا للجيش الروسي أن يأتي إلى نواحينا... – غمغم تامبي الذي كان يبرز على صهوة حصانه ضخماً.
– نجلب الكارثة لأنفسنا ونحن نردد هذا الكلام، – ساهم حمرزقوه أسلانبج.
– وهذا ما يهمني أنا أيضاً، – وافق حجرت نَقّار الأميرين اللذين صلى معهما بالمصادفة صلاة الصبح، واختتم كلامه: – ولكن هذه المصيبة ليست بلا مخرج. ما نتكلم فيه ليس موضوعاً عادياً، ولذا سنثيره في أول مؤتمر خريفي للأبزاخ.
– لو سمح لي الأبزاخ يا نَقّار لطلبت منهم ألا يبحثوا غيره في المؤتمر. ما رأيك أنت يا أسلانبج؟
– أوافقك، لا يجوز تأجيل الموضوع يا أمير.
– إن كان هذا رأيكما أنتما أيضاً فلن نسوّف الموضوع. – وجد نَقّار ذريعة لمفارقة من التقى بهما، فقال لحمرزقوه أسلانجري: – هذا ما يقوله قانَقوه آيتج أميرُ البسلني الكبير. وأنا مسافر إليه الآن فيسرني أن ترافقاني.
– أنا والأمير قانقوه الكبير لسنا على وفاق. ولكن فيمَ نحن أحرار إذا كنا نعيش معاً في عالمٍ ثقيل؟ رفض في زمن ما أن أصاهره ولكن الأمر انتهى فلن أعاديه. بلّغه سلامي.
– سألبي طلبك يا أمير، – قال نَقّار وخطر له فجأة أن غُشَفج التي تسببت يوماً في المصيبة تحل ضيفةً على أخيها، ولكن لم يجد من اللائق أن يسرد الخبر الآن، فودّعهما ومضى.
قال تامبي وهو يراقب الفرسان الذين يبتعدون خبباً:
– انظر يا أمير كيف يجُري نَقّار المهموم بكل الأديغة حصانه.
– ما الأمر يا أسلانبج؟ – سأل حمرزقوه دون أن ينظر في الاتجاه الذي طلبوا منه النظر إليه، – هل يُخيِّل نفسه إليك أيضاً طائراً حراً؟ الأفضل من هذا أن نلاحق الضيف الشيشاني الذي يدور به الأخَوان قرمرز ونعرف المهمة التي يتابعها.

XIV

اختبأ باي في الأجمة غير البعيدة عن الطريق.

لا يصدر أيّ صوت غريب من الغابة الخريفية التي أفاقت من نومها الليلي. الطيور وأغصان الأشجار والأوراق المتعددة الألوان تستقبل بفرحٍ الشمس التي ترتقي السماء. وما لا يفيق من سكرة النوم هو الهواء الثقيل الذي حبسته الأشجار مساء أمس. ولم يحتجْ هو الآخرُ إلى وقت طويل لينضمّ إلى الموكب. موعده هو وقتُ عبثِ الشمس الحارقة بجذوع الأشجار.

لا يمتثل شيء أمام عيني باي غيرِ المرتاحِ قلبُه رغم جمال الطبيعة في الصباح: لا يرى أوراق الأشجار المتطايرة، ولا يسمع زقزقة العصافير. ولا يُحس بالريح الشرقية التي تدور حول عقِبيه. لا تزال نظرات حمرزقوه أسلانجري الخفية إلى الكابتن تورناو أمام عينيه: "أنكون أخطأنا فتصرفنا بما يوحي بالريبة؟.. لا نتذكر أننا اقترفنا مثل هذا الخطأ منذ باشرنا هذه المهمة البغيضة. وما لا أفهمه هو تدبيرات تيمبولات وتصرفاته. بدلاً من أن يثأر لأخويه أوقعَنا دون أن يدري في ورطة من جراء جشعه إلى المال. المال كالندى، يأتي ويغيب،كما يقول الشراكسة. هل يُقبَل منا أن نعيد تجميع ثروة والدنا عن طريق الخيانة وعبْرَ دموع المأساة؟ أقول هذا ولكن هل من أنتظرهم غيرَ واثقٍ منهم أحسنُ منا؟ هؤلاء يحمون أرضَهم وماءهم وإن لم يكونوا أفضل منا. ونحن؟ هل نحن بلا أرض؟ يبدو أن هذا هو الصحيح، وما نفعله يشهد على الأمر... "

صحا باي لما رأى أُذُني الحصان المنتصبتين. ولما أنصت سمع وقْع الحوافر الذي يقترب. وطرقتْ أذنيه بعضُ كلمات الفرسان. وصدّق حمرزقوه أسلانجري ما كان يتوجس منه:

– يطلب منا الأمير البغيض قانقوه آيتج ألا نتحامل على النغوي، ولكن لا يجوز الوثوق بالناس الذين يحمونهم. بالقياس إلى ما دفعني هذا الخبيث إلى فعله فهؤلاء لم يؤذوني في شيء. ولكن ما العمل؟ قلبي الأديغي لا يتقبلهم.

– لا فرق في هذا بين قلب أديغي وقلب نغوي يا أمير! قال تامبي متذاكياً مماطلاً. – ثم سأله موافقاً إياه: – وأنا هل تعتقد أني واثق منهم؟

– يا أسلانبج، يا أمير، يُخيَّل إليّ أنك لا تثق بي أيضاً. – ردّ حمرزقوه الكرة إلى ملعب تامبي.
– ما الأمر يا أسلانجري؟ ما الذي يدعوك إلى هذا الكلام بعدما عُمِّرنا نصف عمرنا؟
– عندي أسبابي له. ولكن لا تظن أن الكلام موجه إليك.
– حسنٌ هكذا، – غمغم تامبي أسلانبج، وخصّ نفسَه، – كنت سأعتب عليك إذن.
– الحقّ أني أتساءل يا تامبي: ماذا جرى لك حتى تتعلق بكل كلمة أقولها؟ – نهر حمرزقوه صديقه، ثم أوقف حصانه كمن سقط منه شيء، ونظر إلى الطريق.
– ماذا؟ أظنك لم تعد ترى آثار أحد الفرسان الثلاثة على الطريق؟ – سأل أسلانبج أسلانجري دون التوقف عند ما لُمِّح به إليه. ثم أضاف: – أنا كنت أشكّ في هذا منذ زمن.
– لماذا لم تخبرني إن كانت ملاحظتك دقيقة هكذا؟
– ألا يجوز أن أكون أفضل منك في أمر ما؟
–كنْ أفضل، ولكن لا تكتمني ما في قلبك.
– أيُّ سرٍّ يشغلك يا تامبي؟ – حثّ حمرزقوه حصانه فاعترض رأس حصان رفيقه.
– ما يشغلك يا حمرزقوه يشغلني أنا أيضاً. – لم يتراجع تامبي.
– لا تتشاجرا أيها الأميران من أجل حوافر حصاني – نادى باي الذي خرج من الغابة متمهلاً الأميرين المتجابهين.
– أهذا أنت يا باي؟! – قال حمرزقوه الذي لا يعرف تفسيراً لما يرى للفارس المتوقف على الطريق، وسأله: – ماذا تفعل هنا؟
– أنتظركما، – ابتسم باي.
– وهل طلبنا منكم أن تنتظرونا؟! – عاد تامبي الآن إلى وعيه.
– ألا يمكن أني فهمت هكذا وإن لم تطلبوا مني؟ – أجاب باي دون أي اهتمام.

– ألا يعني هكذا أنك كنت تراقبنا نحن الأميرين الأديغيين؟ – وافق حمرزقوه الذي كان يكظم غيظه بصعوبة رفيقه تامبي.

– أنا أم أنتما أيها الأميران مَن ضُبطا بذنبهما؟ – سأل باي وهو ينتأ برأسي كتفيه، وشرح لهما سبب السؤال.– من كنتما تقتفيان آثار حصانيهما ينتظراني في ذلك المنعطف؛ فهيا معي أعرّفكما عليهما من جديد.

– لا تعلّمنا يا قرمرز ما علينا فِعلُه! – عرّض تامبي وهو يشد قامته الضخمة لباي، ثم أضاف بنبرة أنعم: – ونحن لسنا هنا لا نعرف ما نفعل؛ أليس كذلك يا أمير؟

– لا يسألون عن الصواب. ولا يعيدون الكلام فيه يا أمير، تعال يا أسلانبج.

– انحرف حمرزقوه عن الطريق قليلاً، وتوغل في الغابة التي لا عمل له فيها. وبعدما سارا بعض الوقت نهر نفسه: – غلبَنا النغوي الخبيث... تسببنا في عثرتنا بأنفسنا ونحن ندرك أنه لا يُذاع سرٌّ في الغابة.

لحق قرمرز باي برفيقيه وهو يستغرب تحقُّقَ ما كان يرتاب فيه، ولكنه لم يُخبرهما بما جرى له على الطريق.

سأل غازي إمام الذي كان يتظاهر بعدم مبالاته بشيء:

– وماذا بعدُ يا باي؟ ما الأخبار حيث كنتَ؟

– لولا أن أرنباً أبيض صغيراً عبر الطريق أمامي لقلت لك: كل شيء على ما يرام.

– ما أسوأ ألا يهتم بك أحد! – تنهد غازي إمام. ولكن هذا الوضع يناسبنا في موقفنا الحالي.

– "سنعرف هذا متى أنجزنا مهمتنا فحسبُ..." – ابتسم النقيب تورناو في سرّه متذكراً نظرات تامبي المريبة.

– أهمّ ما يشغلنا يا باي هو ارتيابك في تامبي وحمرزقوه... – قال تيمبولات وأعاد السؤال غيرَ مصدِّق ما يسمع. – أتكون تخيَّلتَ فحسبُ؟

– لا تحرماني مما يشغل بالكما وإن كان الثالث في المكان الذي يتسارُّ فيه شخصان زائداً. – انضم مفدق العجوز ممازحاً إلى الأخوين قرمرز.

– باي معذور في قلقه.– لفت الصوت الصادر من ورائهم الثلاثة إليه. أنهى النقيب بصوت عال جازم لم يعهدوه من قبل. – الآن، سنركب دون أن نتأخر دقيقة واحدة.

– لم أفهم، – رفع باي رأسي كتفيه كما هي عادته حين لا يعجبه شيء.

– يا باي، اهدأ ودعْ حسن بيه يُخبرنا بسبب رحيلنا. – نظر تيمبولات في عيني تورناو الجاسوس فيما يوصي أخاه.

– باي معذور في قلقه – كرر تورناو كلامه. ثم باح بما كان يشغل فكره: – لا أثق في حمرزقوه وتامبي. نعم، نعم يا باي، لا أدينك على اتخاذك أخاك الأكبر موضع سرّ دون أن تخبرني.

– يبدو، – جحظت عينا باي وقد تعكرتا، – أنكما أنت والإمام بحثتما عني في الغابة... كيف تفهم هذا؟!

– لا تتهمنا بما ليس ذنْبنا يا باي، واللهُ لن يقبل منك. وتأخُّرُك عنا بحجة التأكد مما إذا كانوا يتابعوننا صدّق شكي.

– لا بأس هكذا، – تمتم باي بكلام أميل إلى الاعتذار، – خُيّل إليّ أنكما تعرفان ما جرى لي في الغابة ورويته لتيمبولات. سامحني، لستَ مخطئاً في ما شككتما فيه.

– إن كنتم تعتقدون أنهم يتابعوننا، – أمر مفدق، – فسننهي نقاشنا هنا. لا تخالفا كلامي أنا وحسن بيه البتة. وأنتما أيها الولدان تيمبولات وسفربي تأخّرا عنا بضع غلوات حصان لتكنسا آثار الحوافر.

قطعت جماعة مفدق حتى الغياب مسافة غير قليلة. وركبوا في اليوم التالي مع شروق الشمس، وخلّفوا الظهيرة وراءهم وهم يعبرون الغابة المرتفعة، ووصلوا مع العصر إلى جبل " آشبَقُ " المجاور لقرية باغ. وساروا دون توقف بضع ساعات حتى حلول الظلام. والآن كانوا ترجلوا ويقتربون من جبل " دِث" غير القريبة ولا البعيدة ممسكين بأعنّة الخيل[1]. وطوال هذا الوقت تقدّم العجوز مفدق

[1] " وفي اليوم التالي تسلقنا الجبل حتى مسافة خمسة وثلاثين فرستاً. دُرنا حول قرية " باغ " دون أن ندخلها، وقضينا الليل في أحد كهوف جبل " آشْبَقُ ". ثم استطعنا استئناف السير

المجموعة: لم يكن يلتفت، ولا جعل رفاقه يشكون في أنه تعب. وربما ما كان ليتوقف لولا موقفه السلبي من الجبل.

– الجبل الذي تجاوزناه ليس جبلَ خيرٍ يا حسن بيه. – قال مفدق، وأنهى مُسمِعاً رفاقه – ليشملنا الله برعايته! قولوا " آمين " ولْندعُ إلى الله.

وبعدما انتهوا من الدعاء إلى الله، شرح غازي إمام للنقيب تورناو سبب وصفِ مفدق للجبل بأنه " ليس جبل خير ":

– كلام مفدق صحيح. في ذلك الكهف الجبلي كان العملاق دَشقال يعيش مقيداً بسبع سلاسل. وأمامه على مسافة لا يستطيع بلوغها سيف ضخم. وسبب عجزه عن بلوغ السيف هو أن موعده لم يحِنْ بعدُ. وحين يبدأ يضطرب من أجل التخلص من قيوده يرجّ الأرض ابتداءً من بحرٍ وانتهاء ببحر آخر، يفتّت الجبال. وإن كنا محظوظين ظل عاجزاً عن بلوغ السيف إذ سيقطّع الجنس البشري، ويُفني العالم.

– من رأى العملاق دَشقال؟ – سأل تورناو غازي وهو يبتسم في سرّه.

– لا سمح الله! – أسرع إمام بالردّ فزِعاً. – لا أظن في العالم إنساناً يود أن يرى هذا. حقاً يقال إن راعياً يعيش في قرية باغ شاهده فجُنّ. ليحمِنا الله يا حسن بيه! لنتوقف عن الكلام على دشقال العملاق؛ سيسمعنا ويوقِعُنا في مصيبة. لماذا تضحك يا حسن بيه؛ ألا تصدّق؟

– أصدِّق، أصدِّق.

– لا بأس إذن. كلام مفدق كله صحيح. – قال غازي إمام وهو ينظر جهة الجبل العالي، واختتم دون أن يغفل عن امتداح نفسه. – لا أظن أننا نعيش على هذه الدنيا الفانية لا نعرف شيئاً.

بضع ساعات على ظهور الخيل. وفي ظهيرة هذا اليوم وصلنا إلى جبل " دِثْ " ذي الكهوف الكثيرة المتشابكة ذات المظهر القبيح المريع حتى لَتُذكِّرك بأساطير بروميثيوس واليونان...لفت غازي إمام نظري دون تصنُّعٍ إلى الجهة التي كان يظهر منها ثقب أسود كبير... والحق أن الشراكسة يخافون من جبل " دث" ولا يجّذون الاقتراب منه... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

تبدأ الغيوم المفاجئة تغطي جبل دث الذي كانت شمس بعد الظهيرة تنيره. وهبت ريح عاصفة تقتلع ما يقف في طريقها. وتبعتها قطرات مطر باردة. وحين أنار البرق الغمامة السوداء رجّ الرعد أرجاء الجبل. ثم هدأ. ومع أن البرق أنار الغيوم المتفرقة بضع مرات فإن الرعد لم يقصف. وشيئاً فشيئاً تبدأ الدنيا تعود إلى وعيها من خلال الضياء. اختفت الريح التي جلبت المطر والبرَد. والجبال المتراصفة التي تبتعد صوب البحر الأسود تلمع قممها بالثلج. وكل ما تحيط به العين غابات واسعة.

– هذه يا حسن بيه طبيعة بلادنا التي حبانا بها الله. – قال مفدق المعتاد على ما يراه لتورناو، – أرعبتْنا ثم صالحَتْنا. نحن نتعايش معها بصعوبة ولو أنها وطننا... وأنهى بصوت أعلى بعد سكتة قصيرة: – أحياناً لا نسمع نصائح نَقّار، ولكنكم تجهِدون أنفسكم عبثاً. حتى لو احتللتم بلادنا أيها الضابط الروسي فلن تستطيعوا إخضاعنا.

– ما يحبوك به الله لا ينتزعه منك. – احتدّ غازي إمام مما سمع، غير أنه تراجع عن كلامه: – لا أعرف ما العمل إذا تدخل الله من سمائه إلى أرضنا.

– بقيت تقول هذا حتى جعلتنا نُقسِم أمام الضابط الروسي، والآن...

– اطمئِنَّ يا باي، – قاطع تيمبولات أخاه الأصغر. – ألم نتفق على ألا نعيد الكلام في الموضوع؟! – ثم سأل أتاليكه بصوت ألطف: – ما العمل يا والدنا؟ أنتابعُ طريقنا أم نقضي الليل هنا؟

– وهل عجيب إن كنا نعيش وراء هذه الجبال؟ – أعاد الأتاليك السؤال إلى ربيبه. إن كنت ستقودنا وأنت تعرف أنْ لا مسير في الليل في جبالنا تبعناك، ولكن لن نسمح لك باستغبائنا إن لم نكن مجانين. هيا ابحث عن موضع مريح نقضي فيه ليلتنا!

نهض مفدق متثاقلاً في الفجر وهو يغمغم. ولما قفز تورناو الذي كان نائماً بحذر لامه العجوز:

– لماذا لم تُوقظني في وقت أبكر إن كنتَ تستعجل عليّ؟ ألا ترى أن النهار الخريفي القصير لا ينتظرنا؟!

– قدّرت أنكم تعبتم البارحة، كان يوماً مرهقاً.

– الثور المربوط إلى المحراث هو من يُرهَق... – غمغم مفدق مرة أخرى. – ألستم من أطلب منهم الاستيقاظ يا سفربي وتيمبولات؟..لا تبدؤوا نهاركم بكسل لا قيام معه. أين باي؛ لا أراه بينكم؟

– أنا في هذا الجانب يا مفدق، – قال باي الذي كان يُسرِج الخيل.

– هكذا؟ – قال مفدق راضياً بما رأى، وأفهَمَ رفاقه الآخرين: – لن نتأخر من أجل الفطور، اشربوا الماء على ما في ظروفكم من اللحم المطحون، واصبروا إلى أن نصل مساء إلى جبل أَجِبْسو.

– وصلاة الصبح؟! – استعجل الإمام كاتماً رياءه.

– كان عليك ألا تستغرق في النوم لو كنت مهموماً بالصلاة، – غمغم باي بينه وبين نفسه لا يسمعه أحد. – لم تنتبه حين دفعتك بمرفقي.

– أتساءل يا إمام: ألا يحقّ للمسافر أن يترك صلاته وصيامه؟ – ركب مفدق، دون اهتمام بالسؤال وجوابه، الحصانَ الذي كان تيمبولات يمسك له بزمامه.

– لا، لا يا مفدق. – لم يستعجل غازي إمام الآن. لا تقل هذا، لا تدعْنا نذنِب! ليس أمثالُنا من يتخلَّون عن صلاتهم

وصيامهم. بل من انقطعت آمالُهم. حرام ألا نصلي ولا ندعو إلى الله.

– ما يقوله إمام صحيح، – قال النقيب تورناو الذي لم يتوقعوا منه المساهمة في النقاش.

– وهل أنت من هذا الرأي يا حسن بيه؟ سأطيعك إذن، – ترجل مفدق وهو يبحث عن تفسير لما يستغربه.

أدَّت الجماعة التي كانت تمسك بأيديها أعنّة الخيل المتعبة من الطريق الجبلي صلاة الصبح. ثم أوقفت الشمسُ البازغة مفدق فرفع يديه إليها:

– شمسنا العظيمة تشرق؛ قولوا آمين!

رفع غازي إمام وحسن بيه أيديهما بعدما تبادلا النظرات. ولكن الشمس التي تحرق حواف الأحجار زرعت فيهما فجأة المهابة فانضما إلى جوقة الدعاء.

همس غازي إمام الذي كان تعبه يزداد شيئاً فشيئاً مع المسير في أذن النقيب تورناو:

– هل تعتقد أن الشمس التي ابتهلنا إليها ستعيننا؟

– إن دعوت وإلهك في قلبك ساعدتْك، وشملتْك برحمتها.
– قد يكون هذا صحيحاً يا حسن بيه... ولكن الأفضل أن يكون في قلبك أيضاً الإله الذي في قلوب من ترافقهم. إنه سيشمل الجميع برعايته، وسيحمينا.
ابتسم تورناو ومازح إمام:
– تقصد مثل مفدق الوثني؟
– لا، – جزم الإمام، وغيّر موقفه سريعاً: – لا بأس أن يكون إيمانك مثل إيمان مفدق بالله. ألسنا نتابع مهمة واحدة لا تغيب عن علم الله وقراره؟!
" لا تتعرض للإله الذي أومن به، وفي قلبي! " لم يرض تورناو الجاسوس بما قيل له. ولكن لم يسمح لإمام بالارتياب. – الأفضل من هذا أن تؤمنوا في قلوبكم بالإسلام الذي على شفاهكم. ليس تفسير الأمر من مهمتي ولكن لا تحاول، وسبق أن أخبرتك، أن تقنِعني بما لستَ مقتنعاً به. مع أن النقيب تورناو كان يقول لنفسه: قل هذا لمفدق الذي لا يسمح لنفسه أن ينسى آلهته المتعددة. فقد كان ما تدعوه مشاهداته في الجبل إلى التفكير فيه شيئاً آخر.– لا يبقى شيء لا يخطر لك متى كنت تحت التأثير الدائم للخوف من الجبال المتعددة القمم، والكهوف، والرعد المدوّي في المضائق، والريح التي تصفر، والصخور التي تتساقط من القمم. ولكن ألا يولد الإنسان في الجبال مهما خاف منها، ويعيش ويموت؟.. يعملون في الأرض، ويستنبتون فيها الفاكهة، ولن يبادلوك وطناً آخر بها. وإن كان عندهم مثلُ هذا الحب الصادق فلماذا أدخلوني إلى أرضهم؟.. ولكن ألسنا نحن المذنبين في هذا؟ ألسنا من هاجمهم بالسلاح لأنهم لم يستسلموا لنا باتفاق كاذب للسلام؟.. يبدو أن كل إنسان يعمل لفائدته الشخصية. وآل قرمز الموعودون يبيعونك أرضهم وغير أرضهم متى استعادوا مُلكهم. وما شأن العجوز الأبخازي وابنه إذن؟.. إلى الآن لم أكتشف في سفربي أيّ شيء سلباً أو إيجاباً يسمح لي أن أتكلم عليه، ولكن من أين لي أن أعرف كيف سيتعامل معي في النهاية. والعجوز المحتمي بجباله، المعتدّ بها، المهموم بجيبي وكيسي،كنت أرى فيه ميلاً إلى الافتخار، غير أنه لم يخدعني. على يساري يعيش القبرتاي، وعلى يميني الوبيخ والشابسغ على ساحل البحر الأسود، وورائي الأبزاخ والجمكوي، وحيث أنظر أمامي الأبخاز... "

– كأننا أرهقناك يا حسن بيه، – خرج تورناو من أفكاره المتضاربة حين ناداه مفدق، – تعال إلى هنا لأريك ما لن تراه ثانية إلى الأبد. انظرْ إلى مضيق الجبل الذي نتوجه إليه. هذه المياه الدائرية التي تراها ينبع منها نهر لابا ونهر مِزمِت.وحيث يجري نهر مزمت وراء الجبل تقع قرية أجبسو.

– لم يبق إذن الكثير على وصولنا إلى أجبسو، – قال النقيب تورناو مُجيلاً بصره الحاد في المحيط القريب.

– تصوّرْ هذا أيها الضابط الروسي إن شئت، – ضحك مفدق، – ولكن لا تنس أن العين المجنونة تخدع القلب الشجاع أحياناً. لا يزال أمامك مسير نصف نهار. سنفرح إن وصلنا مساء إلى أجبسو دون مفاجآت.– لا أعرف كيف كنتم سترسلون جيوشكم ليقطعوا هذا الطريق الجبلي[1].

XV

على المائدة المستديرة تحت شجرة البلوط المنفردة في الغابة – المرعى حيث عُقِدتْ مؤتمرات الأبزاخ والبسلني والجمكوي بضع مرات يجلس خمسة أمراء.وعلى مقربة منهم تقف مجموعة من النبلاء. ويبدو حراس الفرسان في مجموعات صغيرة هنا وهناك.

---

[1] "حين ارتقينا ظهر المرتفع رأينا الأرض المسطحة المحاطة بقمم كثيرة. وتبدو من هذا المسطح عدة منابع مستديرة متفاوتة الحجم. ومن هذه الينابيع يتشكل نهر لابا المتجه إلى الشمال، ونهر مزمت المتجه إلى الجنوب. وحين وصلنا إلى قمة الجبل المغطاة بالغابات،عبْر طريق المشاة الوحيد ونحن نلتف من جهة الشمال، ونترجل من الخيل عند الصخور الضخمة فنقودها من أعنّتها، رأينا من بعيد أجبسو في مضيق مزمت. وهذا الطريق الوحيد هو المنعة الوحيدة للميدوفيه من جهة الشمال. وإن اعترض مئة شخص مسلحين بالبنادق طريق الجيش المهاجم أمكنهم القضاء على المهاجمين واحداً واحداً. انحدرنا من مرتفع أجبسو الحاد بسلام رغم خطورته، ودخلنا القرية مع حلول الظلام. وخصّني غازي إمام وسفربي ببيت مستقل كي لا يراني كثير من الناس...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

لا طعام ولا شراب على المائدة. والأمراء يجلسون بقامات ممشوقة دليلاً على انتظارهم أحدهم.كانت الشمس تنحدر من السماء دون أن تعترضها أي سحابة، والغابة مكسوة بأوراق متعددة الألوان، ولكن النسيم الخريفي الرقيق البارد ما قبل الظهيرة لا تتقبله النفس. ومن مدة إلى أخرى يبعث صوت الطيور المشؤوم قلقاً مرعباً في القلوب.

– لا خير في طريقة تصويت الطائر، – قال شَلَحُ حُطاط.

– وأنا أيضاً أسمعه ولكن لا يعجبني. غمغم تامبي أسلانبج الذي يغلبه النعاس بين الموافق وغير الموافق زميله.

– إن لم يكن يعجبك يا أمير، – ابتسم حمرزقوه أسلانجري، وعرَّض بصديقه: – أرسلْ إليه أحد حراسك وأخرِسْ لسانه!

– أتريدني أن أفعل ما فعل الأمير البجدوغ جَجَقوه حين منعته الضفادع من النوم ؟!

– ليس عاراً أن نفعل مثل هذا إذا كنا نحن الأمراء الخمسة ننتظر شخصاً واحداً، بالإضافة إلى أنه من عامة الناس.– دفعت الإهانة التي لا يراها حمرزقوه مناسبة له إلى القول.

– لم تقل ما لا نستحقه يا أمير، – تفحّص تامبي الجالسين باسماً،ولكن ما قاله له بولتقوه جامبولات أعاده سريعاً إلى الوعي.

– إن كنتم ستسمعون كلامي أيها الأمراء فلن أسمح لكم أن تتفوهوا بكلام مسيء إلى مثل نَقار.

– لماذا؟ ونحن ألسنا رجالاً؟ – غضب حمرزقوه.

– لا أريد أن أسيء إليك أيها الأمير أسلانجري، – قال قانقوه آيتج الذي ظل جالساً بهدوء إلى الآن، – ولكن لا تتوقفْ عند كل الأمور، ولا تعتقدْ أن كل ما يُقال موجه إليك.

– لا تُهنّني يا قانقوه، – نهض الأمير حمرزقوه محمرّ العينين وقد وجد مناسَبة للنيل من غريمه البسلني الذي لا يودّه، – ألا يكفي ما أهنتني في إقليم الأديغة؟!

– اقعد يا حمرزقوه! – قال قانقوه جالساً بكل هدوء لِمن وقف خلف رأسه متحدياً، – إن لم تردعك إمرتي فلتردعْك تقاليد الأديغة في احترام الأسنّ! – ما الذي تتكلم فيه متناسياً المصيبة التي تسببتَ فيها للعرق وقد أصبحتَ رب أسرة؟

– اسحب خنجرك يا قانقوه، لن تردعني أديغيتك وتقدمك في السن.

لما رأى شَلَخُ خُطاط النبلاء والحرس يتراكضون أكَّد عليهم:

– عودوا، لا شأن لكم بما يحدث!

– ألستَ مَن طلبوا منه الجلوس يا حمرزقوه؟ – نهر بولتقوه جامبولات الأمير الذي لا يستطيعون تهدئته.

– ألا ترى يا تامبي كيف تحالف هؤلاء حالاً معتبرين إيانا غرباء؟! هيا، لا شأن لنا بمن لا يحتاجون إلينا.– ابتعد الأميران عن فسحة الغابة يحثّان الحصانين، وتبعهما نبلاؤهما ومرافقوهما.

قبل أن يجد الأمراء الفرصة للكلام على ما جرى جاء الفارس الذي كان بانتظار نَقَّار الذي تسبب في الخلاف بينهم بخبر مجيئه. وما هو إلا أن وصل من كانوا بانتظاره فنهضوا له:

– لا تنهضوا، اجلسوا أيها الأمراء، لا تُحرِجوني!

– أهلاً بك، تفضَّلْ يا نَقَّار! رحب أكبر الأمراء سناً قانقوه آيتج بالقادم، وأضاف: – لا تخطئْ في طلبك عدم النهوض وعدم إحراجك، ليس لأنك لا تستحق ان ننهض لأجلك، نهضنا لأديغيتنا لأننا أديغة، واحترمنا أنفسنا.

– حياكم الله يا كبارنا، – بدأ نَقَّار الذي كان معكَّر المزاج، واختتم بما يحزنه: – ليُبقِكم اللهُ أمامنا أطول مدة، وليبق عالمِنا الذي تركه لنا كبارنا بأمركم ورعايتكم، ولكن يُقلِقني أننا ننتهك أديغيتنا بعلمِنا أو دونه أحياناً، وأننا ننتقص من حكمتنا بأنفسنا، ونُضعِف رجولتنا وصلابتنا.

فيما بولتقوه جامبولات وقانقوه آيتج يصغيان إلى حديث نَقَّار تبادلا النظر خلسة واتفاق وجهتي نظرهما بادٍ من محيّاهما. ولم يتخلف عنهما شِلَخُ خُطاط. وقال لنفسه مغلوباً نوعاً ما بغيرته الأديغية وإن كان ودوداً نحو محدِّثه: " نَقَّار هذا يعجبني تفكيره الأديغي منذ عرفته وإن لم يكن سليل أمراء. بقينا نرسله في

خدمتنا إلى هنا وهناك باعتباره من عامة الناس، وها هو الآن يعلّمنا العادات والتقاليد. لا أقول هذا حسداً، ولن يقبل الله مني الحسد إن فعلتُ، ولكني أفضّله على الأميرين اللذين فارقانا من أجل موضوع ليسا فيه على حق... " – وقال كأن أفكاره أرعبته:

– صحيح يا نَقَّار، صحيح أننا نتخلى عن أديغيتنا. ويُقلِقنا ما سيحمله إلينا الزمان الذي أحلَّنا هذا المأزق. لن تدعنا الدولة التي يقال إننا مُنِحنا لها، والتي أطلقت علينا القوزاق حالياً، نهنأ بحياتنا؛ فما العمل؟

– سنختار أحد الطرق السبعة التي أمامنا، – قال بولتقوه.

– وكيف سيكون هذا الطريق يا أمير؟ – سأل الأمير قانقوه.

– ما هو أحسنُ لنا يا أمير، – أجاب شَلَخُ متذاكياً.

– وحدة الأديغة التي كنا نتكلم عليها في مؤتمر الربيع الماضي، – قال نَقَّار صابراً على مضض على ما لم يسمحوا بأن يتحقق له، وأضاف بسرعة: – والجنرال زاس الذي أوفدتموني إليه يقول إن الأديغة لم يتمتعوا بالوحدة في أي مرحلة من ماضيهم، ولن يحققوها أبداً.

– لم يقل عنا هذا القبيح ما لا نستحق، – عبّر قانَقوه عما يشغل باله.– ألا ترون ما فعل بنا الأميران اللذان أهانانا؟ ألم تلتق بهما يا نَقَّار؟

– نعم، لقيتهما ولكنهما لم يوافقاني، – وأنهى متظاهراً بعدم المبالاة، معتبراً أنه لم يحِن الوقت للتعبير عما يشكّ فيه من جهة الأميرين تامبي وحمرزقوه: – لم أُعِرهما اهتماماً لأنهما سلّما عليّ بصعوبة.

– إذن يعادياناك أنت أيضاً معنا، – ابتسم شلخ خطاط.

– إن كان عندهما ذريعة لمعاداتي فلْيعادياني! – تفحص نَقَّار الجالسين باسماً، – ولكن أخبِراني إن كنتم تعرفون لماذا كانا مسرعين كأن النار مشتعلة في ذنبَي حصانيهما.

– إن كنت تريد الحقيقة يا نَقَّار فأنت سبب هياجهما ولذا لن نخفي عنك: اعتبَرا انتظارهما لك غير لائق بهما.

– وليس هو السبب الوحيد، – ضحك قانقوه الآن من أعماق قلبه والسخرية ظاهرة عليه، – لا ينسى منذ سنين عديدة أن أختي اختارت ابن عمه عليه فلم

تتزوجه.ألا يجب أن يصارحني يوماً بما يقول في غيابي؟ كان والده بيسلان أحد أمراء القبرتاي البارزين. وحين توجّب عليه أن يعيش على ضفاف نهر وارب لم ينس رجولته – إنسانيته. ومن حُسن حظه أنه لم يشهد سلوك ابنه بعده.

– لا أعرف كيف يتقبل الأبزاخ مثل هذا الشخص الذي اقترف الجرائم وسبب المصيبة لأسرته... – تمتم شلخ خطاط وتظاهر بأنه يختتم بنفسه كلامه: – ربما كانت رجولته هي من تحميه... ربما يخافون منه...

أضحك الكلامُ نَقّار، ودفع بولتقوه إلى القول:

– يُشاع عن الأبزاخ ما يستحقون وما لا يستحقون، ولكنهم لا يسمحون لك أن تصفهم بالجبن.

– أوافقك في هذا يا أمير. ولا تظن أني أقول هذا لأني من الأبزاخ. ولا أدعي أن هذا الكلام بحق الأبزاخ لم يُلهِبني لأن حمية العرق نارٌ هائلة. ولكن لن أكتم عنكم ما يشغل بالي في هذا الشهر، – قال نَقّار، وخصّ الأمير قانقوه بالسؤال: – هل أنت واثق من الإخوة قرمرز وإمام غازي الذين التجؤوا إلى البسلني؟

– وأضف إليهم يا نَقّار الضيف الشيشاني الذي يدورون به ويُعِزّونه، واعتبِرْني أجبتُ على سؤالك. نعم،نعم أيها الأميران خُطاط وجامبولات لا تتعجبا مما سمعتما. لم يسأل نَقّار عبثاً، وأنا لم أجبه من فراغ.

– على ما يبدو... – قال خُطاط وهو يمطّ كلامه، – نحن الأديغة نتنافس على الرجولة، لا على الذكاء. نتفانى فيما بيننا في حين يفعل الغرباء بأرضنا ما يريدون... يا حسرتي أيها الأديغي البائس؛ ما أسوأ حظنا على الأرض!..

– لا ترثِ نفسك يا أمير! – قاطع الأمير بولتقوه شكوى أمير البسلني وقال لنَقّار متفحصاً إياه بوجه تسرب منه الدم: – إذا كنتَ أول من بدأ الحديث فأخبرنا بسرّك، نحن في موقف يستدعي منا أن نتصارح.

– أنا لا أكتم سراً عن أحد يا أمير، – حسم نَقّار الموضوع، وخص بالجواب سؤال الأمير قانقوه: – تبعاً لما أخبرني به صديق قوزاقي فإن من يرافقه الإخوة قرمرز ليس حاجاً.– بل هو ضابط روسي، جاسوس. – أضاف نَقّار

باختصار إلى الأمراء الذين دفعهم الخبر إلى أن يحدّق بعضهم ببعض: لا داعي للسؤال عن صحة الخبر الذي سمعتموه.

XVI

على مبدأ: متى اجتمع أديغيان اغتابا الثالث، كانت جماعة قرمرز التي يذكرها الأمراء بالسوء تتجه إلى قمة المرتفع التي هي حدود أرض الأبخاز. ومن أجل ألا يكمن رماة البنادق الأبخاز لمن لا يعرفون هويّاتهم كان سفربي ابن العجوز مفدق يسبق رفاقه من مدة إلى أخرى كما كان اتفق العجوز مع ابنه سفربي، ويصرخ:

– نحن قادمون برفقة قرمرز تيمبولات، ربيبِ مَرشان مفدق – يجب علينا الوصول إلى قمة جبل أجبسو قبل أن تأوي شمسنا العظيمة إلى مستراحها، – يتابع مفدق السير وهو يقول هذا الكلام إلى من قد يسمعه من ورائه. وحين ارتقوا القمة العالية المقصودة رفع راحتيه إلى الشمس العظيمة التي كانت تغيب وهي تحرق السماء، ودعا إليها هو ورفاقه: – يا إلهي، ويا شمسي العظيمة، نحن راضون عنكما، نوِّلانا أمانينا. ويسِّرا لنا طريقنا الثقيل؛ قولوا: آمين!

تقع قرية أجبسو في المضيق الذي يلتقي فيه نهرا مزمت وزيكوي. وإذا حاكمتها من خلال الأُسَر الستين التي تسكنها فهي ليست قرية كبيرة. وتبدو القرية المحاصرة بمضيق النهر من خلال شارعها الوحيد المتعرج. ويرتفع البناء العالي المحروس بالمرتفع الذي يقوم عليه دون أن تدري إن كان هذا كنيسة أم جامعاً. والبيوت الأخرى المتباعدة صغيرة كأنها من قالب واحد. والجبال المتراصة التي تعلو جانبي القرية تغصّ بالغابات دون أن تصل إلى القمم الثلجية. والأشجار التي تظهر من بينها البيوت الحجرية البيضاء ليست أقلّ من تلك الغابات.

كان النقيب تورناو الذي يتفحص كل هذا بعين ثاقبة يستغرب عدم وجود جسر على النهر. ولكن لاح لعينيه الطريق الوحيد المتجه إلى جانب الجبل.

سأل العجوزُ مفدق الضابطَ الروسي حذراً:

– ما الذي ضاع منك في أجبسو قبل أن تدخل إليها؟

– يكفيني يا مفدق، – أجاب النقيب ممازحاً، – أن أنظر إليها ولو لم تدخِلوا بي إليها.

– أقول لك أيها الضابط الروسي ما يشغل بالك وإن لم تدخل القرية بعدُ: لا ترى جسر العبور على نهر مزمت. لم يعد عندنا ما نخفيه عنك إذ عبرنا بك إلى الآن ونحن نُطلِعك على بلاد الأبزاخ – البسلني. على نهر مزمت جسران للمشاة معلقان أحدهما في أعلى القرية والثاني في أسفلها. وأكرر عليكم ثانية: إن كنتم رجالاً، – ضحك العجوز بصوت متعب، – اعبروا بجيوشكم نهر مزمت!

– لم نصل بعدُ في عملياتنا إلى هذه النقطة، – ضحك النقيب في قلبه لا بشفتيه، – سنرى ما يحدث في المستقبل.

"الجبليون حتى لو تمتعوا بالرجولة والصدق، – قال النقيب لنفسه ثانية، – يعيشون وهم لا يعرفون ما يحدث وراء الجبال، متوكلين بعقول قصيرة النظر على جبالهم التي لا طرق إليها. وحياتُهم مرتّبة تبعاً لهذه الظروف. لا أريد أن أهين مَن رهنت حياتي بأيديهم ولا أن أُسمعهم كلمة نابية إذ كلٌّ يعيش حياته على الأرض حسب ظروفه وقدراته، ولكن هؤلاء لا يرون إلا أرضَهم التي يحبونها بلا حدود وجبالَهم، ولا يفكرون بغيرها. وإذا كانوا بهذا الحب لبلادهم فلماذا دخلوا بي إليها؟ولماذا يسمحون لي بتفتيش طرقاتهم الجبلية ودروبها؟.. ولكن هل هناك عرقٌ بشري، بمن نحن فيهم، لا نقاطَ ضعفٍ لديه؟.."

– أنت تقول هذا أيها الضابط الروسي، عرّض العجوز بالضابط الروسي الآن وكأنه لاحظ ما كان يفكر فيه، مركّزاً على روسيّته، – ولكن الجسور التي نعيد ضفْرَها بأغصان الياسمين البري مرتين في السنة سهلٌ علينا قطعُها... لا أريد تخويفك ولكن أقول لك: حين نقرر الذهاب إلى غاغرا تاركين أجبسو فسيكون هذا أصعب بكثير من الطريق الذي سنمشيه. نحن سننجو بأنفسنا إذ أننا وُلِدنا من أجل الحياة الجبلية غير أني أخاف عليك أنت ألا تستطيع الوصول إلى غاغرا.

لم يشعر النقيب بالإهانة مما لُمِّح به إليه، بل اكتفى بالابتسام:

– سأجيب على تلميحاتك يا مفدق بقول مأثور للروس الذين تركّز عليهم بكلامك: " من على الطريق يصل ".

– هل فهمت يا إمام أن حسن بيه ليس جباناً وما من شيء يوقفه؟

– فهمت يا زعيم الخير، – أجاب غازي إمام إجابة سريعة مبتسماً برياء،
– ولكن إن كان ضيفنا يعدّ نفسه هكذا فسأضيف قولاً شركسياً مأثوراً: " من لم يصل إلى المخاضة لا يشمّرُ عن ساقيه " أليس صحيحاً يا باي؟
– ما أشدّ ما صدعتَ رؤوسنا بهؤلاء الشراكسة الذين لا يفارقون لسانك!..
– اعترض بايُ الإمامَ لا يُطيق ما سمعه، وغمغم مُشيحاً بوجهه: – ونحن النغوي عندنا قول ليس أقل صواباً ولكنك تتناسى.
– الحقّ يا باي حاولت أن أصبر عليك فلا أكلِّمَك ولكن، – انفجر إمام غضباً على نحو لئيم غير متوقَّع منه، – أرهقتني وأنت تصحّح لي أي شيء أقوله، هل تحب النغوي أكثر مما أحبهم!
– طبعاً، – رفع باي رأسي كتفيه كالعادة، – أنا لا أسارُّ أعداءنا الكفار كما تفعل أنت!
– لماذا إذن تدور بعدوّك منفِّذاً له ما يريد؟ – سأل غازي إمام مُسمِعاً تيمبولات الآتي برفقة سفربي.
– أرافقه لأني مضطر. وكيف لك أن تعرف موقفي إذا لم يكن إخوتك قُتِلوا على أيدي الكفار... – ردّ باي بلغة النغوي، ثم فارقهم يمسح دموعه لا يستطيع وقْفَها.
– عُد يا باي؛ ماذا جرى لك؟ صاح تيمبولات في إثر أخيه فأعاده.
– لم يجْرِ لي شيء، ولم يوجّه لي أحد كلاماً مسيئاً، أنا المذنب... – التحقَ باي بهم كأنْ لم يحدث شيء، وحنى رأسه لمفدق: – سامِحني يا كبيرنا، اقترفت ذنباً في حضرتك!
– وأنا أيضاً يا زعيم الخير، – انتقد غازي إمام نفسه في حضرة الكبير وإن لم يتقبّل في نفسه ما سمع، موافقاً مَن تسبب في هذه المهاترة.
– ربما أرهقكم الطريق، ليس مثلُ هذا نادراً، – قال مفدق لهما، ثم نصحهما دون اهتمام بما جرى: – غير أن الأفضل أن تحترسا في أقوالكما وأفعالكما. ما الأخبار يا شباب حيث أرسلتكم؟
– ناديت من وصلتُ إليهم بكل قوتي فلم تتحرك قشّةٌ، ولا صدر صوتٌ.

– ألا ترون ما يجري لكم؟.. – أفلت صوت العجوز منه غاضباً وكأن من لم ينفّذوا أمره واقفون أمامه، ولما صحا حرص على نفسه: – أكّدنا على أهل أجبسو ولكن ظهر منهم الكسل ثانية. هكذا يا تيمبولات يحمي رفاقك الذين تمتدحونهم أرضهم!

– لا أظن يا والدنا أنهم على هذه الدرجة من السوء... وربما سمع الأطفال الذين كانوا يجلسون على حواف الصخور نداء سفربي إذ هربوا نحو القرية.

– هكذا؟ – فرح مفدق. – لماذا لا تخبرونني بهذا؟ تتحدثون أمام ضيفنا كجلدة مقطَّعة. هيا، لا يزال أمامنا مسير ساعة.

ما إن غابت الشمس حتى بدأ الظلام يسود كما العادة في الجبال. ولم تكن جماعة مفدق فرغت من إسبال أيديهم من الدعاء حين شعروا بهذا الظلام الطاغي. ولم تستسلم قرية أجبسو التي تختلس النظر من الوادي الضيق للظلام فأشعلت مصابيحها الخافتة ذات الفتيلة الواحدة.

أعلن العجوز مفدق أن أمامهم ساعتين للوصول إلى أجبسو ولكن الظلام المهيمن على كل شيء جعل المسير في الدرب الضيق صعباً فلم يستطع الرجال السائرون وأعِنَّة الخيول بأيديهم الوصول في الوقت المحدد، بل ربما لم يقطعوا نصف الطريق. ثم إن الحيّ الذي يعيش فيه مفدق كان في آخر القرية تماماً،فلم يُتوقَّع الوصول إلى البيوت المتباعدة إلا في منتصف الليل، فقرر العجوز أن يبيّت جماعته في إحدى المضافات ما إن يدخلوا القرية لتجنيبهم مخاطر الليل. ولكن حين اعترض عليه الأخوان قرمرز اتفقوا على أن يذهب هو أيضاً معهما إلى حيّه، ويستقبلوا هناك ضيفهم الروسي.

توقف النقيب توريناو وغازي إمام وسفربي عند أول مضافة في القرية. أوقد المضيف النار في الوجاق[1]. ووضعت الفتاة الجميلة السمراء المرافقة للخادمة التي أتتهم بالإبريق والطست منديلاً في حضن كلٍّ منهم. وقال سفربي للنقيب ولغازي إمام اللذين استرعت الفتاة الجميلة الودود نظرهما:

– الفتاة التي أتتنا بالمناديل هي البنت الوسطى لمضيفنا.

---

[1] نوع بدائي من المواقد مما يسمى الآن في البيوت المترفة cheminée، بارز إلى الداخل. كان منتشراً في كل بيوت الجولان تجلس إليه الأسرة شتاء، وتُخفَّف أقراص الجبنة في داخله.

– فتاة جميلة، – لم يستطع غازي أمام الذي يحب أن يعلّق على كل النساء إلا أن يقول.

– حقاً، جميلة جداً، – وافق النقيب تورناو غازي إمام دون مراءاة[1].

– أتكون ابنة مضيفنا أجمل من ابنة الجنرال زاس؟.. – مازح غازي إمام سفربي وهو يختلس النظر إليها، غير أن المائدة التي كانت تدخل إلى الغرفة لم تترك للضابط الروسي فرصة للإجابة.

نام الضيوف المرهقون من الطريق الطويل بعد العَشاء. وبعد ثلاث أو أربع ساعات من النوم استأنفوا طريقهم الجبلي مع الفجر. وأعجبُ ما لاحظه النقيب تورناو هو استقبال العجوز مفدق والأخوين قرمرز على رأس سكان الحي له بعد موعد الفطور.

– كيف قضيتم ليلتكم يا حسن بيه، هل ارتحتم؟ – سأل العجوز رغم أنه عارف بكل هذه المعلومات، حتى بساعة خلود النقيب إلى النوم واستيقاظه.

---

[1] "أتذكر أجبسو بسرور بعد مشاق الطريق الجبلي.دخلنا المضافة المرتبة التي كانت نار الموقد تدفئها، وما إن غيّرنا ملابسنا حتى دخلت إلى الغرفة فتاة تحمل مناديل وعُدّة الوضوء من إبريق وطست. لم تقع عيني في حياتي على مثل قوامها ووجهها الجميلين. تجمدت لا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل. وضعتِ الإبريق والطست أمامي باسمة دون أن تقول شيئاً، ثم وضعت المنديل على ركبتي. وغابت وراء الباب بخطوات رقيقة مهذَّبة. وسأل بعد قليل غازي إمام الذي انتابته مشاعري: " هل رأيت يوماً ما يا أخي حسن بيه مثل هذا الجمال؟ أنا لم أر، ولكن إن لم تقف ذنوبي في طريقي إلى الجنة فقد أرى فيها مثلها "... لا تزال أمامنا قريتان قبل الوصول إلى أجبسو بقليل: ديبغه، وفُجوج. وفي هاتين القريتين لا يربى كثير من الماشية لضيق المساحة، غير أنهما غنيتان بالفواكه المتنوعة: التفاح، والإجّاص والعنب، والأسر الفقيرة بالدُّخن والذرة تجد البندق بكثرة في الغابة. وعندها كثير من عسل الجبال. والتجار الأتراك يعجبهم ما ينتج من هذا العسل على شكل سكر صلب فيقايضونهم بالأقمشة...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– الليل أقصر على ضفاف نهر مزمت، منه على ضفاف نهر لابا، ولكنه أعذبُ، – قال النقيب تورناو بعد ما بقي الستة وحدهم في الغرفة وحدهم، راغباً في كسب رضا المضيف.

– هذا ما يحدث دائماً بعد المسير الليلي في الجبال، – أجاب العجوز فرِحاً بما سمع من إطراء، – المهم أنكم ارتحتم، ولكن لا يطمئنَّ قلبُك يا ضيف! لا يزال اجتياز الجبال التي تلاصق البحر الأسود أصعب.

نتأت كتفا باي مما سمع، وتبادل سفربي وتيمبولات الابتسامات، ولكن لم تختلج أي عضلة في وجه النقيب.

– وأنت يا مفدق؟ هل تقول هذا لأنك تعدُّ مهمتك انتهت هنا؟ – سأل غازي إمام من قلب النقيب تورناو.

– أنا يا إمام وصلت منذ زمن طويل إلى نهاية حياتي الدنيوية. أجاب مفدق بابتسامة كاذبة دون أن يعبّر تماماً عما في قلبه. – ألا تكفي مرافقتي لكم أسبوعاً كاملاً. ولكن إن ألحّ ضيفنا، لا أنتم، فلن أكون نصف نبيل. سأوصلكم إلى قمة الجبل التي ترون منها البحر. وما تبقى من طريق منحدر فكما تريدون؛ ما رأيك أيها الضابط الروسي؟

– حياك الله يا مفدق، – قال النقيب تورناو مدركاً القيمة التي يمنحها العجوز لشخصه، – أَعُدّ مرافقتي لك من حسن حظي.

– إن كان هذا رأيَك فلن أدعك تُلحّ عليّ، – ثم أضاف إلى كلامه مع ابتسامة: – وفي ما تبقى من الطريق سنرى ما يمكن، لن ندعك تحتاج إلى أحد، حتى دون آل مَرشان يتولى الناس الطيبون من الأخوين قرمرز وغازي إمام المهمة.

– ولماذا لا يمكن؟ – قال إمام مرائياً كأنه يعرف ما بين الرجلين من سرّ. – المهمة التي نتابعها ستسير على أحسن حال لأنها تجري بعلم الله. هذه هي الحقيقة يا باي، أليس هذا هو الحق يا تيمبولات؟ – لم تعجب النظراتُ المتبادلة بين الأخوين إمام فغيّر كلامه دون أن يعير اهتماماً بجواب الأخوين. – ولكني سأتكلم على أحد أسباب قلقي يا مفدق، – أستمعُ إلى أهالي قريتك الذين استقبلونا أمس بالترحيب وبالطعام فأرى من يأتون على ذِكر الله العلي

العظيم نادرين، لا يا مفدق أنا لا أعتبرك منهم، أنت لا تقصِّرُ في ما فرضه الله عليك، وقد رأينا الجامع الذي بنيتَه من مال الله. وسمعنا صوت المؤذن. وأنتم أقرب في جبالكم الشاهقة من الله الرحمن الذي خلقكم، ولكن لا أعرف، لماذا يحدث هذا.

ابتسم تورناو الذي لم يُبدِ أيّ سلوك من هذا النوع منذ تعاهدوا وترافقوا.

– ماذا يا حسن بيه؟ هل قلتُ ما لا يُقال؟ – لام إمام المسؤولَ بحذر.

– نعم، هذا حق، – وافق باي الإمام حالاً.

– لا يا إمام، لم تتفوه بما لا يجوز، ولا أنت سمعت يا باي، – باح لهما تورناو وكأنه يدين نفسه، – ولكني لن أكتمكما ما دفعني إلى الضحك: لا يتعلق الإيمان بالله والاحتفاظ به في قلبك، والتقرب منه، بالمكان الذي تعيش فيه.

– قلْ هكذا إذن... – غمغم باي الآن دون أن ينتأ برأسي كتفيه، والتفت إلى إمام كمن يقول له: هل سمعت؟

– نعم يا حسن بيه، عليك أن تحفظ الله في سِرِّك أينما كنت. أوافقك. – قال إمام ما يريد هو متناسياً تصويب كلامه.

– ولكن هذا جانب واحدٌ من الموضوع، – طوّر النقيب أفكاره ناسياً الموقف الذي هو فيه، – أهلُ ميدوفيه الذين يتزعمهم مفدق أناس جبليون، وبالنظر إلى أن سكان الجبال لا يختلطون كثيراً بغيرهم فهم يعيشون معتبرين الآلهة المتعددة هي التي تحميهم من الأخطار الكثيرة التي يقابلونها في مساكنهم.

– ولكن الله الكبير فوق تلك الآلهة. ولا ينسون الله الرحيم بهم. – ساهم مفدق الذي ظل صامتاً إلى الآن، – هذا ما يحدث. الله رحيم وكريم فإن رعَيْتَه في قلبك فأنت محظوظ وغنيّ. الحقُّ أتساءل لماذا نحن قاعدون نتبادل النظرات؟ هيا أيها الأخوان قرمرز طوفا على بيوت من ربّوكما، وعلى بيوت أصدقائكما. وأنت يا سفربي أطلِع غازي إمام على الجامع الذي أبنيه في القرية الجديدة. واطلب منه أن يدعو إلى الله فيه. وأنا وحسن بيه سنتفقد الجوار. لا سرّ عندنا، نحن الاثنين، سأُفهِمه ثانية أن أحداً لا يستطيع الوصول إلى ديارنا.

تملَّك خوف خفيّ شيئاً فشيئاً قلب تورناو وقد خيّل إليه أنه أصبح في عالم آخر رغم صحْوِ النهار الخريفي، وإشراقِ الشمس بوجه طلق، ولمعانِ الثلوج الأزلية

تحتها على القمم، وتدافُعِ أمواج نهر مزمت إلى البحر متعثرة صاخبة، ونباحِ الكلاب أحياناً في القرية، وصياحِ الديَكة، وأصواتِ الأطفال يلعبون، ونهيقِ الحمير المتجاوب الذي يُشعرك باقتراب موعد الظهر. وقال لنفسه: " حين تعيش في مثل هذه البقعة النائية تسيطر عليك فجأة مخاوف قد تأتي من أي مصدر، ووقتها يتوجب عليك أن تتوسل إلى أيّ حامٍ. وربما كان هذا هو السبب في عبادة الجبليين الذين أنا معهم آلهة خاصة بهم... ما هذا؟ السحابة السوداء المفاجئة التي مزقتها حواف الصخور تزحف من جانب الجبل، وتغمر بالسواد الثلج المبتهج بالحياة. والبرق يلمع من ثناياها، والرعد يقصف. الأرض مضيئة من جهة الغرب، والجوارح تدوّم في السماء، والأشجار تتبادل الابتسامات بأوراقها المتعددة الألوان... "

– وماذا بعد أيها الضابط الروسي، ما الذي تبحث عنه ولا تستطيع رؤيته، وما الذي تفكر فيه؟ سأل العجوز مفدق ضيفه لا يُطيق شروده المبالغ فيه، ولمّح له ممازحاً: – ماذا إن وقعت فجأة عن الصخرة وأنت ذاهل عما حولك؟

– لا يخطرْ لك هذا نحوي يا مفدق! – مازح النقيبُ العجوزَ مخفياً البرودة التي سرت في قلبه: – قد تفعل بي مثل هذا.

ضحك مفدق:

– لن أفعل بك هذا، ولكن مجرد تذكير بإمكان سقوطك.

– إن سقطتُ، – ضحك الجاسوس، – فسنسقط كلانا معاً. ولكن لا فائدة في هذا لي ولا لك.

– وهذا صحيح، ولكن لا تنسَ أنك تركت كيسك عندنا في البيت!

– والأخوان قرمرز وإمام الذين تعاهدنا معاً؟

– مَن هؤلاء الذين ذكرتَ أسماءهم؟ هل أنت واثق منهم؟

– لا أسافر مع من لا أثق فيهم يا مفدق. وأنت من هؤلاء. ولكنك تخطئ في شأن الكيس الذي تقول إني تركته في بيتك؛ هذا ليس من أسراري. – ضحك النقيب من خارج قلبه، – لأجل هذا قلت لك إنه لا فائدة في سقوطنا معاً من هذه الصخرة. – أنهى وهو ينزل من على الصخرة. – ولكني لا أتراجع

عما تتأمله، أضيف إلى هذه السومة الذهبية خاتماً فضياً. ومتى وصلنا إلى مرتفع غاغرا فسنرى، كما تقول أنت، ما سيحدث بعدها.
– كفى يا حسن بيه، – مدّ مفدق يده وأخذ العطية متظاهراً بعدم القبول، – أمزح معك فقط، وليس عجيباً إن كنتَ أمّلتني. لم يكن عندي مثل هذه النية نحوك. ولكن على رأي إمام، قد يكون الله قدّر ما قدّمتَ لي... سيفيدني هذا في إنجاز الجامع هذا الخريف. اغفر لي يا إلهي إن كنت أقول أو أفعل ما لا يجوز. ولكن ثقْ بأن هؤلاء لن يسلبونا أرضَك الجميلة التي حبوتنا بها، وطنَنا. وأنا أقول هذا للجاسوس الذي أدور به بعلمك. ألا تسمعني يا حسن بيه؛ لا أرى من اللائق أن أصرّح أنك ضابط روسي. قلْ آمين، ولندعُ إلى الله.
– سندعو إليه، ولكن... – أضاف النقيب إلى مخاوفه، مؤيداً العجوز، مختبراً إياه، بعدما التقيا على ضفة نهر لابا بكوكبة الفرسان الأديغة: "ولكن".
– أما وقد بقينا، الاثنين، وحدنا، – ابتسم مفدق مرائياً، – قل الآن ماذا تعني بـ " ولكن "، وما الذي يقلقك. أنا أنتظر هذا الجواب منذ زمن بعيد.
– قلت " ولكن " كما اعتدت، ولن يقلقني شيء ما دمت معي. ابتسم النقيب، ولم يُفصِح عما في قلبه.– كل شيء على ما يرام، والجو صحوٌ، والسماء صافية.
– أيها الضابط الروسي، – نطق العجوز ذو العينين الصغيرتين الصفراوين اللامعتين دون أن يرفع صوته، واضعاً النبر على تعبير "الضابط الروسي"، – لا تلعب معي لعبة الغميضة كما يقول قوزاقكم ذوو القبعات الملبّسة بالأحمر. أنت وأنا مقيدان معاً بسلسلة خفية لا نعرف متى تنقطع. سأقول لك ما لا تستطيع التصريح به فلا تهتمَّ: مجموعة الفرسان الأديغة الذين التقيت بهم على نهر لابا جلبت لك الهمّ.
– يبدو أني لستُ الوحيد المهموم بهم... – مازح النقيب تورناو العجوزَ. ثم قال له: – بين هؤلاء الفرسان الشراكسة اثنان أتوجس منهما: حمرزقوه وتامبي.
– وهل تعرف أنسابهما؟.. – استغرب مفدق ما لم يكن ينتظره ولكنه سرعان ما استدرك. – لو لم تكن ذكياً لما أرسلوك إلينا. ورفاق من ذكرتَ اسميهما ليسوا أقل منهما خطورةً.

– لا يمكنك أن تقارن بين نَقّار وقانقوه وشلخ من جهة، وحمرزقوه وتامبي من جهة أخرى، أقصد حمرزقوه وتامبي الأميرين. وبتعابير الشراكسة الجافية فهما غريبان في نواحي البسلني والأبزاخ. وسأجيبك عما ستسأل عنه الآن:: والأخوان قرمرز وغازي إمام غرباء بين الشراكسة.

رفع مفدق حاجبيه حتى عقد جبينه. وخُيِّل إليه أن الأرض التي يعتدّ بها تحرق أخمصي قدميه، وأن السومة الذهبية والخاتم الفضي في جيبه يحرقان فخذيه. ولم تعد عيناه تريان أجبسو التي تستدفئ على شمس الصباح، ولا القممَ البيضاء المتراصة، ولا الغاباتِ الملونةَ التي كانت تنحدر منها، ولا النهرَ المتعرج الذي أودعه عمره.

– أضِفنا إذن، نحن آل مرشان، الأب والابن إلى الأخوين قرمرز – قال العجوز لائماً نفسه، – أوقعتُ نفسي في ورطة وأنا على حافة قبري.

– اطمئنَّ يا مفدق، – قال النقيب دون أن يتورع عن إيقاعه الأتاليك مَرشان في الفخ كلياً.– لا تبكِّتْ نفسك، نحن المسؤولون.

– وكيف؟!. – أسرع مفدق بالقول.

– سأقول لك إذ لم يبق الآن سرٌّ في ما فعلنا. حين اخترنا قرمرز تيمبولات كنتَ أول من فكرنا فيه لأنك أتاليكه. وتبيّنتَ عن رفيق موثوق.

– اسكتْ! لا أريد أن أسمع. – غضب مفدق ثم تمتم. – وجدتم خائناً جيداً... ماذا فعل بي هؤلاء؟ وكيف تركتُهم يخدعونني! هيا إلى البيت... – استدار بسرعة، وسأل بصراحة وقِحة عما كان يشغل باله: – آل قرمرز وآل حمرزقوه وآل تامبي تحرّكهم الثروة التي سُلبت منهم؛ أما أنا؟ ما الذي لا يدعني أهدأ كأن هذه الدنيا الجميلة لا تكفيني؟

– يا مفدق، – اعترض النقيب تورناو العجوز على مسافة قريبة جداً منه كما يفعل في أوقات الشدة، وقال له محدِّقاً في عينيه، – أقول لك ثانية ولو أنه ليس من طبعي تكرار الكلام: لن يكون ما يقدّمونه إليك أقلّ مما يقدمون لآل قرمرز.

– ومتى سيحدث هذا؟ – لم يكن مفدق يتراجع عما يُصرُّ عليه.

– متى نفذت مهمتي وعدتُ فسأرسل إليك عن طريق ربيبك قرمرز،إن كنت واثقاً فيه، ما يُرضيك.

– اسمعْ ما يقول هذا!.. – ابتسم مفدق، – سيتركني أعيش على الأمل طالباً مني الوثوق بآل قرمرز في حين لا أثق بنفسي... وإن لم تصل إلى حيث خرجت منه؟.. لا نريد أن تتوه في الجبل إذا كنا سنردّك إلى جماعتك.

– سأقول لك الحق يا مفدق سواء كنت جاداً أم هازلاً: متى انفضح سرّي فلن يسأل عني أحد.

– أنا أصدّق هذا، – نطق العجوز الآن بشيء من الرياء، – ولكن هناك مخرجاً آخر: الأتراك الذين يدفعون ثمناً طيباً يجوبون الساحل. حقاً لن أستطيع أن أفعل هذا ولكنك واثق من أنك تستطيع أن تأتي بالجيش الروسي إلى هنا فمن يدري إن كنت سأحتاج إليك. ومع أنك ترى عجزكم عن هذا فمن يعرف ما قد يحدث. تعال، تعال أيها الضابط الروسي، لا تنس أن مرتفع غاغرا لا يزال أمامك.

قال تورناو لنفسه الآن وهو يتأمل ظهر مفدق المتين المخيّ: " ما أشد ما يدعو هذا العجوز إلى اليأس بالقياس إلى الأخوين قرمرز وغازي إمام الذين وثقتُ بهم فرافقتهم! لو تكلمت معك على راحتي لعرفت ما أقول لك... مثلُ هذا الرجل، من أي قوم كان، لا يجوز أن تُبقيه حياً. أقول هذا ولكن لولا هؤلاء..."

XVII

تشاجر الفرسان الأديغة الثلاثة على ظهر مرتفع أجبسو.

– لو وافقتني في ذلك اليوم حين طلبت منك المضي معي دون أن تتشاجر مع الأمير قانقوه، – عرّض تامبي أسلانبج لحمرزقوه أسلانجري، – لما وصلنا إلى هنا نهرّئ حوافر خيلنا دون جدوى. والآن بأي حجة سنطرق باب مَرشان مفدق؟

– كم نبّهتك يا تامبي إلى أنْ لا علاقة لك بما أقول وأفعل! حين تقيم في مضافتي، وفي صدر المائدة فأنت رجل ممتاز. وحين يهينونني في مؤتمر الأمراء

تشيح برأسك. أنت من أفلت مِنّا مَن نطاردهم مؤخّلاً من يوم لآخر. والآن تعلّمني!

– حاولت أن أتجنبك يا حمرزقوه ولكنك تهيني، – ارتفع تامبي بكل ضخامته عن السرج.

– انظر كيف ينفش هذا الرجل ريشه عليّ! – رأى حمرزقوه في اللحظة التي نطق فيها الفارسَ الذي كان يتأمل أن يقف إلى صفه فناداه: – إلى أين يا جانسعيد؟

– أتريد مني أن أقف بينكما كلما تشاجرتما؟ قال جانسعيد الأسمر الممشوق القامة لمن وراءه، واختتم: – لا مهمة لنا في أجبسو، موقف تامبي صحيح، ونحن عائدون.

– والله هذا صحيح، – وافق حمرزقوه سريعاً باحثاً عن ذريعة للتملص من العتب الذي جلبه لنفسه – إن كان هذا رأيَك يا جانسعيد فسنسمع كلامك، هيا يا تامبي، – عاتب غريمه باشّاً في وجهه، – مالَك لا تنفكّ تتوتر وتحرق أعصابك... سامِحنا يا أفندي اصطحبناك وأتعبناك بلا جدوى.

– لم يرهقني عدم عثورنا على مَن نتعقّبه، – مرة أخرى قال الأفندي النحيف جانسعيد دون أن يلتفت، – همّني أكثر من غيرِه عدمُ التسامح بينكما. ولكن هذا ليس مشكلة. ما أفكر فيه اللحظة شيء آخر: كل مأزق له مخرج ما.

– نسمعك يا زعيم الخير، – حثّ تامبي حصانه واتخذ مكانه على يسار الأفندي مراعياً قواعد الأسنّ والأحدث عمراً.ولما كان حمرزقوه أكبرهم فقد اصطفّ على يمينهما.

– هل تسمعان سرب الكراكي الطائرة؟ – أشار جانسعيد بطرف سوطه إلى جهة الجنوب، – إن كنتما تريان فهذه الطيور لا تفارق الطريق نفسه في طيرانها إلى الجنوب ومنه.

– هذا صحيح، – وافق حمرزقوه وأتبعَه برأيه، – ولكن الدروب كثيرة في الجبال.

– حتى لو كانت الدروب تتفرع كثيراً في الجبال، – أجاب جانسعيد كمن كان ينتظر هذا الرأي،– فهي تلتقي على طريق محدد واحد.

– صحيح يا أفندي، – ساهم تامبي في النقاش، – والسواقي والنهر الذي يضمها تصب في البحر.
– هل تقصد أن من نحن في سيرتهم سيتجهون إلى البحر؟ – كان حمرزقوه قد أمسك بأساس الموضوع ولكنه سأله كمن لا يعير أهمية لصديقه الأمير، وأجاب بنفسه: – وهذا ليس مستحيلاً... هذا ما يقوله نَقَّار.
– هل أنتم واثقون من نَقَّار؟ – سأل جانسعيد ضاحكاً.
– هل كنا أطلعناك على نوايانا الخفية يا أفندي لو كنا واثقين من نَقَّار الذي له علاقة بكثير من قضايا الأديغة؟! – أجاب حمرزقوه.
– حياكما الله، ورضي عنكما! – ارتاح الأفندي جانسعيد لِما سمع، – وأنا لولا ثقتكما بي، واهتمامي بقضايا الأديغة لما ركبت معكما، ولا لاحقتُ الحاج الشيشاني المزيَّف. ولكن لا تُملا نَقَّار ولو لم تُطلعاه على نواياكما. وأنتما تعرفان هذا دون حاجة إلى تذكير. هذا يُطوّع الأبزاخ، كما لا نطوّعهم نحن.
– وجماعة الأمير قانقوه المسلمون يساندونه، – شمل حمرزقوه المسلمين مع الأمير قانقوه الذي يغتلي قلبه غضباً عليه.
– وأضِف الجمكوي، جماعة بولتقوه، إلى هؤلاء يا أمير، – غمغم تامبي موافقاً صديقه، موجهاً الحديث إلى حيث يريد.
– وأنت يا أسلانبج أليس قلبك صافياً نحو بولتقوه؟ – سأل جانسعيد مستغرباً ما يسمع.
– لا أعادي بولتقوه، غير أن سلوكه وتصرفاته لا تروق لي.
ابتسم الأفندي في سره قائلاً لنفسه " هذا تعبير أديغي حقيقي يا أمير، وأنا أيضاً لا يروق لي سلوككما وتصرفاتكما " ثم قال لهما:
– علينا أن نتناسى ما لا شأن له بمهمتنا، ونعود إلى مهمتنا الأصلية. لا شك في أن هذه الجماعة ستأتي إلى ساحل غاغرا. هؤلاء يخافون من برزج أمير الوبيخ ولذا لن يتجهوا ناحية شج بل سيخرجون من الجبل عبر طريق طوابسه الوحيد.
– وإن لم تجر الأحداث كما نتوقع؟ – سأل حمرزقوه الذي لا يثق بأحد.

– إن لم تجرِ كما تتوقعان فستعيشان والله سنَدُكما الوحيد، – أجاب الأفندي بكل برود.

XVIII

بعد أن تحادث مَرشان مفدق العجوز والنقيب تورناو على ضفة نهر مزمت بصراحة جارحة وحذرة لا تسامُحَ فيها، أعقب اليومَ الصاحيَ الأول يومُ صحوٍ آخر وكأن لم يحدث بينهما شيء يتبادلان الابتسامات. ولولا زيارة الأخوين قرمرز الطويلة لأقاربهما، حسب تعبير سفربي، لربما ما قضوا وقتاً طويلاً في أجبسو، ولاستأنفوا طريقهم. غير أن النقيب الركن الجاسوس تورناو لم يكن مستعجلاً: كان عنده الكثير في أجبسو وضواحيها مما يجب عليه تتبُّعُه وتسجيله على الورق الآن.

في اليوم الأول استغرب السكان الحاج الشيشاني. وحين عرفوا أنه لا يتكلم لغة الأباظة قلّت زياراتهم له. ثم كفّوا نهائياً عنها. وما كان يهمّ هؤلاء أكثر من غيره هما الأخوان قرمرز ومن كلفه الله بحمل الإسلام، وليس هذا دون علم العجوز، غازي إمام. وما جعل الجامع الوحيد في القرية مرتاداً لجميع سكان القرية في اليومين الأخيرين هو طريقة صلاته وتلاوته للقرآن. كانوا يبدؤون من صلاة الصبح فيتناوبون على تقديم الفطور والغداء والعشاء إليه فيشرح دون كلل أو ملل الواجبات الدينية لأمة الإسلام التي ما تزال تدين نوعاً ما بالآلهة المتعددة. وكان يجيب على أسئلتهم منسّقاً بين ما يعرفه عن الدين المسيحي والوثنية والإسلام. ويُرضي من يعارضونه بالتظاهر بموافقتهم.

– زميلكم الضيف الشيشاني يلبس قبعة حاجٍّ، فلماذا لا تلبس أنت مثلها؟ – حين سأل عجوز وثني وهو يهز طرف عصاه وجد ما يجيبه به.

– الضيف الشيشاني الذي تسأل عنه واحد ممن يشاركونني في دين الله العلي العزيز، وهو مجرد عبد من أمة الله يرتدي قبعة الحجاج وليس موفداً من اللهِ خالقِ الكون مثلي.

– هذا صحيح وأوافقك عليه، – زاد العجوز الأحدب الذي لا يعرف شيئاً مما قيل له، مستمراً في هزِّ عصاه،مِن اعتبارِ مَن جعلَ من نفسه موفداً من الله، وحمْلِ الجمهور على تقبُّلِه.

والأخوان قرمرز ومَرشان الأب والابن؟ هؤلاء كانوا مشغولين باستقبال أقاربهم لهم ودعواتهم، فاستمتعوا بالطعام والشراب. والنقيب تورناو وجد ما يدفع عنه الملل: يجلس في المضافة يستغل الوقت ليجمّع كل ملاحظاته في الطريق. ومع أن الابنة الصغرى لسفربي " بابنِه " ذات الأعوام الثمانية لا تجد لغة للتفاهم مع الضيف فقد ظلت رائحة وغادية إليه بالفواكه.

– ما هذه؟ سألت الصبية التي استغربت وهي ترى في إحدى إطلالاتها عليه حروفه العجيبة التي يكتبها على الورقة؟

– هذه؟.. – سألها النقيب تورناو بالأديغية مبتسماً، وأجابها بأول ما خطر له:

– أشعار.

– وما هذه؟ – أعادت بابنه وهي تضمّ كتفيها الضيقتين السؤال تعني: لم أفهم.

– اسمعي، – تلا النقيب بالروسية بيت شعر لبوشكين: " أنا على قمة الجبل والقفقاس تحتي"

– وهذه؟ – سألت بابنه سؤالاً آخر وقد استغربت لحن الجملة التي سمعتْها.

– "ارضخْ أيها القفقاس، ها هو يرمولوف قادم!" – مرة أخرى ابتسم الجاسوس، قرأ سطراً من شعر بوشكين، وعضّ التفاحة الحمراء الكبيرة.

لا يزال الخريف الصاحي يهيمن على أجبسو منذ ثلاثة أيام. الجو لطيف مشمس. والناس الذين أنجزوا أعمالهم الخريفية فرحون باليوم الصاحي، وينتظرون موسم قطاف العنب وجمْع البندق. والأعراس التي ستتبعها لم تعد بعيدة. والنقيب تورناو واقف في الصباح إلى جانب النافذة التي تلعب الشمس حولها بعدما أنجز كتاباته. يعبر بنظراته ما يمر أمام عينيه فيرى نفسه على شوارع تفليس وبطرسبورغ. ويدخل بينهما، دون أن يدري، بيتاغورسك وستافروبول وبروجني أوكوب وقلعة فوزنيسينسك.وحين يدخل حمرزقوه وتامبي فجأة بين هذه الأفكار المتضاربة المتداخلة، ونظراتُ النساء وضحكاتهن، يعود إلى وعيه بحركة رأس عنيفة. يفارق النافذة ويذرع أرض الغرفة وهو يقضم التفاحة. ما إن خاطب نفسه قائلاً: " تشغل بالك أيها النقيب بما ليس ضرورياً " حتى أوقفه صراخ امرأة صدرَ من الشارع. وحين عاد إلى النافذة رأى رجلاً يدخل بكساء

أسود ملفوف إلى باب أحد جيران مَرشان، ويتبعه عدد من الرجال، والنساء يستقبلنهم وهن يلطمن أفخاذهن. ثم دخل غازي إمام إلى الغرفة وأخبره:
– جيران مفدق جاءتهم مصيبة كبيرة: جاؤوهم برأس رب الأسرة مقطوعاً. أخشى أن يخرب هذا الحادث مهمتنا...
– وهل لنا علاقة بالأمر؟.. – لم يعرف النقيب تفسيراً لِما يرى.
– لا أظن أن لنا علاقة بالأمر؛ ولكن أليس في القرية مأساةّ !.. لا أعرف رأسَ من جاؤوا به ولكن أخاف أن يكون الكفار قتلوه.
وجاء باي بحقيقة الحادث:
– نحن نتهم الجنرال زاس غير أن المسلمين أنفسَهم يتقاتلون... في أجبسو ثلاثة مآتم الآن بالإضافة إلى مأتم جيراننا – والأسَرُ الثلاث الأخرى جاؤوها أيضاً برؤوس مقطوعة. تبيّن أن قَسَي إسماعيل، الأمير القبرتاي لا يستحق وصفه بالإنسان: أعاد رؤوس الرجال المقتولين قائلاً: لن تأتوا لصوصَ خيل إليّ بعد الآن... يتخذ من الجنرال زاس الأصهب[1] البغيض قدوة... – غمغم باي رافعاً رأسي كتفيه.
– ما كان يجدر بقَسَي إسماعيل أن يفعل هذا بأبناء قومه المسلمين. – أيّد غازي إمام باي ونظر بطرف عينه إلى الضابط الروسي.
– إن لم يكن في قلب الإنسان الظالم رحمة، – قال النقيب الآن، – فلن يردعه أيُّ دين.
– وهل يجرؤ كافر مثلك على هذا الكلام؟ – سأل باي ثم ضحك.
– لماذا لا نستطيع أن نقول هذا إذا كنتم أنتم ونحن بشراً، ونتألم لأصحاب المأساة؟!
– إن كنت تعدّ نفسك إنساناً صالحاً أيها الضابط الروسي، سأل باي وذِكرى أخوَيه اللذين قضيا على يد الجيش الروسي تفتحان عينيه، – لماذا تطلب منا أن ندور بك في البلاد الغريبة سراً؟
– أنفّذ المهمة التي انتصبت أمامي. – جعل تعريض باي صوت النقيب يعلو فجأة.

[1] لون كريه بين الحمرة والصفرة.

– ونحن؛ أي مهمة لنا؟
– أنتم لا مهمة لكم.– قال النقيب بصوت أشد حزماً، وفسّر له: – أنتم أقسمتم أمامي!
– اسمعوا ماذا يقول الرجل!.. – ابتسم باي الآن دون أن يرفع كتفيه، – يتأمّر علينا، ولا يعرف من أي نوع من البشر هو...
– بلى أعرف! – أجاب النقيب ثانية بصوت أعلى. – قل لي حقيقة ما في قلبك. إن كنت تظن أنك ستخيفني فأنت على خطأ.
– سأقول لك. – اقترب باي من وجه النقيب رافعاً كتفيه، – حين أنتقم منك.
– قل غيرها إذ اعتدتُ على هذا. – ردّ النقيب كاظماً غيظه بصعوبة، متظاهراً بأنه لا يعير اهتماماً لكلام باي.
– ولكني لا أستطيع الاعتياد على قبعة الحاج التي ترتديها لأنك كافر... ما إن نهض باي ليخرج من الغرفة حتى دخل العجوز مفدق.
– أنتم تجلسون هنا؟ – سأل مفدقُ بايَ والإمامَ، ودون انتظار الجواب توجه إلى الضيف: – تعال يا حسن بيه، سنعزي ضيوفنا قبل أن يجتمع الكثير من الناس. لا تنتظرهما، أدى باي والإمام واجب العزاء، ولكن إن قررا مرافقتنا فلا بأس، ستكبر مجموعتنا. لا حاجة لأن تقول الكثير لأهل المتوفى: تصافح أهل المتوفى وتنضم إلينا. وحين ندخل أنا وغازي إمام إلى الغرفة التي فيها رأس المتوفى، وفيها المسنّون، سيعود بك باي إلى هنا دون ضجيج. ولما كان سفربي وتيمبولات يعزّون الأُسَر الأخرى فسنفكر متى عادا في اصطحابك إلى القرية التي فيها أقربائي.
– وهل سأكون وحدي؟ – سأل توريناو غيرَ مرتاحٍ إلى تطوُّر أموره.
– ولماذا تكون وحدك؟ سيرافقك باي. لن تقيموا طويلاً في تلك القرية. سننضم إليكما متى ما شيّعوا الجثامين غداً. لا، لا داعيَ للقلق. سيرافقكما الولد سفربي إلى الساحل.
عزى باي والنقيب الجيران كما خطط مفدق، وعادا إلى البيت. وبعدما جلسا مدة يتبادلان النظر تنهد باي وقال:

– الموت مأساة، غير أن إرسال الرأس المقطوع مأساة أعظم... أخوانا اللذان قضيا في حضرة الرجولة دفنّاهما كما يملي ما يستحقانه... أسيء إليك أحياناً أيها الضابط الروسي، سامِحْني!

– أنا أتفهّم المصيبة التي حلّت بكم آل قرمرز، ولا أحقد شخصياً على أحد. ولكني أنفّذ مهمتي لأني عسكري.

– حسنٌ أنك لا تحقد على أحد. ولكن ساءني تصريحك أننا نحن بلا مهمة. نحن من جيش المسلمين الإلهي الذي يحارب الكفار.

– وهل في بلاد الشركس مثلُ هذا الجيش؟ – لم يملك تورناو إلا أن يسأل رغم معرفته أن ما سمعه لا أساس له.

– وهل كنت رافقتك لو كان عندنا جيش إسلامي؟! – أعاد باي السؤال باسماً. ثم أجاب بنفسه: – من يريد هذا الجيش هو غازي إمام. ألا تتكلمان في هذا الموضوع حين تتسارّان؟ ماذا تتبادلان من أحاديث؟

– ما عندنا،أنا وغازي إمام، وأنتم معنا، سرٌّ واحد. وأنت تعرف هذا دون أن أعيد الكلام. ولكن ماذا يمكن أن نتبادل من حديث؟ – ابتسم النقيب ابتسامة خفيفة. – يروي لي فضائل دينه، ويروي لي رحمة هذا الدين، وأن لا شيء يقارَن به.

– أيكون إمام يريدك أن تعتنق الإسلام؟ – مزح باي ضاحكاً على غير عادته مع النقيب.

– لا يُصارِحني بمثل هذا ولكني أشكّ فيه.– مطّ الجاسوس شفتيه وإن لم يكن يضحك من أعماقه.

– حَذارِ ! – مرة أخرى ضحك باي من قلبه.

– من يدري، ربما تتلاقى طرقنا يوماً ما، – قال لباي اعتباطاً لا يعرف تعليقه عليه.

– وأنا متلهف على وصولنا إلى الساحل. ولكن إن التقينا يوماً ما أيها الضابط الروسي فسنتقابل بالسلاح. أتظنني لا أستطيع هذا؟

– ولماذا لا تستطيع؟.. لا يمرّ يومٌ دون أن تعرّض لي أو تلمّح بهذا. ولا أجد الوقت لأنسى.

رفع باي كتفيه بضع مرات. ونهض وعيناه تبرقان، ورمى لتورناو ويداه الطويلتان غيرُ المتناسبتين مع جسمه ممدودتان إلى جانبيه، ضاغطاً على أسنانه:
– سأقول لك إذن: لا أستطيع تقبُّل رائحة كفرك!
– اسكتْ يا باي، – خاشَنَ تيمبولات أخاه الواقف أمام النقيب كما يفعل عادة حين يخرج أخوه عن طوره، – اهدأ واجلس!
– سأجلس ولكن...
– لا أستطيع أن أسمع " ولكن" ما دمنا ملتزمين بعهدنا.– جلس تورناو هادئاً، ولم يكمل باي ما بدأه، – إن كنت رجلاً فلا تنقض عهدك، ومتى تحررنا من عهدنا فأنت حرٌ أمام إلهك في ما ستفعله. ولكن بعد هذا سنرى، كما قال مفدق، ما يحدث.
– أراقبك منذ أن جمعَنا الله، – غمغم باي، – فلا أراك تخاف.
– سأقول لك ما يعلّق به الروس على ما تستغربه: "إن كنت تخاف الذئب فلا تذهب إلى الغابة!".
– نعم، نحن والشراكسة عندنا قول مأثور: "لا تعتقد أن أحداً لا يسمعك في الغابة ولا يراك". حسناً، حسناً. سنرى ما يحدث. متى تحررتُ من عهد الله فلا شيء يوقِفني.
– بلى، هناك ما يوقفك، – ابتسم الجاسوس، وسأل باي الذي لم يكن يعرف تفسيراً لما سمع: – ألا تحكمون عليّ إذن بأن المسألة عبثٌ عليكم ولا فائدة فيها، في حين أنال المديح؟
– نعم بالتأكيد... أقسمتَ أن تُعيد إلينا أرضنا وقريتنا.إن أردت الحق أيها الضابط الروسي فهذا ما يجعلني عاجزاً عن معرفة ما في قلبي... أنت مخادع بقدر شجاعتك...
في اليوم نفسه حدثت جلبة مفاجئة عند مرابط خيل البوابة الكبرى لمرشان مفدق: رأى تورناو الصديقَ الذي تعرف عليه حين جاء في العام الماضي من تفليس، وأقام في الأبخاز جهراً،" أنجيباز دَغُ" قادماً ومعه ثلاثة فرسان، فأفهمَ تيمبولات بنظرته أنه لا يجوز أن يقابله. اقترب منه تيمبولات الذي كان معتاداً على مثل هذه المواقف وجاهزاً لها، وطعن عنق حصان تورناو بسكين حادة،

فجفل الحصان وهرب من يد من يمسك به، وقال لصاحب الحصان مُسمِعاً صاحبه:

– يا حسن بيه أمسِك بحصانك، وأنت يا باي ساعِدْه!

وهكذا منع مَن كانوا يتجهزون للسفر إلى فُجْوِج ضيفهم أنجيباز دَغُ من رؤية الضابط الروسي. ثم خرج الفرسان الأربعة من أجبسو وهدؤوا، فقال تورناو لتيمبولات:

– حياك الله يا تيمبولات، فهمتَ ما أخبرتك به بعيني وإن كنت لا أعرف ما فعلتَ بحصاني.

– لستُ من يستحق شكرك،– أجاب تيمبولات باسماً من أخفاه، – اشكرْ حصانك على رقة مشاعره، وصالِحْه.

– سامحني يا حصاني الأغر على ما تسببوا لك فيه من ألم إذْ أن عليّ جزءاً من المسؤولية.– خاطب تورناو حصانه بنبرة إشفاق، ومسح على عنقه.

– لا تنس يا حسن بيه أن تشكر الله الذي يعلم أن تيمبولات أنقذك بلا كلام، وحصانُك شاركه بوجعه، من الناس الذين لا ترغب في لقياهم، وأننا استأنفنا رحلتنا بخير، – قال غازي إمام متفاصحاً. – ولكن لا أرى من اللائق بي أن أنضم إليكم دون تأبين الموتى. وأتأمل أن يغفر الله لي عدم تأبينهم إن شاء لأننا على سفر. وأنت يا باي ما رأيك؟

– لو كنت محلّه لما غفرتُ لك!

– ما هذا يا باي؟! – صرخ إمام وقد وجد الفرصة للصراخ، – كيف تقارن نفسك بالله؟! – دعونا نستغفر الله بالمعوّذتين. أنت يا حسن بيه خارج الموضوع.

– ولماذا لا يشاركنا وقد ألبسناه قبعة الحج؟ – قاطع باي كلام غازي إمام. ليقرأْ معنا مادام يتظاهر بالإسلام.

– يا باي! – نظر تيمبولات غاضباً إلى أخيه الأصغر، – أُسكتْ!

– نعم، نعم، أنا المشجب الذي تعلّقون به أخطاءكم...

– قولوا " آمين "،– أوقف غازي إمام الفرسان الثلاثة، ثم رفع راحتيه الصغيرتين البضَّتين إلى وجهه، وشرع يدعو: باسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد،لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴾.
وبعدما قطع الفرسان مسافةً، وكلٌّ غارق في أفكاره، بدت قرية فجوج المتناثرة على كتف الجبل، لم يملك باي إلا أن يسأل تورناو عما لم يكن يجد تفسيراً له:
– ما الذي كنت تتمتم به أيها الضابط الروسي حين كنا نتلو نحن " قل هو الله"؟
– كنت أدعو إلى الله أن ييسّر طريقنا، ويصفّي قلوبنا، ونرتاح حيث نسافر.
– لا بأس هكذا... – وافق باي من سأله ناسياً نقاشه معه صباحاً وقبل قليل.– حسنٌ أن تحفظ الله في سرّك كائناً من كنتَ، يقيك من الزلل، هكذا كان يردد أخونا الكبير المرحوم مَمّقاي... – اختنق صوت باي فقطع الحديث.
– كان أخوك يا باي يحتفظ في قلبه بمثل هذه الآراء الصائبة لأنه كان رجلاً صالحاً، – ردّ النقيب على باي دون رياء. – جعل الله الجنة مثوى آل قرمرز!
– آمين يا إلهي العزيز، – دعا الإمام أيضاً، – لا معين ولا سند لنا غيرُك.
التفت قرمرز تيمبولات إلى الفرسان وراءه، ونظر إليهم راضياً.

XIX

وصل الفرسان في وقت متأخر من المساء إلى قرية فجوج. كان في مضافة أقارب مفدق عدد من الأشخاص. فلما دخل الضيوف نهض الكبار والشباب كلهم حسب تقاليد الأديغة. وشرّفوا قرمرز تيمبولات بصدارة المجلس. وأفسح الجالسون في المضافة للضيوف القادمين من ضفة نهر بشزة.
وكان من عادة النقيب في مثل هذه المواقف أن يجلس على يسار غازي إمام مراعياً حداثة سنه. والآن تجاوز غازي إمام، دون أن يدري ما جرى له، وجلس إلى يمين أحد المسنين. وفي اللحظة نفسها أفهَمَه تيمبولات بنظراته خطأه. ونهض الآخر بسرعة وأشار إشارة احترام إلى العجوز واضعاً يده على صدره،

وطلب منه بكلمات لم يفهمها أحد أن يبدلا مجلسيهما. وأُعجب الجالسون بانتباه الضيف إلى تقاليد العمر، ووجهوا إليه نظرات الرضا[1].

– رفيقنا الحاج اسمه حسن بيه، وهو شيشاني، – قال تيمبولات ليُفهِم الحضور أني لا أفهم لغة الأديغة ولا الأباظة ولا النغوي. – لا يعرف لغتنا، حقاً رافقّنا من قرية أَرْتْقواجه مستفيدين من إمامه بلغة الكفار.

– حرام أن تتعلم لغة أكلة لحم الخنزير! – أسرع العجوز الذي أومؤوا له إيماءة احترام رافضاً ما قيل له وعيناه تلمعان. –أن تكون أبكم أفضلُ من أن تعرف لغة هؤلاء. وأمثال هؤلاء نصِفُهم، نحن الترك، بأنهم تحولوا إلى الكفر.

– ولكن ألا نستطيع إن تعلَّمْنا لغة الأعداء أن نكشف نقاط ضعفهم على نحو أفضل يا عبد الله أفندي؟ – سأله شابٌّ واقف على الباب.

– لا أزعم أنه سؤال غير صحيح يا من رعاك الله، – مسّد عبد الله أفندي لحيته الطويلة براحتيه الرقيقتين.– أقصد أنه ليس على الجميع أن يتعلموا، بل من يجب عليه. ويخيَّل إليّ أنك ستسألني: من عليه إذن أن يتعلمها؟ فأجيبك: زعماؤكم الذين سيجابهون بكم أعداء الله. الله يعدّكم من رعيته فسيحمي

---

[1] "وقعتُ في مشكلة الجهل بتقاليد العمر في قرية فجوج. كان في المضافة عدد كبير من الرجال حين دخلنا في وقت متأخر من المساء إليها. ولما رأوا قرمرز تيمبولات داخلاً نهضوا وتركوا له صدر المجلس. جلست كالعادة إلى يسار غازي إمام دون مراعاة هذه التقاليد وبدأت أحشو غليوني، فاسترعيتُ انتباه الحضور. ولما رفعت رأسي لاحظت أن عيون الجميع عليّ فنظرت إلى تيمبولات: أفهمني بعينه عدم رضاه عن جلوسي إلى يمين العجوز الممسك بسُبحة. نهضت كي لا يلاحظوا أني غيرُ مولود في الجبل ولا رُبّيتُ فيه،وأشرت لهم إشارة احترام يغفرون لي معه جلوسي في غير مكاني. وأجلسَ غازي إمام مكانه العجوز التركي عبدالله أفندي، وأخبر الحضور أني حاجٌّ شيشاني لا أتكلم الأديغية بل أُلِمّ بالروسية. ومع أن التركي الذي نظر إليّ بجفاء سابقاً قد غيّر الآن موقفه فقد كان ينظر إليّ سراً شاكّاً في أني عدوّ. ولما حان موعد الصلاة توضّأت ووقفت على السجادة لأنفيَ أيّ ارتياب منهم...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

زعماؤكم بهم بلادكم الجنةَ من الكَفَرة القادمين من الشمال. قولوا "آمين" يا عباد الله المتقبّلين دين الله الطاهر.

حين فرغ الجالسون، بمن فيهم النقيب تورناو، من الدعاء قال زيزار ابن صديق مفدق:

– ضيفُنا عبد الله أفندي الذي ندعو إلى الله أن يتقبّل دعاءه يا تيمبولات واحد من بضعةٍ من موفدي الله في تركيا. وهو معروف عند الأباظة القاطنين على الساحل، وفي الأطراف. يسمعون كلامه، وهو يقدِّر لهم هذا.

– حياك الله ورضي عنك يا زيزار، – قال عبد الله راضياً، ومسّد لحيته ثانية بأصابعه المتينة، – أنعشْتني وكرّمتني، غير أني سأحدِّثك في قضية لم أتمكن من إنجازها: المكان الذي جئتم منه يا تيمبولات، أقصد شركيسيا حيث يقطن الأبزاخ والبسلني والجمكوي، فاتتني أيامُ الربيع وأنا أحاول زيارته ولا أتمكن، وانقضى الصيف، ولن أستطيع في بداية الشتاء. وفي جميع الأحوال، إن قبلت استضافتي فسآتي إليكم في الربيع القادم. ما وضْعُ الإسلام دين الله المنزل علينا في نواحيكم؟

– الإسلام يا موفد الله، – أجاب غازي إمام مُبرِزاً إياه من بين الجميع، بادياً رضاه من السؤال، – تغلغل في قلوب أكثر الناس. غير أن هناك من تقبّلوه بألسنتهم ولم يدخل في قلوبهم. ونحن نعمل مع هؤلاء برعاية الله سبحانه؛ فإن عادوا معترفين بخطئهم فنحن كرّسنا حياتنا لإفهامهم أن الله يتوب عليهم وينشر السكينة في قلوبهم، وراحة الجنة في آخرتهم إن لم ينحرفوا عن تعاليمه بأقوالهم وأفعالهم، وأحسنوا إلى الفقراء والمرضى والأرامل.

– يجب على الجميع أن يعرفوا أن الله العلي العظيم أعدّ للخارجين عن طاعته نار جهنم، – ما إن أنهى غازي إمام موعظته حتى امتدح عبد الله أفندي كلام زميله بغير ما في قلبه: – رضي الله عنك ورعاك يا إمام، أرحتَني بكلامك. لو حاصركم الكفار فلم يبق إلا تركيا لحافظتم على كيانكم. أنت لست إماماً فحسبُ بل تعبد الله بإخلاص وتنفذ تعاليمه، أنت موفد حقيقي لله. متى جئتُ إلى نواحيكم فسأحمل المسلمين، بعلم الله تعالى، على مناداتك بهذا اللقب.

– نادَوا غازي إمام في مسجد أجبسو كثيراً باسم "موفد الله"، – ساهم باي الذي لم يتفوه بكلمة إلى الآن.

– حقاً، هذا صحيح، – لم يتأخر عليهم عبد الله أفندي في التصديق، – أنا عارفٌ بهذا، لم أجد من اللائق إخباركم كمن يمتدح نفسه ولكن لن أكتمكم إذ دخلتم في الموضوع: لم يضِع كلامي سُدى لأن في الموضوع علمِ الله وفعله. هذه هي الحقيقة أيها المسلمون، يا مَن تقبّل الله صلاتكم. لهذا السبب يقول الله: من يعمل الخير يجده.أهنّئك يا إمام.

– حياك الله يا موفده، ورضي عنك. أنا لا أستحق كل هذا الثناء، – قال غازي إمام الذي كان إماماً فارتقى إلى "موفد الله"، كاسياً وجهه بمسحة من الحياء، – أنا خادم الله تعالى الذي يأتمر بأمره الماء والأرض والسماء والشمس، ولستُ ممدوحه.

– حياك الله يا أخي، – اختتم عبد الله أفندي كلام ممدوحه. – هكذا ينبغي أن يعيش كل المسلمين بدءاً من عامّتهم وانتهاء بموفد الله. ولكن لا تنسوا أن كل مسلم، رجلاً كان أم امرأة، محاربٌ ضد الكفار الذين يدنسون أرضكم. أليس كذلك يا حسن بيه؟

– صحيح، – أجاب النقيب بلغة الشيشان وهو يهز رأسه، وضحك في سرّهِ قائلاً: "هذا التركي الذي يدعي أنه موفد الله واحد من أمثالي".

كلما مضى الوقت بدأت شكوك تورناو في عبد الله أفندي تتأكد: يظل يختلس النظر بطرف عينه إلى الحاج الشيشاني الصامت مهما كانت مساهمته في الأخبار المتنوعة التي تروى في المضافة. ويبتسم في وجهه أحياناً مموهاً اختباره له. ولا يرفع عينه عنه، ولا يفارق تفكيره حتى وهو يقلب السبحة. يقول تورناو في نفسه: "هذا الرجل يتظاهر بالشيخوخة في جلسته ولحيته وطريقة كلامه ولكنه حديث السنّ. ربما يكبرني بعشر سنين، لا أكثر. يوظّف الإسلام كما يريد في خدمته. جاهز للإجابة على أي سؤال يُطرح عليه، ولكنه – لم يملك إلا أن يبتسم في سرّه مرة أخرى لما يراه – يخطئ دون أن يدري أو يدري الحاضرون في طريقة تقليب السبحة على نحو لا يليق به..."

خرج الأحادِثُ سناً من المضافة حين جيء إليها بموائد العشاء المتأخر الثلاث. وقال عبد الله أفندي قبل أن يشرعوا في الطعام:

– قلْ يا إمام شيئاً بشأن الطعام.

– لا، لا يا موفد الله. بحضورك أنت لا يليق بي أن أفعل هذا.

– قولوا آمين إذن. – نصب عبد الله أفندي قامته مغتراً بنفسه بعضَ اغترار وإن كان يعرف سلفاً أنه سيُجاب بهذا، ورفع راحتيه المتينتين أمام وجهه، – أدعو إلى الله الأحد لمرشان أن يبارك لنا وله في طعامه الذي جادت به نفسه، ويعوضه أضعافاً؛ تفضَّلوا!

كان موعد صلاة العشاء يقترب فاختصر الضيوف الوقت. وكان النقيب تورناو أول من نظر إلى ساعة جيبه. ولم يفعل "الحاج الشيشاني" هذا عبثاً. – كان يريد أن يلفت قبل غيره نظر عبد الله أفندي إلى حلول وقت الصلاة. وقال الآخر راضياً بما يرى:

– نعم يا حاج، نعم. يكاد موعد العِشاء الغالي الذي سنمثل فيه أمام الله يحين. الشكر والحمد لله. اجْعلْنا يا الله من أمة الإسلام الصالحين الذين ذاقوا من طعامه.

لم يرفع عبد الله أفندي عينيه عن "الحاج الشيشاني" طوال الوضوء وطوال وقوفهم على سجادة الصلاة. وتيمبولات الذي فهم هذا وقف بين "الأفنديين" و "الحاج" وأومأ بطرف مرفقه إلى "الحاج" بضرورة الحرص على نفسه. وبعدما انتهوا من الصلاة قال لهم قبل أن يجدوا الفرصة للحديث:

– يحسن بنا أن نستعد بالنوم لرحلتنا الصباحية.

– بهذه السرعة؟.. – سأل عبد الله أفندي مستغرباً ما يسمع، لا يعرف تفسيراً له، ثم اختتم ضاحكاً: – كنت أريد أن تقيموا هنا قرابة ثلاثة أيام وأستمتع معكم بالحديث.

أيدّ غازي إمام تيمبولات وقد وجد ذريعة جيدة:

– ما العمل إن كان هذا قراركم، وهذا بعلم الله، ولكن مهلاً، في هذه اللحظة،

– فرد عبد الله أفندي إصبعه على جبينه، وأنصت ثم أنهى كلامه: – سأقول

لكم ما أسمعني إياه الله: " لا تدعْ أحبابك الذين يحتفظون بك في القلب يتركونك" ما رأيكم يا جماعة الخير في تدبير الله؟

– لا نخالف أمر الله تعالى الذي بيده كل شيء... – قال غازي إمام ما يجب أن يقوله، وسأل تيمبولات بنظرة صامتة عما يجب أن يفعلوه.

– لما كان الله وحده هو من يعلم صعوبة الطريق الجبلي، – لم يدع تيمبولات الحضور ينتظرونه رغم امتعاضه مما سمع، – جمعنا الله على غير موعد، وأرفق بنا الحاج حسن بيه. تصبحون على خير أيها الأفندي وأيها الإمام، وأنت أيضاً يا أخي الأصغر. وأنا وحسن بيه وزيزار سنتخذ موقعاً آخر.

– هل تُبعِد عنا، نحن رجلي الدين، الحاج حسن بيه؟.. – حملت القسمة غير المنتظرة للجماعة الأفندي على السؤال.

– ونحن يا أفندي ألا تطمئن قلوبنا في الليل إذا كان معنا رجل دين؟ – مازح تيمبولات السائلَ ضاحكاً، وأضاف إلى من تطفّل عليهم بالرفقة: – إن كان عميد أسرة مضيفينا مَرشان مفدق، وابنه سفربي من معارفك فقد اتفقنا اليوم على أن نلتقي غداً ظهراً.

– وكيف لا أعرف من عددت اسميهما مفدق وسفربي، وقد سمعت عنهما أطيب سيرة، وهذا ما دفعني إلى التوقف في مضافة مَرشان زيزار... كنت أنوي أن أطلب منه مرافقتي إلى أقربائه في أجبسو. ولكن الحقيقة أن الله أعلمَني بخبر اقتتال المسلمين فوجب عليّ التوقف في قرية فجوج. وتبعاً للظروف الحالية سألتقي بهم غداً بعلم الله ورضاه. ليلة سعيدة يا من ﷺ تيمبولات وزيزار، وأنت أيضاً يا حاج حسن بيه، أين تذهب بعيداً عنهما...

حين بقي قرمرز الأكبر وتورناو وحدهما في الغرفة سأل تيمبولات الضابط الروسي متظاهراً بعدم المبالاة:

– ما رأيك في الأفندي الذي فرض عليا رفقته؟

كان تورناو مستعداً منذ وقت للسؤال غير المنتظر فأجاب باسماً:

– صدِّقْ أن هذا "أفندي تركي" إن كنت صدّقت أني "حاج شيشاني". لا أقول إنه غيرُ مؤهَّل دينياً، غير أن هذا مجرد مظهر، والأصلُ غيرُ هذا.

– في البداية لم أفهم طبيعة هذا الرجل فنظرتُ إليك خلسة. وأنا راضٍ عنك لأنك لاحظت ذلك من خلال تقيدك بقواعد جلوس الأصغر والأكبر، مصدِّقاً من خلالها كونك " جبلياً ". ولكن يقلقني ما سيجري غداً أكثر مما أقلقني ما جرى اليوم. ماذا تريدنا أن نفعل بالتركي الذي يفرض نفسه علينا مرافقاً؟

– اطمئنَّ يا تيمبولات، سيتوضح كل شيء على الطريق.

– ولكن ما تبقّى لنا من الطريق الجبلي إلى البحر سيكون أصعب مما مشينا إلى الآن، فلم أكن أريد أن ينتهي هذا بحادث غير مرغوب فيه.

– استمعت إلى ما قلتم إلى الآن يا تيمبولات، – قال تورناو بصوت قاطع، أما الآن فستطيعونني.

– وكيف نطيعك؟ – سأل قرمز تيمبولات مستغرباً ما لم ينتظره،– هل أنت أدرى منا بما بقي لنا من الطريق؟

– لا أتكلم على الطريق الجبلي، بل بالتركي الذي تعلّق بنا. – قال تورناو كأنه يعرف ما صارحه به تيمبولات: – لا يجوز أن نُشعِر من يريد مرافقتنا بعدم ترحيبنا به. وسأقول لك غيره يا تيمبولات: يُخيَّل إلي أن التركي يعرف الروسية ليس بأقل من معرفته بالأديغية. ما الذي قلت لغازي وباي بلغة النغوي في أثناء خروجنا من المضافة بعدما تمنينا لهم ليلة سعيدة؟

– ربما لشكّي في معرفته بالروسية، – مازحه تيمبولات أيضاً، – طلبت منهما الحذر بالأديغية والروسية. اطمئنَّ على غازي إمام وإن كان يطيل حديثه أحياناً؛ لا يُطلِعك على ما في قلبه مهما امتدحته أو لاطفته.

– وباي؟

– ألا تعرف طبيعة أخي؟

– أعرف.

– ولماذا تسأل إذن؟

– لأنه يوجه إليّ وخزات حين نكون وحدنا.

– مهما تصرف معك باي فلن يخرج عن طوعي. كفى يا حسن بيه، لنترك للغد ما نفكر فيه أيضاً. ليلة سعيدة، وتصبح على خير!

لا يزال أمام تيمبولات وتورناو طريق محفوف بالمخاطر غداً وإن افترقا على هذا الاطمئنان. وكان كلٌّ منهما يقلق للموضوع من وجهة نظره الشخصية.– كان تورناو الذي استأنف تفكيره نائماً على الأريكة المقابلة لما ينام عليها تيمبولات. – " لا تقولوا إنه من ديننا، أعرف ما أفعله به إن كنتم تطيعونني... يخبرني قرمرز الكبير أنه فهم ما قلته له ولكن كيف سيتصرف معي الآخرون؟ أنا واثق من أنك قادر على تطويع باي لأنه أخوك الأصغر. وغازي إمام الذي شرّفوه بلقب موفد الله؟ ليس ذلك الإنسان اللطيف الشفوق الذي يظهر فيه أمام الناس. ألا تتذكر ماذا فعل بـ "ياغز"؟ إن كنت تتذكر هذا فلماذا لا تثق به؟.. لأن غازي إمام وعبد الله أفندي من دعاة الإسلام وخدمِه... "

– هل أنت نائم يا حسن بيه؟ – سأل تيمبولات.

– هل ناديتني يا تيمبولات؟ أعاد النقيب تورناو السؤال كأنه صحا فجأة من النوم.

– ظننتك لستَ نائماً... نَمْ إذن، نَمْ... – صمت تيمبولات متظاهراً هو أيضاً بالنوم.

استغرب مَرشان زيزار ما رآه من الغرفة حين خرج منها: عبد الله أفندي وتيمبولات وغازي إمام وحسن بيه يتوضؤون لصلاة الصبح.

– صباح الخير أيها الضيوف، سبقتم مضيفكم الكسول، – استدرك زيزار متظاهراً بالمزاح، – ولكننا، باي وأنا، أنجزنا صلاتنا.

– مع أني لم أتعرّف باي إلا العشية، – قال عبد الله أفندي دون أن يرفع نظره عن طريقة توضُّؤ النقيب تورناو،– فإن كونه عبداً حقيقياً لله ظاهر من سلوكه وطبيعته. لا، لا، لا أقصد أننا لسنا من عباد الله المخلصين، غير أن الله العظيم الذي سنجثو أمامه الآن على رُكبِنا نبّهني فجعلني أنظر بعينه تعالى إلى باي. وأنت ستفهم هذا على نحوٍ أفضل لأنك صرتَ موفد الله. أليس هذا ممكناً يا إمام؟ – امتدح غازي إمام فخوراً بلقبه، وراضياً بسماع الآخرين له، باي الذي ورد اسمه:

– باي مسلم حقيقي. رجل صالح، كريم رحيم. أعرف كثيرين ممن يحملون الله على ألسنتهم، لا في قلوبهم.

– نار جهنم بانتظار هؤلاء! – اختتم عبد الله أفندي كلامه، وسأل تورناو وهو يوجّه نظرة صامتة إلى تيمبولات: – وأنت ما رأيك يا حاج حسن بيه؟ ترجِمْ يا إمام سؤالي لمن لا يعرف لغتنا.

كان غازي إمام جاهزاً للترجمة إلى الروسية، وتورناو جاهزاً لإجابة قصيرة:

– تمام يا أفندي، تمام!

XX

كان قرب مربط الخيل،بالإضافة إلى الفرسان الخمسة الذين سيتخذون طريقهم، حصانان على ظهريهما كيس من الدُخن، وخروف، وعلى جانب كل حصان قربةٌ من جلد الماعز مملوءة حليباً وماء، وكساءٌ أسود ملفوف. وكان باي يراقب الحمالين الذين يجهزونهما. ويُصلِح ما يحتاج إلى إصلاح.

– بكّرتَ في النهوض يا باي، ونحن نبحث عنك لتفطر معنا، – قال له عبد الله أفندي الذي كان يدنو منه بخفٍّ رقيق، – تقبّل الله صلاتك إن لم تنسها.

– لو نسيتُ فطوري وسوط حصاني يا أفندي، – أجاب باي مَن كان متلهفاً عليه، قائلاً في نفسه: "ما أشد ما تعلّق بي هذا الرجل منذ العشية!"، – ما فوتُّتُ صلاتي التي أخلص بها لله.

– هذا حسنٌ يا أخي في الإسلام، حسنٌ. إنه يرعاك في الشدائد في دنياك العارية، ويسندك، ولا يسمح لك أن تمشي في طريق خاطئ.أهذا الحصان المحجل هو حصان الحاج حسن بيه؟ إن كان جاء من الشيشان البعيدة فلا بد أن حوافره متينة. أم هيّئتموه له؟

– أما قلنا لك إن الحاج حسن بيه صادفَنا على الطريق؟! رأيته رجلاً وقوراً متعلماً عظيم الاحترام لنفسه، رجلاً يُنسيك القول المأثور للشراكسة: "لا تُردِف على حصانك من تلاقيه في طريقك".

– من حظكم وحظه أنكم تعرفون شيئاً من لغة الكفار؛ وإلا كيف تفاهمتم!

– ضحك عبد الله أفندي، واختتم شاملاً نفسه أيضاً بكلامه: – لا يجوز الشك في أني سأكون لكم خير رفيق سفر كما كان الحاج حسن بيه. التجول في جبال الشراكسة بمفردك عمل خطير. خيرٌ أن تكون اثنين أو ثلاثة من أن تكون وحيداً. ألستُ على حق يا حسن بيه؟

فرح باي لما رأى المسافرين قادمين كي يتجنب الإجابة على السؤال المتملق لمن علِق بهم كذبابة لجوج، ولكنه نفّذ للأفندي ما عليه: أمسَكَ بزمام حصانه ورِكابه وساعده على امتطائه.

كانت الشمس الحمراء الكبيرة شرعت تبزغ من جبال القفقاس حين وصل الفرسان إلى صخرة " تِحَه غَلِج " الكبيرة حيث ينتظرهم مفدق وسفربي.

– أهلاً بالجميع، – استقبل مفدق الفرسان يترجلون، – لم نتوقع أنا والولد أن تصلوا في هذا الوقت المبكر. وبينكم فارسٌ لا أعرفه... أهذا أنت يا عبد الله أفندي من لم أتعرّفه؟! ما أشد ما جعلتَ من نفسك عجوزاً، وما أشدّ ما أطلقتَ لحيتك! رافقتك السلامة، ولْتتحقّقْ لك أمانيك، وإن كان الناس في أجبسو انتظروك أمس وسينتظرونك اليوم.

– ألا تقول يا مفدق: "ليرشدْك الله إلى طريق السلامة، ولْيحققْ أمانيك"

– قال عبد الله أفندي مُشعِراً مفدق بعدم رضاه عن العجوز الذي استبعد الله من دعائه، – لن يكون طريقُ مَن ليس الله العلي العزيز في قلبه خيراً، ولن يتحقق له مراده. الله معنا نحن، ونسير في السراط المؤدي بنا إلى الجنة. وأمّا ما ذكرتَه بخصوص أهل أجبسو فلا أرى نفسي مذنباً. لم أدخل قريتكم لأن الله لا يقبل تقاتُلَ المسلمين وتفانيَهم. ولم يسمح غازي إمام والحاج حسن بيه لهؤلاء أن يخطئوا في فهْم الكلمات المنيرة التي يهدينا بها. وها أنتم ترون أنه جمعَنا، نحن رجال الدين الثلاثة، ليس في الجنازة، بل في قرية فُجوج الهادئة، وأرسلَنا في طريق الاختبار الطويل الثقيل.

– ما العمل إن كان هذا رأيَك؟ – اختتم مفدق الكلام بما ندم عليه، دون ذكر اسم رجل الدين التركي: – نحن قمنا بمراسم موتانا دون أن نطلب المساهمة فيها من غريب.

– صحيح، تصرفتم بحكمة، من يتب يسمح له الله الرحيم بالمثول في حضرته.

– انظروا، ها هي شمسُنا العظيمة إلهُنا، أشرقت، – توجه مفدق إليها، ورفع راحتيه: قولوا: آمين!

كان عبد الله أفندي وحسن بيه وحدهما من ينظران إلى الشمس بأيدٍ مسبَلة. ولما انتهى مفدق من دعائه عاتب الأفندي غازي إمام عتاباً رقيقاً بوجه باسم:

– لا أفهم يا موفد الله طريقة دعائك.
مازح قرمرز تيمبولات الأفندي التركي بدلاً من غازي إمام الذي لم يكن يعرف بِمَ يجيب:
– ربما ما كان يريد التخلُّف عن رفاقه!
– يبدو أنني والحاج حسن بيه لسنا من رفاقكم... – بادله عبد الله أفندي المزاح متظاهراً بالضحك. ثم أنهى كلامه بنبرة جازمة: – لا يقبل الله القيوم على العالم كله الشِّركَ به. لهذا خلق الله الجنة الآمنة، وجهنم النار لأجل عباده الذين يبتليهم في الدار العاجلة. قولوا آمين!
بعدما دعا المسافرون الذين تنتظرهم أهوال الطريق، كلٌّ بِلُغته، اختتم الأفندي الذي سخروا من لحيته:
– هذا مقبول. وإلا فلا أحد يعرف ماذا يدبّر لنا الله في طريقنا المخيف... احمِنا وارحمنا، واحفظ في قلوبنا الخير يا إلهي!
قال مفدق الذي لا يطيق مواعظ عبد الله أفندي المكررة، غير متقبّلٍ إياها، مُشعِراً الجماعة بأنه هو رئيس القافلة:
– إن كنتم انتهيتم من شعائر الإسلام فاسمعوا ما سأقول لكم الآن. هل ترون هذا الجبل ذا القمة البيضاء؟ كان جدي يقول عن حق: " صحيح أن عينك تراه ولكنه يكسر ساقيك، طريقك هو أمنيتك " ولذا سأوصلكم إليه في غضون ثلاثة أيام. ستسمعون كلامي، ولن تحيدوا عن طريقي، لا خطوة واحدة، بل إصبعاً. لن تمسكوا الخيول من أعنّتها. ستتبعنا في رتل أحادي. وسنستريح كل ساعتين. أنا سأتقدّمكم، وبعدي الحاج حسن بيه، ثم تيمبولات وعبد الله، ثم باي وغازي إمام، وآخِرُنا الولد سفربي. إن كان هناك ما لم تفهموه فأنا أصغي إليكم.
ابتسم عبد الله أفندي في سره قائلاً: " إذا قلت إن علينا أن نطيعك ولا نحيد عن أوامرك فلماذا تسألنا؟ هل تقصد شيئاً بترتيب مِشيتنا الذي رسمته؟ لو كان الترتيب عشوائياً لما أوقعني بين الأخوين قرمرز... الناس الذين اتخذتُهم رفاقاً على نحوٍ مفاجئ حريصون جداً على أنفسهم. هؤلاء يتفقون على قولهم وفِعلِهم فكيف أستطيع أن أعرف ماذا يُسِرّون؟ أعتمد على غازي إمام ولكن

يُخيَّل إليّ أنه ليس بالإنسان الموثوق. يُخيَّل إليّ أن هذا رأيي فيه؟.. – سأل الأفندي التركي نفسه، ثم سخر منها: – نخدع أنفسنا بالتعابير الإسلامية الجميلة ونحن نتبادل الابتسامات. وماذا عن باي الذي ينفّس عن ضيقه برأسي كتفيه؟ هذا مَن لا أفهمه. حين لمحتُ له بأن الحاج الذي رافقكم ليست له ملامح شيشانية أجابني: " وأنت أستطيع أن أتصورك غيرَ تركي " وكاد يفترسني بعينيه. وأما تيمبولات فهو غامض منطوٍ على نفسه. ونِيْرُ العجوز مفدق يرزح تحته تيمبولات وسفربي. وهو بالنسبة إليهما سائق الثيران. هؤلاء الأهل المترافقون يحتفظون بسرٍّ بينهم، وهو يؤول بطريقة غير منظورة إلى حسن بيه. وإن صدَقَ حدْسي فهو مهيَّأ جيداً للمهمة التي ينفذها. يوهمك بمِشيته الحذرة أنه يمشي طوال عمره على هذه الجبال... لو دفعته فألقيت به من الجبل إلى الوادي لكسبتُ ثواباً... "

الجاسوس ذو الظهر المتين والذي كان موضوع الحديث، ولا يلتفت، كان مَن تتجه إليه أفكاره وأسئلته هو عبد الله أفندي السائر وراءه. يتأمل ما تبادلا من حديث ومن سلوك منذ تعارفا العشية: " بادلَني الشك فلم يكن واثقاً مني. أيكون السبب أني نقضت عادات الأديغة فجلستُ إلى يمينه؟ يمكن أن يحدث مثلُ هذا لأي إنسان، وأنا انتبهت إلى خطئي فاستدركتُه. ونِظرة تيمبولات الذي لم يُرضِه تصرُّفي؟ لا أرى ما يدعو إلى الاستغراب إن أخطأتَ في موضوع السِّنّ ثم أصلحتَ خطأك. وأقول: ربما في طريقة وضوئي وصلاتي ولكن من أين له أن يطّلع على ما في قلبي. لم أسمح لنفسي بالخطأ في أي سجدة أو ركعة أو وقفة أو نظرة، أو إشارة. وعلى رأي مفدق: ستصادفنا مفارق طرق كثيرة حتى نصل إلى أَرْتْقواجه... "

وكان عند مفدق الذي لم يعجبه انضمام عبد الله أفندي إليهم كثيرٌ مما يستحق التفكير بدون الدخيل. كان أكثر ما يشغل باله طريقة موت رجال قريته الذين دُفنت رؤوسهم أمس: " هناك طرق كثيرة للموت والقتل... ولكن عقلي لا يستوعب العار الذي ألحقه الأمير قَسَي بقريتنا. أما كان عليه مراعاتي أنا ولو لم يردعه من جاؤوا لسرقته؟ أحاول أن أقتنع بكلام الولد ولكن كان عليّ أن أقيم في القرية. وحين كنا ندفن القتلى نصحتُ الناس ألا يتهوروا ويرتكبوا

الخطأ،ولكن من يعرف ماذا سيراود عقول شبابنا الهائجين؟.. إن هاجموا الأمير قسي تورّطْنا في حرب لا نهاية لها. يا إلهي أأنت من قدّرت سلوك الأفندي الذي علِق بنا نحو مأساة قريتنا كما يقول هو؟ إذن لا أعرف كيف ستتقبّل قلوبنا دينك الإسلامي... لا، لا أقصد بكلامي أن نسرق وأن نرتكب الجرائم. وأنا أعترف بذنبي في مرافقة الحاج المزيف، وأشكّ في أن من يدعي أنه موفد منك رجل صالح. الصالحون في دنياك الفانية التي تقول إنها مسرحُ اختبارك قليلون، بمن فيهم شخصي أنا. أعدّ نفسي من هؤلاء الصالحين ولكن ليتهم كانوا مثلي... " نهر مفدق نفسه: "هذه مبالغة يا رجل، خفِّف من اعتدادك بنفسك!.. " وصاح إلى من يتبعونه يعاتب نفسه على الأفكار السيئة التي راودته:

– أراك لا تقول شيئاً يا عبد الله أفندي؛ ما أخباركم؟

– وماذا عندي لأقوله يا زعيم الخير؟ نسير على الطريق الذي اخترتَه لنا والله في قلوبنا.

– ألا يذكّرُك الطريق الذي تسير عليه بشيء؟ – صاح العجوز مفدق ثانية إلى الوراء على نحوٍ لا تعرف معه إن كان جادّاً أم هازلاً.

– الأفضل أن تنزع هذا من قلبك وإن لم أصارحك بجواب سؤالك.

– أتقصد أن نتناسى حياتنا في دنيا الله الفانية؟

– لا، بل أن تبقى جنّته في قلوبنا.

– اجعلنا يا رب ممن تدّخر لهم جنتك الغالية!

– نعم، نعم. وافق العجوزُ الأفنديَ، وقال له في سِرّه: " ولا تنس أنك تمشي على سراط جهنم التي لا تجرؤ على ذِكرِها " ودون أن يطيل سكوته رفع من أزر رفاقه: – هناك وراء المنعطف مكان صالح للاستراحة، ولذا سنتغدى فيها ونصلي، ونُطعم خيلنا.

حين رأى عبد الله أفندي النقيب تورناو يلتف وراء الصخرة تابعه مبدياً حُجّة لا تدعو إلى الارتياب:

– والله هذه شكواي أنا أيضاً...

تبادل النظرَ الأخوان قرمرز اللذان لم يرتاحا للحجة المفاجئة لعبد الله أفندي. ونظر غازي إمام الذي كان يستعد للوضوء نحو الصخرة التي يلتف وراءها " الأفندي " و" الحاج ". وحين نهض باي الذي كان يراقب الجميع حذِراً لم يقبل مفدق باسماً.

– لا شأن لك بتلك الجهة يا ولد إن لم تكن حاجتك مُلحّة.

– لا ثقة لي بالأفندي التركي الذي لا يفارق اسم الله لسانه...– غمغم باي ملمِّحاً لغيره بما يقوله لنفسه، ولم يكتم ما يقلقه. – وهو أيضاً لا يثق بالحاج حسن بيه الشيشاني. – أنت يا إمام من علّقه بنا...

– نعم، أنا يا باي من لا تنتهي من انتقاده... – قال غازي إمام بنبرة الشيوخ متناسياً استياءه من محدِّثه، واستأنف وضوءه.

أحد الشخصين اللذين وقفا وظهر كلٍّ منهما للآخر، وهو عبد الله أفندي قال بروسية سليمة:

– صعبٌ أن تصبر على حاجاتك الطبيعية في طريق مرهق.

– ولو كنت تكتسي مظهر الشيخوخة ولست شيخاً؟.. – مازح تورناو محدِّثه بالروسية، معرِّفاً إياه بحقيقته.

– هل يعرف رفاقك أنك روسي؟

– حدّثك من اقتنعوا بأني شيشاني بما يعرفون.

– وإن أخبرت أتباع ديني أنك جاسوس روسي؟

– وأنت أخبِرْهم بحقيقتك ولكنك لن تستطيع.

– لا تدفعْ نفسك إلى الخطأ يا كافر!

– إن فعلتَ هذا فلا تنس أني سأرميك في الوادي! – لمح تورناو لمحدّثه التركي الذي لم يلتفتْ إليه طوال الحديث، وانصرف.

فهم العجوز مفدق أن شيئاً جرى بين الشخصين اللذين كانا يخرجان من وراء الصخرة ومهنتهما واحدة، ودينهما مختلفان. ولكنه ابتسم في سِرّه ولم يُبِن على نفسه.

قال مفدق بعدما تناولوا غداءً مرتجلاً عَقِبَ الصلاة:

– يسّر الله طريقكم يا جماعة، سأقول لكم ما يقلِقني لأني أتأمل منكم أن تفهموني. أعيد التفكير في أني تركت مأتم قريتنا وانضممت إليكم فلا أراه لائقاً. ما فعلتُه بنفسي وأنا ألومك يا أفندي غيرُ لائق كما يقال إن الأباظي يأتي عقله متأخراً. الأفضل أن أعود إلى القرية فمن يدري ما قد يحدث فيها.
– أنت على حق يا مفدق، على حق. – فرح عبد الله أفندي الذي لم يكن ينسى أن النقيب نهره بما سمع، – وأنا كنتُ أفكّر لتوي في الموضوع. – "هؤلاء متواطئون وإن ادَّعَوا أن الضابط الروسي الذي سمح للغته الروسية أن تنطلق انضم إليهم بالمصادفة. ولن يتورعوا عن شيء وإن كنتَ مسلماً..." – وأنا أعرف ذنبي نحو جماعة أجبسو. الله يأمرني بمرافقتك يا مفدق في كلّ قضية إسلامية. يقول لي: استدرِكوا خطأكم، ولا تكلفوا أمة الإسلام ما ليس بوُسعها. دعوهم يعيشون في سلام. وإذا كان الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل إلى أحد قضى هكذا فلن أدعك تعود وحدك. سآتي معك إلى أجبسو، وسنهدئ الجماعة المهتاجة، وسنكلِّم الأمير قَسَيّ.
ضحك مفدق في سرّه. وإذا كان تيمبولات وسفربي لا يعرفان ما يُحاك لكبير القافلة فإن غازي إمام أخبرهما بنظرة صامتة ألا يتدخلا في موضوع الرجلين المتخادعين. وباي الذي يتظاهر بأنه لا يسمع شيئاً كان واقفاً إلى جانب حصانه يتنصّت بكل جوارحه.
– يا جماعة المسلمين، يا من شملكم الله برعايته، أراكم لا تعلّقون بشيء على ما قررنا أنا وكبيرنا مفدق. – سألهم عبد الله أفندي شاملاً معهم "الحاج الشيشاني".
– ماذا نقول إن كان هذا قراركما؟ – أجاب باي باسْمِ من سيستأنفون طريقهم وإن لم يكن هو من عليه الإجابة، مانحاً لجوابه صفة المناسبة. – نقول لكما مع السلامة ولو كانت المصيبة التي تعودان لأجلها أليمة، ولكن أقول لكما رأيي إن سمحتما: أنا أدين الطرفين.
– نعم يا باي، نعم صحيح. أنت على صواب. يسرّ الله أمرنا إذ أمامنا طريق ثقيل، – قفز عبد الله أفندي فاتخذ مكانه على الحصان. وقال للنقيب تورناو

بعدما ألقى فوق الجميع نظرة حارقة: – يقول لي قلبي إنني سأصادف كثيراً من رافقتهم على الطريق يا حسن بيه. ولكن لا يعرف غيرُ الله متى نلتقي أنت وأنا.
– من يدري؛ قد يجمعنا طريق واحد... – ابتسم النقيب تورناو.

XXI

لم يكن يوماً يُشعرك بالضيق رغم حرارة الجو.
بعدما سار الفارسان اللذان ترافقا على حين غرة يخفيان ما بينهما من جفاء قال عبد الله افندي:
– منحَنا الله يوماً لطيفاً.
– ربما لأنه أعاد إلينا وعْيَنا عبر المأساة التي حدثت في أجبسو، فحملَنا على الرجوع... – ابتسم مفدق بشفتيه دون قلبه.
– صحيح، ملأ قلبينا بالخير فأعادنا. والجماعة الأخرى ما كان عليها تجاهُلُ مصيبتكم... – ما أخبارهم يا ترى؟
– وماذا ستكون حالهم، – أجاب مفدق الفارسَ وراءه محتاطاً بعدما همس تورناو في أذنه: "احذر من هذا العائد معك، هو مثلي" . أظنهم يُغِذّون السير مثلَنا. أتظنهم يرون هذا الطريق لأول مرة؟
– والحاج حسن بيه أيضاً؟.. – سأل الآن من يعرف طبيعة "الشيشاني"، واستدرك بسرعة، – نسيت أنه يرافقكم لأول مرة... ولكن لا أعرف ما سيفعل في أرتقواجه...
– ليس علينا تفسير مهمات الحاج، – قال مفدق وهو يتميز غيظاً وإن تظاهر باللامبالاة. – أظنك نسيتَ أنه أجابك لما سألتَه.
– هذا هو؟ – وجد عبد الله أفندي بمهارة جواباً،متظاهراً بالاستغراب. – هذه طبيعتي: لا أحتفظ في ذاكرتي بما ليس من شأني. ولكنه كان أخبرني أنه في طريقه إلى النبيل آرت، وأنه سيطلب منه اصطحابه إلى باطوم... – ضحك في سرّه عبد الله أفندي المتابع للقضايا التركية وهو ينظر إلى ظهر العجوز الأباظي – الأبخازي المتين خلافاً لعمره، وما إن قال في نفسه: "لو لم أتعرف طبيعة "الحاج الشيشاني" الكافر الذي تدورون به في بلادكم لصدّقتُ ما تقول بحقِّه..." حتى لمع البرق وضربت الصاعقة الأرض، ونثر الرعدُ الذي دوّى

حيث كان يلتف مفدق وصاحبه ثلجَ الجبل. وعاصفة الثلج التي لا تعرف هي نفسُها مقدار قوتها تكسر الأشجار، وتلعب بالأحجار، وتحمل نثار الثلج.
يدعو إلى الله مفدق وعبد الله أفندي في غمرة يأسهما، وعنانُ حصان كل منهما بيده، وكساؤه على رأسه:
– ارحمنا يا إلهي واحمنا!.. – يدعو عبد الله.
– يا شمسي،يا صاعقتي، يا إلهي، لم نفعل ذنباً تؤاخذوننا عليه، احمونا!..
– العجوز مفدق متلهّف.
توقّف الخطر الذي بدأ فجأة في ظهر الجبل كما بدأ: السماء صافية، والشمس مشرقة، والجوارح تدوّم في السماء، ومِزق من السحاب تأتي من جهة جبل أوفتِن، ومسحوق الثلج الذي يتطاير مع الريح ذاب.
– من حسن حظنا أن العاصفة الثلجية لم تحاصرنا في أسفل الجبل... – وفيما يلقي مفدق نظرة قلِقة نحو الاتجاه الذي تسير فيه المجموعة التي يقودها ابنه، وفي اللحظة التي همّ فيها أن يقول: " إن لم يظهروا في المنعطف الجبلي فلا بد أن مكروهاً حدث لهم " حمله ما تراءى له على القول: – لا، لم يحدث لهم مكروه، ها هم! السبعة يلتفون حول الجبل بالرتل الأحادي.
– نعم، نعم، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...
– لا تعدَّ؛ لا يُعدّ أناسٌ في طريق جبلي! – نهر العجوز الذي لا يودّ التركيَّ، ثم سأله بصوت ألطف: – أم كنت تريد أن يغيب أحدهم عنهم؟
– لن أعُدّ إن لم يكن فأل خير. غير أنك تجني ذنباً بقولك " أحدهم " كنت أدعو لهؤلاء بالسلامة في الموضع الذي يختبرنا فيه الله ولم يخطر لي سوء نحوهم. وها أنت ترى الله الأحد استجاب لدعائي فشملَنا برعايته. لن يقبل الله منا أن يظهر بيننا، نحن المسلمين، سوء تفاهم وجفاء، ولن يحقق نوايانا. أخطأت في حقي يا مفدق، ويسرني أن تتراجع عن خطئك.
– مزحت معك فحسبتُ ولم يخطر لي ما تتحدث عنه، – ضحك مفدق في سرّه، ثم لاطفه:– كفى، دعنا نتكلم في شيء آخر!
– الله يحب المزاح، حسنٌ إن كان هذا موقفك، – كتم عبد الله أفندي استياءه من تعريض العجوز، – هاتِ إن كنت تعرف شيئاً يُدخل الفرح إلى قلبينا!

– نعم سأقول، – أوقف العجوز حصانه، – ألقِ نظرة على ظهر الجبل!
– وهل تظن أني أرى عالمنا لأول مرة؟ – قال الأفندي، ثم صرخ مما تراءى لعينيه: – سبحان الله، كأني أرى دنيا الله العارية بين راحتيّ!.. يبدو البحر الأسود وقِمتّا جبل الأديغة أوشْحه مافه[1]. أليس هذا النهر الذي يبتعد في السهول المتباعدة هو نهر بشزه؟.. نعم، ويرفده نهر بِنْجِج، ووارب، ولابا،وشحه غواشه، وبْسَه قُبْس.
– تذكر أسماء أنهار الأديغة على نحو جيد... – قال مفدق متعجباً مما يسمع.
– نعم لأني تجولت في تلك الأنحاء وشربت من مائها... – قال الأفندي التركي وهو لا يعرف من أين يأتي بتلك الأعذار، وأنهى كلامه بالعتاب:
– بالقياس إليكم أنتم الأباظة – الأبخاز فهؤلاء القاطنون في تلك الأنحاء من البسلني والأبزاخ والجمكوي، والشابسغ أيضاً، تقبّلوا الدين الإسلامي.
– وما موقف البجدوغ والوبيخ من الإسلام؟
– نحن راضون عن الوبيخ في مسألة الدين، غير أن البجدوغ لم يتفقوا معنا. يماطلون غير عارفين أين يتجهون.
– وأين يتجهون تاركين أبناء قومهم؟.. القوزاق استوطنوا مقابلهم.
– وهذا رأينا نحن أيضاً. ولكننا نتأمل من الأبزاخ أن يحملوا البجدوغ على تقبُّل الدين.
– وكيف يتقبلونه إذا لم يرغبوا فيه؟
– هذا له أساليب كثيرة. تناسَوا الآلهة المتعددة، واحتفظوا في قلوبكم بالله الأحد!
– تعال! – تشاءم مفدق مما سمع فحثّ حصانه. – سامِحْني يا رعدي، ويا شمسي، إن كنت تريدنا أن نتحدث يا ضيف فلنتحدّثْ في أمور دولتكم تركيا. هل صحيح ما يقال من أنهم يتراكلون الذهب في تركيا بالأرجل؟
– أما سافرت إلى تركيا بلاد الإسلام؟
– حاولت مرة أن أسافر إليها فأعادني المطر البحري العاصف.

[1] التسمية الأديغية لجبل ألبروز. ويعني الجبل المبارك أو جبل الخير.

– المطر يعصف في البحر ويُغرق السفن غير أننا لا نتوقف عن المجيء إليكم... نعم، نعم يا مفدق، فهمتُ، لن نتكلم في المواضيع الإلهية. إن قلت لك إن الذهب يُتناقل بالأرجل في تركيا كذبتُ عليك. ولكنها ليست دولة فقيرة. يجد فيها الإنسان بفضل الله كل ما يحتاجه. والسلطان، موفد الله، يقود دولة منظَّمة.

– قلت لي: سلطان؟

– نعم، ما الأمر؟

– أسأل لأن الشراكسة كان منهم سلاطين في مصر وراء البحر.

– أتقصد السلاطين الشراكسة؟ خيرٌ للشراكسة أن يتقبّلوا حكم السلطان التركي القريب من أن يتذكروا ما كان لهم من حكم في مصر البعيدة.

– هذا صحيح، غير أن الخبر المنتشر هو أن السلطان التركي منح الشراكسة إلى روسيا.

– جرى هذا اضطراراً على الورق. لا تصدِّق ما يقول الروس الكفّار. الشراكسة لم يفهموا بعدُ المصيبة التي لا تزال بانتظارهم... الحقيقة يا مفدق هي أنه لا أطماع لتركيا في أرض الشراكسة، يكفيها ما عندها. ولكننا لن نسمح للقوزاق أن يستوطنوا ساحل البحر الأسود المجاور لنا كما استوطنوا ضفة نهر بشزه.

صرخ العجوز في نفسه:" اسمعْ ما يقول هذا الرجل! – الجاسوس تورناو يتفقد أرض الأديغة سراً، وهذا يكلمنا بصراحة وقحة متستراً بالإسلام... هذا! ما يريده هذا واضحٌ وضوحَ ما يريد ذاك " الحاج" الذي نعبر به الجبل. ولكن لماذا عاد معي بعدما نبش ما نبش من أسرار الجماعة؟ هل ارتعب من مرافقتهم بعدما كشف أسرارهم أم ينوي شيئاً آخر؟ إن كان يتأمل مني شيئاً فعليّ أن أفكّر في طريقة للتفاهم معه. أقول هذا غير أني أعرف جيداً طبيعة الأتراك: يطمعون، وجيوبهم فارغة دائماً، في ما في جيوب الآخرين. ألا يكفي ما خدعتمونا مرددين الكلام نفسه. أخضعَكم الروس فتريدون منا أن نشعل نار جهنم ضدهم. وهؤلاء الروس الذين يعادونكم ليسوا أناساً صالحين، ماهرون

في الاستيلاء على ما ليس لهم. أنت تريد استدراجنا بكلام ديني جافّ دون أن تمدّ يدك إلى جيبك، والآخر يمد يده، ويعِدُ باسم القيصر أنصاره... "
كانت أفكار عبد الله أفندي بعيدة عن أفكار العجوز الذي يتقدَّمه: " لا تظنّ أيها العجوز الأباظي أني لا أعرف ما في قلبك. لا يهمني إسلامك ولا الآلهة المتعددة التي تخاف منها. ما لا أفهمه شيء واحد: نعيش، أنتم ونحن، منذ أكثر من ثلاثة قرون والبحر بيننا ومع ذلك لم تزِدْ علاقاتنا والأسفار بيننا إن لم تنقص. كانت أمهات سلاطيننا وزوجاتهم من بنات الشراكسة، ولم يزلْنَ. وقادة الجيشين البري والبحري من أولادهنّ. وكانت جدتي التي ربّتني سنين طويلة، وعلمتني الشركسية، واحدةً من الفتيات الصغار الشراكسة اللواتي جيء بهن من الأبزاخ؟ ورحلت المسكينة وقلبها وروحها نحو بلادها. ورغم أن الإسلام يجمعنا فلا دفءَ في علاقاتنا. وبدلاً من أن يتجهوا إلينا ويجعلونا سنداً لهم يركبون إلى روسيا ويصاهرون قيصرهم إيفان. وماذا جرى الآن للأديغة – القبرتاي الذين اتخذوا من الروس أقارب؟ غزاهم يرمولوف فأنساهم القيصرَ الذي اتخذوه صهراً. وكان الأمراء من أمثال حمرزقوه وتامبي ممن لم يرضخوا للحكم الروسي اتجهوا نحو نهري بشزه ووارب، ولكنهم عادوا إلى الأبزاخ حين بدا أن القوزاق المتحالفين مع الجيش الروسي، والمرسَلين من إيكاترينا القيصرة، يحرمونهم من وسائل العيش. يا ترى هل يعرف هؤلاء سِرَّ "الحاج الشيشاني" الذي يرافقونه؟.."
– منذ وقت طويل صار طريقنا يتسع لاثنين فلماذا لا تقف إلى جانبي يا أفندي؟
– وأنا كنت أفكر اللحظة في هذا، – حثّ عبد الله أفندي الحصان كأنه كان ينتظر هذه الملاحظة. – لا أظنني مخطئاً إن وقفت إلى يسارك يا كبير. غير أني سأخبرك بما كنت أفكر فيه، وأظن أني حدّثتُك في الأمر أكثر من مرة: جدتي رحمها الله رحلت وهي متلهفة على أرض الشراكسة. وكان بإمكاني أن أقول: دولة الشراكسة،ولكنهم لم يمتلكوا مثل هذه التسمية وإن كان الأمر يثير الحزن؛ فمن المسؤول؟
– قلْ لي إن كنت تعرف؛ أسمعك.

– سأقول لك: كل الأعراق الاثني عشر، وليس الأبزاخ وحدهم، أقرباء جدتي، لم يظهر منهم زعيم حكيم يوحّدهم وينشر فيهم روح الأديغة. كل عِرقٍ له أميره، ونبلاؤه، ورقصاته، وطريقة امتطائه للحصان، وأطباقُه.

ابتسم العجوز مفدق.

– في كلامك شيء من الصحة. ونحن الأباظة جرى لنا مثلُ هذا. ولكن لا يعني هذا ألا نحب وطننا ولا ندافع عنه ضد الأعداء. وما إن يظهر خطر في الأفق حتى نتكاتف بغضِّ النظر عن شركس وأبخاز ونغوي. ما الذي تستغربه يا حاج فتسألني عنه؟ ألا تصدّقني؟

– لا يخطرْ لك مثلُ هذا يا مفدق! لماذا لا أصدّق؟ أنا لاحظتُ هذا في مجموعة الفرسان الذين رافقتهم. يعبرون معاً الطريق الجبلي الخطير دون أن يميز أحدهم نفسه بكونه من النغوي أو الأباظة أو الشيشان. هل تعرف يا كبير ما الذي زرع فيهم الوحدة والتكافل؟ – سأل عبد الله أفندي العجوز، ناظراً إليه بعين ثاقبة، وأجاب: – الله وحده هو من يوفِّق بين عباده المسلمين وإن كانوا من مشارب متعددة. ولكن لا أعرف رأيك في الشيشاني حسن بيه الذي تعلّق بأذناب خيلهم، لا يعجبني.

– هل لك عليه ملاحظةٌ مهمة؟ – سأل العجوز مفدق الذي كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن بعيد.

– لا، ليس لي عليه مثل هذه الملاحظة. وضوؤه وصلاته وقبعة حجّه كلها سليمة... ولكني لا أفهم لغة دعائه؛ أهي الشيشانية أم النغوي أم العربية. أين انضمَّ إليكم يا مفدق إن لم يكن سراً؟

– أيّ سرٍّ هذا؟! – شدّ مفدق محتداً مما سمع زمام حصانه حتى وقف على قائمتيه.

– وكيف لي أن أعرف؟.. – قال عبد الله أفندي بلامبالاة لمن صار وراءه، ودون أن يوقف حصانه، – في العالم أسرار كثيرة...

– أيُّ عارٍ تُلحِقُه بي؟! عُد وجابِهني!

ترجّل عبد الله أفندي عارفاً أن الصوت الغاضب وراءه لا يحمل خيراً. وتوسّل إلى العجوز:

– سامِحْني يا كبير إن أسأت إليك.
وبدلاً من "سامِحني"، قال مفدق بصوت أحزم مرة أخرى:
– لا تكلّمْني بلغة الرياء!
وبعدما سارا بعض الوقت على غير صفاء لم يملك الأفندي التركي إلا أن يقول:
– الله لا يقبل التدخل في ما يجري في غير بلادك يا مفدق، ولكن ما العمل؛ أهتمّ بما يهمكم لأن فيّ دماً شركسياً من جهة جدتي. وإذا كنت نهرتَني فنفّسْت عن ضيقك فسأُطلعك على ما وراء عبارتي "إن لم يكن سراً": الحاج حسن بيه جاسوس روسي حتى لو لم تصدّق.
– هذا مجرد كلام.– حسم مفدق الموضوع الذي يعرفه منذ زمن بعيد وكأنه لا يصدّق، – أثبِتْ صحة كلامك!
– كلّمني،إن كنت تتذكر حين التففنا وراء الصخرة، بلغة روسية سليمة.
– وأنت هل تتكلم الروسية؟ تظاهر مفدق بممازحته وإن كان ما قيل له صحيحاً.
– أنا أعرف منها القليل كما تعرفون أنتم.– أجاب "الأفندي" التركي قائلاً في نفسه: "لا تتظاهروا أمامي بأنكم لا تعرفون الجاسوس الذي يراقب كل شيء ويلتقط كل صوت" – لم يُخفِ عني حين سألتُه أنه جاسوس روسي كافر.
– حسب كلامك يا حفيد الشراكسة خدعَنا نحن النغوي والأباظة معاً الرجل الذي يتكلم روسية جيدة... – غمغم مفدق ضاحكاً في سرّه، واختتم:– جرى لنا ما نستحقّ. لماذا لم تُخبرني هذا قبل الآن؟
– كنت أريد ذلك، ولكن حين أعادتك المأساة التي جرت في أجبسو ركبت معك معتبراً أنها المسألة الأهمّ. وكما كانت جدتي تقول: الذئب، ولو ابتعد كثيراً عن وَجارِه عاد إليه للنوم، فلن يتوقف هذا في أرتْقواجه. ولن يسافر إلى باطوم، متى أنهى مهمته على ساحل البحر الأسود فسيتخذ طريقه إلى "الشيشان".
– أتريد أن تقول إنه سيعود إلى الطريق الجبلي في نواحينا؟ – سأل مفدق وكأنه صدّق ما قيل له.

– لا أعتقد ذلك. ليس من النوع الذي ينسى ما يرى. يحتاج إلى طرق شركسية أخرى. إن كان سيعود إلى ستافروبول أو إلى إيكاترينودار فأمامه طريقان فحسب: طريق طوابسه، وطريق جوبغه. فإن رضي الله عنا، وحلَلْنا في أجبسو قضية الفرسان الخمسة الذين يمكن أن يتسببوا لنا في مشكلات فالسر الذي نعرفه،أنت وأنا،لن نكتمه عن الأبزاخ إن سمحت لي إذ سأخالطهم.

– ما الفائدة يا أفندي من أن أسمح لك إذا صار علناً ما كان سراً؟ إن عاد الأولاد بسلام من السوق التي أرسلتهم إليها على الساحل فسأكرّم القرية كلها، وأنت فيهم، بمائدة فاخرة.

– قل يا مفدق: "إن شاء الله". الله هو من يقرر كل شيء. الله وحده مَن نحن أمّتُه.

– نعم، – وافق العجوز الأفندي التركي بلسانه، لا بقلبه.– لا يجري شيء في العالم دون علمه. تعال، قلبي ليس بخير. لِنُسرِعْ إلى أجبسو!

XXII

لم تكن قريتا حمرزقوه أسلانجري وتامبي أسلانبج بعيدتين إحداهما عن الأخرى لولا الغابة العظيمة بينهما. كانتا على الضفة اليسرى لنهر لابا، وتستطيع الوصول إليهما بثلاث غلوات للحصان. وهاتان اللتان لم تكونا تعُدّان أكثر من خمسين أسرة في كل منهما عندما طرد القوزاق سكانهما من ضفة نهر وارب،ازداد سكانهما مرة ونصف.

لم تكن في القريتين بيوت مبنية من الحجر أو القرميد: كانت بيوتاً من القش يمكن فكُّها وحملُها متى هاجمتهم القوات الروسية. وعلى الطريقة نفسها كانوا يصطحبون معهم الإسطبلات ومخازن الحبوب ومناشِفها التي في دورهم وغيرها من وسائل العيش فيلجؤون إلى الغابات الجبلية البعيدة التي لا يستطيع الجيش المعادي الوصول إليها. وفي خلال ثلاثة أيام أو أربعة يبنون القرية من جديد، ويعودون متى انسحب الغزاة فيقيمون على أراضيهم المحروقة، أو يتوقفون في المكان الذي اختبؤوا فيه. وهكذا هجر حمرزقوه وتامبي أرضهما على ضفة نهر وارب وسكنوا بين الأبزاخ، فهاجروا ثلاث مرات في غضون خمس سنوات.

كان في قرية تامبي أكثرُ من مئة أسرة. وكان نهر لابا والغابة العظيمة التي لا طريق لها ملجأي هؤلاء ومِنْعتيهم. ومتى اضطروا للهروب كان الجبلُ الغابةُ على الجانب الآخر لنهر شْحَغواشه مَهْرَبَهم. ومن الغرب على مسافة مئة وعشرين فرستاً تقريباً بحر الأديغة الأسود حيث يقودون النقيب تورناو. وإذا ركبت السفينة في طوابسه أو شاجه يمكن أن تصل في يوم وليلة إلى تركيا التي أُرسِل منها الجاسوس التركي عبد الله أفندي.

في مضافة تامبي،بعد الظهيرة وقد مالت الشمس للمغيب، ثلاثة أشخاص: حمرزقوه أسلانجري، وجانسعيد الأفندي، وتامبي أسلانبج المضيف. وكان الثلاثة يدخنون الغليون بعد الغداء. ومهما تحدثوا عادوا إلى موضوع العلاقات الأديغية – الروسية لا يجدون لها مخرجاً.

– والله لا أعرف ماذا سنفعل، – قال حمرزقوه وهو ينفض غليونه، – حياتنا هذه ليست حياة: لم يكفِ ما خسرنا هناك من أملاك ومن بشر فتوجب علينا أن نهاجر كل عام. وفي كل مرة يقضي رجالنا في الحروب، ونزداد فقراً.

– أوافقك على هذا يا أمير، – تنهّد تامبي والغليون بين شفتيه، – الهجرة التي لا نهاية لها تركتنا في الأسمال.

– هاتوا إن كنتم تعرفون حلاً، – قال جانسعيد الأسمر بلامبالاة. وضحك في سرّه.

– لم أتوقع أن تعاملنا بهذه الطريقة روسيا التي زوّجْنا سلطانَها في عصرٍ ما ابنتَنا، – قال حمرزقوه متمتماً لنفسه، واختلس النظر إلى تامبي.

– الكفار لا يعترفون بما يسمى قرابةً.

– أستمع إليكما أيها الأميران فأستغرب ألا تأتيا على ذِكرِ تركيا. – قال جانسعيد مترجماً الأفكار التي في رأسه. ولم يتوقف عند هذا، – وزوجات سلاطين تركيا أديغيات، زوجة السلطان الحالي أديغية.

– ويقال إن أمَّ آخرِ خانات القرم أديغية، – ساهم تامبي في الحديث متذاكياً، ولكن سرعان ما عاد إليه وعيُه فسأل: – أيمكن أن أكون أخطأت في من ذكرتُ اسمه؟

– لا فائدة الآن يا أسلانبج من أن نخطئ أو نصيب في شأن خانات القرم. إذا كان هؤلاء في زمن ما قساة علينا وعلى الروس فقد تعاونّا وأخملناهم. وما حدث لنا الآن هو العجيب جداً: تركيا التي كانت تزعم أننا مُلكُها من الأزل، ولسنا مُلكها، سكتت. وحين لم نقبل أن تملكَنا روسيا التي "مُنِحنا إليها" دون عِلمنا، حاولت أن تُرضِخنا بالقوة.

– ليس هذا عدلاً! – جزم تامبي باختصار.

– ترون رأي العين كيف تسير أمورنا وإن لم يكن عدلاً: أرضخوا الأديغة – القبرتاي، وصالحوا الأديغة إلى ضفاف وارب وينجج، ويترجّون الجمكوي، ويحاربون الأبزاخ، ويخترقون أراضي البجدوغ والشابسغ، ويكشفون عن نقاط ضعفهم.– توقف جانسعيد قليلاً، ثم اختتم: – يستغلون من يحاولون استعادة أملاكهم...

– هل تقصد بكلامك يا أفندي آل قرمرز؟ – تظاهر حمرزقوه أسلانجري بالسؤال، وشهد على سؤاله:– ونحن كنا نشكّ فيهم، ولكننا تأكدنا على طريق أجبسو قبل وقت قريب من صحة الخبر. وإن أردت الحق يا جانسعيد، لا أعرف ما رأي الأمير تامبي، أنا لا أدينهم. وما يشعرني بالعار منهم هو قدرتهم على خداع النغوي من بيننا.

– لا أعرف لماذا تقول هذا يا أسلانجري، وأنا هذا رأيي، – وافق تامبي أسلانبج صديقه وصارح جليسَيه بما في قلبه: – لا ضير في أن تعبر بمن يدفع لك سعراً جيداً من الجبل إلى الساحل. ومن كان يعلّمنا في المضافات حماية الوطن، العجوز مفدق، غلبَنا. لم يقم بأسفاره عبثاً.

– أنتما الاثنين، يا من رعاكما الله،يبدو لي أنكما تعرفان ما لا أعرف... – قال جانسعيد الأفندي، ثم تظاهر بتغيير الموضوع: – تحدث في العالم أحداث كثيرة، لا داعي إلى استغراب شيء منها...

ابتسم حمرزقوه للأفندي قائلاً في نفسه: "أنت تعرف أكثر مما نعرف. ربما طلبت منا الركوب حالاً حين التقينا بآل قرمرز في مضيق لابا لأنك كنت تعرف أخبار "الحاج الشيشاني"... وعلى مبدأ: الأديغي يدرك الصحيح متأخراً، فقد أدركْنا خبر " الحاج حسن بيه الشيشاني" فقط عندما تابعناه. لو

أخبرَنا الجنرال زاس القبيح دون مواربة لنقّذنا له أنا وتامبي ما يريد بدافعِ استرجاع ما سلبونا من أملاكنا. ولكن إن عاد الجاسوس " الحاج " إلى ديارنا عن طريق طوابسه فقد فرغنا من إعداد طريقة استقباله... "

الشاب الضخم ذو الملابس الرثة الذي ظهر من خلل الباب أوقف أفكار الأمير حمرزقوه. وتامبي أسلانبج سأل حذراً الشاب المدخول في عقله أحياناً:

– تفضَّل يا دداي، هل هناك ما يُقلقك؟

– لا شيء يُقلقني سوى افتقاري إلى سوط.

– ألم يصنع بكر سوطاً لك إلى الآن؟

– أكيد لا، بكر جالس مع جيراننا الشياطين سعيداً. لا يقبل أن يصنع لي سوطاً بحجة أني سأضربهم بها. حَجْرتْ نَقّار بالقياس إليك يا تامبي رجل حقيقي. – يُخرِج من جيبه جرساً نحاسياً، ويقول: من أجل أن يغبطني أولاد القرية أرسل لي هذا الجرس أخيف به الجن الأسود، وأرقِّص به الجن الأبيض. ولكن ليس لأجل هذا جئتُ إلى مضافتك يا جار. أريد أن أطلب من جانسعيد كتابة رُقية لأمي تشفيها.

– إن كان هذا طلبك يا من رعاك الله فسأكتب لك ولأمك.

– ليست المشكلة أنا بل والدتي... سأغيب قليلاً يا ضيف ثم أعود لاستلام رقيتك إن لم تخلف بوعدك.

قال تامبي حين خرج دداي سعيداً من الغرفة:

– هذا المسكين كان صبياً ذكياً في حيّنا... ولما هاجمنا القوزاق قبل أعوام وقتلوا أباه وعمّه وأخاه الأكبر دُخل في عقله. ورغم حالته التي ترونها لا يزال يعيل أمه ويقوم بأعمال الأسرة. ولا يؤذي أحداً، والناس يحبونه.

– وما العمل، هكذا قدر الله، – شرع جانسعيد وهو يردد هذا الكلام في كتابة الرقية التي جاء من أجلها الشاب المريض.

وفيما فرغ من كتابة الرقية الأولى وشرع في الثانية إذا بدداي يظهر من الباب ويُسرِع بالقول:

– البشارة يا تامبي، جاءك ضيف!

حين نظر تامبي أسلانبج من النافذة المتجهة إلى البوابة نطق باسم من يترجل من الحصان دون إضافة لقب الأفندي:
– هذا هو عبد الله التركي الذي يذكرون اسمه ولم نرَ شخصه منذ زمن طويل.

XXIII

بعدما سارت المجموعة التي نقصت فارسين مدة ألقى تيمبولات إلى النقيب تورناو الذي وراءه سؤالاً:
– بعدما خرجتما من وراء الصخرة البيضاء يا حسن بيه قرر عبد الله أفندي فجأة مرافقة مفدق؛ هل تبادلتما أي حديث؟
– فعل هذا لأننا لم يكتم أحدنا عن الآخر شكّه فيه.
– هل خوّفته؟
– لا، ربما رأى الطريق ضيقاً... – مازحه تورناو، وقال لغازي: – لا أدّعي أنه لا معلومات ممتازة لديه، غير أن من يسمي نفسه " موفد الله " لا مهمة دينية عنده.
– سبحان الله، سبحان الله، ألم يخدعنا إذن! – صرخ إمام، ولكنه أنهى بنبرة ألطف مهدِّئاً نفسه: – أليس مسلماً وإن لم يكن أفندياً، ربما لا يفارق الله قلبه.
– بهذه الذريعة تسمحون للروس وللترك باستغلال الدين! – عرّض باي للإمام.
– لا تثرثر! – لم يقبل تيمبولات ما سمعه من أخيه الأصغر.
– حسناً سأطيعك يا كبير،ولكني لا أقول ما لا يقال... ما يؤلمني أن مفدق لا يعرف حقيقة الجاسوس الذي فارقَنا مسرعاً. ألا يمكن أن يؤذيه في الطريق؟.. نفسي تحدّثني أن ألحق بهما.
– لا حاجة!.. – أجاب تورناو مطمئِنّاً، – همست لمفدق بحقيقة رفيقه وأنا أساعده على امتطاء الحصان.
– وبغضّ النظر عن تحذيرك فوالدنا يشكّ في الأفندي التركي قبل هذا، – قال بلامبالاة سفربي الذي كان يعبر بالمجموعة الجبل، – بدأ هذا الشك حين تعرّف عليه عند الأمير برزج في الوبيخ.

– هل سمعت يا إمام؟ – سأل باي متعجباً، ثم اختتم كلامه متظاهراً بالاعتراف بخطئه: – هذا ما جرى لنا !

قال غازي في نفسه: "أنا غريم هذا الرجل كلما سمع ما لا يُرضيه". ثم نصح نفسه متناسياً ما سُئل عنه، مغمغماً: "سيدفعني إلى الانفجار بهذه الملاحظات والاستفزازات... لا، لن أسمح لمثل هذه الخواطر السلبية أن ترِدَ إلى ذهني. وسأدعو إلى الله أن يحقق لنا المهمة التي تكفّلْنا بها معاً. ليتنا أنجزنا مهمتنا التي أقسمنا عليها فتحلّلْنا من قَسَمِنا... أقول هذا ولكن لا أعرف إن كان سيَفي بوعده لنا. أيكون الأخوان قرمرز تواطأا ويستغلانني؟ ليس هذا مستحيلاً، غير أني لن أسمح لكما به! أيكون تورناو فهم هذا الوضع بيننا فتقرّب إليّ؟ وربما لاحظ باي هذا الموقف من تورناو نحوي فلا يترك فرصة لا يستغلُّها ضدي... يا ربي امنحني الصبر، وأبعِدني عن الزلل، ولكن عند الضرورة لا أحد يردعني غيرُك..."

– اطمئِنّ يا باي، لم يجر لنا شيء، – نصحه غازي إمام الذي صحا من أفكاره، مشعِراً بأنه لم ينس الإجابة، – وكان الله قدّر أن يحدث هذا، وأزاح عنا عاصفة الثلج المفاجئة.

– رحمة الله واسعة، يشملنا برعايته، – ولما أضاف باي إلى كلامه بينه وبين نفسه: "ولكننا لا نجد راحة في الدنيا " ارتعب، فدان نفسه: "الله يمتحننا في الدنيا العارية..."

الجاسوس الذي اعتاد على مناوشات باي وإمام الكلامية كان مهموماً بشيء آخر "متى شكّ فيّ الجاسوس التركي عبد الله: اليوم أم البارحة؟.. كان يكلِّمني متصنعاً باللغتين الشركسية والتركية. ولما ضممتُ كتفي أعني به عدم فهمي كلامه ابتسم لي وكفَّ عن التقرُّب إليّ... وحينها تحديداً شككتُ فيه. هذا الرجل ليس بلا رجولة، تودد إلى مفدق وسفربي، واستغلّ وظيفته الدينية، وانضم إلينا ليعرف حقيقتي. لم يكن من الضروري أن أردّ عليه بالروسية حين كلّمني بها وراء الصخرة غير أني لم أجد من اللائق أن أفعل هذا كأنه سبب لي الذُّعر. هل أرعبته أم التحق بمفدق وقد حقق ما يريد؟.. أنا من يحتاج إليه هذا

الرجل، لا مفدق. وإن دفع الرجل الذي تذرّع بما حدث في أجبسو شراكسة الساحل إلى ملاقاتنا؟ هذا في متناوله، ولكن هذا يحتاج إلى وقت"

– متى نصل إلى غاغرا يا سفربي إن تيسّرت طُرُقُنا؟ – دفع القلق النقيبَ إلى السؤال.

– إن استمر الجبل في موقفه الودود نحونا فغداً أو بعد غد، – أجاب سفربي إلى من وراءه، ثم سأله: هل أنت على عجلة من أمرك؟

– ولماذا أستعجل؟ قلتُ هذا دون هدف محدد... – غيّر النقيب الموضوع.

توقف سفربي مدفوعاً بما رآه حين استقام الطريق الذي تعرّج مرتين أو ثلاثاً ففرّق الفرسان:

– ما هذا يا جماعة! – العاصفة الثلجية التي نجونا منها قطعت طريقنا بصخرة كبيرة.

– لو اجتمع عليها أهل أجبسو كلهم لما استطاعوا زحزحتها. – قطعت الصخرة آمال باي.

– وفي هذا عِلمُ الله أيضاً. – أضاف إمام.

– ما العمل؟ استعجل تورناو.

– لا مشكلة إلا لها حلٌّ، – اختتم تيمبولات ما يرى وما يسمع. – سنلتف راجلين حول الصخرة إن كنتم تريدون إنهاء مهمتنا دون أن نعود.

– والخيل؟.. – أسرع باي بالسؤال.

– وهذه، – جزم تيمبولات بصوت أحزم، – ستعودان بها أنت وإمام إلى البسلني.

– توجّستُ أن يحدث لنا هذا... – دفع باي رأسي كتفيه إلى الأعلى.

– ماذا بيدنا يا باي، سنمتثل لما قدّره الله.

– يا غازي إمام، – ثار باي، – ألا تطلب من هذا الذي لا يفارق لسانك أن يُسدي إلينا معروفاً ما!.. – ولما انتبه أخوه الأكبر فانتفض برأسه غيّر الموضوع بسرعة: – نعم يا تيمبولات، وأنت يا إمام، ما حمّلنا إياه اللهُ حِمْلُنا. سنتصرف كما قرر. ولكني لن أكتم ما تحمّلْته بصعوبة إلى الآن: أقول لك يا حسن بيه رافقتك السلامة وإن لم أكن صادقاً مع قَسَمي.

– حياك الله يا باي، – لم يتوانَ النقيب تورناو عن البوح بما في قلبه أيضاً:
– وأنا يسرني أن نفترق على وئام وإن لم أكن أثق بك.
قال غازي إمام ما عليه بلسان معسول:
– نعم، يا حسن بيه، نعم، الأفضل ألا يتعادى الناس بسبب اختلاف أديانهم. غير أن عبد الله أفندي عجِز أن يفعل هذا.
– ليس إسلامُه ما حمله على مغادرتنا بهذه السرعة، –ساهم في الحوار سفربي المستعجل على متابعة طريقه، – بل مهمته الرسمية التركية. لا تدَعونا ننسى مهمتنا؛ الشمس مالت للغروب.
– باختصار، – اختتم قرمرز تيمبولات النقاش باسماً، – لم يتسع للجاسوسين الطريق الغريب عن بلديهما.

XXIV

التقى الجنرال زاس وحجرت نَفَّار في قلعة فوزنيسينسك القوزاقية. ولما كان الجنرال هو صاحب المبادرة إلى اللقاء فقد استقبل المدعوّ بوجه طلق.
– أراك على خير يا نَفَّار!
– لو كان بيننا خيرٌ لالتقينا أكثر.
– هل تعتب عليّ لموضوع ما؟ – امتُقِع لون زاس لا يعرف تفسيراً لما سمع.
– إن كنت عاتباً عليّ فأنا أسمعك.
– أنا عاتب عليك في شؤون كثيرة ولكني لا أقاضيك. لا تماطلْ إن كنتَ تحتاجني!
– يبدو من طريقة كلامك أننا لن نتفق.
– لا أذكر منذ إقامتك في بروجني – أوكوب أنه كانت بيننا مهمة نتفق عليها.
– من الذي كان يترجى ألا أعلِّق رؤوس الشراكسة على الأوتاد؟
– لم أكن أتوسل إليك بل أطلب منك عدم اللعب برؤوس الشراكسة.
– حسن إذن، – ضحك زاس. – أنا موافق، غير أني أريد أن أسألك عن ظاهرة غير حسنة لا تليق بكم، ولا بالشراكسة: هل صحيح أن الشراكسة يدورون بالجاسوس التركي عبد الله أفندي؟

– لا عِلْمَ لي بما سألتَ عنه، – تظاهر نَقّار بجهله كل شيء ونهض. ولكن لماذا تستغرب أن يدوروا بـ " الحاج حسن الشيشاني " في أرض الأديغة إذا كانوا يدورون بعبد الله الأفندي في أرض الأبزاخ؟

– أفحمتَني يا نَقّار! – صرخ الجنرال زاس مدركاً أن ما كان يتأمله لن يتحقق. ثم توسل إلى ضيفه بنبرة رجاء لطيفة: – لم تُبقِ لي شيئاً يا أيها الرجل العادل. لا تبقَ واقفاً؛ اجلس نتحدث على راحتنا!

– سنتحادث إن كان بيننا ما نقوله... – ردّ عليه نَقّار دون أن يغير موقفه، ثم عاد فسأله: – ولكن فيمَ نحن أحرار والحال أن هناك من سينقضون كلامنا.

– صحيح أن في كلامك شيئاً من الصحة، ولكن لا أوافق على رأيك في أننا لسنا أحراراً. نستطيع أن نخفف التوتر الذي بيننا دون أن نسمح لغيرنا بالتدخل. وعلى سبيل المثال إن أوقفتم المجاهدين" الحَجَرات " من جماعتكم أوقفنا لصوصنا القوزاق.

– هذا الموضوع، – ابتسم نَقّار، – لا نسمعه اليوم لأول مرة، وبهذه الحجة تتهموننا بما تفعلون بنا. لستُ مُصرّاً على أن أعلّمك ما لا تعلم، ولكن إن رجعت قرابة خمس وثلاثين سنة فإن قوزاقياً واحداً لم يطأ إقليم بشزه. لم يكف القوزاق الذين عبروا بهم بحر آزوف ووطّنوهم مقابِلنا فحشدوا الآن الجيوش الروسية في مواجهتنا. أفهمُ ما تريد أن تقول. غزوتمونا بجيش مدجج بالسلاح بحجة أن تركيا تنازلت عنا لكم وإن لم نكن يوماً مُلْكاً لها. ربما دعوتني إليك لتسمع مني هذا الكلام؟

– لسنا نجتمع نحن الاثنين لأول مرة؛ أليس كذلك؟.. – تجاوز زاس الموضوع الذي لُمِّح به إليه مصطنِعاً الابتسام، وعاد إلى موضوع التركي عبد الله. – يبدو، حسب ما أخبروني، أن الأفنديَ التركي موضوعَ الحديث كان ضيفاً على تامبي قبل أيام. يهيج الأبزاخَ ضدنا متحدثاً عن الإسلام وبناء الجوامع. يعِدهم بالسلاح وإن كانت تركيا لا تستطيع مساندتهم بالجيش.

– على ما يبدو فإن تركيا توقّع على الاتفاقيات معكم بيدٍ، وتصارعكم باليد الأخرى. ولكن سأقول لك على نحوٍ أصرحَ: لا ينفرد الأتراك بهذا السلوك،

وأنتم تتعاملون معنا سراً، موظّفين النقيب تورناو باسم " الحاج الشيشاني حسن بيه ". لا تستغربْ؛ لا أتكلم على ما لا أعرفه!
– من أجل هذا استدعيتك، وحياك الله على أنك لم تكتم عني ما تعرف.
– إن كنت تظن أني سأتقبّل إدخال جاسوسك السري إلى بلادنا فأنت مخطئ. ولكن لا تتخيل أني أجهل قوة دولة روسيا التي أرسلتْكم إلينا واتساعها، وأنها هزمت تركيا أكثر من مرة، واستطاعت الانتصار على فرنسا، وأنك كنتَ هناك. ولا أقصد أني غير مهموم بأن الروس سيحتلون أرضنا يوماً ما... متى هذا؟ ربما لن نشهد هذا اليوم، لا أنت ولا أنا. وسأقول لك شيئاً آخر: لستم أنتم، بل نحن الشركس أيضاً لا نعرف حقيقتنا. هذه حالُنا وإن كانت حزينة.
سأل زاس نفسه مستجمعاً في نفسه ما سمعه، قائلاً لها: " أيُّ رجل هذا الصديق اللدود؟ "، ثم أجاب:
– هذا صحيح، ولذا فالأفضل أن نجد وسيلة للتفاهم.
– ولكن من الصعب أن تجد التفاهم بين السلاحين المتجابهين. أنت لا تُعجبك تصرفات "الأفندي" التركي وسلوكه، ونحن لا نجد من اللائق إرسال "الحاج الشيشاني" الجاسوس إلينا. وباختصار: لا نريدكم، لا أنتم ولا الترك – لا نستطيع التنازل عن سعادتنا بحريتنا! – نهض حجرت نقار.
ودّع الجنرال زاس الذي سمع كثيراً مما لم يتوقعه الضيفَ إلى الباب، وابتسم وهو يراقب الرجل الذي ارتمى كطائر خفيف في ظلمة المساء الهابطة.

XXV

حين بقي الثلاثة سفربي وتيمبولات وتورناو وحدهم وصلوا إلى قرية جَو الصغيرة وقد سهُل عليهم الطريق الجبلي وكأن شيئاً لم يحدث لهم، وقضوا ليلتهم في أول مضافة وجدوها في طرف القرية. ثم أفاقوا فجراً وتابعوا رحلتهم. وخلال نصف نهار وصلوا إلى أرتْقواجه التي يرتادها التجار الأتراك القادمون إلى الساحل. وتوقفوا في مضافة الأمير أرت وإن كان غائباً عن البيت.
يقع بيت الأمير ذو الفناء الواسع المحاط بسور حجري عالٍ على طرف القرية. وفي الدار مخازن للبضائع القادمة من تركيا، ومستودعات وأهراء أخرى. وإذا نظرت من أمام المضافة المرتفعة قليلاً عن جوارها رأيت بعض السفن في البحر

الأسود البعيد. ويمكنك أن تدرك أن البحر قريب من الجبل وإن لم تره من خلال الرطوبة المالحة.

في اتجاه يسار البحر الذي يتفحصه النقيب تورناو بعينه الثاقبة تقع بلاد الأبخاز. وإلى الضفة اليمنى، تقع قرى الشابسغ والوبيخ منسحبة نحو الشمال إلى بحر آزوف. وتتناثر في إقليم بشزه قرى أديغية أخرى. وحين لمّح النقيب تورناو للجنرال فيليامينوف أن "عليهم استكشاف نقاط القوة والضعف على الساحل الشركسي" ضحك الجنرال ربما لأنه قدّر أن تلك المهمة أكبر مني. والآن طَفَتِ الذكرى في ذهن النقيب شاعراً بالانتقاص من كرامته. ها أنا الآن عبرتُ بلاد الأبخاز سراً، واجتزت بالطريقة نفسها بلاد الأبزاخ والبسلني والأباظة، ولم يبق بيني وبين غاغرا إلا قرابة ثلاثين فرستاً... هل أنا المسؤول عن خلافات الجنرالين روزين وفيليامينوف؟.. وأنا لي ملاحظات كثيرة على قادة جيشنا بمن فيهم زاسّ، غير أن هذا لا يمنعني من التغلغل بين أعدائنا. وكما سأحمل مشاهداتي إلى القادة الذين أرسلوني إلى هنا فسأكتب تقريراً مستقلاً إلى القيصر بالأفكار التي ألهمتني إياها انطباعاتي. وسأرفق به وعودي التي قطعتها للأخوين قرمرز ولغازي إمام... "

سأل تيمبولات النقيب تورناو الذي كان ينظر جهة البحر والتعب بادٍ عليه:

– أظنك يا حسن بيه تعبت على الطريق الجبلي الذي لم تعتد عليه؟

– ليس الطريق الذي سرناه سهلاً وإن كنت لا أعرف القادم. أرض الشراكسة بالمقارنة مع الأبخاز أرض منفتحة منفرجة – متداخلة. وأظن أن قادة الجيش في تفليس وسان بطرس بورغ لا يفهمون اتساع هذه البلاد وعدد سكانها.

– وهل أرسلك هؤلاء إلى شركيسيا دون معرفتهم بهذه المعلومات؟ – ضحك تيمبولات، – لم تجتز من أراضي أعراق الشراكسة الاثني عشر إلا أرض البسلني والأبزاخ فمتى ستتعرف بقية الأعراق... متى عبرت نهر الوبيخ شاجه، والتففت حول الساحل الأيمن للبحر الأسود فكن سعيداً إن استطعت سبر أرض الشابسغ، أكبر الأعراق الشركسية في شهرين أو ثلاثة، ولا يهمّ إن كنت راجلاً أم فارساً.

– هؤلاء الشابسغ الذين تتحدث عنهم أعرفهم من خلال الكتب ولم أخالطهم، – قال تورناو، ثم حمله الموضوع الذي يفكر فيه على السؤال: هل صحيح ما يقال من أن القرم كانت في زمن ما للشراكسة؟

– وأنا سمعتُ أن القبرتاي الأديغة كانوا يعيشون في القرم، ولكن لا أعرف الحقيقة، – توقف تيمبولات لحظة ثم أكمل ممتعضاً: – كان هذا قبل زمن بعيد، مضت عليه قرون... والآن يعيش أبناء قومي في خانيات القرم.

– وأنا سمعت سلطان خان جري يقول هذا، لا أذكر في سان بطرس بورغ أم في بلاد الفرس أم بولونيا. خان جري قائد سرية الحرس القيصري القفقاسية هل عندك معرفة به؟

– لا أعرفه شخصياً ولكن سمعتُ به.

– بالخير أم بالشر؟ – سأل الجاسوس تورناو دون أن يخفي نبرة الخبث.

– السبيل إلى معرفة جواب سؤالك يا حسن بيه هو معرفة المتحدث عنه: يغتابونه، ويمدحونه، ويتهمونه بالخيانة، ويعتبرونه مثقفاً.– أجاب قرمرز تيمبولات أيضاً بطريقة خبيثة. – والحق أني أعتبره رجلاً مثقفاً، ولكني آخُذ عليه تحالُفَه معكم وحراسته لسلطانكم. لماذا تبتسم يا نقيب؟ كأنك تقول: اعرفْ نفسك قبل أن تغتاب غيرك.ولكن إن تناسيت أني أفعل ما أفعل مضطراً فأنت لا تُضمر لي الخير.

– ألا تثق بي يا تيمبولات رغم أن حياتي والمهمة التي كلفوني بها في يديك؟

– أنهى باختصار متصنعاً المزاح: – لا تنظر إليّ هكذا، لستُ ممن يتراجعون عن كلامهم. وسأقول لك غيرها فلا تتعجب: الحياة مركبة من الدَّين والفائدة.

– وكيف ستفهم هذا؟ – سأل تيمبولات ثم استدرك بسرعة: – نعم، نعم، فهمتُ، ونحن كلانا علاقتنا من هذا النوع. الدَّين يسددونه، والفائدة يعيشون بها.أنت وأنا علاقتنا واضحة وإن لم تكن بيننا وثيقة مكتوبة. ولكننا لا نفهم العلاقة بين روسيا وتركيا، رغم اتفاق السلام بينهما. ومع أن البحر محروس بالسفن الروسية فإن بعض السفن التركية تصل إلى الساحل الشركسي. وقيل إن الأمير أرت الذي توقفنا في مضافته سافر إلى باطوم دون عراقيل.

– وهذا جزء من حياتنا الحالية. إذا كنا عبرنا كل هذه الأرض سراً فلماذا لا يذهب مُضيفنا إلى باطوم؟ ونحن دعْنا نفكر في طريقة اجتياز الفرستات المعدودة التي تفصلنا عن غاغرا. ألن نصل في غضون يومين؟

– فكرنا أنا وسفربي في هذا ولكن لا أعتقد أننا نستطيع اجتياز أصعب مرحلة من الطريق في يومين. وعلى قول غازي إمام: الله سيسهّل علينا هذا أيضاً. ما أخبار هؤلاء يا ترى؟.. مهلاً، هذا التاجر التركي القادم نحونا لا يعجبني.

– لماذا؛ أتشكُّ فيه؟

– أصرّ عليّ أن أبيعه خنجري دون أي سبب.

– وكم يدفع؟

– لم نتطرق إلى هذا. وحين أهزّ له كتفي بمعنى أني لا أفهم كلامه بالأديغية أو بالتركية أو بالروسية يضحك مني.

– لهذا لم أكن أريد التوقف في مضافة أرت وإن لم يوافقني سفربي. والأمير وَبْلَغ عليّ – أحمد ليس أفضل منه. هؤلاء متملقون إلى الأتراك. امدحْهم واحرمْهم من الطعام!

– وبرزج جراندوقوه؟

– يخيَّل إليّ أحياناً أن هذا الوبيخ لا يعرف هو نفسُه طبيعته. لا يفتقر إلى الرجولة، ولكن لا يتخلى عما فيه فائدة له...

نصّ تيمبولات والنقيب برأسيهما بسبب الضجة العظيمة الآتية من جهة البوابة الكبيرة للأمير أرت. ودحرج التاجر التركي القادم مخزناً وراء الأهراء. ولكن تبيّن أن الضجة غيرُ ما توقع التركي وتيمبولات والنقيب: جاء أهل القرية يخبرون أهل الأمير حزنهم لاعتقال الروس السفينة التي كان يركب فيها. وبعدما عبروا بالصراخ والقبضات عن عدم خوفهم من السفن المعادية، تفرقوا آحاداً وثُنى[1].

[1] "لحظة خروجنا من قرية أرت وقعنا في مصيبة غير منتظرة: خُيِّل إلينا أن الناس القادمين وهم يصرخون ويثيرون الضجيج يتجهون إلى مضافتنا. ترك تيمبولات لنا سلاحه وجابه المسلحين القادمين نحونا. وكنا جاهزين لامتطاء خيلنا واللجوء إلى غابة الجبل القريبة، خارقين صفوف الناس القادمين نحونا. حين كلّم تيمبولات الناس الذين كانوا يلوّحون

– هذه طبيعتنا نحن الأديغة، – قال أحد المنصرفين من أمام الباب لرفيقه، – نلوّح بقبضاتنا للعدو، ثم نعود فنقعد في بيوتنا. ومن " خوّفناه " اليوم سينهبنا غداً.

– لِينزلْ هؤلاء الروس ركاب السفينة على ساحلنا إن كانوا رجالاً حقاً!

– وقد نرى هذا يوماً ما.

– ما هذا الكلام؟ لو لم يبق غيري لما سمحتُ لهم!

– وهذه طبيعة الأديغة، وكلام على طريقتهم. الواقف على الشاطئ ماهر في قيادة المركب!

– أنت تهينني!

– ماذا بيدي؛ شعوري بالإهانة أنا أيضاً يدفعني إلى هذا الكلام...

بعد تلك الحادثة خرج تيمبولات وصاحباه من القرية، وخلال نصف ساعة وصلوا إلى أدلر، القرية التي تمد طرفها إلى البحر. وتجاوزوا القرى الواقعة في مضيق لْبيش: جانخُت، وقِرِق، وغيرهما إلى قرية لْوَوْ، وتوقفوا في أَرْدَبيه التي تبعد نحو عشرين فرستاً من غاغرا. واتفق سفربي مع اثنين من المرشدين بسعر جيد، فاتخذوا طريقهم في المرحلة الأخيرة مستفيدين من صحو الفجر. ولكن عاصفة هبّت قبل أن يقطعوا أكثر من فرستين أو ثلاثة، فتغيّر الجوّ كلياً.

– ستصعِّب الريح طريقنا... – قال المرشد الذي يتقدمهم.

– سنسير حتى نعجز عن المتابعة، – أجابه تيمبولات.

– سنسير إذا كنتم مستعدين للتسلق والانحدار من الطريق الجبلي المنزلق. ولكن الريح البحرية قد لا تتوقف طوال ثلاثة أيام.

بأسلحتهم وعاد فهِمنا سبب توجههم إلى دار الإمارة: سمعوا أن الروس استولوا على السفينة التي كان يسافر عليها أميرهم إلى باطوم فتجمعوا لمواساة الأسرة واستعراض قوتهم أمام الأعداء الذين رسَوا على ساحلهم. ولما عرفنا حقيقة الموقف توجهنا، وقد هدأت نفوسنا، إلى قرية أَدْلير، حيث الأمير أَرَدْبيه. وبعدما سرنا بعض الوقت همس تيمبولات لي: " هؤلاء لو عرفوا أن الروسيّ ضيفهم لما سمحوا لنا أن نخرِج عظامنا من القرية... ".المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

لم يكن المطر المصحوب بصفير العاصفة يتناقص إن لم يتزايد. وكلما اشتد المطر زادت زلاقة الطريق الجبلي. ولم يكن المرشدان اللذان يعرفان نهاية الطريق يلتفتان إلى الثلاثة الذين وراءهما. وصلوا ظهراً إلى المكان المحدد متجهين إلى قمة المرتفع المنشود وكلٌّ وجهدُه لاجتياز الجبل. وبدت على مسافة غير قريبة ولا بعيدة مساكن الجيش الروسي المحصَّنة، والبحر، وبعض السفن.

– هذه هي غاغرا، – طلب المرشد الأسنّ من رفيقه النظر إليها راضياً عن نفسه لإنجازه المهمة. – نحن ننهي مهمتنا هنا. ومتى مشيتم قرابة الساعة حققتم هدفكم[1].

---

[1] "لم يكن بقي لنا الكثير من قرية أمير أردبيه إلى غاغرا ولكن الطريق كان خطيراً ومرهقاً. بدأ الجو اللطيف يتغير ولم يبق أمامنا إلا عشرة فرستات، – الريح الباردة تهب من جهة البحر والبحر يسكب أمواجه على الطريق الساحلي، والسير فيه خطير. قررنا السير مهما كان الطريق صعباً. ومع أن أمير أردبيه أرسل إلينا ناصحاً بعدم السير في هذه الريح الشديدة فقد وجد سفربي شخصين يمكن أن يوصلانا إلى غاغرا. تجاوزنا الصخرة العمودية الأولى دون صعوبات، ولم نستطع السير بمحاذاة الضفاف العالية الأخرى. لم تكن الأمواج الهائلة التي تصطدم بها تسمح لنا بالسير. وكان مرافقانا يجدان ذرائع متنوعة ليخبرانا أن لا طريق إلى الجبل. غير أن تيمبولات انتزع منهما بفضل العطايا اعترافاً بطريق وحيد إن كنّا نجيد التسلق. أكَّد عليهما تيمبولات: " احلِفا لنا إن كان إنسان واحد استطاع التسلق من هنا" والإجابة: " نُقسم لكم أن هناك من اجتاز، ولكن يجب أن يكون المجتاز من سكان الجبال " وبدلاً من إجابة الدليلين بدأ سفربي وتيمبولات يخلعان حذاءيهما، وطلبا مني أن أفعل ذلك. وبعدما انتهى تيمبولات أعطى أحدهما مسدساً والآخر سيفاً، وقال " انظروا الآن كيف يستطيع من وُلد في الجبال تسلُّق الجبال. وسبقنا. وبعد ثلاث ساعات من التسلق الشاق ارتقينا المكان الذي نرى منه غاغرا. وحين بدأنا ننحدر إلى حامية غاغرا انبطح الجنود الروس وأرسلوا إلينا بضعة كلاب. ولما طلبت من الجنود أن يسحبوا الكلاب أوقفوها مستغربين ما يسمعون. طلب قائدهم أن نتخلى عن السلاح فلم أقبل، فردّ عليّ " ومن أنت لتنقض

حين رأى قاطنو المعسكر الأشخاص الخمسة الذين لا يعرفون هويّتهم تسلّح الجنود ووقف بضعةٌ منهم مع كلاب ضخمة أمامهم. علّق النقيب منديله بطرف الخنجر وعرضه عليهم. ولما اقتربوا أمرهم المقدم مالشيفسك:

– أسبِلوا أسلحتكم!

– لن نطيعك في هذا أيها المقدم، – أجاب تورناو بلغة روسية غيرِ منتظرة.

– ومن أنت فلا تطيعني؟!

خلع النقيب قلادته متمهلاً، ومدّها للعقيد:

– في هذه هويّتي.

قرأ المقدم الورقة التي أخرجها من الحجاب والموقعة باسم قائد جيش القفقاس روزين فمدّ قامته لـ "الحاج الشيشاني" الواقف أمامه وحياه:

– تفضل أيها النقيب الركن تورناو، أنا جاهز لتنفيذ ما تريد.

– لن تقدّم لنا أفضل من الشاي الساخن أيها المقدم.

لم يدع المقدم مالشيفسك فرصة لمن جلسوا إلى المائدة أن يشربوا الشاي:

– الشركسيان اللذان تركتموهما أيها النقيب على المرتفع انضم إليهما شخصان آخران، وينادون، ويلوّحون بأيديهم.

– وماذا يريدون؟.. الآن حالاً... – خرج تيمبولات من الغرفة. وعاد بعد قليل بخبر مزعج: – تعال يا سفربي نعدْ إلى أجبسو؛ رحل والدنا.

XXVI

كان النقيب تورناو الذي عانى أهوال الطريق مستلقياً في فراشه وقد عاد إلى أبناء قومه ولكن لم يُغمض له جفن طوال الليل. أضيف إلى المهمتين اللتين يجب أن ينفذهما دون تأخير رحيل العجوز مفدق. ولكنه كان مهموماً بأمر الأخوين قرمرز وغازي إمام أكثر من العجوز الذي عُمِّر طويلاً.

سأل النقيب تورناو نفسه:" هل يعرف هؤلاء يا تُرى أني كنت أمدّ يدي إلى جيبي كلما تحرك مفدق؟ " ثم وبّخ نفسه: " لا تندم على ما فعلت! ما خدمني

أوامري؟! " ولما أريته كتاب قائد قوات القفقاس دعانا المقدم مالشيفسك مع شارات الاحترام إلى الدخول من الحامية... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

به مفدق أكثر مما أعطيته. كفاه أنه شككني في المهمة التي ينفذها الأفندي التركي المزيف عبد الله! ليوجّهْه الله إلى الخير حيث رحل، ولينوِّلْه جنّتَه! لم يكن إنساناً سيئاً. كان رجلاً حكيماً تستفيد منه العقل والحكمة. وهل عجيبٌ إن كان فيه شيء من الطمع في المال؟! ومن يعيش دون طمع فيه الآن؟ وأنا راض أيضاً عن سفربي الذي عبر بنا الجبل دون أن يتفوه بكلمة. ومن اليوم الأول تكشّف قرمرز تيمبولات عن رجولة وصدق. لم يسمح لي أن أشكّ فيه من أي ناحية. ولا عتب لي على أخيه باي المأخوذ بفكرة الثأر فيصب حقده عليّ أحياناً، لا أزال أتذكره بالخير. وغازي إمام؟ رجل دين مخلص في عبادته لله وإن حملناه على أن يفعل بياغز ما فعل، ويحب الالتفات إلى الجميلات. لم يكن له همٌّ طوال ترافُقِنا سوى استرضائي، ولكن، – ابتسم تورناو في سرّه – لم تتحقق له أمنيته في هدايتي إلى الإسلام... ولا أظنه لم يفهم هذا... متى سألتقي بهؤلاء؟.. لا، لا أقصد إخلالي بعهدي لهم. متى وصلتُ إلى تفليس وأعلمتُهم بتنفيذ مهمتي فسألاحق هذا الموضوع "

دخل المقدم مالشيفسك إلى الغرفة لحظة جلس النقيب تورناو لتجميع ملاحظاته على الطريق. ومدّ إليه الورقة الملصقة:

– جاؤوك بهذه الورقة من تفليس للتو.

قال النقيب بعدما قرأ ما في الورقة:

– تغيرت قراراتنا التي اتخذناها العشية أيها المقدم. لا يعرف من أرسلوا الورقة أن الأدلاء فارقوني.

– أي نوع من المعونة تريد أيها النقيب؟

– أريد دليلاً يتقن اللغتين الشركسية والروسية، ويحظى باحترام الشراكسة.

– عندنا من يتمتع بهذه المواصفات.

– ومن هو؟

– لُوَ مَمَتْ[1] – جري مخلصٌ لنا، وهو من جيلك. ومن الأسرة الأميرية التي يُعزُّها الشراكسة. ويعرف جيداً طريق طوابسه. ومتقن للروسية، سأستدعيه إن أحببت التعرف عليه.

[1] مَمَتْ هو مرخَّم اسم مُحَمَّد عند الأديغة.

وفي اليوم التالي تعارف النقيب تورناو ولُوَ ممت– جري. وكان الاثنان يعرفان سبب جمْعِهما. سأل النقيب مَن سيرافقه في الطريق كأنه يعرفه منذ الطفولة:
– هل تعرف طريق طوابسه؟
– أعرفه معرفة الشمس والقمر للسماء.
– ألا تعتقد أنك تبالغ قليلاً؟ – حمل الجواب غير المنتظر النقيبَ على الابتسام.
– لا أرى في كلامي ما يُضحك لأني صادقٌ في ما أقول. – ردّ ممت – جري باختصار مشعراً بأنه مستاء مما سمع.
– حسنٌ أنك هكذا، أظننا سنكون رفيقين ممتازين.
– هذا يظهر في الطريق فحسبُ.
وهذا صحيح يا ممت – جري. – نطق النقيب تورناو اسم محادثه للمرة الأولى.
– وأنت بمَ أناديك؟
– أنا معروف في شركيسيا باسم "الحاج حسن بيه"، وقادمٌ من ضيافة الأمير أرت. ولا ينبغي أن تعرف عني أكثر من هذا. ويفترض أننا تعارفنا في الطريق. وسأسألك ولو أن السؤال سهل والجواب صعب:كم أجرتك؟
– مكافأتي هي كما أبلغَك المقدم مالشيفسك تحرير عمي الأصغر الأسير في قلعة فوزنيسينسك.
– إن لم يكن عندك رجاء آخر حققتُه لك.
– أعرف آسِرَ عمي واسم أسرته: بيتروشينكو غريغوري كوندراتيفيتش.
– ماذا قلتَ لي اسمه ونسبته؟.. – سأل النقيب متذكراً أنه والد الشاب القوزاقي الذي دفنه في الغابة. وتظاهر بأنه لا يعرف المسمّى. ثم قال له: – اعتبرْ عمك أُطلِق سراحُه متى وصلنا إلى فوزنيسينسك أو بروجني أوكوب. إن كنت جاهزاً فسننطلق غداً مع الفجر.
– كما تريد يا حسن بيه. – قال ممت – جري مسروراً. – سآخُذك من أي طريق تريد.

– الطريق الوحيد الذي كنت أريد أن نسير فيه ونتعرفه هو التالي: سنصل إلى طوابسه عن طريق الساحل، ونترك جوبغه على يسارنا، وننعطف نحو بروجني أوكوب وفوزنيسينسك من مكان التقاء حدود البجدوغ والأبزاخ.
بقي النقيب وحده في الغرفة فحمله الحذر الذي اعتاد عليه على أن يسأل نفسه: " هل هذا الشخص الذي اتفقت معه جدير بالثقة؟ صحيح أنه من عمري ولكن أليس شاباً جداً على أن ترافقه في طريق؟.. وما أسرع ما وافق على شروطي؟.. إنه يتابع أموره الشخصية وليس مهموماً بأمور البلاد. وسواء وافقْنا الترك أم لم نوافق، ونحن نكرر هذا الكلام، فالشراكسة الذين لهم مثلُ هذه الأرض الخيرة الجميلة لا يقومون بواجبهم نحو قضايا البلاد. ما يقوله ويفعله أحدهم ينقضه الآخر. ثم إن هؤلاء ليسوا محرومين من الرجولة ولا من العقل ولا من النوايا، ولا يعدلون بحريتهم شيئاً في الدنيا... غير أني أخشى أن يتكشف الشراكسة عما لا نتوقعه. وكل من أصادفه منهم أجد فيه هذه الصفة... "
سار لُوَ ممت– جري والنقيب تورناو طوال النهار على الطريق الملتف على الساحل دون استراحة إلا وقت الغداء. ولم يقابلهما أي عائق أو طارئ. ومهما قابلوا من أناس على الطريق كانوا يتبادلون معهم إشارات الاحترام ويمشي كلٌّ في طريقه لأن ممت – جري معروف من الكثيرين رغم صغر سنه. وكلما تكرر الموقف زادت الثقة التي أولاها النقيب برفيقه، وزاد رضاه عنه، ولكنه لا يتخلى عن الحذر. وأحياناً يتذكر الأخوين قرمرز وغازي إمام، ويرتسم أمامه مفدق العجوز الذي فارق الحياة وابنه سفربي. ولا يفارق ذهنَه الأفندي التركي عبد الله الذي انسحب من بينهم ولحق بالعجوز" أين هو الآن يا ترى؟ سفربي وتيمبولات مشغولان بمراسم دفن العجوز. وغازي إمام وباي أعدناهما من منتصف الطريق مكرَهَين ... أيكون ممت – جري يعرف عبد الله التركي؟.. "
– هل سمعت يا ممت– جري اسم عبد الله أفندي في هذه النواحي؟ – سأل النقيب الأمير الشاب بغير مبالاة.
– لا أعرفه شخصياً، – أوقف ممت – جري فجأة حصانه مستغرباً الاسم. وأنت أين تعرف هذا الرجل؟

– كنا تعارفنا في أجبسو، – أجاب دون أن يكشف له عن حقيقة الموضوع.
– وما رأيك فيه؟
– وماذا سيكون رأيي؟ يقوم بخدمة الإسلام.
– لا يقتصر على الدعوة إلى الدين يا حسن بيه... هو محرِّضٌ ضد الروس تحت ستار الدين.
– إذن، – ضحك تورناو، – ألست أجبتَ على سؤالك بنفسك؟ إذا كان رأيانا تطابقا في التركي يا ممت – جري فلنبحث قبل أن يحل الظلام عن مكان نقضي فيه الليلة.
– ما تقترحه صحيح، ولكن إذا استرحنا قرابة الساعة واستأنفنا رحلتنا أنقصْنا من سفر الليل.
– سفر الليل لطيف ومريح ولكن لن نرى شيئاً من خلال الظلام. أنا عليّ رؤية كل شيء؛ هل فهمتني؟
– فهمت، – أجاب ممت – جري باختصار، ووجه حصانه إلى عمق الغابة.
ترك الجاسوس تورناو ولو ممت – جري، وهما في غمرة الاستكشاف، مضيق طوابسه واقتربا من يسار نهر بْشَك. ولم يصعب عليهما عبور السيل الضيق الذي خلّفته العاصفة الصيفية. وعندما دخلا مع انحدار الشمس إلى مضيق قُجِبْس التقيا برجلين من "المجاهدين" أحدهما شَوجَن، والآخر مارغوش، كانا بانتظارهما منذ نصف نهار. وقد دعَوَا باسم حمرزقوه أسلانجري المسافرَين إلى القرية. ولما كان بيت الإمارة مشغولاً ببعض المتنفذين الأبزاخ فقد دُعيا إلى بيت في الجانب الآخر.
أتاهما رجل ضخم قد يكون من خدَمِ الدار، دون الترحيب بهما، بالإبريق والطشت، وساعدهما في الغسيل. ومرة أخرى وضع أمامهما بالطريقة نفسِها مائدة العشاء وخرج يدبّ بلامبالاة من الغرفة.
– أيكون خادم المائدة أبكم... – نهض ممت – جري ونظر عبْر النافذة. – وحصاناانا لا يزالان مسرجين يقفان إلى جانب المربط. كيف يتناسى حمرزقوه أسلانجري عادات الأديغة؛ ألستُ أنا أيضاً أميراً، وأنت ضيفاً؟ لا أفهم سبب عدم سؤاله عنا.

– هل استقبالنا المفاجئ يحملك على الارتياب؟.. – سأل تورناو الذي يراقب بأذنيه الموقف حذراً.
– مبدأ الأديغة:"لا يحلُّ ضيفٌ على ضيف" ينصرف الأول بقدوم الثاني – لم يدع تامبي أسلانبج الذي دخل الغرفة مقتحماً الريح كلام ممت – جري يكتمل.
– " عاش من شافك " يا حسن بيه. – ابتسم تامبي مخفياً رياءه لـ "الحاج الشيشاني " الذي عرّفوه عليه، – لم أتوقع أن نلتقي ثانية. وأنت أيضاً يا ممت – جري. ما الذي جمع بينكما؟ نعم، نعم، لابدّ أنكما اجتمعتما على الشاطئ... وعندنا خبر وفاة العجوز مَرشان مفدق. وسمعنا أن الأخوين قرمرز في أجبسو. لم أجد من المناسب استضافتَكما في مضافة حمرزقوه أسلانجري حيث يحتدّ النقاش مع زعماء الأبزاخ، فقررت دعوتكما إلى قريتي تامبي حابله، وهذا رأسي وهذه قبعتي، جئتُ إليكما بنفسي.
– لا تؤاخذني على سؤالي يا أمير، – لم يملك ممت – جري إلا أن يسأل،
– هل وقع الأبزاخ في مأزق يستلزم هذا النقاش؟
– سمعوا أن حمرزقوه وتامبي سيتحالفان مع الروس فجاءنا وفد كبير من زعمائهم يضيقون علينا. هيا، لماذا تقيمان في البيت الفارغ. زعماء الأبزاخ العنيدون سيأكلون بحجة الخبر الذي أشاعوه عنا خروفاً مشوياً، ويشربون عليه الباخسمه، ثم يرحلون على خيولهم السمينة. أنظر إليك يا ممت – جري فأراك لا تحبّذ تغيير المضيف[1].
– أفكر في القول المأثور " من يبدّل مضيفه يذبحون له جدياً ذكراً "، – مازحه ممت – جري باسماً، ولم يكتم ما وراء قوله: – ولم تقع عيننا على المضيف الذي نجلس في مضافته منذ مدة... أفهم أن من العيب الحلول ضيفاً على ضيف سابق له، ولكن لم تكن لدينا نية التوقف هنا لولا أن دُعينا إلى هذه القرية باسم حمرزقوه أسلانجري.
تظاهر تامبي أسلانبج بأنه لم يسمع ما لُمِّح به إليه، وقال ما يريده هو:

[1] من أسوأ ما يفعل الضيف عند الأديغة.

– للتنقل بالضيف عند الأديغة فوائد كثيرة. ولكن لستما ممن يقال فيهم "إذا أقام الضيف طويلاً ملّ المضيف" ولذا فأنا، الأمير تامبي، من سيكون مضيفكما. تعالا نركب إلى قريتي دون أن يلجمكم قولُهم "الضيف متى فرغ من الطعام نظر إلى الباب". ما أقوله لكم أقوله بعِلْم أسلانجري، وسيرحّب بكم غداً في مضافتي. سننتظركما على مربط الباب حيث حصاناكما.

– هذا حسنٌ يا أمير، – كان بوُدِّ ممت – جري أن يقول للمضيف القادم "الضيف أودعُ من خروف" ولكن لم يجد من اللائق تشبيه نفسه بالماشية الوديعة. – سنركب حالاً معك، ونحل ضيفين عليك في قريتك.

خرج تامبي أسلانبج من الغرفة حاني الرأس إذ لا يتسع له الباب فسأل النقيبُ الجالس بلامبالاة يدخن غليونه:

– هل هناك ما يُقلق؟

– لا يعجبني مضيفونا... لا أصدّق كلام تامبي ولا ادّعاء حمرزقوه وجود ضيوف مشاكسين من الأبزاخ.

– ماذا علينا أن نفعل إذن؟ – نهض النقيب تورناو بقامة متينة خفيفة.

– ألم أقل إن هذين الأميرين، والضيوف الأبزاخ لم يعجبوني!

– أتظن أم...

أوقف وقع الأقدام المسموع كلام النقيب. وقال حجرت شوجن الذي تسلل من الباب:

– ننتظركما يا ضيفينا الغاليين.

ركب تامبي أسلانبج وصحبه الطريق في منتصف الليل. ولما كان الطريق ضيقاً توزعوا اثنين اثنين. أسلانبج وتورناو معاً. ووراءهما ممت – جري وحجرت شوجن. ولم يكن مارغوش يتخلف عن الفرسان السابقين له. الليل المقمر جميل ومريح. ولا صوت يُسمع في الطريق الجبلي، ولا في الجوار أيضاً سوى وقع الحوافر. والنجومُ المتناثرة في السماء تنظر عبر أوراق الأشجار. في السماء يسبح قمر مكتمل.

– أظن سماءكم في الشيشان في هذه اللحظة تشبه سماءنا يا حسن بيه؟

– سأل تامبي ضيفه بروسية ركيكة.

– أعتقد أن سماء الله واحدة على كل المسلمين يا أسلانبج، – أجاب النقيب وهو يكسِّر لغته الروسية.

– هذا بديهي يا حسن بيه، الله لا ينسانا لأننا مسلمون.

تنحّى الفارسان اللذان التقوا بهما في منتصف الليل مع إشارة احترام،وسمحا للجماعة بالعبور.

– وعمَّ هذان يبحثان في منتصف الليل؟.. – تظاهر تامبي بالامتعاض. وبعدما ساروا مدة ووصلوا إلى المنعطف توقّفَ: – يجب شدّ حزام الحصان لأننا سنتسلق المرتفع...

وفي اللحظة نفسها سمع النقيب تورناو من خلفه فجأة وقع حوافر حصان، وانتزع الفارسان اللذان جانَباه سرج حصانه ورموا به في الأرض، وانتزعوا منه خنجره، وأوثقوا يديه. ولما نظر إلى الثلاثة الواقفين فوق رأسه رأى بينهم تامبي أسلانبج الذي كان يبتسم[1].

---

[1] "كان نور القمر في تلك الليلة الجميلة ينير ضفة نهر قُجبس.مشينا قرابة ساعة ونصف دون أن نلتقي بأحد. ولما دخلنا الفسحة الخالية من الشجر في الغابة التقينا بفارسين أديغيين حادا عن الطريق وانتظرانا حتى تجاوزناهما. خرجنا من فسحة الغابة برفقة تامبي وشوجن ومارغوش ودخلنا الغابة. أمرنا تامبي بالوقوف ونحن في عمق الغابة. وترجل الفرسان الآخرون وشرعوا في إصلاح أوضاع سروج الخيل. وبدأت أنا أحشو غليوني بالتبغ. اقترب مني تامبي وتفقد متانة حزام حصاني لأننا سنتسلق الجبل. وفي اللحظة نفسها وصلتني أصوات خيل مسرعة. قال أحد الفرسان بالأديغية: " أمسِكْ به!" وفي الحال اختطفني فارسان من صهوة الحصان، وانتزعا مني سلاحي الوحيد الخنجر، وقيّدا يديّ. فهمت أن لا جدوى من مقاومة المهاجمين، وأن ساعة الموت اقتربت. ورضخت مدركاً مدى مأساة الموت في سن السادسة والعشرين مقرراً الاحتفاظ بشجاعة الجنود الروس. ولكني أجبت باختصار من سألوا عني: " هل طلبتم فدية؟ لا تتأملوا! " وأجابوني: " سنرى!" وبعد مسير ساعة تقريباً مقيداً على الحصان أدخلوني إلى إحدى الغرف، وكانت مضافة تامبي أسلانبج. واحتفظوا بي أسيراً مدة سنتين. وجرى هذا في ليلة العاشر من أيلول عام 1835 ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– ماذا أيها الضابط الروسي النقيب الركن تورناو؟ – سأله، ثم أكد على شوجن: – كفى ما دنّس به هذا إسلامنا، اخلعوا عنه قبعة الحج، وألبسوها للخائن لو ممت – جري. وعذّبوه برائحة خنزير الكافر.
التفت النقيب تورناو فرأى اثنين من المجاهدين يقفان قرب رأسه. فقال لتامبي الذي يمسك به:
– لا تظنّ أنك غلبت الروس إذ أمسكت بي!
– لست مهتماً بما تهتم به، – ضحك تامبي راضياً عن إنجازه. – ما أريده أنا: الفِدية. هل سمعت؟ سأسترد منك ما سلبتموه مني وما عذّبتموني. هات ما معك من ذهب ومن فضة، والساعة.
– لن أعطيك شيئاً بنفسي. – حسم تورناو الموضوع خلافاً للشدة التي وقع فيها.– لك ما تسلبني إياه بالقوة.
– فتِّشوه! والخائن الآخر أيضاً. – سلّموا لتامبي الذهب والفضة والنقود والساعة حتى التبغ فقال وهو يركب: قودوا الاثنين إلى قرية تامبي حابله!

XXVII

قال النقيب تورناو الذي يساق على الحصان إلى تامبي حابله لنفسه دون أن يصيبه اليأس مع أنه يشعر بالعار لِما جرى له: "لو كان الإنسان يعرف السنة أو الشهر أو اليوم أو الساعة التي سيلاقي فيها مصيره السيء لما كان في حياته إثارة. – الخير تملّ منه، والشر يُفنيك. ولكن لم أتوقع أن يُنهوا مهمتي بمثل هذه الخديعة... أيكون دليلي لو ممت – جري هو من تسبب في ما جرى لي؟.."
– أين أنت يا ممت جري؟ – سأل تورناو المقيد على السرج نفسَه.
– يسوقونني وراءك.
– لا تتحادثا! – نهر مارغوش الأسيرين.
خرج الفرسان من الغاية وارتقوا المرتفع غير العالي فبدت في نور القمر قرية تامبي حابله المتناثرة على الضفة اليمنى لنهر قُجبس. وبعد أقل من نصف ساعة وصلوا إلى أول بيت في القرية.

– أدخِلوا الضابط الروسي إلى مضافتي، والخائن إلى مخزن الحبوب. – أمر تامبي رفاقه، وقال للفلاح بكر الذي استقبله وهو يسلّمه زمام الحصان: – أوقِدِ النار في المضافة.

شرع بكر الذي كانت عيناه تلمعان من بين لحيته السوداء وشاربيه في إشعال النار تاركاً الأسير المقيد اليدين جالساً إلى الحائط. وحين اشتعلت النار قال وهو يفرك يديه للأسير الذي كان مهمِلاً إياه:

– النار يا كافر.

– فُكَّ يديّ، – أبدى النقيب يديه لبكر.

– قلْ أنت ما تريد، وأنا أفعل ما أريد يا آكل لحم الخنزير. – ضحك بكر، ولم يهتم بأمر النقيب.

دخل تامبي أسلانبج إلى الغرفة فقال لبكر متظاهراً أنه ينهره:

– فُكّ يدَي ضيفِنا؛ أتريد أن تبقيه مقيداً؟

مدّ النقيب يديه إلى تامبي دون أن يسمح لبكر أن يفك قيده.

– إن كنت أنت من أسرَني بالحيلة وعدم الشرف ففُكّهما!

– لا تنس أيها الضابط الروسي أني أمير وأنك أسير! – ابتسم تامبي أسلانبج مُبرِزاً لمن يجلس أمامه نهْرَه إياه، ولكنه غيّر كلامه بسرعة: – سألبي طلبك أيها الكلب إن لم تعرف ما جرى لك! – قطع الشريط الجلدي بالخنجر، – إن لم تسمع كلامي يا كافر أزهقتُ روحك بهذا الخنجر نفسه. لماذا تبتسم؛ هل قلتُ ما يدعو للضحك؟

– لا، أتعجَّب من نقضِك قانون إمارتك. الحق أني حين كنت أسمع باسم الأمير تامبي أسلانبج كنت أعتبرك واحداً ممن يحمون شِرعة الأديغة التي نحن معجَبون بها.

– والآن؟ – سأل تامبي أسيرَه محتداً مما سمع.

– وماذا سيكون الآن... خدعتني بظلمك الذي لا يتناسب مع منصبك كأمير. اختطفتني وجئت بي إلى مضافتك مرغَماً مقيداً...

– هذا صحيح، أنت على حق في هذه. لا تنسَ جنرالكم يرمولوف الذي لم يتعامل معنا بإنسانية.

– سحب قيصرنا الجنرال ألكسي بيتروفيتش يرمولوف من القفقاس عقاباً على سلوكه.

– وهل زاس القبيح أفضل منه؟! الحقّ يا نقيب أيَّ نقاش تجري معي في منتصف الليل ناسياً أنك أسير؟ الأفضل لك من هذا أن تفكر في من سيفتديك.

– أكرر لك أن أحداً لن يفتديني.

– أحد جيراننا براغُنه ميشكا لم يفتده أحدٌ لأنه كان جندياً فحسبُ أما أنت فأعتقد أنك ضابط؛ أليس كذلك؟

– أنا ضابط، ولكني لستُ ضابطاً فحسبُ. – أجاب تورناو معتداً بأصله النبيل.

– ومن أنت إذن؟ – استعجل تامبي من الجواب غير المنتظر.

– لستُ من أصلٍ أدنى مرتبةً من إمارتك. أنا من نبلاء الألمان الذين تحولوا إلى روس.

– ألستَ إذن من عِرق زاس؟ إن كنت نبيلاً ضابطاً فهذا أفضل بكثير. تُفتدى بضعفي السعر.

– لن تحصل مني على كوبيك واحد، – غمغم النقيب الذي لم يكن يحيد عن موقفه.

– أنا من يحدد ثمن افتدائك، لا أنت! – نهض تامبي الذي كان يكظم غيظه بصعوبة، ونهر وهو خارجٌ من الغرفة بكر الذي كان يحرك نار الموقد: – لماذا تجلسُ متصامّاً؛ ألا تجهز الفراش لهذا الكافر الثرثار؛ احذر منه، لا يغبْ عن عينك لحظةً !

– يا أمير، – نادى النقيبُ تورناو الأميرَ، – لا يزال عندي رجاء في أمرٍ لم نتكلم فيه بعدُ: لا تتهموا لُوَ ممت – جري ظلماً بحجة أنه كان معي. سمع أن عمَّه مأسورٌ في إحدى الأُسر القوزاقية في فوزنيسينسك فجاء يستقصي صحة الخبر.

– فكّرْ في افتداء نفسك ولا تهتم بما لا يعنيك. – حسم تامبي، ثم لاطفه برياء: – أرى من طريقة مَصّك غليونك الفارغ أنك مدخِّن... سأرسل إليك حالاً بعض التبغ.

بعدما أشعل تبغ الغليون وامتصه بضع مرات فقط فحسبُ فهم تورناو حقيقة ما جرى له، ورأى أن ما أُرسل إليه من دخان لا يملأ الغليون إلا مرتين. "تامبي الذي يخدعني أميرٌ بخيل. ولكنه لن يحصل مني على ما يتأمل... سأعرف ما ينوي بي هؤلاء حين أقابل حمرزقوه غداً فحسبُ... كيف أُوصِل خبري إلى الجنرال زاس؟ الوحيد الذي يمكنه الاضطلاع بهذا هو لُوَ ممت – جري... ولكني لن أعرف حقيقته إلا غداً أو بعد غد... لا تفكّرِ في ما لا ضرورة له أيها النقيب الركن! وهؤلاء غرباء عن الشراكسة مثلي. ونقار وجانسعيد وبولتقوه؟ هؤلاء سمعتُ أسماءهم على لسان الجنرال زاس وليسوا من معارفي. ثم كيف تتأمل من أعدائك؟ من جهتي أنا ليس الشراكسة أعدائي إن لم يعترضوا على وجودي في أرضهم سراً. ولا يمكنني أن أدّعي أني أُجبِرتُ على المجيء إلى هنا. ما جرى لي تسبّبْتُ فيه لنفسي بنفسي. – لم أكن حذراً. تامبي الذي أسرَني لا يهمه موضوع العدو بل الفدية. هذا حسنٌ، ولكن كيف سينظر إليّ من لم أنفذ مهمتهم؟.. لا، لن أفكر في الافتداء! ما يجب أن أفكر فيه اللحظة هو طريقة الهروب من هؤلاء. أيّ أمل أطمع فيه الآن: ما الأفضل، وما الذي أقدر عليه أكثر من غيره، وما الطريق الممكن؟.. من هنا إلى بروجني أوكوب عليك أن تعبر أربعة أنهار: شحغواشه وفارز ولابا وبشزه. وتقطع من اليابسة قرابة مئة وخمسين فرستاً..."

– تبغ طيب أيها الكافر– صحا النقيب من أفكاره حين خاطبه بكر. – نعم، نعم، ما يدخنه الجاسوس تبغٌ طيب.

– خذ، ودخِّنْ أنت منه أيضاً. – مدَّ تورناو إلى بكر ما بقي له من التبغ.

– لا، لا يا كافر، – أخذ بكر منه التبغ مردداً: الأمير لن يقبل. شمّه بضع مرات، وأضافه إلى ما في كيسه. ثم أكَّد على محروسه بصوت جازم: صرتَ في يدنا يا كافر. هات بنطالك وقميصك كي لا تهرب، وزنارك أيضاً.

XXVIII

أيقظ صوتُ الربابة الأديغية[1] القادمُ من جانب المضافة تورناو: من النافذة الضيقة ترسل الشمس نورها،ونار الموقد انطفأت. وبكر ليس في الغرفة. ثم تذكر أنه يحمل بنطاله وقميصه ونطاقه فنادى إلى الخارج:

– أين أنت يا بكر؟

– وأين أكون أيها الكسول، أتابع لوازمك، – رجع بكر حاملاً الإبريق والطست متظاهراً بالغضب.

– بنطالي، قميصي!

– حالاً، حالاً.

– لا تُخفِ عني ملابسي أكثر من هذا!

– هذا يتعلق بقرار الأمير يا كافر.

الربابة لا تتوقف، وبكر يردد بفمه معها وهو يبحث بين رماد الموقد عن الجمرات. ويرقّص قدميه معها. ويقول باسماً للأسير الذي كان يغسل وجهه:

– الأمير أسلانبج يعزف جيداً على الربابة. ويدعوك إلى طعام الإفطار.

حين اقترب النقيب مغمغماً:" يُبكي الربابة ولا يعزف عليها لحناً جميلاً... "

رأى تامبي وأمامه مائدة الإفطار تحت شجرة الجوز.

– سمعت أن نبلاء الروس يتأخرون في الاستيقاظ صباحاً فلم أشأ إيقاظك، – توقف تامبي أسلانبج عن العزف على الربابة وقال للنقيب الذي صحبوه إليه بعدما رفع جسده قليلاً عن مقعده احتراماً للأسير. – اجلس، أدعوك إلى المائدة.

– حياك الله، ولكني لا أرى الأمير ممت – جري على مائدتك!

---

[1] لم أجد مقابلاً عربياً للآلة المعروفة عند الأديغة باسم: شجأه بشنه، أقرب من الربابة، ولاسيما المصرية. وهي أقدم الآلات الموسيقية عندهم. والاسم الأديغي مكون من جزأين: شجأه: ذيل الحصان، وبشنه: أوكورديون. وتتألف من قطعة مغزلية مفرَّغة من خشب الجوز، ووترين من ذيل الحصان يُمرَّر عليهما قوس كأيّ آلة وترية أخرى كالربابة والكمان.

– وماذا نفعل به؟ ليفرحْ إن وجد بعض ما يقوم بأوده. نحن الاثنين سنُفطر معاً. وسنتباحث في قضايانا.

– هذه ليست عادة نبلاء ولا من الإنسانية يا أمير. – غضب تورناو لِما سمع. ثم أضاف بكلمات تحمل طابع النصيحة، شاملاً بها نفسه أيضاً: – أنت وهو أميران، وإن سمعت نصيحتي ما قبلتُ أن تفعل بمت – جري هذا. نحن الثلاثة وإن اختلفت أعراقنا ولغاتنا وأديياننا نحمل دماً أميرياً.

– لا يخلو لومك لي من سبب صحيح أيها الضابط الروسي. –ابتسم تامبي وامتعاضُه بادٍ على وجهه. ثم اختتم بصوت أوثق: – ولكن الأفضل ألا تتناسى وضعك في هذه اللحظة. لسنا نحن من جاؤوا إليكم بنوايا سيئة، بل أنتم. ولا تتخيل أننا نجهل المهمة التي أرسلوك إلينا لأجلها. الأسير القوزاقي الذي وقع بأيدينا ليس شخصاً عادياً، بل ضابط روسي يُدفَع من أجله الكثير.

– الآن فهمت خداعكم لنا وأنتم تسموننا بالضيوف، حتى سقتموني إلى الأسْر... ولكني أكرر: لن تربح مني كوبيكاً واحداً.

– نحن نعرف قيمتك ولو أنك لا تعرفها أنت... – ابتسم تامبي من جديد. وسأل كأنه غيرُ عابئ بكلام أسيره: – ونعرف أن "الحاج الشيشاني" لقبٌ لك، ولكن أليس لك اسمٌ؟

– إن كنتم تعرفون لقبي فلا أظنكم لا تعرفون اسمي... قال النقيب الركن غير مهموم بالسؤال، وفصّل له اسمه ونسبته: فيدور فيدوروفيتش تورناو. وأنا من بارونات الألمان. ولكني نبيل روسي منذ أكثر من قرن.

– وما الذي جاء بكم من ألمانيا البعيدة إن لم يكن المصيبةَ[1]؟– قال تامبي وكأنه يتمتم لنفسه:– اسمك طويل جداً، سيصعب علينا نُطقُه. سنناديك: فيدور– فيدور.أمَا دعوتك إلى تناول الطعام يا فيدور – فيدور!

– لن أذوق شيئاً من طعامك إلا بوجود ممت – جري على المائدة، – حسم تورناو الأمر مع تامبي.

– إن كان هذا قرارك يا فيدور– فيدور حققناه لك: لن نسمح لكما، الاثنين، بالإقامة في غرفة واحدة. أُدعُ يا بكر الأميرَ الخائن.

---

[1] في الأصل: الطاعون، وهو تعبير مألوف إلى الآن في اللغة الأديغية.

– وهو الآخر لم يقبل أن يفطر يا أمير.
– ماذا؟
– ربما هو مهموم بقضية أسيرنا الكافر.
– رفيقك الضابط الروسي قلقٌ عليك يا أمير إذ لا يعرف مصيرك؛ هيا اِجلسْ!
– قال تامبي للأمير الذي استدعاه وكأنه لم يقض ليلته في المخزن الفارغ.
– لم ينتقص من إنسانيته من أي عِرق كان؛ أقول له شكراً. ولكني أربأ بنفسي الجلوس على مائدة الأمير تامبي الذي نقض شِرعة الأديغة الأزلية.
غيّر تامبي لهجته نحو الأمير لُوَ ممت – جري إلى لهجة معسولة، قائلاً في نفسه: "يدّعي هذان أنهما التقيا مصادفة على الطريق، ولكن يعرف أحدهما الآخر منذ زمن. إن هاجمتُهما فسأخسر، لن أربح":
– صحيح يا أمير، لن أعود إلى معاملتك كالليلة الماضية. ولكن من أين كان لي أن أعرف أنكما التقيتما بالمصادفة على الطريق!.. هذا ما قاله الضابط الروسي الذي كنا نبحث عنه منذ زمن. لم ندَعْ رفيقك الذي خدعك يخدعنا كما فعل مع الأخوين قرمرز. اِجلسْ حين يطلب منك الأسنّ الجلوس دون التعلّق بعادات الأديغة التي نضيّعُها. وسنستفيد من هذا الضابط الأسير لإطلاق سراح عمك الأسير عند القوزاق: نساعدك أنت في هذا. ونبيعه هو بسعر جيد.
فهم ممت – جري حين تبادل الاثنان اللذان ألقي القبضُ عليهما في قرية تامبي حابله نظرة صامتة أن تورناو يطلب الموافقة:
– إن كنت قررت أن تساعدني يا أمير فهذا يسرني، وأسحب ما اتهمتُ به أديغيتك – إنسانيتك. ولكني لا أريد أن أضرّ بمن رافقتُه ولا أعرف سرَّه. أسمعك يا أمير.
– اسمعا كلاكما إذن، – حدّد تامبي هدفه بسرعة، – سنرسل بخطك أيها النقيب مع ممت – جري إلى بروجني أوكوب أنك أسير عندي. وستُرفق به طلب إطلاق سراح عمّ رسولنا الأمير. نعم، نعم يا فيدور – فيدور لم تسمع ما تستغربه: نُخبر جماعتك أنك أسير عندنا، ولا نحدد لهم الآن مقدار الفدية.

كتب تورناو بعد الفطور الورقتين المطلوبتين دون اعتراض: " أسرني الأبزاخ وأنا عائد إلى ديارنا. لا تفتدوني لكي لا يتخذ هؤلاء من الفدية عادة. وأنا سأدبِّر طريقة هروبي منهم بنفسي " وكانت الرسالة الثانية قصيرة كالأولى: " عمُّ حاملِ هذه الرسالة لو ممت – جري أسير عندنا في قلعة فوزنيسينسك. أرجوكم إطلاق سراحه دون مقابل " جلس تامبي أسلانبج بعض الوقت يتظاهر بقراءة ما أُعطي له وإن كان لا يعرف القراءة بالروسية. ثم مدّهما إلى ممت – جري.

– خُذْ، اقرأْ لي الآن ما فيهما بصوت مسموع. – ولما سمع تامبي ما قرأه ممت – جري امتدح نفسه: – وهذا ما فهمته أنا من الرسالتين. ولكن هناك شخصاً آخر يمكنه أن يقرأهما: هيا استدعوا من تحوّل إلى الأديغية بيننا براغُنه ميشكا.

– مرحباً بالضيوف، – ألقى ميشكا التحية على الاثنين اللذين يجهل هويتهما، وسأل من استدعاه: – هل أنت في حاجتي يا أمير؟

– لستُ وحدي مَن في حاجتك يا ميشكا، ثلاثتنا في حاجتك. ولكن أودّ أن أعرف أحوالك لأني لم أرك منذ زمن بعيد.

– كل شيء على ما يرام يا أمير لولا أن القوزاق ذوي القبعات الحمر يزعجوننا. غير أنهم يجدون من يتصدى لهم.

– وكيف تتصرف معك " بابِزه "، ألا تناكدك؟

– بابزه؟! من أين تأتي بها إن لم يمنحك الله مثلها! هي عمود بيتي، ونار موقدي.

– والولدان؟

– هذان شهمان، وهما دعامتاي.

– ليرعَهما الله ! نحن راضون عنك يا ميشكا. انسجمْتَ معنا جداً. والآن اقرأ لنا على مهل الرسالتين اللتين طلبت من أسيرنا النقيب الركن تورناو كتابتهما.

– إن كان الخط واضحاً قرأت بكل سرور يا أمير، – نظر براغُنه ميشكا بطرف عينه إلى الأسير كأنه يُطمئِنه أن يكون واثقاً منه، وأسرع بالقول: – وهل درستُ في مدرسة الكنيسة عبثاً سنتين! – قرأ الكلمة الأولى ثم تجاوز البقية وقد فهم الموضوع. ثم قرأ الرسالة الثانية كاملةً.

– أهذا كل ما فيهما يا ميشكا؟ سأل تامبي ورضاه عما سمع بادٍ على صوته.

– نعم يا أمير.
– إن كنتَ تشهد على صحة ما قرأت فهذا حسنٌ. تابع أشغالك يا ميشك،سنطلبك إن احتجناك. – وحين بقي الثلاثة وحدهم قال تامبي أسلانبج لممت – جري راضياً عما حدث: – أنا قمتُ بما عليّ، والآن أنتظر ما ستفعل أنت.
– أنا جاهز من اللحظة يا أمير.
– إن كنتَ جاهزاً فأطلِعني على شرفك الأميري. رافقتْك السلامة. غير أني لن أرسلك وحدك. سأُرفِقك بفارسَين يوصلانك إلى قلعة فوزنيسين[1]. وهناك، أنتَ وقدرتُك على حلّ أمورك. ونقبل أن يتخذك من توصل إليهم الرسالتين رسولاً إلينا. – ثم توجه إلى بكر وقال له: – أوصل أنت وأخوك الأصغر مُحَمَّد الأمير لُوَ ممت – جري إلى قلعة فوزنيسين. لا تخافا، هؤلاء القوزاق الذين تسافرون إليهم أصحابه. تسلّمانه إلى المستطلعين وتعودان.
– وإن كنتُ وحدي يا أمير فلا أخاف غير الله. ولكن كيف نسافر إلى حيث ترسلنا دون علم والدنا واستشارته؟
– وهل تستشير والدك حين تذهب إلى البسلني أو القوزاق لسرقة الخيل؟
– ألسنا أديغة يا أمير؛ كيف لا نستشير كبيرنا؟
– هيا – نادى تامبي كأن ما قيل له لم يعجبه ولا يريده، – استدعوا مرزخواي!
– سأحضره حالاً. – أسرع دداي الذي كان ينصت معتمداً بصدره على السور.
حضر مرزخواي بلحيته البيضاء وشاربيه، المحلوقة حديثاً، المتناسبة مع وجهه، فرأى تورناو الفارسين يرفعان مؤخرتيهما عن الحصان على طريقة الأديغة في التعبير عن الاحترام، فلم يتخلف عنهما.
– بارك الله في طعامكم، – دعا مرزخواي لهم بعد التحية، وسأل أسلانبج: – أسمعك يا أمير إن كنتَ بحاجتي.
– تفضَّلْ يا جارنا إلى الطعام!
– حياك الله، قدّمتْ لي العجوز فطوراً جيداً قبل قليل.

[1] النطق الأديغي للاسم مختصراً.

– اجلسْ، كيف نكلّمك في مهمة وأنت واقف؟..
– إن كنت بحاجتي، – نظر مرزخواي إلى ابنه بكر متوجساً أن يكون أساء التصرف، ثم جلس، – فلا بأس يا أمير. أتريد أن تخبرني أن هذا الأخرق بدر منه ما لا يُرضيك؟
– لا، ليت أهل قريتي الذين لا يعيشَون حياتهم ولا يعملون كانوا مثل بكر. هذان اللذان على مائدتي ضيفان. ولكن لا يمكن أن تسميهما ضيفين. هذا لُوَ ممت – جري، من أسرة نبلاء – أمراء من الأديغة – الأبخاز، والآخر جاسوس أرسلوه إلينا عبْر نهر بشزه، ضابط روسي. وليس ضابطاً عادياً، هو سليل أسرة نبلاء ألمانية – روسية.
– جلب لي الولد الأصغر هذا الصباح بعض أخبار ضيفيك، – قال مرزخواي دون أي مبالاة، ثم سأل وعيناه تلمعان: – ماذا تريدني أن أعمل بهما؟
– هذان لا أريد منك أن تفعل بهما شيئاً. سأقول لك نيّتي نحوهما: هذا الضابط الروسي الجاسوس أبقيه عندي رهينة، وأُرسِل لُوَ إلى الروس. وقررت أن أرسل ولديك معه، فقرر بكر ألا يسافر إلا بأمرك.
– حسنٌ أن يقرر استشاريّ، – بدا ارتياح مرزخواي لا في عينيه فحسبُ بل في لحيته وشاربيه، – ولكن هذه مسألة لا تعقيد فيها. وإن كنتَ واثقاً مني يا أمير سافرت مع بكر مكان أخيه الأصغر.
– وكيف لا أثق بك يا مرزخواي؛ ولكن كيف تفعل هذا وقد بلغت الثمانين!
– هل تسأل عن عمري يا تامبي إذا كان علينا عبور نهر بشزه أو التوجه إلى ستافروبول؟ هيا يا ولد جهِّز حصانك وحصاني!

XXIX

أحسن الأخبار وأسوؤها، سواءٌ كان قريباً أم بعيداً لا يستقر في مكانه.
تبيّن أن ما جرى للنقيب تورناو في أرض الأبزاخ وصل، ليس إلى قلعة فوزنيسينسك القوزاقية فحسبُ، بل إلى بروجني أوكوب وستافروبول. ولم يبق مكان لم يصل إليه إلا تفليس.
ترك الفرسان الثلاثة غابة قُجبس دون أي عقبات، وعبروا نهر شْحَغواشه غير بعيد ولا قريب من مايقواب. وساروا في الطريق المتبقي إلى لابا حتى المساء،

وتوقفوا على الضفة اليمنى لنهر زَراله الصغير. وطوال هذه المسافة لم يتبادل مرزخواي العجوز والأمير ممت – جري اللذان لم يخالفا قواعد الأسنّ والأحدث سناً أيَّ حديث جدي من قلبيهما. أما بكر فكان يتبعهما أصمَّ أبكمَ. وأحياناً يسبقهما إن طلب والده شيئاً منه.

ابتعد بكر الذي رُبِّي على العادات الأديغية عن النار التي أشعلها دون أن يجلس مع والده والأمير، بل دون أن يتكلم في حضرتهما أو يساهم برأيه في حديثهما، وجلس متجهاً نحو المرعى الذي تسرح فيه خيولُهم.

لم يكن مساء الخريف الذي ودّع شهره الأول بارداً. ولكن الشخصين الجالسَين إلى النار الآيلة إلى الانطفاء يُحسّان من جهة ظهريهما أن الدفء الذي تركه النهار الصاحي تغلبه شيئاً فشيئاً ريح الجبال الباردة. والنجوم المرائية انتثرت في السماء. والقمر المستدير يبرز من فوق الأشجار المرئية المكتسية بسواد خفيّ. وتُسمع أحياناً أصوات الكلاب من القرى المختبئة وراء غابة المرتفع. والغراب المريع ينادي من الضفة اليسرى للنهر. وعلى مسافة لا قريبة ولا بعيدة عواء ذئب، وغيرُه يجيبه. والأحصنة التي أرعبتها هذه الأصوات تقطع نخيرها، وتنصت بآذان مُشرَعة.

– ليس مكاناً جيداً ما وقفنا فيه يا أمير. لن نكون في مأمن، – يقطع مرزخواي الخبر المتعلق بالقوزاق، ويراقب في الليل المقمر. – قبل ثلاثة أعوام تقريباً، فيما نحن عائدون وقد سرقنا من القوزاق بضعة أحصنة، اعترضَنا في أعلى ذاك الوادي عدد من المجرمين البسلني. ولكنهم حين تعرفوا الأمير تامبي تفرقوا قبل أن نجد الوقت لامتشاق أسلحتنا.

– كنت أسمع أن الأمير تامبي يتمتع بالرجولة، ولكنه لم يتعامل معنا بأديغية وإنسانية. – دفعَت الإهانة التي أُلحقت بلُوَ ممت – جري الرجلَ إلى هذا الكلام.

– حين تؤول الأمور إلى التحدي يمكن أن تجري مثل هذه التصرفات. – قال العجوز الذي كان يراقب جهة عواء الذئب متجاهلاً كلام الأمير. ولكن من أين لنا، نحن الأبزاخ الذين لا أمراء عندنا، أن نعرف الخلافات بينكم أيها الأمراء؟.. هيا يا ولد جهِّز الخيل، سنقطع بعض الطريق بعدما استرحنا قليلاً.

– أليس القمر منيراً أكثر مما ينبغي يا والدنا؟.. – سأل بكر وعنّف الأحصنة التي دفعها عواء الذئاب إلى التجمع حول النار: – اهدأنَ، لا خطر عليكن، سنستأنف طريقنا.

– الذئاب ليست مشكلة، – تمتم مرزخواي، – المشكلة في مجرمي البسلني الذين يحومون على ضفة نهر فَرْزَه... ألم تسمع أخبار هؤلاء يا أمير؟

– سمعت قيلاً عن قال، ولم أصادفهم.

– هذا حسنٌ ولكن لا تتهاون! هل شددتَ حزام السرج؟ أقول خوفاً من أن نقع في موقف صعب...

– من طريقة سؤالك يا مرزخواي، – ابتسم ممت – جري، بدلاً من أن يرتعب، – كلٌّ وما يستطيع أن يحمي به نفسه.

– فهمتَ جيداً، أيها الأمير الذي لا أثق به، – قال العجوز بصوت حازم كان يكظمه إلى الآن في صدره، ثم ضحك، – لا يقال وقت اشتباك السيوف: تات، ولا نان. ولكن رغم عدم ثقتي فيك سأنفذ ما كلّفني به تامبي أسلانبج، ليس لأنه أمير فأمثالكم كثيرون في أرض الأديغة، بل من أجل رجولته. أنا مخلص له كرمى للمشاق الكثيرة التي تكبّدناها في رحلاتنا.

– هذا الذي تأتي على ذكره أيبادلك الشعور نفسه؟.. – سأل ممت – جري وهو يتخذ مكانه إلى يسار الكبير.

– لو لم يكن تامبي أسلانبج الكبير هكذا معي، ولم يُبرِزني من بين أهل القرية؛ أكان أوكل إليّ هذه المهمة؟

– وهذا صحيح... غير أني أفكر في سبب انضمامك إلينا بما لا يتناسب مع عمرك يا كبير، – لم يكتم ممت – جري ما شغل باله طوال النهار.

– ألستَ من أتكلم معه يا ولد، – قال مرزخواي لولده منفِّساً عن استيائه، – اسبِقْنا وافتح لنا طريقنا! – وبعدما سار الفارسان وحدهما مدة أكمل العجوز كلامه، وسأل مَن بجانبه دون أن يلتفت إليه: – ماذا يا لُوَ؟ أكنت تريد أن أخاطر بحصانيّ وكأني لا أعرف ماذا تلاحقان أنت وصاحبك الضابط الروسي؟ ألا يكفي ما جلبت خيانتكما للأديغة؟

– يا كبير!

– حين تُعمَّر السنوات الثمانين التي عشتُها أنا، – قال مرزخواي لمن وراءه دون مبالاة. تعال إلى جانبي ولا تمش ورائي. لو كنت تتحسّس من الإهانة هكذا ما كان عليك مرافقة الضابط الروسي.

– ألاحق موضوع عمي المسكين، ولذا...

– اسكتْ، لا أريد أن أسمعك! – مرة أخرى ارتفع صوت مرزخواي، ثم أكمل بصوت دافئ ناعم: – أنت ووالدك لا تساويان قَلوبات الذي تأتي على ذِكرِه.

– هل كنت تعرف عمنا يا كبير؟ – سأل الأمير ممت – جري بسرعة، وبنبرة لطيفة، غيرَ شاعر بالإهانة من تعريض العجوز.

– لا أتكلم على ما لا أعرف. – جزم مرزخواي، ثم أضاف: – ليس لمرة أو مرتين غزونا معاً القوزاق المجرمين. بعدما جرحَني هؤلاء عند قرية بَرْسْقوه، لم تُسعِفني الظروف لألتقي بقلوبات في هذه السنوات الأربع. ومن أخبرني أن عمك مأسور في قلعة فوزنيسين هو الأمير تامبي.

– وهل تامبي وعمي على معرفة؟

– ليسا صديقين إلا أنهما اجتمعا بضع مرات على غزو القوزاق. ربما لأنه كان يجد علاقة والدك بَدِسه بالروس غير مقبولة...

– الآن فهمت احتقار الأمير تامبي لي، قال ممت – جري واختتم: – ولكن من أين كان له أن يعرف عدم اتفاق والدِنا وأخيه الأصغر على الموقف من الروس؟..

– إن كان هذا رأيك فأنت تلاحق موضوع عمك.

– أنت تعرف أن القرابة نارٌ ضارية يا كبير. المصيبة التي حدثت لنا دفعتني بعِلم والدي إلى الركوب. هذا الموقف لم يفهمه تامبي...

– لا تعتب على تامبي ولا على حمرزقوه، لن يفهماك. هذان حين نَهبهما الروسُ، أصدقاءُ والدك، في القبرتاي، لجأا إلى ضفة نهر وارب، ولكن لم يسمحوا لهما بالبقاء فيها فتوجّها إلى الأبزاخ. – وبعدما قطعا مسافة أخرى أكمل مرزخواي بمزيد من الثقة برفيقه: – وبما أنني بدأتُ حديثي فسأخبرك بأمر لا يجدر بي إخبارك به: وهؤلاء غيرُ محبوبين في الأبزاخ... ربما لأنهم غرباء.

قال ممت – جري في نفسه: "العجوز الذي صار رفيق طريق لي فجأة إنسان عجيب. أهو جعل نفسه رفيقاً لي أم جعلوه؟ تامبي أسلانبج الذي يقيم النقيب في بيته، والذي لم يغتبْه طوال الطريق يغتابه الآن هو وحمرزقوه أسلانجري، يخبرني أنهما غيرُ محبوبين بين الأبزاخ، ولا يغفران لهما غُربتهما... أيكون يريد كسب ثقتي من خلال امتداح عمي واغتياب الآخرين؟ ثم إن ما أستغربه هو حِرصُ بكر علينا متظاهراً بأنه لا يهتم بأقوالنا وأفعالنا. وهل عجيبٌ أن يحرص الابن على أبيه؟ لا، ليس عجيباً هذه واحدة من عادات الأديغة الحكيمة. هذه العلاقة أمتن من علاقة الأمراء والعامّة عندنا، تُبقينا متميزين ممّن ليسوا من قومنا. نحمي أنفسَنا بها. حين فكر ممت – جري بكل هذه الأمور لام نفسه مغلوباً بالحزن: – ندمّر حياتنا بافتقارنا إلى الوحدة في الوقت الذي نفتخر فيه بأنفسنا. وما وقعت فيه أسرتنا، ثم وقعتُ فيه أنا أيضاً يثبت صحة هذا الكلام. أخدم من تحالفتُ معهم بحجة عمي... سأعمل على إطلاق عمي قَلوبات المسكين، غير أن من يخدموننا هذه الخدمة سيستردونها مئات الأضعاف! وهذا ما يسعى إليه من انكشف سرُّه تورناو... وتامبي وحمرزقوه يتأملان منه فدية كبيرة ولكن لا أتوقع أن يحققا مرادهما. إن خرجت من هذه المعمعة نظيفاً فلْيفعلوا ما يريدون..."

– مهلاً! – أوقف مرزخواي حصانه. – أسمعُ وقع حوافر أحصنة... – وفي اللحظة نفسِها خرج من عمق الغابة ثلاثة فرسان مسرعين، تعرّف العجوزُ الحاجَّ الذي بين الفارسين: – رافقتكم السلامة يا جانسعيد!

– وأنتم أيضاً. هذا أنت يا مرزخواي مَن لا أتعرفه؟ مع من تسافران، الأبُ والابن؟

– مَن نرافقه هو الأمير لُوَ ممت جري يا حاجّ. كلَّفَنا الأمير تامبي أن نوصل ممت – جري إلى قلعة فوزنيسين.

– ماذا ستفعل يا أمير عند أعدائنا القوزاق؟ – ارتفع صوت جانسعيد الرجلِ النحيف من على صهوة حصانه رغماً عنه.ولكن الحاج أدرك بسرعة أن هذا السؤال الفجّ لا يناسبه فصحح موقفه: – سامحني، أسأل هذا لأعرف إن كان بإمكاننا أن نفيد بشيء.

– حياك الله يا حاج، يا من جعل الله يومه مئةً، – قال مرزخواي العجوز بفمه، باسماً في قلبه، – لكننا نعدّ مهمتنا أُنجزت متى عبرنا نهر فارز، ووصلنا إلى نهر لابا. وهناك نترك ممت – جري لمهمته.

– إن كان هذا رأيكم، – ضحك جانسعيد الجاهل بقضية النقيب تورناو والأمير ممت – جري، – فلْيحقِّقِ الله مرادكم! ولكن كان الأفضل يا أمير أن تقابل حجرت نقار قبل أن تقابل القوزاق. متى خرجتم من عمق الغابة الأخرى اقتربتم من قريته. هذا الرجل يقصده الكثيرون، وعلاقته بالجنرال زاس عجيبة. إن كنت تودّ مقابلة نقار أيها الأمير رافقتُك.

– حياك الله يا حاجّ. لماذا نغيّر طريقك إذا كنا سنمر قرب قرية نقار. مع السلامة. حقّقَ الله مرادك ومرادنا!

حين وصلوا إلى مخرج الغابة تنحنح مرزخواي الذي لم يساهم في الحديث، وسأل:

– ماذا يا أمير؛ هل ندخل القرية التي ذكرها الحاج؟

– لن ننحرف عن طريقنا! – حسم ممت – جري الموضوع.

– حسناً، – لجم مرزخواي حصانه وقال لمن وراءه، – ولو قلتَ لي: دعْنا نغير الطريق لما قبلتُ منك. أنت يا ولد راقب من فارقناهم،هل يسيرون وراءنا. لِيحمنا الله! طريق الليل غيرُ آمِنٍ؛ الأفضل أن نحرص على انفسنا.

ما قاله العجوز الذي أرهقته السنون، وما كان يفكر فيه الأمير ممت – جري فيهما كثير من الحقائق التي تذوّب قلب الأديغي. يقال إن الاثنين أفضلُ من الواحد، ولكن الأديغة الذين يتكلمون لغة واحدة، ولهم عادات وتقاليد واحدة، يتوزعون على أعراق كثيرة بدءاً ممن يسمون أنفسهم القبرتاي إلى من يعتدّون باسم الشابسغ. وكلُّ عرق، كبيراً كان أم صغيراً، يسمي الإقليم الذي يحميه بلاداً، يعيشون في طول القفقاس الشمالي وعرضه. وحين يركبون يقولون: نسافر إلى بلاد "القبرتاي" أو بلاد "البجدوغ" أو بلاد "البسلني". ومتى عادوا لا يملّون من رواية ما رأوا، لا يصدّقون أن في العالم أجمل من بلادهم ولا أفضل. يفتخرون بأنفسهم، ويغتاب أحدهم الآخر. ولكن حين يسمعون صيحة الاستنفار "مارْج!" يركبون معاً دون سؤال عمّن سينجدونهم،وإن نجحوا في

مسعاهم نسب كلٌّ الفضل لنفسه. وإن أخفقوا تفرقوا لا يتنازلون أن يتكلموا في ما حدث، ويتهمون غيرهم.

– أين أنت يا أمير؛ ألسنا معاً؟ – حين جانَبَ الفرسان قرية نقار مزح مرزخواي، وأضاف: – أم تذكّرت القول المأثور: لا يقال سِرٌّ في الظلام وفي الغابة[1]؟

– كنت سمعتُ عمنا قلوبات يروي هذا القول المأثور، – ولكن ليس هذا ما يمنعني من الكلام، ما أفكر فيه أمرٌ آخر.

– أفهم، – لم يستعجل العجوز مرزخواي على ما سيقوله ولكنه لم يستطع إلا أن يأتي على ذكرِ ما يهمه ولا يعرف عنه الكثير، – ورّطك الضابط الروسي الذي لا تعرف أصله، ويسمي نفسه "الحاج الشيشاني"، ولكن تامبي آسِرَه لن يقبل دون فدية عظيمة.

– ألن يُقاسمه حمرزقوه الذي أخرجونا من مضافته؟

– لا أظنه يقبل أن يقاسمه... ولكنْ مَن يعرف ما سيفعله هذان؟ علاقتهما معقدة... – ابتسم الفلاح العجوز مرزخواي، – وفيما نقول: هذان تصالحا وتوافقا يتخاصمان من جديد. لا تؤاخذني يا أمير، متى ما أوصلناك إلى نهر لابا لا أظننا سنلتقي ثانية، ولكن أنتم أمراء الأديغة، لا أفهم ما الذي تتنازعونه ولا تستطيعون تقاسُمَه. نحن الأبزاخ، ولو لم يكن عندنا أمراء في أي عصر، لا يدَعُنا الأميران اللذان استقبلناهما بالرحمة والترحيب نعيش في اطمئنان، يتسببان لنا في كثير من المشكلات التي لا ضرورة لها... يا ولد اعتبر نفسك لم تسمع شيئاً، اِسبقْنا وافتح لنا طريقاً آمناً، – حين سبق بكر والده والأمير أضاف إلى كلامه: – لا أريد أن أتسبب في عداء هؤلاء لكم... والآن سأحدّثك أيضاً عن أمرٍ يزعجني، ولستُ وحدي في هذا بل يشاركني كثير من عامة الفلاحين. تصورتُ أن يكون بينكم أيها الأمراء مزيد من التفاهم والتضامن حين غزا القيصر الذي يحالفه القوزاق أرضنا.

– وأنتم العامة يا كبير؟.. – سأل الأمير الذي يكظم غيظه بصعوبة، وموّه صراحته الوقحة: – لا، ليس لأني عاتب عليك.

---

[1] لاحِظ الجناس بين الظلام والغابة في لغة الأديغة.

– هل ستتحسن أحوال الأديغة يا أمير إن تصالحنا نحن، أنت وأنا، أم تجافينا؟
– أجاب العجوز مرزخواي دون أي اكتراث، ولم يتناس السؤال الموجّه إليه: – نحن العامة ماذا سيكون شأننا؟.. نعيش، نحرث الأرض، ونبذرها، ونأكل من كدِّنا. غير أنه كما يقول نقار الذي لم تتنازل أن تحلّ في مضافته، نهتم بقضايا الأديغة وإن لم يُعِرنا الأمراء احتراماً.
– في هذه المسألة أشهد على صحة كلامك يا مرزخواي. وأقول لك إنهم سيحتاجون إليكم سريعاً في مسألة الأديغة هذه. ولكني لا أوافقك في قولك إني لا أحترم الفلاح نقار. والحق أني لم أكن أريد توريطه في المهمة الغامضة التي أوكلوها إليّ. وبغضِّ النظر عن هذه المسألة يكفيه ما يشاع عنه.
– حياك الله إن كان هذا رأيك. ولكنك لا تبوح بما في قلبك حقيقة يا أمير.
– وهل هناك إنسان بلا أسرار يا كبير؟ ابتسم ممت – جري بلا تصنُّع. – كل إنسان له سِرّه الذي لا يبوح به إلا إلى الله الأحد.
– نعم يا أمير، نعم.رضخ الفلاح مرزخواي لِما سمع، ونهر نفسه على قوله "لم تبح لي بما في قلبك".
وصل الفرسان الثلاثة إلى ضفة نهر لابا مع احمرار الأفق صباحاً. والنهر الجبلي الذي كان يخيم فوقه حر الصيف لا يزال يجري بين الضفتين المتباعدتين وقد صحّاه الخريف الجاف إلى الآن. ولا يُرى من الجانب الآخر إلا عمق الغابة التي تبتعد. والسماء التي تسبح فيها بعض السحب البيضاء عالية، والهدوء يسود العالم اللطيف. ومن الضفة غير البعيدة تُسمع أصوات الديكة المتجاوبة. ويُسمع من منعطف النهر نباحُ كلاب متقطعٌ يُشعِر بوجود بعض القرى هناك. واليوم الجديد يفتتح نهاره بمسيرة ناعمة على الرِّجلين. والليل الذي يتابعه هذا النهار لا يلتفت إلى الوراء.
– ترى معبر النهر يا أمير،– حسم مرزخواي العجوز للأمير باختصار، – ندعو لك بالسلامة ولو لم يكن في قلبك الخير. ولكن نشكّ أن قلبك مع القوزاق العابرين للنهر فلا تحاول الالتقاء بنا بعد اليوم.

– قلتَ هذا بصراحة جارحة يا كبير، – أجاب الأمير الذي تلقى الإهانة دون أن يتقبّلها.وإن اعتبرتني في عداد الأمراء الذين يخلون من روح أديغية فخذ هذه، قد تنفعك.

– ما هذه؟ ارتفع صوت العجوز شاعراً بالإهانة من السومة الفضية[1] التي مدّها إليه الأمير. وردّ عليه بصوت أشدّ إرعاباً: – إن كنت تظن أنك تشتريني بها فسأقطع اليد التي تمدها بها!

– أفعل هذا من كرمي، ولم أقصد إهانتك بهذه السومة يا مرزخواي.

– إن كنت تقول هذا يا أمير، – تغيّرت سُحنة العجوز فـ "ما من كرَمٍ إلا بعِلم الله"، كما يكرر الحاج جانسعيد دائماً.– " إن كنت قادراً فالمعروف لوجه الله حسنٌ. وثوابه يتقاسمه المانح والممنوح"، ونحن الأب والابن لم نقصِّر يوماً ونصف نهار...

– والله لا أعرف يا والدنا... غير أن الأمير تامبي لا يجود بثلث هذا المبلغ بعد أن نرعى قطيعه سنة كاملة.

– وإن كان هذا رأيَك يا ولد فلا تدع الأمير لُوَ يتراجع عن مِنْحته. أخوك يفوت موعد زواجه، سيكفيه مكافأة زفاف الفتاة[2] وما يزيد... مع السلامة يا أمير. لا تنس ما قلتُ لك ولو افترقنا على صفاء.

– هذا من شأن الله يا مرزخواي، سنتصرف بقراره. – حين وصل الأمير ممت – جري إلى وسط النهر التفت وترجّى الفارسَين اللذين تركهما على الضفة:

– عرفتم أن أسير تامبي ضابط روسي، فاعتنوا به، هو رجل ممتاز.

– تطلب أشياء كثيرة بـ " سومتك "... – ردّ عليه مرزخوي شاعراً أن ما كان يتوجس منه قد تحقق...

– لا تُفنِ نفسك يا والدنا، لم تفعل خطأ، – لم يهتم بكر بما سمع، – هو يقول ما عليه، ونحن نفعل ما يجب.

---

[1] الروبل.

[2] كانت العادة، ولا تزال، أن يُدفع مبلغ من المال، لا علاقة له بالمهر، إلى الشباب والشابات من أقرباء العروس قبل خروج الفتاة من دار أهلها.

– وهذا صحيح، – حثّ مرزخواي حصانه وابتعد عن الضفة.

XXX

حين عبر ممت – جري نهر لابا لم يتوجه إلى قلعة فوزنيسينسك حيث يقيم عمه أسيراً بل توجه إلى بروجني أوكوب من أقصر طريق، على مبدأ "ما مضى كثيره سيمضي قليله" وهذا كله بعلم الله وتقديره. ودون عوائق كثيرة، اللهم إلا بضع مرات أوقفه فيها رُصّاد القوزاق، وصل قبل الظهر إلى مقر الجنرال زاس.

سأل الجنرالُ زاس ضيفَه الصباحي وقد لاحظ تغيُّر لون الأخير حين سمَّوا له المترجل من حصانه على الباب:

– ألستما على وفاق أنت ولُوَ ممت – جري يا تيمبولات؟

– وهل بقي في إقليم الأديغة شخصان لا عداء بينهما!.. – ابتسم قرمز تيمبولات، وأجاب على السؤال: – كان مَن ذكرتَ اسمَه بين من قضى أخي الأكبر على أيديهم.

– إذا بدأنا في تمييز المذنب من البريء، ابتسم الجنرال زاس، – فسنتفانى في هذا العالم...

– ثم إني يا جنرال ما كنت أريد أن ألتقي بعدوّي عندك.

– ولكن، حسبَ ما أخبروني صباحاً،قبل أن تأتي إليّ، يقلقه ما يقلقنا أنت وأنا. وسأخبرك بأمر آخر: تورناو الذي عليكَ عهده،، وأنت تترجى دفع الفدية عنه، ترسل إلينا جماعة تيمبولات الكتاب الذي كتبه إلينا.

– عهدي أنا، – احتدّ تيمبولات مما قيل له، – تحللتُ منه في غاغرا. لستُ مديناً لكم إن لم تكونوا لي. ما جاء بي إليك، إن كنت ستفهمني، هو المودة الصادقة التي أشعرَني بها النقيب تورناو. هل يتركون الرجل الذي لم يجد الفرصة لتنفيذ مهمته لمصيره أم أنا مخطئ؟

– أنت مخطئ، – قال زاس كأن بلا اهتمام، وفسّر: – إن كان لتكدّر مزاجك سبب تحمّلْتُك، ولكن من الصعب اتهام الجيش الروسي الذي حطّم الجيش الفرنسي، وهزم الديسمبريين بمثلِ هذا. ثم من الذي يقول هذا؟.. لا، يا تيمبولات، لا أريد إهانتك، سامِحني!

نهض الجنرالُ والضيفُ للُوَ ممت– جري حين دخل الغرفة.

– نعرف ما جرى لكم في الأبزاخ ولذا، – قال الجنرال زاس لممت – جري وهو يدلّه على الكرسي، – أخبرنا بمهمتك باختصار.
– نفّذتُ المهمة التي أرسلني من أجلها تامبي يا جنرال، ولكن لا تدينوا النقيب تورناو، لم أستطع أن أنفذ له ما وعدته به. خدعتني طريقة ضيافة تامبي وحمرزقوه المرائية.
– ومع ذلك تركتَ فيهم من وثق بك ورحلت، – لم يُطق تيمبولات الذريعة فعرّض بالأمير.
– من حظك يا قرمرز أن ما حدث لي لم يحدث لك، – ردّ ممت – جري على من اعترضه بالمثل: – إن كنت تريد معرفة الحقيقة فقد تحملتُ عاقبة ما استخلصوا منك من معلومات.
– أيها الأمير لُوَا!.. – ارتفع صوتُ تيمبولات.
– أيها السيدان! – رفع الجنرال صوته. – لا تنسيا أين أنتما، ليس هذا مكان شجار.
– نعم يا جنرال لا تؤاخذنا، – عاد ممت – جري إلى وعيه، ومدّ إليه الرسالتين.– جئتُ بهما بمعرفة تامبي.
قرأ زاس الرسالة الأولى فقال لقرمرز تيمبولات مستغرباً ما قرأه:
– أنت تترجانا أن نفتدي صديقك الضابط ولكن ليس في هذه الرسالة مثل هذا. ما يقوله شيء آخر؛ اسمعْ: " " أسرني الأبزاخ وأنا عائد إلى ديارنا. لا تفتدوني لكي لا يتخذ هؤلاء من الفدية عادة. وأنا سأدبِّر طريقة هروبي منهم بنفسي ".
– هذا مستحيل، – لم يصدِّق تيمبولات ما سمع، – وماذا في الرسالة الثانية؟
– ما في هذه الرسالة نعرفه أنت وأنا، وما يترجى من أجله النقيب لا يمكننا كلانا أن نقدم للأمير ممت – جري فيه أي منفعة، – قال الجنرال بنبرة تخلو من أي رحمة،– سلّمْنا عمه ميتاً أول من أمس بلا مقابل إلى الشركس الذين افتدوا زميله الأسير.
– لم أستطع أن أحرر عمي المسكين في وقته، – أطرق ممت – جري متهماً نفسه.

– كان قلوبات رجلاً أديغياً حقيقياً يا أمير، – نهض تيمبولات وقدم واجب التعزية لممت – جري، – عوّضكم الله خيراً.وهذه نتيجة علاقاتنا غير الودية... وكما يقول الحاج جانسعيد وحجرت نقار لا أعرف مَن سيتّهمون...

– ومن ذكرت اسميهما هل هما مترددان في علاقاتنا بكم؟.. – سأل الجنرال زاس كالمستغرب وإن كان يرى في ما سمع فائدة له، ثم موّه فرحته المبالَغ في صراحتها:

– نعم، هذا هو الواقع. الاختلاف يجلب لنا مآسيَ كثيرة. سمعت سيرة عمك يا أمير أكثر من مرة. وأنا أيضاً أعزيك مع أنه كان يرسل إلي تهديدات بأن يأسرني إلى الأبزاخ، فأنا حزين لأنه مات في أسْرنا. غير أني كنت أستغرب، ولو أن الأوان فات، ألا تزوره أنت ولا والدك...

– يا جنرال كانت الأسرة منقسمة إلى قسمين، – لم يستطع تيمبولات إلا أن يقول رغم أن زاس يعرف ما يتكلم فيه، – إلا إذا قرّب الموت الآن بين الطرفين.

– هل رأيت ضفتي نهر متوازيتين التقتا؟.. – سأل الجنرال الذي رفع رأسه فجأة كما يعتقد هو، وأحيا الموضوع الذي كانوا يتكلمون فيه دون اهتمام بجواب سؤاله: – ماذا تقترحان بشأن النقيب الذي أسره الشراكسة؟ سنجد حلاً للمشكلة ولكن لا أعرف رأي تفليس.

– لن نترك النقيب دون معونة مهما كان رأي تفليس، – قال قرمرز باختصار، ثم أكمل: – سنعمل ما علينا نحن وإن كان يعتقد نفسه قادراً على الإفلات منهم.

– تامبي وحمرزقوه يطمعان في فدية كبيرة... – قال ممت – جري الذي لا يغيب عن باله ما جرى لعمّه.

– جرى لنا ما كنتُ أتوجس منه... – نهض زاس واقترب من النافذة المتجهة نحو بلاد الأبزاخ، وقال لمن وراءه: – سأحتاج إلى بضعة أيام لحلّ هذه القضية.

– إن لم تعد بحاجة إليّ يا جنرال فسأزور قبر عمي، – نهض ممت جري وقد فهم حالة الجنرال.

– لن أتركك يا أمير تسافر في طريق حزنك وحيداً، – نهض قرمرز تيمبولات.

– حسناً تفعلُ، – التفت الجنرال وقال مخفياً ارتياحه لانصرافهما عنه:
– سأستدعيكما في وقت قريب.

XXXI

وصل مرزخوي وابنه مع حلول الظلام إلى قرية تامبي حابله. ودون أن يتجها إلى باب دارهما تجاوزا ثلاثة أبواب وترجلا عند باب الأمير تامبي الذي رُبطت إليه أحصنة كثيرة. وأكّد مرزخواي، دون الالتفات إلى دداي الذي استقبله والحزن بادٍ عليه، على ابنه بكر:
– أعِد الحصانين يا ولد إلى دارنا، ولا تسقهما قبل أن يمتص الجلد عرقهما. وأنا سألقي التحية على ضيوف جارنا وأعود.
– إن أطعتَني يا والدنا ما سمحتُ لك أن تدخل المضافة التي يُثير فيها حمرزقوه هذا الضجيج.
– شهدتُ في حياتي الكثيرين من أمثال حمرزقوه. هيّا نفِّذ ما سمعتَ. من يا دداي في بيت الإمارة بالإضافة إلى حمرزقوه؟
– قبعاتهم أكبر منهم، – غمغم دداي مُشعِراً الجار العجوز بعدم حماسته للسؤال، – من أين لي أن أعرف من هؤلاء. إن كنت تعرف تعدادهم فاطرح حصان حمرزقوه النزق وعُدّ بقية الخيل. وهؤلاء إن أضفت إليهم تامبي والأسير الكافر فكم يبلغ تعدادهم؟
– أنت عدّاد ماهر، هؤلاء تسعة.
– لو استضافوني حين فتحت الباب دون أن ينهرني حمرزقوه لكنّا عشرة... هؤلاء ليسوا بشراً يا مرزخواي بل جِنٌّ. لا تخالطهم وسأعطيك السوط الذي صنعه لي الضابط الروسي.
أفسح مرزخواي الطريق للخدم الذين كانوا يحملون مائدتين عليهما اللحم المشوي والباستا،ودخل المضافة.
– أهلاً بك يا مرزخواي، تفضَّلْ إلى هنا، اِجلِسْ في صدر المائدة، – قال حمرزقوه متناسياً إمرته للفلاح العجوز.

– لا يا أمير، لا. كيف أجلس في الصدر!.. أنا وصلتُ للتوّ، ولم أدخل إلى بيتنا، – جلس مرزخواي مفتخراً بما قيل له رغم اعتراضه في البداية بين حمرزقوه والنقيب تورناو.

– أيّ خبر سعيد جئتنا به من حيث كنت؟ – سأل حمرزقوه العجوز الذين يملؤون له صحنه باللحم.

– وهل بقي خبر يُسعِد في هذه الأيام؟.. نفّذْنا ما ترجّانا به الأمير أسلانبج فحسبُ.

– حياك الله يا مرزخواي، – التفت تامبي نحو حمرزقوه، – لن نتأخر في سداد دَينك.

– وأيُّ دَين؟.. – تظاهر العجوز بالسؤال، – هل نحن في عالم كلُّ ما فيه له ثمنه؟

– صحيح يا كبير، – وافق حمرزقوه العجوز، وأضاف مُبرِزاً الكلمة الروسية الوحيدة من بين ما يهمه: – هذا نعرفه يا أسلانبج متى دفعوا في أسيرنا فدية جيدة[1].

– ونحن، شوجن وأنا، احسبوا حسابنا في جزء من الفدية... – قال مارغوش الذي احمرّ من شرب " الفاته[2]" غامزاً النقيب تورناو.

– لا تُكثِر يا مارغوش من شرب الفاته!.. – عرّض تامبي وهو يمطّ جسده الضخم بمن يطمع في مورد مُلْكه. – نحن سنقسمها بطريقة ما ولو لم تدخلوا أنتم في الموضوع. هل عجيب إن كلّفناكم بأسْرهم من الطريق!.. كيف تصرف معكم الأمير لُوّ ممت جري يا مرزخواي؟

– وكيف سيتصرف؟ لم يشكّكْنا في شيء سوى لهفته على الكافر الذي تدللونه.

– أما قلتُ لك يا أسلانبج، – فرح حمرزقوه ذو الوجه الأشقر الطلْق، – إنك لم تُخطئ في من اتخذته رسولاً! هذا لا يهمل من صار فجأة رفيق سفره. سيصل إلى بروجني أوكوب، وإلى شته قاله – ستافروبول، وإلى تفليس.هيّا يا أسلانبج

---

[1] في الأصل يستعمل المقابل الروسي للفدية.

[2] نوع من الباخسمة أكثفُ قواماً.

اعزف لنا على الربابة الأغنية التي تتحدث عن زاس وفيليامينوف. وأنتما يا مارغوش وشوجن شاركِا. أسمِعا أسيرنا الضيف!

بدأ أسلانبج يعزف سعيداً على الربابة التي جاؤوه بها. والنبيلان اللذان ذُكِر اسماهما يرددان معه: " أيها الفِتيان لا تعبثوا بالسيف، ولا تعرِضوا حد السيف للشمس. لا تجلبوا المأساة لأهلكم.زاس الأصهب وفيليامين[1] الأحمر البغيضان ليسا بعيدين.ولكننا لا نخاف من هذين الأحمرين. هذان يعرفان ويريان كل شيء إن كانا بعيدين أم قريبين. هذان عيونهما عيون الجوارح. ولكن لا نخاف منهما مهما سلكا معنا. في زمن ما كانت أمورنا تسير جيداً: الروس كانوا في بلادهم، والأديغة الأحرار أحرار في أرضهم. والآن غزانا الكفار، يسلبوننا أرضنا. ولكن لا نخاف منهم مهما سلكوا معنا، نحمي أرضنا. أيها الفتيان لا تعبثوا بالسيف. ولا تعرِضوا حد السيف للشمس. لا تجلبوا المأساة لأهلكم. الجنرال الأصهب البغيض ليس بعيداً. " – يرفع شوجن صوته، ويرفع. ويطلب منهم التصفيق. – " ولكن لا نخاف منهما مهما سلكا معنا، نحمي أرضنا. هيّا حُثّوا الخطا، لا تُبدوا جُبناً " – والآن، في غمرة غِناء الجميع إلا النقيب والعازف، أجفَلَهم صوت طلقة المسدس التي دخلت من النافذة، وأسرع حمرزقوه بالقول:

– من هذا الذي يُطلق النار علينا؟!

عاد أحد العمال الذين هُرِعوا إلى أرض الدار بدداي من تلابيبه:

– لا بد أن هذا هو من أطلق النار!

– ما هذا الكلام! – ضحك تامبي العائد إلى وعيه. – من أين يأتي بالمسدس من ليس عنده سوط جيد؟!

– أما أخبرتك أيها الأبله أن لا مسدس عندي؟ اتركني!

– لا ذنب لدداي؛ – قال بكر الذي اقتحم المضافة، – من أطلق عليكم هو فارس متخفٍّ، قطع أحزمة خيولكم، وعاد إلى الغابة كطائر ليلي.

– وهل رأيت ذلك الفارس يا دداي؟ سأل حمرزقوه.

– نعم رأيته... – أجاب دداي بلامبالاة.

---

[1] النطق الأديغي لاسم فيليامينوف.

– ولماذا لم تصرخ؟ – صرخ عليه مارغوش.
– وهل أنا مجنون لأصرخ في وجه من يلبس القناع؟ – ضحك دداي، – اسألني إن كنتُ تعرّفته! انبطحتُ أسفل سور الحظيرة ريثما قطع أحزمة الخيل وأطلق عليكم. كان الأفضل لكم أن تحرصوا على أحزمة خيلكم من أن تأكلوا وتشربوا وتغنّوا. إن كنتم لا تحتاجونني فسأعود لأن أمي وحدها.
– لم تقصّر في حقنا يا جار الأمير تامبي، – صاح حمرزقوه وراء دداي: خذ فَخِذَ الخروف هذا إلى بيتك!
– لا تمُنَّ عليّ يا حمرزقوه بما آنف من قبوله،يكفي أنك نهرتني. إن كنت كريماً فاطلب من ذي الساعدين المشعرين ذاك الذي اتّهمني بما ليس ذنبي أن يوصِلها إلى بيتنا.
– هذا ما جرى لنا... – تنهد مرزخواي. – ترون ما حدث للولد دداي، ابنِ بلدنا،مِن وراء من أرسل ضيفنا الذي تدللونه على مائدتنا. ترجِموا هذا لمن أجلستموني بجانبه، الرجل الحريص على نظافته وهندامه.
– لا داعي! – لم يقبل حمرزقوه. – وهل من أطلق النار علينا أحسنُ منه؟! لم يأت الفاعل من قلعة فوزنيسينسك القوزاقية. هذا أحد الحُسّاد الأديغة الذين لا يُطيقوننا. لن يبقى أمرُه سراً، سيكشف يوماً ما كأنه اليوم. هيا يا أسلانبج، مُرْهم أن يصلحوا وضْع أحزمة خيلنا، ودعنا نسافر. ولْيسترحْ كبيرُنا الذي عاد من سفر طويل. ولا يشعرْ بالإهانة مما فعل الفارس الذي أشكّ فيه.
– في من تشك يا أمير؟ – استعجل مرزخواي بما لا يتناسب مع عمره.
– وهذا سيُعرف كالغد الذي سيشرق علينا. تصبح على خير يا كبيرنا!
– وأنا أشك في أحدهم يا أمير، – همس مرزخواي وهو ينهض لحمرزقوه،
– ولكن الله يرفض أن تتهم بالظن فلْنصبرْ!
– نعم، هذا حقّ، – لاحق حمرزقوه العجوزَ المنصرف قائلاً في سِرّه: " ما كان علينا أن نرفع الكلفة بيننا وبين هذا العجوز إلى هذا الحد!
سُمع من وسط القرية المؤذن يدعو لصلاة العشاء. وسكتت الكلاب القليلة التي ظلت تنبح إلى الآن. والقمرُ الذي يمزق ليل الأبزاخ المظلم يرتفع إلى السماء.

وخرير نهر قُجبس الذي كان خنقه ليل الخريف المظلم يُسمع الآن على نحوٍ أوضح من يسار القرية. وفي دار الإمارة تُتَناقل السروج، وتُخاط الأحزمة.

– ليت هذا الفارس المجرم الذي فعل بنا هذا وقع بين يديّ، – يغمغم مارغوش، – لبترتُ يديه، وأطلقت عليه من مسدسه في فمه...

– ألم يقل الأمير أسلانبج أنه يشكّ في شخص ما؟ – يختبر شوجن الحزام الذي أعيدت خياطته.

– ما الفائدة إن لم تُمسك الظنين بالجرم المشهود... – يؤكّد مارغوش على صديقه ثم يهمس في أذنه: – ألا تعرف طبيعة حمرزقوه؟

– إن كنتم لا تعرفون فأنا أعرف، – أخبرَهم دداي الذي كان ينصت إليهم من خلفهم.

– هذا أنت يا مجنون؟ – صاح مارغوش.

– نعم، هذا أنا، اضربني إن كنتَ رجلاً، – ردّ دداي المعتدّ بسوطه على من كان يهينه.

– أطلب من الله أن يترجاك يا شوجن أن تُبعد هذا عن وجهي[1]!

– انصرف يا دداي، والدتك تناديك.

– إن كانت تناديني فسأعود، غير أن ما قُدِّم إليّ من مائدة المضافة لم يُحمَل بعدُ إلى بيتنا.

– منذ وقت طويل وصل اللحم إلى بيتكم.

– هكذا؟ قلْ لي إذن! – ردّ دداي وهو منصرف إلى مارغوش الذي حقد عليه: – كان الأفضل يا مارغوش أن تصلي لله من أن تطلب منه الدعاء؛ وهو الذي لا يطلب شيئاً من أحد.

قال تامبي بعدما رُفِعت المائدة، وبقي الثلاثة وحدهم في الغرفة:

– حان وقت صلاة العشاء يا أمير.

[1] الترجمة الحرفية للعبارة الأديغية. وسيعرف القارئ في فقرة تالية سبب إثبات الجملة بحرفيتها حين يقول دداي: كان الأفضل يا مارغوش أن تصلي لله من أن تطلب منه الدعاء.

– والله يا أمير بعدما شربنا... – نحن على الطريق... سنقضي الصلاة غداً أو بعد غد. وسيغفر إلهنا الأحد هذا.لو تكلمنا في موضوع أسيرنا الضابط في حضوره لاطمأنّ قلبي أكثر. هل يعرف هذا لغتنا؟

– سيَفهم كلامَكم بالروسية على نحو أفضل، – قال النقيب باسماً بالأديغية.

– أسرعت إلى تعليمنا الروسية التي لا نريدها، – رد حمرزقوه على الضابط الروسي. – سنكلمك بلغة الكفار التي على لسانك إن كنت ستنفذ طلبنا. هل فهمت أيها النقيب الركن أنك أسير؟

– فهمت هذا في الليلة التي أسرتموني فيها غدراً وبلا رجولة.

– كيف كنت تريدنا أن نتصرف معك وأنت جئتنا عدواً؟! سأل تامبي.

– مرة أخرى أقول: لو قابلتموني بالسلاح بدلاً من خداعي لاعتبرته رجولة منكم.

– وهل تستقل عددَ المرات التي جئتمونا فيها أعداء وقابلناكم بالسلاح! – نحن لا نتابع قضية وطن، لنا معك هدفٌ آخرُ. أنت ونحن ننتمي إلى أُسرٍ من مستوى عالٍ ولذا ترى احترامنا لك. وعلينا أن نتفاهم وبيننا مثل هذا الاحترام والتقدير. ولو لم تتركونا حفاة عراة لربما ما فعلْنا هذا. ستعطينا ما يوازي مُلكنا الذي نهبتموه.

– نحن انتهينا، الأمير تامبي وأنا، من مناقشة هذا الموضوع. أنا ضابط عادي وليس عندي كل هذا المال.

– ألم نتفق على أن تفتديك الدولة التي أرسلتك جاسوساً! – تدخل تامبي في المراء الذي بين حمرزقوه والنقيب،– ورسالتك، وأنت تعرف هذا، أرسلناها إلى بروجني أوكوب مع الأمير لُوَ ممت – جري الذي كان رفيقك.

– لا تتهموا لو ممت – جري بما ليس من ذنبه، – كرر النقيب ما قاله قبل أيام، – هذا صار رفيق درب لي فجأة، ولم يكن له أي معلومات عني.

– هل تقصد مثل الأخوين قرمرز وغازي إمام؟ – ابتسم حمرزقوه.

– وهؤلاء كانوا رفاق درب لي، ولم يكونوا يعرفون مهمتي.

– لا أريد الإساءة إليك أيها النقيب، ولكن أُسكتْ! – بدأ حمرزقوه بصوت رجولي صاخب، ثم اختتم بنبرة ألطف: – نحن لا شأن لنا بقرمرز، ولا بممت – جري، ولا بغيرهما. فكّر، وأمامك شهرٌ للإجابة.

– تعطيه مهلة أطول مما ينبغي... – استعجل تامبي، – من سيُطعمه طوال هذا الوقت...

– إن كنت ترى مهلة الشهر طويلة، – ردّ حمرزقوه، – فأنت صاحب القرار، قصِّرها ونحن معك. تصبحون على خير، نحن راحلون.

– مع السلامة يا أمير، احذر من الفارس الذي شككتَ في أمره فمن يدري،

– شيّع تامبي ضيفه بالكلام، وهمس في أذنه عند الباب: – كنت أريد أن أعرف من تشك فيه إن لم يكن سراً يا أمير.

– لن تصدِّق أبداً يا تامبي إن أعلمتك باسمه، لاحقاً...

" تعيش عمرك كله بسرٍّ لا ينتهي أيها الخبيث... " تابع تامبي الفرسان الذي يخرقون صمت الليل الخريفي إلى عمق الغابة، وقال في إثْرِ حمرزقوه: " أتريد أن أُعيل الأسير الروسي دون أن ينوبك منه همٌّ ثم تقاسمني الفدية؟! وجماعة مارغوش لم يكفِهم ما قدمت لهم فها هم الآن يطمعون في غيره... لن تروا، لا أنت ولا من يدور في فلكك، نصف كوبيك مني..."

XXXII

لن تستطيع الإفلات من الأجل المقرر لك من الحياة مهما تملّقتَها بالروح والقلب. وكذلك الأمنيات التي ليست في متناول يدك. إن كنت متردداً في أهدافك، وقنعت بما تَحقَّق لك، فأنت تدمر نفسك بنفسك. خزان الماء الخشبي يتقشر إذا كان فارغاً. وإن لم تبدّل ماءه أصبح آسناً. الحياة والموت، والماء والنار، والنهار والليل، ثُنائيات هي أساس حياة الإنسان.

الموت، بأساليب متنوعة، بانتظار كل إنسان. بعضهم حياته طويلة، وآخرون قصيرة. تِبْنُ الشعير يلتهب بسرعة، ولكن نارها تنطفئ بسرعة قبل أن تُشعرك بالدفء. والعود الطري صعبٌ إشعاله غير أنه متى اشتعل احترق على مهل. وإذا فكرت في الموت وجدت سؤاله – جوابه واحداً، ولكن يحدث كثيراً أن يتسبب في تعادي الأهل وتصالحهم.

تختلف ميتةُ قَلوبات العم الأصغر لممت – جري، عن ميتة مَمَقاي الأخ الأكبر لتيمبولات، ولكن السبب في موتهما مأساة الصراع بين عرقين من البشر مختلفين. ثم يُضاف إليه ثأرُ الأعراق، والعداء بين الأهل.

الفارسان اللذان جمعتهما المأساة المفاجئة ترافقا في الطريق وكلٌّ منهما يحمل حزنه في قلبه. وحيث يتجه حصاناهما تبدو جبال الأبزاخ وغاباتها الممتدة إلى ما لا تراه العين. وشمس الخريف تطل على طريقهم المتجه إلى الغرب متجاوزةً الظهيرة. والريف الذي فيه بعضُ الأشجار وأكمات الخوخ البري هادئ. ولكنك لا تعرف رغم الهدوء الظاهري متى سيداهمك الخطر.

وفي هذه اللحظات يفكر الفارسان في أمر واحد ولكن نظرتيهما إليه مختلفتان. التقى الفارسان في بروجني أوكوب وكلاهما مهموم بما جرى للنقيب تورناو. وقد وعدهما الجنرال زاس بأن يلتقي بهما بعد أيام معدودة للبحث في المشكلة التي تقف عثرة أمامهما، وفي حلولها.

قال قرمرز تيمبولات لنفسه "ربما ليس السببُ عدم اهتمام الجنرال زاس بموضوع النقيب تورناو، بل لأنه لا يريد أن يتصرف دون رويّة، فما حدث لنا ليس أمراً عادياً؛ يجب التفكير فيه مع مراعاة كافة جوانبه. وإن لم نفعل هذا فستكون نهاية النقيب على يد من وقع بينهم، وسأخسر ما كان سينوبني منه. ما حدث له ذنبي أنا!.. ماذا كان يضيرنا لو انتظرَنا في غاغرا أسبوعاً ريثما ننتهي من إجراءات مأتم مفدق؟.. وهذا المنحوس الذي صرت رفيقه، والذي لم يستطع تنفيذ مهمته، من أين جاء به ومن عرّفه به؟ من حسن حظي أن باي أخي البائس لم يلتق به... وكيف كان سيلتقي به المسكين الذي فقد كل آماله وحُجِر عليه في البيت؟ أنا ساكتٌ على الموضوع غير أن قلوبات الذي نذهب لأجله هو من سفك دم أخي ممقاي... والأمير الذي يراعي كوني أسنّ منه فيقف على يساري؛ أأنتزع روحه فأتشفى منه؟! يا ربي لا تدعني أفعل هذا. واحمِني بنصيحتك. ولا تدع عواطفي تغلبني. ما الفائدة من أن نتفانى نحن؟.. ومقابل مسامحتي مَن لي عنده ثأر فاغفر لي أنت يا رب كثيراً مما سفكت من الدم!.. "

ممت – جري الذي صار تيمبولات رفيقه فجأة حذِرٌ كأنه يحدس أفكاره رفيقه الذي لا يتفوه بكلمة. وكما تفرض عادات الأديغة لا يجد من اللائق أن يفتتح هو حديثاً قبل الأكبر سناً. ومثلما تتنافر أفكار الفارسَين يتنافر وقْعُ حوافر حصانيهما. سأل ممت – جري نفسه ناصحاً إياها ولائماً "كيف كنتُ أجابه من عيّرني بأنك " لم تستطع حماية من اعتمد عليك، ونجوت بنفسك؟" في كلام قرمرز شيء من الحقيقة ولكن ليس الأمرُ كما يظن. أنا عملتُ ما أقدر عليه. صحيح أني أشعر بالعار مما جرى لنا ولكني دفعتُ تامبي عديم الشرف إلى إرسالي إلى بروجني أوكوب، وقابلت اليوم الجنرال الذي لم نحصل منه على جواب... لا أكتم يا قرمرز أنه كانت لي مصلحة في موضوع النقيب تورناو كما لك، غير أني لم أتمكن من إنجاز المهمة كما سمعتَ، ولم أستطع أن أكسب الوقت لمصالحة والدي وأخيه الأصغر... الموتُ يُصالح الناس المختلفين ولذا سأقنع نفسي بالحكمة من وراء موت عمي.

– أراك لا تقول شيئاً يا أمير؟

– وماذا أقول يا كبير، أنتظر كلامك أنت.

– أنا عندي كلام كثير... – تنهّد قرمرز تيمبولات بسبب ما يقلقه،– ولكن لما كان عمك الذي جلب لنا العداء بين الأسرتين فسنعتبر عداءنا انتهى اليوم وإن كنت لا أعرف رأيك.

– إن كان هذا رأيَك فأنا أعرف ما سأجيبك به، – سحب ممت – جري خنجره وهو يلجم الحصان.

– ماذا تنوي؟! – سحب تيمبولات أيضاً خنجره.

– إن كنت تريد صلحاً بين الأسرتين فاسفِكْ دمي يا قرمرز. لا يمكننا أن نتصالح دون هذا.

– دعني من تصرفك الأخرق! – ارتفع صوت قرمرز من سلوك رفيقه غير المتوقَّع، – إن كان هذا ما تريد حققته لك! – جرح تيمبولات ساعد الأمير، ثم صالحه: – والآن إذ ثأرت لأخي دعني أعتني بجرحك.

– هذا جرحٌ لا يُعتَدُّ به... – غيّر ممت – جري الموضوع متظاهراً بعدم الاهتمام بجُرحه: – ما يشغل بالي هو من تأتي على ذكره وتركتُه بين الأبزاخ. ولم أفهم سبب برودة موقف الجنرال زاس.

– ماذا؛ هل كنت تريد أن يبكي في حضورك؟ كيف لنا أن نفهم حُبثه إذا كان هو لا يعرفه... كنتُ عتبتُ عليك ولكنك أنت أيضاً لم تقصِّر في شيء. فعلتَ من أجله ما تستطيع – أوْصلتَ رسالة النقيب إلى الجنرال، وأطلعتني أنا عليه. ولكني أريد أن أسألك يا أمير في موضوع آخر إن لم يكن سراً: ألم يكن بينك وبين النقيب أي موضوع غير إطلاق سراح عمك؟

– لا، – حسم ممت – جري الجواب، وردّ عليه بسؤال: – مثل ماذا؟

– ومن أين لي أن أعرف؟ أتساءل فحسبُ إن جرى بينكما حديث ووعود...

– لم يخطر لنا مثل هذا البتة. ولكن الله لم يحقِّقْ هدفه ولا هدفي.

– ما العمل؟ هذه حال دنيانا!

– نحن لا نبكي يا تيمبولات وإن كنا نعيش في عالمٍ صعب. نحن أحرار. دعْنا نتصرف مع من وقع في مأزق بطريقة ما دون انتظار الجنرال زاس.

– لن يدعَنا الله نتركه في شِدّته لأنه يعرف أننا أعطيناه عهداً. ولكني لا أعرف ماذا كان سيتصرف نحونا لو وقعنا نحن في موقعه... من غيرُك عليّ تعزيتُه من أجل عمك الذي نسافر من أجله؟

بعدما مشى ممت – جري مسافة قال بصوت منكسر:

– عاش عمُنا وحيداً بلا أسرة، عاش حياته على طريقة المجاهدين – اللصوص، لا يعدِل شيئاً بحريته وتشرُّده. وموطنُه حيث يتوقف. ولكني لا أعرف أين دفنوه...

– ما أسهل معرفة هذا يا أمير، – قال تيمبولات بصوت رحيم: – متى وصلْنا إلى فوزنيسين طلبنا من ليفاشوف أن يخبرنا.

– إن كنتَ ستطيعني يا تيمبولات فلا تدعْنا ندخل القلعة القوزاقية التي مات فيها عمي مُكرَهاً... ليس لأني أغيّر موقفنا من الروس الذي جمعَنا...

– وأنت من أين تعرف موقفي من الروس؟! – التفت قرمرز غاضباً نحو الرجل الذي يحاول كسْب ثقته، وألحّ عليه بالنبرة نفسها: – أنا لا أرى فوزنيسين للمرة

الأولى إن لم يكن لك أنت ما تفعله فيها. لا تضعني إلى جانبك بعد الآن في موضوع جاسوسك! هيا إن لم تكن تريد فلا أجبِرُك. ولكن، إذ جعلتْنا مأساتُك رفاقاً، فسنسأل عنه متى عبرْنا نهر لابا لأن عمك الذي سفك دماء الكثيرين من أديغة وروس ونغوي وقوزاق يجب أن يكون معروفاً.

– أظن رُصّاد القوزاق يعرفون المكان الذي نُقل إليه جثمان عمي المرحوم...

– قال ممت – جري في إثر الفارس أمامه، غير أن من وجّه حصانه نحو نهر لابا، تيمبولات، لم يُجبْه.

حين ترجل الفارسان عند باب دار الحاج جانسعيد[1]، ودخلا مضافته، وتبيّن أن المضيف ذهب إلى صلاة العشاء نقل تيمبولات إلى مت – جري، لوْمَه:

– ونحن نسينا يا أمير إن كان هناك صلاة!

– لا بأس؛ إن لم نلحق بالمسجد فسنصلي قبل أن يعود لأن ماء وضوئنا جاهز.

---

[1] "كان بيت جانسعيد في الغابة، متميزاً من البيوت المجاورة بمتانته وجماله. –غُرف المعيشة والمخازن وإسطبلات الخيل والمواشي محاطة بسور عالٍ. وأشجار عالية مدوّرة الرؤوس تُظلّ الدار كلها. وكان ما رأيتُه في بيت جانسعيد يشهد على تقدُّمه بخطوات على أبناء قومه في الاستفادة مما يجعل الحياة سعيدة. وكان يُعَدّ من أغنى الأبزاخ بغلاله، وخيوله الممتازة، ومواشيه،وعبيده المئة. وكان كلُّ ماله من كدِّ يمينه. صحيح أنه لم يجنِ كل هذا بالمحراث وبالفأس بل بالسيف في يده. وليس من كبار الأمراء كما حالُ تامبي وحمرزقوه. ولكنه كان يعلو الأمراء الكبار بقتاله وحكمته. ولم يصدف أن تخلّف عن غزوٍ أعتى رجال القوزاق، ومجابهة جيوش الروس. ولا يعرف التعبَ وإن كان تجاوز السبعين، وجسده مليء بالجروح والندوب. وأينما سُمع صوت إطلاق نار أسرع بحصانه إليه. ويتقدم الجميع في العمل في كل زمان. ويجبر الكسالى على الاقتداء به. وكان حجّ مرتين، وفي كل مرة يروي مفتخراً أخبار لقاءاته برجال الجيش الأتراك. ويقيّم منجزات هؤلاء وأفكارهم رغم عدم فائدتها للأديغة. ولم يكن لديه أدنى شك في أن الأديغة سيخسرون مع الزمن الحرب ضد الروس. ولكن كان يتأمل أن يرحل إلى الدار الآخرة قبل هذا. المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

عاد جانسعيد بخطا ناعمة إلى البيت وضيفاه يصليان، فأشعل الحطب القريب من الموقد حتى لا يُفسِد صلاتهما. ثم استقبل بوجه طلْقٍ من كان وجهاهما إلى القبلة:

– تقبّل الله صلاتكما أيها الضيفان. وسأل الأميرَ غير مدرك ما جمع العدوين السابقين اللذين بينهما ثأر: – ما أسرع ما رجعت يا أمير؟!

– عمُّ الأمير ممت – جري رحل عن الدنيا، – أجاب تيمبولات قبل المسؤول.

– والله ما سمعته محزن، – نظر جانسعيد نحو تيمبولات وعزى الأمير: – كان قَلوبات رجلاً أديغياً حقيقياً. جزاكم الله خيراً. متى جرى هذا، وأين الجثمان؟ هل سلّمكم إياه القوزاق؟

– لم يأْلُ القوزاق جهداً، ما نعرفه هو أنهم سلّموا جثمانه إلى أهل من كان أسيراً معه وافتُدِيَ. ولكننا لا نعرف شيئاً عمن استلموه ولا عن مكان دفنه. كائناً من كان مُستلِموه فقد دُفن في أرض الأديغة وفق الطقوس الإسلامية،

– اختتم جانسعيد الذي يرتدي عمامة صفراء وهو يهز برأسه غير الكبير،

– ولكن الأرض التي مات فيها قهراً أرض أديغية أيضاً. قوِّ قلبك يا أمير، سنجد غداً بإذن الله القرية التي فيها قبرُ عمك. وإلا ركبنا حالاً إلى حجرت نقار الذي يعرف كل ما يحدث في إقليم الأبزاخ.

– حياك الله يا حاج ورضي عنك، – قال ممت – جري مرتاحاً، لن ننطلق وقد حلّ الظلام، غداً يوم آخر.

– حسنٌ إذن. ولكن الأبزاخ بكاملها ستتكلم في ما جمعكما أنتما فأعلِماني إن لم يكن سراً، – سرتْ على وجه الحاج الأسمر النحيف ضحكة خبيثة، – أقصد حكاية الضابط الروسي " الحاج حسن الشيشاني " الذي اختطفه منكما تامبي وحمرزقوه... – كان جانسعيد فكّر في الثأر الذي بين جليسَيه الاثنين، غير أن ما سأل عنه شيء آخر.

– وكيف يبقى الخبر المتناقَل بين الأبزاخ سراً؟! – ابتسم قرمرز تيمبولات وهو يقول في نفسه " حدث ما كنتُ أتوجّس منه " – ولكني سأجيبك يا كبير إذ سألتَني: – إن كنت تتذكر في الشهر الماضي حين رأيتمونا في مضيق لابا وأنتم تصلون صلاة الصبح، وعرّفتك بـ "الحاج الشيشاني" فلن أستطيع أن أقول

الآن، ولا تؤاخذني، شيئاً آخر. ليس لأني لا أثق بك بل لأني أظنه يحتاج إلى وقت.

– ولماذا أؤاخذك؟ يحدث كثيراً أن لا تعثر على ما خبّأته وما حفظته. ولكن ليست المسألة ملحّة الآن كما تفضّلتَ، بالله عليكما أن تذوقا من الطعام، لا تدَعاه يبرد.

"إن كان موضوع الأسير الروسي تورناو هو ما يخفيه هذان فلماذا يكتمانه عني؟ أجاب ممت – جري على السؤال الذي يدفعه إليه توجُّسه: " لم ألاحظ على قرمرز إلى الآن حتى وصولِنا إلى هذا مثل هذا. غفر لي ثأره ولكنه لا يغفر لي عجزي عن حماية النقيب. لا أعرف العهد المتبادل بينهما حين كان يدور به، ولكن لم يكن عليّ مهمة حماية من صرت رفيقه. ولم أتسبب في ضلاله عن الطريق الذي لا يعرفه إلى أن قطعنا نصفه... والحق يقال إن من استخلص منه تامبي وحمرزقوه المعلومات التي تسبّبت في أسْرِه هو أنت يا تيمبولات، بل أعرف شيئاً عن الاتفاق الذي كان بينكما. وليس النقيب من أخبرني، بل هو تامبي، حين أرسلني، دون أن أعرف السبب. وعلى ما يبدو لم يخدعني... وموضوع المرحوم عمي تعثّر في منتصف المسافة. لا أريد أكثر من أن أدعو له على رأس قبره... هل أتجنب بهذا قضايا الأديغة؟.. "

وما يفكر فيه الحاج جانسعيد وهو يكلم ضيفَيه بفمه شيء آخر: "هذان أطلعاني على خبر المأتم الذي يتابعانه لعلي لا أعرف عنه شيئاً. ولكنهما لا يأتيان على ذِكْر المكان الذي اجتمعا فيه. أيكتمانه عني أم يتجاهلانه؟ سنرى ما يحدث غداً متى ترافقْنا على الطريق. لا يهمني موضوع عداء هذين وتصالُحُهما. – تابع الحاج أفكاره عندما أوى إلى الفراش. – ما يهمني هو ما ينويه تامبي وحمرزقوه لأسيرهما حقيقة. وهذان كان زاس يستضيفهما في الشهر الماضي كما يفعل بآل قرمرز. ولكن لا أعرف لماذا لم يصبح الجنرال المخادع موضع ثقتهما. وعلى ما كان حجرت نقار أخبرني فبعض الأديغة متورطون في هذا الموضوع المعيب... وإذا كان كلٌّ سيتصرف وفق مصلحته الخاصة، وكان الأمر مثل تصديقي أمر "الحاج الشيشاني" حين قابلَني مع أني شككتُ فيه، فسيقطِّعنا غزاتُنا إرباً إرباً. وبولتقوه وقانقوه وشلَحُ يقلقون لهذا، غير أننا لا

وحدة بيننا أمام العدو وكلٌّ منا ينقض كلام الآخر. وهل من فائدة في تشبيه الأديغي الحر بالطائر الحر؟ الأعداء يعرفون شجاعة الأديغي إلا أنه لا يمكن حماية العِرق بالبطولات الفردية. وعلى رأي قانقوه فعلينا أن نتوحد بدءاً من الأمراء والنبلاء وانتهاء بعامة الفلاحين... "

سافر الضيفان اللذان لم يستغرق فطورهما كثيراً من الوقت مع المضيف. وبعدما ساروا قرابة الساعة التقوا بمن كانوا يقصدونه: حجرت نقار.

قال له جانسعيد وهو يحييه:

– صباح الخير وطريق الخير معاً يا نقار. كنا في طريقنا إليك.

– قد يكون قولهم يا حاج:إن القلوب والأرواح تتخاطر،صحيحاً. وأنا كنت أقصدك. – وقال لتيمبولات محدّثاً نفسَه: ما الذي جمع هؤلاء: – "عاش من شافك" يا قرمز، نسمع أخبارك ولا تسمح لنا أن نرى شخصك. وإن لم أخطئ فرفيقكما هو الأمير لُوَ ممت – جري... – حين كان نقار يترجل فهِم الثلاثةُ مقصده فترجلوا. – عزاؤنا لكم في المرحوم قَلوبات، أودعناه الثرى.

– حياك الله يا نقار. كنت أودّ معرفة مكان قبر عمي إن لم يصعب عليك.

– وهل يصعب عليّ طلبُك يا أمير؟! – قال نقار وركب وهو ينظر بطرف عينه إلى قرمز تيمبولات. – دفنّا قلوبات أيضاً في تلة الأبزاخ التي ندفن فيها ضحايا اعتداءات القوزاق.

لم يُبِن تيمبولات الحزن على وجهه حين سمع اسم التلة التي دُفن فيها أخوه مَمّقاي مع أن الألم عصر قلبه، مقتنعاً بأن الله قدّر الأمر. وركب مرتاحاً لأنه كان السبب في الصلح بين أسرتين. وتذكر، وهو في هذه الحالة، الكلماتِ الحزينة التي كان رواها أخوه وهو يُحتضَر في شأن "طلقة الرصاص وطلقة الذهب".

ولكن ما قاله حجرت نقار أنساه تلك الكلمات:

– والله لا أفهم يا تيمبولات كيف سمحتما، أنت والأمير، للجاسوس الروسي الضابط الذي رافقكما أن يخدعكما... سمحتُما لتامبي وحمرزقوه أن يغلبكما... وهذا لم أعد أستغربه، بل أعجب ما أتعجب منه هو ما سمعته عن الخلاف الذي ينشب بين الأميرين.

– وماذا يمكن أن ينشب بين من يلتحمان بماء العسل؟– تظاهر الحاج بجهله للخبر.
– لا يتفق الجشِعان على تقاسُم ما سيجنيانه من فدية الأسير... – ابتسم نقار من تحت شاربيه ثم سأل ممت – جري: – وهل الخبر الذي يتردد في تامبي حابله من أنهما أوفداك إلى الجنرال زاس صحيح يا أمير؟
– لا عِلْم لي بالخلاف بين الأميرين اللذين ذكرتَ اسميهما يا نقار. ولكن إرسالي من قِبَلِ تامبي لإخبار الجنرال زاس صحيح... وأقول لك بصفتي الوحيد العارف بأمر فدية الضابط الروسي، بالإضافة إلى من كان الأسير في بيته: حسب ما ورد في الرسالة التي أرسلني بها الضابط الروسي إلى بروجني أوكوب فقد حسم بنفسه هذا الموضوع.
– وهل كان تامبي يعرف ما فيها؟ – تعجّب جانسعيد مما سمع.
– لا.
– ألستَ تُسدي معروفاً إلى الكافر بهذا إذن؟.. – سأل حجرت نقار، وحثّ حصانه دون انتظار الجواب.
رضخ ممت – جري لِما كان ينتظره، كاتماً ما يعتمل في نفسه، قائلاً في سِرّه: " أستحقّ ما عرّضْتَ به إليّ... " ولكن كيف تفهم عدم مشاركة تيمبولات خيراً أو شراً في الحديث الدائر حوله؟ أستغرب عدم إسهامه في الحديث رغم تشارُكِنا في معرفة أخبار النقيب. أيريد أن يتجاهل أنه أوصل النقيب الذي يدور به إلى غاغرا، ويتهمني بكل ما جرى؟.. ماذا إذن إن أخبرتُ هؤلاء بما أعرف عنك؟.. الأفضل ألا نصل إلى هذا الموقف... "
ترجل الفرسان الأربعة الذين لكلٍّ منهم وجهةُ نظر مختلفةٌ في موضوع الأديغة على سفح الجبل الأبزاخي، وتسلقوا على الأرجل. وقال الحاج وهم يقفون إلى جانب القبر الذي لم يجف ترابه بعد:
– دعونا ندعو لقَلوبات الذي بدّل دنياه. – وبعدما تلا الأربعة دعاء باللغة العربية أضاف جانسعيد بالأديغية: – نحن راضون عنك يا قَلوبات حتى لو لم تعش حياتك كما تريد وكما نريد. ولْيرضِ عنك الله الأحد العزيز الذي انتقلت إلى جواره. وليفتح لك باب جنته!

– آمين! – ردد الأربعة، ولكن تيمبولات ترك رفاقه وتوجه إلى قبر أخيه ممقاي مردداً في نفسه: " ليت ممقاي لم يقضِ على يدك!"
ولما توجه ممت – جري إلى تيمبولات همس نقار في أذن مَن لآل قرمرز ثأر عنده:
– إلى أين يا أمير؟
– لا، لا، سأُسمعه على مسمع منكم اعتذار أسرتنا.

XXXIII

– يجد تامبي أسلانبج ما يُزجي به وقته... – ابتسم نقار وهو ينصت إلى صوت الربابة.
– ربما ينفِّس بها عن كربه... – وافقه جانسعيد الذي كان يترجل من حصانه.
– تفضَّلوا أيها الضيوف الأعزاء، تفضلوا!، – نظر إلى ممت – جري بطرف عينه، وهو يستقبل بوجه طلق ضيوفه غير المنتظَرين، ما يعني "وأنت ما الذي جمعك بهؤلاء؛ أهُم وسطاؤك؟ – أنتم جماعة كبيرة، وهذا يسرني، يسرّني... أين أنتم يا بكر؟ هيا أخبروا النساء أن يُعِدّوا لنا مائدة جيدة.
– لا تجزع يا أسلانبج! لا تظننا ضيوفاً، – قال الحاج جانسعيد، – نحن جئنا في مهمة.
– لا أغبط من لا مشاغل لهم يا حاجّ. وأنا بفضل الله أُبعِد الكسل عني. إذا دخل بيتي أمثالُكم أيها الكبار...
– صحيح يا أسلانبج، صحيح، – قاطع حجرت نقار المضيف، – لا تدعْنا نطيع كبيرنا جانسعيد هذه المرة، واستقبال الأديغة للضيوف لم يبدأ من عندك، ولا يجوز أن ينتهي بك. وهل يحل قرمرز تيمبولات ضيفاً عليك كل يوم! لا تؤاخذني يا ممت – جري، وأنت لستَ بعيداً عن هذا الحكم، ولكن المأساة التي جرت لك...
– ماذا يا أمير؛ هل أهانك مَن أرسلتُك موفداً إليهم؟.. – تلهّف تامبي أسلانبج على معرفة النتيجة.
– من أجل هذا كنتُ أريد ألا نستعجل على المائدة، – قال الحاج، ثم أضاف:
– عمُّ الأمير ممت – جري فارق الحياة.

– لم أعرف كأننا لم نعد نقيم في الأبزاخ... – غمغم تامبي بسبب دخول الموضوع على خط المهمة التي أرسله من أجلها أكثر من حزنه على المتوفى، ثم عزّاه: – عوّضكم الله خيراً يا أمير. كان رجلاً من رجالات الأديغة. كان بالقياس إلى والدك بَدِس، ولا بأس في أن لا يعجبك ما أقول، مذكوراً بالخير بين الأبزاخ. أسامحك إن لم تستطع الوصول إلى بروجني أوكوب كرمى لعمّك.

– لم أفعل شيئاً تسامحني عليه يا أمير، – قال ممت – جري معتداً بمن رافقوه، – وصلتُ إلى بروجني أوكوب ولم أعد بلا جواب، بل بانطباع أنهم سيلبّون طلبك.

– ألا تقول هذا يا مبارك النسل! – ارتفع صوت تامبي فرِحاً، ثم نظر إلى تيمبولات مموّهاً انفعاله. – سامحوني، بيني وبين الأمير ممت – جري مهمة غير منجزة. والحق أنها لم تعد سراً عليكم وعلى غيركم. أتكلم على الجاسوس الروسي الذي ألقينا القبض عليه قبل ليالٍ. وكان معه الأمير ممت – جري، ولذا تعرفون ما يخطر في بال المرء من شكوك...

– إذا كنت تتكلم على الحاج الشيشاني، – ابتسم قرمرز تيمبولات، – فقد رافقّنا نحن أيضاً.

– بالضبط، – بدا على لون تامبي وصوته سعادته بما يقول، – هو نفسه لا يكتم وضْعه. وإن أردتم قابلناكم به.

– وما حاجتنا إليه؟ وهل نرى القوزاق لأول مرة؟ – حسم الحاج جانسعيد، ثم عاد فوافق: كفى، إن كنت سأرى الجاسوس المعتمر قبعة الحجاج التي تليق بالكثيرين فلا بأس.

– إذا كانت القبعة الأديغية ناسبت القوزاق بإلباسها غطاء أحمر فلا بأس أن يلبسوا قبعة الحجاج. ولكن هؤلاء لن يقبلوا أبداً الاهتداء إلى الإسلام، ولن يقبلوا بالحج، – اختتم حجرت نقار كلام الحاج سعيد.

– هؤلاء إن كانت لهم مصلحة يا نقار، وأنت تعرف هذا، حجوا أيضاً، وسيطروا على ما يقدرون عليه من العالم، – صاح تامبي من الغرفة إلى من في الخارج وهو غاضب على القوزاق: – هيا، هاتوا الجاسوس! من سترونه يا حاج ليس مجرد ضابط عادي، يقول إنه من نبلاء الألمان الذين تحولوا إلى روس. نعم

يا نقار أنت مصيب في كلامك، هو من الألمان، من الأصل الذي ينتمي إليه زاس أيضاً. ألا يقولون: لا يتزوج اثنان غيرُ متشابهَين، ولا يتراقصان!
حين اصطُحِب إلى المضافة تورناو الذي لا يمكن تمييزه من الأديغة لولا أنه لا يرتدي قبعة أديغية، سواء ببشرته السمراء، أم بملامح وجهه، قال للحضور كأنه يعرفهم طوال عمره:
– نهارُكم سعيد أيها الأمراء.
– تفضّلْ إلى هنا واجلسْ ولو أنك أسير! – ردّ جانسعيد على تحية النقيب.
– ارتاحوا! أنا أصغر من رفيق طريقي ممت – جري، سأجلس في المكان المناسب على يساره.
– لا! – لم يقبل تامبي. – ألا يكفي ما خدعْتَنا، أنا وقرمز تيمبولات ولُوّ ممت – جري! اجلس عند الباب حيث يليق بك أسيراً.
– إن كان هذا ما تريد فلن أجلس يا أمير، سأبقى إلى جانب قائمة الباب.
– اسمعوا ماذا يقول... – ابتسم تامبي وقال للحاج الجالس في الصدر: – أترى يا جانسعيد كيف يقارن نفسه بنا؟ لا يرضخ لحقيقة كونه أسيراً.
– لا تستغربْ هذا، – قال حجرت نقار، – لُوَ قَلوبات أيضاً توفي غيرَ معترف بأسْرِه. ليوجِّهه اللهُ إلى الخير حيث رحل!
– عزائي لك يا أمير، – دان النقيب نفسَه: – اعتقلوك معي دون ذنب فلم تستطع أن تقوم بواجبك نحو عمك. وأنت أيضاً يا تيمبولات، – توجّه إليه أيضاً كاتماً عن الحضور نظرته المتأملة، – سمعتُ أنهم يعيّرونك بمرافقتك لي فاغفر لي إخفائي حقيقتي عنك.
– العالم مفرق طرق كثيرة، – اختتم نقار أقوال النقيب، – وستلتقي في طرقه الكثيرة بصديقك وعدوك، بمن تحب ولا تحب، وتقطع معهم مسافات كبيرة. لا يجوز أن تدين نفسَك لهذا السبب. اجلسْ دون حياء سواء كنتَ تخدعنا أم لا.
– إن كنتم لا تأنفون من الجلوس مع أسيرنا فلا بأس... – قال لهم تامبي أسلانبج معترفاً بأنه لا يسيطر على ما يجري في مضافته، معتزاً بما فعل هو: – ولكننا، حمرزقوه وأنا، لم ندع هذا يخدعنا.

– بالقياس إلينا، ممت جري وأنا، يا أسلانبج، – لم يتناس قرمرز تيمبولات ما وُجِّه إليه من تلميحات، – فأنتما تكشّفتما عن دهاء... ولكننا نحن أيضاً عندنا بعض الاطّلاع على هذا الموضوع فالأفضل أن نتجاوزه...

– لا تقف إلى جانبي يا بكر؛ أنا لي كلام مع جانسعيد، – اقتحم دداي المضافة صارخاً.– هل ترى يا جانسعيد كيف يقف هؤلاء في طريقي؟ من أين لبكر وجماعته أن يعرفوا كم نفعَتْنا رُقْيتك أنا وأمي؟ جئت لأشكرك فحسبُ. هذا حسنٌ، غير أن شيئاً آخرَ يقلقني: ماذا تنوون بحقِّ من يسمّيه أسلانبج جاسوساً؟ ثم إنكم تلبسون قبعات، وهذا أليس رجلاً؟ لماذا هو حاسرُ الرأس؟

– دعْنا من ثرثرتك! – لم يصبر تامبي عليه، – ما هذا الهراء؟ ألا تسمع أمك تناديك!

– إذا كانت أمي تناديني فأنا منصرف. ولكن إذا كانت زوجتك قُجَنِس لا تستطيع خياطة قبعة للجاسوس فسأعطيه قبعة والدي.

– لا بأس إن كانت على قياس موفَد من قتلوا والدك... – توقف دداي الذي لحقه تامبي بالكلام مازحاً.

– إن لم تكن على قياسه وسَّعْناها.

– أيها الأمير تامبي، – عاتب نقار أسلانبج، – كم مرة طلبنا منك ألا تناقش دداي!

– سأروي لكم إذن خبراً آخر، – ردّ عليه دداي وهو على الباب. – حين عرف التركي عبد الله أنكم مجتمعون هنا غيّر وجهته واتخذ من داور أَلَمْجري مضيفاً.

تبادل قرمرز تيمبولات والنقيب تورناو نظرات صامتة. والآخرون لم يعرفوا تفسيراً للخبر المفاجئ. ولكن الحاج جانسعيد كسر الصمت:

– يدلِّلُ نفسه؛ يريدنا أن نرسل وراءه.

– وماذا يريد هذا؟

– يتابع أموراً كثيرة متذرعاً بأنه موفد الإسلام... – ساهم تيمبولات في الحوار مخفياً قلقه، – سترون إن لم يأت في أقل من ساعة قائلاً: لم أعرف أنكم

مجتمعون بهذه الكثرة. وعلى مبدأ المثل الشعبي: من تأتِ على ذِكْره تجدْه على عتبة الباب، ها هو آتٍ برفقة ألمجري، – ما رآه قرمرز من النافذة صدّق توقُّعه.

– سلام عليكم يا جماعة الأديغة الذين ﷺ، – حيّا عبد الله أفندي الحضور، وقال دون أن يعبأ بإشارة الاحترام التي قابله بها الجالسون: – انظر ماذا أرى... أما قلتُ لك أيها الضابط الروسي إننا سنجتمع ثانية؟ أين عمامة الحج إذن؟

– إن اعترفت لنا بحقيقة كونك ضابطاً تركياً، – ردّ النقيب على من كان يتجبّر عليه، – فسأخبرك أين عمامتي.

– سترون يا مسلميَّ الأعزاء سلوك هذا المجرم الكافر معنا وقد حرفكم إلى المسيحية، واحتل أرضكم...

– اسكتُ يا عبد الله أفندي، – قاطع حجرت نقار الثرثار المتشوق إلى الكلام، – نحن انتهينا من قضية الجاسوس الذي تماريه. وأنت لم تأت إلا بهدف معين من تركيا التي تتودّد إلينا لتصيدنا... دعنا نردّ عليك السلام...

– ألم أدعُكم تفعلون هذا؟ – سأل عبد الله أفندي مموّهاً أقواله وأفعاله، ولام نفسَه: – هذا ما يُصيبني متى رأيت الكفار... ولكن إن لم تكونوا أنتم مهتمين فما شأني أنا به؟ أهنّئكم إن كنتم انتهيتم من قضيته. ما يقلقني أنا هو اختلاف زعماء الأبزاخ الذي لا يرضى به الله من أمته. دعُونا نُصالح الأخوين الأميرين حمرزقوه بما لا يخالف أوامر الله.

– هذا هو قصدُك؟ – ابتسم جانسعيد في سِرّه.

– نعم يا حاج، نعم. التقيت بأسلانجري وعادل– جري كلاً على حدة. وأعلماني موافقتهما.

– حسنٌ إن لم يتراجعا... – لم يُخفِ قرمرز تيمبولات شكَّه.

– إن قبلت غُشَفج، أختُ الأمير قانقوه بما فعلوا بحميها فلا بأس، – تظاهر نقار أيضاً بالموافقة.

– متى صارت قضايا الرجال عند الأبزاخ من شأن النساء؟.. – غمغم ألمجري كأنه لا يريد إسماع نقار، واختلس نظرة إلى تامبي.

ابتسم تامبي أسلانبج في سِرّه قائلاً:" لو كنتم تعرفون حمرزقوه أسلانجري كما أعرفه أنا! " وأضاف إلى من يحقد عليه: "كنت أفضّل أن تدَعوا عادل – جري يقتله بدلاً من أن يصالحه... "

XXXIV

كان الجنرال زاس قرر بعد انصراف تيمبولات وممت – جري من عنده السفر فوراً إلى ستافروبول ومقابلة الجنرال فيلياميتوف قائد جيوش شمال القفقاس. وبعد أقل من ساعة صار على الطريق برفقة عدد من الفرسان القوزاق.

الجوُّ الخريفي معتدل. وحين تحجب السحب القادمة من الشرق الشمس تنتشر رائحة البرد على امتداد مئة فرستٍ في السهل الضيق بين مرتفعات ستافروبول ونهر بشزه. والهواء الذي يهبّ على المرتفع الصخري يرجّ عربة الجنرال. ويحتدّ وقع حوافر خيل الفرسان أمام العربة ووراءها.

وأفكار الجنرال زاس مشتتة كحال الطبيعة. وهو مهموم بردّ فعل الجنرال فيلياميتوف المعارض منذ البداية لمشروع إرسال النقيب تورناو جاسوساً إلى أرض الأبزاخ، وبما سيدافع به عن نفسه ويحميها بها. وقد وقع في مآزق كثيرة في السنوات التي جاء فيها إلى القفقاس، ونجا منها. ولكن ما جرى له الآن لا يستطيع حلَّه وحده: هذه المشكلة تتجاوزه هو وفيلياميتوف وروزين، إلى القيصر نفسه. وهذا القيصر هو الملجأ الوحيد له آخر الأمر. ولا يعني هذا عدم الثقة بروزين، ولكن من يعرف كيف سيتصرف مع من أخفق مشروعُه.

قال الجنرال زاس وهو يبعد كتفه عن نافذة العربة التي تأتي منها الريح الباردة: "لم أر من العجوز روزين ما ليس محموداً" وخطر له فجأة أن يغيّر طريقه ويتجه إلى بيتاغورسك حيث يستريح روزين ولكن لم يجد من اللائق تجاوُزَ رئيسه المباشر فيلياميتوف. يمكن أن يقول لي: "لماذا فعلتَ هذا دون استشارتي وإذني؟" وهو بغضّ النظر عن كل شيء يكرهني إلى العظم. "يسخر مما أقول ويَكرهني على ما أفعل. ومهما تصرف فيلياميتوف معي فهو جنرال لا يفتقر إلى الرجولة والذكاء. ولا يسميه الشراكسة عبثاً بالجنرال الأحمر. وأنا يناديني هؤلاء بالجنرال الأصهب. ويسمونني أيضاً "قاطع رؤوس الشراكسة". ولكن مهما فعلتُ بهم وفعلوا بي لم يبتعدوا عني. ومهما تلمّسوا ليلاً ونهاراً قتلي أو

قطع رأسي لم يفارقوا باب داري إن كان لهم رجاء عندي... صحيح أن بيننا حرباً؛ ولكن ألا يجب أن نكون بشراً. أحقق لهم أحياناً بعض مصالحهم، ويحققون لي.الشراكسة يحبون أن تعطيهم شيئاً سراً أو علناً. وهم كرماء كذلك. إن كنت ضيفاً، كائناً من كنت، كرّموك بلا حدود. ولكن لا تعترض طريقهم إن كانت نواياك مُغرِضة نحو أرضهم وحريتهم... ما أخبار تورناو يا تُرى؟..

– تألم قلب زاس. – أنا من تسببتُ في المهمة التي كلّفوه بها... "

– إلى أين وصلْنا؟.. – لاحظ الجنرال تجاوُزه قرية قرمرزايه على يسار نهر بشزه، غير أنه سأل السائس القوزاقي، وامتثل لعينيه قرمرز تيمبولات فأمر السائس بالوقوف.

خرج الجنرال من العربة وتوجه نحو الضفة التي تقوم عليها قرية قرمرزايه فأحاط به الحرس من كل جهة. والصبيّان النغوي، بائعا السمك اللذان شهدا المنظر ارتقيا الضفة بسرعة. واجتمع في لحظات عدد من الفرسان لا تعرف من أين أتوا. وهددهم أحدهم بقبضته. ولوّح لهم غيرُه بالسيف. قال زاس لنفسه: "انظر كيف يتصرف معي هؤلاء!" ومع ذلك فهذه القرية مما يتوسل قرمرز تيمبولات أن نعيدها إليه!.. يتظاهرون بأنهم صالحَونا ولكنهم لا يُطيقوننا. لا بد أن بعض المحرِّضين لا يزالون فيها. وهؤلاء هل نجمعهم وننفيهم منها؟.. يُلِحّ علينا تيمبولات من أجلهم رغم موقفهم العدائي منا، ولكنه ورّطَنا دون أن يستطيع تنفيذ المهمة التي اتفقنا معه من أجلها. سأُريكم متى رجعتُ من ستافروبول إن كنتم ستلوّحون لي ثانية بقبضاتكم!.. هؤلاء يجب قطع رؤوسهم كما كان يفعل جنكيز خان الذي وزّعهم على أصقاع الأرض، لا أن تترجاهم... " – كانت هذه أفكارَ الجنرال، غير أنه توجّه إليهم لحظة عودته إلى العربة، ولوّح لهم تلويحة الوداع المسالم.

قال لنفسه حين دارت العربة إلى اليسار قبل أن تصل إلى بارسكوفنسك بقليل، واتجهت نحو ستافروبول، وهو يتذكر أنه ترك النقيب تورناو لغازي إمام قبل قرابة شهر ونصف في القرية العمالية القوزاقية: " هذا ما يجري لنا ونحن نتوقع الأفضل من الغد... الوقت لا يرحمنا، لا يوفّر لنا شيئاً. لا يكفي أنه يُجبرنا على انتظاره فيقضي على أنصارنا... لن نهمل النقيب الذي اعتُقِل في الأبزاخ؛

سندبّر له مخرجاً ما، ولكن القوزاق الذين قتلهم الشراكسة في أعالي نهر لابا هم الذين لا أمل في أن يعودوا... حسنٌ أنّ من يرفض افتدائه لا يصيبه اليأس، ولكنه لن يستطيع الإفلات ممن وقع بين أيديهم. على ما يبدو أن ما وعدْنا به قرمرز وما يطالب به تامبي شيء واحد. أقول هذا ولكن لا نعرف بعدُ ماذا يريد تامبي... ولماذا لا نعرف؟ كان ما يطالب به تامبي وحمرزقوه إعادة أملاكهما. الأفضل أن نطمّع تامبي إذ لم يبق لنا شاغل مع تيمبولات... وما يُدرينا كيف سيتصرف معنا غدُنا؟.. "

انحلّت مهمة زاس في ستافروبول خلافاً لما توقّع. كان فيليامينوف مطّلِعاً على ما حدث للنقيب تورناو في الأبزاخ فتحدث بلطف معه، ربما لأنه كان قد هدأ:

– كنت أتوجّس مما حدث يا جنرال، – قال فيليامينوف، – ولو كان الأمر بيدي لما سمحت، لا لروزين، بل للقيصر نفسه، أن يفعل هذا، ولكن، وقد جرى ما جرى وانتهى، بما أننا نحن الاثنين من خطط لما لم يتحقق له، فسنشرع في تحرير النقيب دون إضاعة الوقت. وكان أفضل حلٍّ هو أن ينجو بجلده من آسِريه، وهذه بطولة لا يعجز عنها ضابط روسي.

– فهمتُ، – وافق زاس محدِّثه بسرعة.

– والآن دعْني أستشيرك في موضوع: ابتعِدْ عن قرمرز وممت – جري اللذين عجزا عن تحقيق مشروعنا دون الاستغناء عنهما. ويتعلق بهذا سؤال: هل عندك في الأبزاخ من ينقل إليك سراً أمور النقيب تورناو؟

– نعم عندي! – أجاب زاس مرتاحاً، وأضاف بسرعة: – ولكن لا يعرف أحدٌ غيري اسمه، أقوله لك إن رغبت.

– لا، لا أريد! – أجاب فيليامينوف باختصار. – بل لا تكشفه لي ولو سألتُك، كلٌّ يبقى له سِرُّه إن كان لمصلحة البلاد.

لم يستطع زاس إلا أن يقول لفيليامينوف رغم ارتياحه لإجاباته الموجزة:

– أنا واثقٌ منه حالياً ولكن لا أعرف عمَّ سينكشف مستقبلاً.

– نقضْتَ كلامك يا جنرال، – نهض فيليامينوف بصعوبة، واقترب كثيراً من زاس، وسأله بخشونة وهو يحدّق في عينيه: – ألا تعرف ما يجب أن تفعل بمن لا

تثق بهم؟ أضِف رؤوسهم إلى من علّقتَهم على أعمدة مقرك! نعم يا جنرال، نعم، أنا من يفوّضُك. لا تهتم بأي شخص يعترضك. ولما ودّعه إلى الباب سأله عما كان يربأ بنفسه أن يسأله: – كم يطلب الشراكسة فدية؟ كنت أودّ أن أعرف وإن لم نصل بعدُ إلى هذه المرحلة، – وفسّر عدم معرفته بما يطلب الأديغة عادة:

– أظن أن ما يطلب تامبي وحمرزقوه يعادل ما وعدْنا به آل قرمرز... إن كنت تتذكر فهذان أول من قصدونا. وكنا على وشك الاتفاق معهما.

– أتذكّرُ... وإن لم نكن أخطأنا معهما فقد أخطأنا في آل قرمرز وآل لُوَ. وهذا هو السبب في عدم ثقتي بالشراكسة والنغوي والأباظة.

– وهل في القفقاس عِرقٌ يمكن أن تثق به؟! – سأل فيليامينوف حذِراً وإن كان يبتسم في سِرّه.

– قليل من تثق بهم باستثناء أتباع ديننا الكُرج والأرمن، فالأذريون أتراك وقليلٌ من تستطيع أن تثق به بينهم... على ما يبدو، – ابتسم فيليامينوف ذو الوجه الأحمر، – هذا الارتياب هو حالنا. الأرض التي صارت لنا نبادِلها بأسرانا لدى الناس الذين لم يرضخوا لنا... وإذا دخلنا في هذه العلاقة فهل تعرف ما سيجري لنا؟ لن يرضخ لنا الشراكسة أبداً. ولا يزال أمامنا إخضاع الشيشان والداغستان. ومن الجهة الأخرى... – قطع فيليامينوف ما بدأه. – مهمتنا الحالية إخضاع إقليم الأديغة المهم ابتداءً من القبرتاي حتى ساحل البحر الأسود.

– امنحوني حرية التصرف يا سموَّكم، – شدّ زاس قامته أمام الجنرال فيليامينوف، – أطَهِّرْ لكم في خلال شهرين أو ثلاثة، أي إلى رأس السنة، ضفةَ نهر لابا من الشراكسة. وسأعبر نهر شحَغواشه.

– كنت سأمنحك التفويض لو سمع المسؤولون في تفليس كلامي... – عرّض فيليامينوف برؤسائه الذين لا يودّهم في تفليس، ثم تذكّر عدم حذَرِه، فتراجع عن كلامه: – أقول هذا ولكن هؤلاء مثلُنا لا يملكون حرية التصرف. اعتبرْني لم أقل لك شيئاً يا جنرال ولكن أطلِقْ قوزاقَك المتعطشين إلى الحرب على

الشراكسة. ثم نظر فيلياميتوف بخُبثٍ إلى زاس وقال له: – الأرملة القوزاقية بيترينكو إفروسيّا عاتبة عليك يا غريغوري كريستوفوروفيتش.
– وماذا تريد بيترينكا أيضاً؟.. – سأل الجنرال زاس كاتماً انفعاله الذي بدا على لونه وصوته، ثم بدأ يعدّ ما قدّمه إليها: – أمرتُ ببناء نُزُلٍ لها، نقلتُها إلى فوزنيسينسك تعيش فيها، وأمرت بمنحها البيت والأرض التي تسكن فيهما، وشغّلتُها في مطبخ الجيش. وماذا أقدّم لها أكثر من هذا؟
– هي راضية عنك في هذه الخدمات، – لم يملك فيلياميتوف إلا أن يبتسم، – ولكنها عاتبة عليك لأنك لا تسمح لها بالاختلاط بالرُّصّاد القوزاق. وليس هدفها الاختلاط بهم فحسبُ بل أن تؤلف مجموعة من الفارسات.
– لو كانت النساء الشركسيات يتصدّين لنا لسمحنا لبيترينكا أن تؤلف جيشاً من النساء القوزاقيات... – أجاب زاس جادّاً، ثم حسم الموضوع: – لن أحقق لها هذا المطلب فيسخرَ الشراكسة مني!
– أوافقك، – صافح فيلياميتوف زاس مودّعاً، ولمح له باسماً، – ولكن بيترينكا لن تستسلم.
– إن لم تستسلم، – أجاب زاس هازلاً، – فسأقدّمها للقوزاق ذوي الغرر على جباههم. وإن لم يكفِ أرسلتُها إلى شركسي عازب.
لم يكن زاس نام ما يكفي في الليل فظل يفيق ويغفو على الطريق، ولم يلاحظ قرية قرمرزايه التي تلقّى من أهلها التهديدات في طريقه أمس. ومن لم يكونوا يفارقون ذهنه وخياله أشخاص معدودون، وهم تورناو النقيب، وقرمرز تيمبولات، وإفروسيا بيترينكو، وحجرت نقار، ومن صار جزءاً من الأديغة براغونوف ميشكا. وكان يُضاف إليهم أحياناً جانسعيد وفيلياميتوف. ولم يكن تامبي وحمرزقوه يغيبان عن ذهنه... – نصح زاس نفسه بنفسه: – هؤلاء أعداء واضحون لنا، خدعونا وأهانونا. ماذا يمكن أن يغيّر قرمرز في هذا الموضوع؟ وانقطع ذِكْرُ غازي إمام البتّة. ومن حُسن حظنا أن باي محجور عليه في البيت وإلّا ما كان سمح لنا أن نرى النقيب ثانية... وحجرت نقار وجانسعيد؟.. هذان مخادعان بابتسامات صفراء. مهما تودد إلى الشراكسة فهم كما يقول فيلياميتوف لا يصدُقون ولا يثبتون على موقف. وماذا تريد بيترينكا المرأة

المخادعة بعدُ؟ لا يكفي أن تكون قادراً على امتطاء الحصان... أنا أعرف ما تريده: إن رأت، بحجة مقتل زوجها، قوزاقياً بقبعته الحمراء فهي مستعدة، لا لأن تنضمّ إلى مجموعة، بل إلى جيش مشاة... "

صحا زاس من أفكاره حين خفّفت العربة سرعتها على جزءٍ من الطريق محفَّرٍ. ولما رأى شمس الخريف الحمراء الآيلة إلى الغروب قبل أن يتاح له الغضب والعتاب كان ما خطر له فجأة شيء آخر: ليس اليوم فحسبُ كان مهموماً بهذه الفكرة – بل منذ زمن بعيد: لم يكن يصدّق حين كان يقال له إن الحاج عبد الله يحرِّضُ الشابسغ على ساحل البحر الأسود ضد الروس، غير أنه اختبر بنفسِه الأمر. قال زاس لنفسه مستغرباً: " عجيب أن فيليامينوف لم يسأل عنه، أيكون تناساه أم لا فكرة عنده عنه؟ هذا الحاج المزيَّف هو من كان على تامبي وحمرزقوه القبض عليه. وبدلاً منه يستضيفونه، ويدورون به. والمخرج من هذا الوضع واحدٌ، وأنا سأتكفّل به... "

كان زاس يريد اللجوء إلى الفراش دون إيقاظ الأسرة حين وصل قرابة الساعة الحادية عشرة إلى بروجني أوكوب، ولكنه استغرب استقبال ابنته له على غير المألوف، وبيدها كتاب:

– أهذه أنتِ يا ليزونكا؟.. لماذا لا تنامين؟

– لم أحسَّ بمرور الوقت وأنا أقرأ في هذا الكتاب.

– أيُّ كتاب هذا؟

– هو كتاب " أمالات – بيك " للكاتب بيستوجيف مارلينسك. – طلبت ليزا من والدها دخول غرفتها. – سقيت ماما دواء للصداع فلا نوقظْها!

– حسناً يا بنتي، وأنا سأستريح لأني تعبت على الطريق. ولكن إن سمعت كلامي فاقرئي كتابات بوشكين، لا هذا الكتاب.

– وكتابات بوشكين تعجبني أيضاً، ولكن هذا الكتاب يتناول موضوع الشراكسة الجبليين.وجيء به إليّ أمس من سان بطرس بورغ.– ثم أخبرتْه بصوت ألطف أنه كتاب سرّيّ: – عندك ضيفان يا بابا، رجلٌ وامرأة...

– وهل عجيب إن كانا رجلاً وامرأة؟ عندنا الغد كله.

– ولكن الرجل الذي أتى مع الظلام مصرٌّ على مقابلتك حتى في الليل، ولا وقتَ عنده غيرُه.
– ومن يأتيني في منتصف الليل؟
– لا أعرف، ولكن سُحنته ولباسه يوحيان بأنه شركسي. وإن كان يتكلم الروسية جيداً.
تجاوز زاس موضوع الضيف دون أن يُشعِر ابنته وقد عرف أنه براغنوف ميشكا:
– ومن المرأة إذن؟
– ومن ستكون؟ هي بيترونكا الأرملة اللعوب...
– وماذا تريد هذه أيضاً؟
– هذه المرأة مشغولة بأمر النقيب تورناو... – كانت ليزا تبتسم ولكن امتعاضها كان واضحاً لا من كلامها فحسبُ بل من لونها أيضاً. والأب الذي لم يكن يعرف تفسيراً لموقف ابنته ألقى إليها نِظرة قلِقةً وخرج من الغرفة مستعجلاً على لقاء براغنوف ميخائيل ميشكا.

XXXV

الرجل الذي كان الشراكسة ينادونه "براغُنه ميشكا" كان اسمُه ونسبُه الحقيقيان براغونينكو ميخائيل بن إيزوت. وتنتمي أسرته إلى القوزاق الذين تشتتوا بعدما وقفوا مرة في وجه القيصر الروسي. وبعد قصة الأمير الشركسي إيدار تيمرقوه فحسبُ مدّت الأسرة جذورها في القبرتاي الصغرى. ولكن الأرض التي استولى عليها آل براغنه بالحرب كانت وبالاً عليهم.
ذاب أكثرُ آل براغنه، رجالاً ونساء، في القبرتاي – الأديغة والأوسيت والشيشان – الأنغوش القاطنين على ضفة نهر تيريك، والذين يُكنّون العداء للقوزاق الذين احتلوا أرضهم. ولم ينجوا من الطاعون والكوليرا والجدري والملاريا التي أتت بها السنوات المتعاقبة. وبقي ميخائيل براغونينك ابن الثامنة عشرة، الناجي من الملاريا،والذي فقد كل أهله، لا فرحةَ له في الدنيا إلا انضمامه إلى جيش يرمولوف. وسيق إلى ستافروبول مع الجيش الذي أخضع القبرتاي فكانت آخر محطة له وهو في الخامسة والعشرين هي قلعة فوزنيسينك القوزاقية. وفي يوم من ربيع تلك السنة أسره الأبزاخ على ضفة نهر لابا. ولما عرف الأبزاخ

أن لا أهل له يفتدونه، وأن القوزاق غير مهتمين به، فرضوا عليه الإسلام، وزوّجوه من "بابِسه" الأرملة التي لا أهل لها كما هو، والذي قتل القوزاق زوجها، وتربي ابنها منه ذا السنوات الثلاث. ورزقا بعد سنتين طفلاً. ومع أن الولد سُمّي إسلام فقد ظل أهل القرية ينادونه: القوزاقي. وكان ميشكا مرتاحاً لمناداته بهذا اللقب ولكن دون إظهار فرحه، مطلِقاً أحياناً بعض العبارات الغاضبة. وكان يحب ربيبه كما يحب طفله. ولكن ما الذي جرى الآن لميخائيل بن إيزوت الذي نسي أصله القوزاقي منذ سنين طويلة؟..

ماذا بيد الإنسان؟ الدم نار حامية تُحْييك، وتُشعرك بحسْن أصلك وسوئه، وتبقيك حياً دون أن تجد الوقت لتفكر في ذاتك إلى أن تقع في مأزق. ولكن براغنه ميشكا تنازل في أرض الأبزاخ عن أصله القوزاقي المعلن. ومضت الأيام وهو يفكر في طريقة للهروب من آسِريه دون الحصول على حريته. وفي نصف العام الأول من أسْرِه هرب مرتين، ولكن الأبزاخ لم يسمحوا له بالابتعاد. وهذه الرغبة في الهروب هي التي منعته من تقبُّل الإسلام قلباً، لا لفظاً. ولما زوّجوه من الأرملة بابسه التي من غيرِ عِرقه فهِم أن الأبزاخ وثقوا منه فبدأ يعتاد على ما جرى له ويتناساه. والوقت الذي بدأ فيه ابنه يتكلم لغة الأبزاخ، وهو نفسه يجيبه بهذه اللغة، هو الوقت الذي شعر فيه بقلبه يتداعى. وفي السنوات التالية، وقد اختلط عليه الأصلان القوزاقي والأديغي، أشعل أسْرُ تورناو فجأة شعوره الروسي الذي كان ينطفئ في نفسه رغماً عنه. هل ندم على خطئه حين وقع مرة في مأزق، فأعاده إلى وعيه أم أيقظته الشفقة على من لا معين له؟..

تشفّى ميشكا وقد اندفع إلى رأسه الدم التائه، من بطن حصانه بعقبيه المذنبتين، فحثّه في ظلام منتصف الليل، ولم يُفلح في الهروب من أفكاره الثقيلة فقال في نفسه: " هل أنا في موقف يسمح لي بالإجابة على هذه الأسئلة وغيرِها والتكفير عنها ". ثم ترجل من الحصان ونصحه بلغته الهجينة من الروسية والأبزاخية: – افهمْني واغفر لي، فما ذنبك أنت؛ أنا الملوم في كل هذا... ليست قليلةً المراثُ التي حملتَني فيها إلى هنا، إلى غزو القوزاق، وأنقذتني فيها، وجرحوني فيها أكثر من مرة، ولكن الأبزاخ الذين عاهدوني وعاهدتُهم لم يتخلَّوا عني، ولم أتخلَّ. أيُّ نداء صحا في نفسي بعدما كنت صادقاً مع صبيٍّ

بابوسه التي تزوجتها بين الإجبار والرغبة، والصبيّ الذي رزقتْني به؟... احمِني يا إلهي، وأنت... – خطر له أن ينطق اسم المسيح غير أنه شعر بالحرج أمام حصانه الأديغي. ولكنه صاح من أعماق قلبه وهو يمتطيه على عجل كما ترجل منه: – اغفر لي وافهمني يا إلهي الأحد! الأبزاخ الذين يحمون حريتهم وأرضهم، وأضعهم دون أن أدري كيف، هذه اللحظة لقمة سائغة في أفواه القوزاق، لا ذنب لهم! وزاس الذي يعتقد أني مدين له يجب أن يتوقف عن الاعتماد عليّ. هذا المجرم لا يساوي أظافر ولديّ وبابوسه،وكذلك فيليامينوف الأحمر المقيم في ستافروبول. حياة الإنسان تشبه نهراً بلا جسر، ولكن ما يجب أن تستقرّ عليه هو إحدى ضفتي النهر. والتنقُّل من ضفة إلى أخرى يضيعك في أمواجه. وإذا تمتّعت بالصدق والرجولة التي كان يمتلكهما قَلوبات الذي دفنّاه قبل وقت غير طويل بقي ذِكْرُك بالخير بين أعدائك وأصدقائك. وإذا كان جذري القوزاقي انقطع بطريقة مأساوية، ولم يبق لي أهلٌ أعتمد عليهم، فلأبق بين الأبزاخ، عِرقِ ولديَّ. – فكّر براغنه ميشكا في أقواله، وأضاف إليها: – هذا سهلٌ كلاماً غير أنه ليس بمقدور الجميع فعلاً... لا تدعْني أخطئ يا إلهي، وقُدْني على طريق الامتحان الذي وضعتني فيه. واترُكْني أعيش حياتي العارية قادراً على الإجابة على أسئلتك المحقَّة... "

التقى براغنه على تخوم قرية تامبي حابله، وقتَ تجميع قطعان المواشي، بـ "ناقج" الذي يدس أنفه في كل شيء في حين لا يحترمه أحدٌ، فقال له الأخير معتداً بنفسه:

– أنت يا ميشكا أراك لا تعرف الخبر، هات البشارة، ابنُ بابسه غُفَس، الأخُ الأكبر لابنك إسلامٍ القوزاقيّ، رُزق بولد.

– هكذا إذن! – تساءل براغنه مسرعاً بفِعْلِ الخبر، – أقدّم لك أحسن خرافي بشارة. – وقال ملتفتاً ومفكراً في من يحثُّ حصانه: – كم مرة نبّهتُك يا ناقج ألا تخطئوا بحقِّ غُفَس. هذا ولدنا أنا وبابسه، وهو الأخ الأكبر لإسلام.

– نعم، نعم... – وافقه ناقج بعدما حصل منه على الحلوان، وغمغم في سِرّه من ورائه: " أنتَ قل ما عليك، ونحن نفعل ما نريد أيها القوزاقي البغيض... أنت فرِحٌ لأنك استعدت لغتك مع الجاسوس الذي يحتفظ به أسلانبج...

أكنتَ ترضى لو كنتَ رجلاً أن تضمَّك إلى عِصمتها امرأةٌ كانت تنام على صدر رجل أبزاخي، وتغيّرَ دينك بدلاً من أن تعود إلى أبناء قومك... والتركي عبد الله أفندي فرحٌ باعتناقك الإسلام... "

كان في ذهن براغنه ميشكا همٌّ لا يتماشى مع الفرح الذي يجعله يُغِذّ السير إلى البيت: النقود الذهبية والفضية غيرُ الكثيرة التي كلّفه زاس بإيصالها إلى النقيب تورناو. ولكن ما كان ميشكا يُثمّنه أكثر هو الكلمات التي أوصاه بنقلها إليه: "أُصمدْ واطمئنَّ، لن نتخلى عنك". وحين كان يتقاسم الفرح مع بابسه هاج، وهو يراجع هذه الكلمات، الحزنُ الذي يخصّه وحده: "لم يسأل عني أحدٌ حين وقعتُ أنا في الأسر... وماذا أفعل بالضابط الروسي الذي وقع بيننا؟.. سأفيده ولْيشكّوا فيّ إن شاؤوا. ولكن الأفضل ألا يعرف ولداي وبابسه بالأمر..."

قال الرجل لامرأته حين بقي وبابسه وحدهما:

– هذا هو، رُزِقنا، نحن آل بر اغُنه بولد ولو أن الأبزاخ لا ينفكون عن تعييرنا بأصلنا. ليجعل الله مَقدِمه خيراً، وقد مددنا أصلنا بجذر جديد.

– وأنا راض عنك يا ميشك، تحمّلتَ معي أحزاني، وقاسمتَني أفراحي. هل تعرف ماذا أتمنى: أن أرى ابننا الأصغر إسلام ربَّ أسرة.

– لِيُعطِنا اللهُ عمراً حتى نشهد هذا أيضاً،– ألقت بابسه نظرة رضا على زوجها، وسألته بعين قلقة: – هل أنت عجوز فلا تشهدَ فرح ابنك؟

– وكيف لي أن أعرف ما يمكن أن يحدث لنا غداً بعدما تجاوزنا الخمسين؟!

– لا تسمح يا ميشك لمثل هذه الخواطر أن تغزو رأسك! هيا خالِطِ الناس تشعرْ بالارتياح والنشاط.

– لا، لا. لن أستطيع هذا المساء مفارقة فرحتي.

– إذن، – ابتسمت بابسه ابتسامة خبيثة، وقالت، – سأخبرك خبراً ساراً يتعلق بما يشغل بالك. يقال إن ابننا إسلام عينه على" أسلانكوز " ابنه ألَمجري.

– أيغازلها أم مجرد نظرات؟

– من أين لي أن أعرف؟ إن كان يلتفت إليها فقد يكون يغازلها.

– هذا خبر طيب، غير أن ألمجري لن يزوّجنا ابنته.

– ولماذا؟ هل عضّنا نحن كلب مسعور لم يعضّ غيرنا في القرية؟
– ليست الإجابة على سؤالك صعبة: داور ألمجري سليل أسرة أمراء من القبرتاي، ونحن من الأبزاخ الذين لا أمراء عندهم. مهلاً، كأني أسمع أصوات مهنّئين قادمين، – خرج براغنه ميشكا من غرفة الزوجة، وجلس في المضافة ينتظر القادمين.
والآن خطب تامبي أسلانبج، متناسياً عبد الله أفندي التركي الذي تركه يسبقه، مهنئاً براغُنه:
– ليبارك الله لكم ولنا في الولد الذي انضمّ إلى آل براغُنه! رجلاً باسلاً على أعدائنا، ماهراً في الحصول على ما يريد. لِينشأْ للأديغة رجلاً لا ينكسر سيفه حين يركب في الوقت المناسب!
– آمين! – حين رفع عبد الله أفندي يديه داعياً قلّده الآخران. – نعم، نعم، لا حاجة للشكّ في إسلام مَن انضم إلى المسلمين كلهم. ولْندعُ جميعاً مسمعين الله بقبولنا جميعاً. – أنهى التركي أدعيته، وسأل وهو يمسِّد لحيته بأصابعه: – ما الاسم الذي أطلقتموه على الصبي بفضل الله؟ أليس حسناً أن نسمّيه " ورِسْبي[1] " نسبة إلى الحرب التي شنها علينا الروس الكفّار؟– وحين خُيِّل للأفندي أنهم يماطلون في الإجابة غيّر إلى الاسم الذي يحمل المعنى نفسَه. – ليس سيئاً أن يناديك المسلمون " جاور بي[2]". سيَسرّ هذا الاسمُ اللهَ الذي نحن من أمته. ما رأيُك أنت يا أسلانبج؟
– والله وضعتَني في موقف حرِج... – وكعادته في المماطلة في الإجابة على السؤال المفاجئ اقترح غيرَه وعدمُ قبوله بكلام الأفندي ظاهر على لونه وصوته، ثم تراجَع: – نحن أتينا إلى آل براغُنه مهنِّئين، لا مسمِّين. ولكن إن عمَّر الله براغُنه يا أفندي حتى يعيش مع أولاده شيخوخة هانئة فالاسمان اللذان اقترحتَهما كحدَّي السيف.

[1] الاسم مركب من " ورس"، النطق الأديغي لـ " روس " و " بي " بمعنى العدو.
[2] عدو الكفار.

– لا أريد يا ضيوفي الأعزاء أن أسيء إليكم، – قال المضيف براغُنه الذي لم يساهم إلى الآن في الحديث، – ولكن انتهت تسمية الصبي الذي جئتمونا مهنّئين به.

– وماذا سمّيتموه؟ – استعجل الآن عبد الله الذي أقنع الأبزاخ بأنه موفد الله.

– سمَّى إسلام ابن أخيه الأكبر غُجَبْس. – وجد فجأة ميشكا الذي لم يتقبّل رسولَ ما وراء البحر بأي شكل، حجة، – ونحن أيدنا ما جادت به قريحته.

– إن شاء الله، – صاح عبد الله أفندي، – إن كان سيصبح قضيبَ فولاذ وماءَه على الكفار[1] فهو اسمٌ جيد! ولكن لو استشرتم أميركم، وسُمّي بمعرفته، ونال حقه من احترامكم لحاز إعجاب كل من يسمع به. نعم يا أمير، تدينني بنِظرتك ولكن لا أسيء بكلامي إلى الأبزاخ الذين بلا أمراء. ليس هناك في العالم كله عِرقٌ لم يشرِّفه الله بأمير. وتركيا التي تحرس أراضيكم بعلم الله تعالى لها سلطان. وبأمره تعيش رعيته، وأنا منهم، بأمره.

– حياك الله يا ضيف على اهتمامك بنا، – حين استمع الأمير تامبي راضياً إلى المديح الذي أغدقه الموفد التركي على نفسه، قال بوقار كأن هذا الكلام لا ينطبق عليه.– ولا أظن إخواننا الأبزاخ الشرفاء الرحماء الذين وجدنا عندنا ملجأ في ساعة شدتنا لا يعرفون هذا. ولكن أريد أن أُسمِع الجميع، لا أنت وحدك يا أفندي، أننا لن نؤسس نظامنا الأميري بين الناس الذين لم يكن عندهم أمراء قطّ. واليوم، والله يختبرنا في دنياه العاجلة، إذ لا أحد يجهل وحدة الأبزاخ ورجولتهم،أقف تحت علمِ حرية أيّ منهم، يسري في عروقه الوعي الأديغي، ويطلب مني أن أقف إلى جانبه أو أمامه، سواءٌ كان من الأسر المتنفذة أم من عامة الفلاحين.

– أحسنتَ يا أمير، – أعادت كلمات الأمير تامبي عبد الله الأفندي الذي لم يُعجَب بالكلمات المرائية في البداية إلى وعيه.– ما سمعناه كلام ممتاز يصدر من القلب. ولكن لو أطعتَني لجعلتُك تضيف إلى " وحدة الأديغة " " علَم الله الأخضر ". لا يحدث شيء في العالم لا دخل له بقوله وفعله.

---

[1] وهو معنى الاسم: غُج: حديد، وبسه: ماء.

– سيكون علم الله الأخضر فوق رؤوسنا ما دمنا نحفظ الله تعالى في سرائرنا،
– استدرك تامبي كلامه كما يريد، وسأل براغُنه: – أليس صحيحاً يا ميشك؟
– صحيح، يا أسلانبج، صحيح. شهد براغنه وهو يمسح على لحيته الشقراء وشاربيه مؤيداً،– هذا ما كنت قلته حين تقبّلت الإسلام طوعاً. وهذا ما ربّيتُ عليه ولديّ، ولكن، – اختتم باسماً، – لا أعرف لماذا ينادون ولدي الأصغر إسلام بالقوزاقي. كان الأفضل أن ينادوني أنا بالقوزاقي من أن ينادوا به من يشهد اسمه على صحة إسلامه.
– لا، لا، يا من منحه الله إسلامه تكرمةً،– قال الأفندي لميشكا وهو يستدرجه إلى حيث يريد، – لا تسمح لمثل هذه الأفكار السيئة أن تتسلل إلى رأسك. الله الذي صرت من ملّته وجعلك أخاً للأبزاخ راضٍ عنك. وقد أحسن إليك كما أحسن إلى كل من تقبّلوا دينه، ولذا سيفتح لك باب جنته في اليوم الذي كتب الله أن تعود فيه إليه. ولكن لو استطعت أن تُقنِع أسير الأمير تامبي أسلانبج أن يفعل ما فعلتَه أنت لكان باب جنته أرحبَ ليتسع لك ولأسرتك.
ابتسم تامبي في سره قائلاً :"اسمع إلى أين وصل الآن!" – ثم ردّ بكلام صريح:
– لا أظنه يطيعكم في هذا.
– الأمل، وأنت تعرفه يا أسلانبج، لا يُباع. سنعامله بقدر ما يمكننا، – قال براغنه ميشكا والأفندي والأمير يتعجبان، واختتم بالحزن الذي لم يفارقه سنين:
– إن لم نستطع إقناعه فهو ليس مبتوراً مثلي، سيفتديه أهله بثمن جيد.
– نعم، نعم، وهل رُتبتُه بلا فائدة؟ – قال تامبي رأيه، واختتم بخاتمة لا ثقة فيها: – فكّروا، ولن أعترض طريقكم!

XXXVI

لم يغمض جفنٌ لبراغنه ميشكا طوال الليل وإن بدا أنه فهم بسهولة كلام مهنّئَيه وما أضاف إليهما هو أيضاً، غيرَ قادر على تحليله. وقفز مطمئناً بعدما غفل عند الفجر فعرف أن الفارس القوزاقي الذي طارده في الحلم فألجأه إلى الوادي، وفي لحظة إشهاره السيف عليه وهو يظنه والده تبين أن مطارده هو النقيب تورناو، ثم تبدّل إلى جاره أَلَمجري. ولما صحا خرج من البيت مرتدياً فروة على

كتفيه، قائلاً في نفسه: أيّ حلم لا معنى له ما رأيته، واتّكأ بصدره على سور الدار دون أن يلاحظ أن ابنه غُفس يهيّئ على الجانب الآخر حصانه.
– ما الذي يُقلقك يا والدنا؟ – سأله غفس.
– هذا أنت يا ولد، هل ستركب، كيف لم تُخبرني؟
– لم يُتِح لي الضيوف الفرصة العشية لإخبارك.
– ليست هذه حجة!
– كنت رجوت والدتنا؛ ألم تخبرك؟
– لا يوسِّطون النساء في قضايا الرجال يا ولد.
– سامِحني، لن أكرر بعد الآن.
– اعتبِرْ ما قلته لك قلته أيضاً لأخيك الأصغر. والآن أطلِعْني على سبب سفرك.
– يجمع حجرت نقار عند شجرة البلوط الكبيرة عدداً من الرجال وأنا منهم.
– وما الذي يشغل باله؟ أخبِرْ نقار أني أوافقه مهما كان سبب اهتمامه. ومَن رفاقك من القرية؟
– أنا وبكر.
– مع السلامة، الله حريص فاحرصوا على أنفسكم!
حين بدأ الحلم يمثل من جديد أمام عيني براغنه ميشكا الذي كان ينصت إلى الوقع السريع لحوافر غفس دون أن يدري، نهر نفسه بنفسه، وعاد إلى الغرفة التي برد موقدها فأشعل النار فيه. وبعدما أزاح مائدة إفطاره دون أن يذوق منه إلا بضع لُقيمات، وهو يفكر في حلم الفجر وركوب ابنه، وزاد عليهما موضوع النقيب تورناو،سألت بابسه قلقة على الرجل، حريصة عليه:
– ما الذي جرى لك حتى يبرد فطورك وأنت ذاهلٌ عنه؟ هل أسمعَك ضيوف العشية ما...
– لا، لا.– قطع براغُنه السؤال الذي كان ببال بابسه، – استمتعنا بالجلسة، وتحدثنا، في هذا العالم كلٌّ يتابع مشاغله... – وأضاف مموهاً على تنهُّده أمام الزوجة: – تعشّينا أمس خروفاً كاملاً، متَّعْتِنا.

– حلال عليكم، لا أعرف إن كان الطعام شهياً. لا تُخفِ عني إن كان هناك ما يشغل بالك. أنت تؤيد نشاط ولدَينا ولكنهما يُقيانني في الهمّ. اطلب لي منهما ألا يرافقا كلَّ من يريد عبور نهر لابا ونهر بشزه. لا أستطيع أن أتحمل المزيد من المآسي، ألا يكفي... ماذا يحوك هذا الأفندي التركي الآن أيضاً؟.. هذا الرجل كلما أتى إلى بلاد الأبزاخ سبّبَ لنا المشكلات. يكفي تحريضه على الأسير المسكين لتامبي حتى فعلوا به ما فعلوا...

– وما الذي دفعهم إلى فعله؟! – انفجر براغُنه الذي كان يتظاهر باللامبالاة بما ترويه الزوجة.

– طلبوا منه أن يعتنق الإسلام فيعاملوه مثل براغنه ميشكا، فلما رفض جعلهم يقيدونه بالسلاسل.

– وهل هذا جائز! – الآن نهض براغُنه.

– هذا هو الخبر المنتشر في القرية وإن كان لا يجوز... – ولما رأت بابسه الرجل يرتدي لباسه سألته قلقةً: – يا مصيبتي، أين ستذهب؟

– الآن فهمتُ ماذا يريد هؤلاء!..

– أستحلفك بالله يا ميشك، – قالت بابسه التي كانت تخرج من الغرفة لزوجها: – لا تتدخّلْ في ما ليس من شأنك. ومن دون هذا يقولون من ورائنا الكثير.

– ما أقوله هو فعلُ خير، – قال براغنه الخارج من الباب بكتفين قويتين للمرأة وراءه، – ولا تقيسوا بما يقول أو يفعل أي إنسان! أمضي إلى الجامع لصلاة الظهر.

لم يصادف براغنه ميشكا أي إنسان في طريقه إلى الجامع. وتذكر وهو يمرّ بباب دار ألمجري ما قالته له بابسه بشأن ابنته أسلانكوز فنظر باتجاه أرض الدار ولكن لم ير فيها الفتاة التي يهتم بها ابنه إسلام بل رأى أخاها يَدِج على شجرة الإجّاص. ولم يحضر صلاة الظهر ما توقّع هو، فانصرف معللاً خلوّ الجامع بأنه يوم عادي، ولم يلتق بمن كان يريد لقاءهما دون اهتمام ظاهر: عبد الله أفندي والأمير تامبي، فلم يستطع تجاوز دار الأمير.

حين رأى تامبي الذي كان يعيّر أوتار الربابة جالساً على المسطبة الضاحية للشمس أمام الغرفة المتطاولة ذات الأبواب الثلاثة، براغُنه الداخل إلى الدار نادى خدمه:

– هيا استقبِلوا الضيف! نهض أسلانبج شاعراً بضخامة جسده، وقال دون أن ينزل من المسطبة لِمن صحبوه: – تفضَّلْ يا براغُنه، تفضل؛ يا عجبي! خطرتَ ببالي قبل لحظات. كنت جالساً نادماً على أني لم أرسل ربابتي العشية إليكم وأُسمعكم صوت وتره الفضي، فسمعني الله فأرسلك إليّ. قلْ لي ما أحَبُّ لحن إليك فأعزفَه لك.– وما إن همّ أن يقول: "وبإمكاني أن أعزف إحدى أغانيك القوزاقية " حتى فرح بأنه صحا في وقته. – ولحن الرقصة السريعة يحثّ القدمين على الخِفّة.

– حياك الله يا أسلانبج. والرقصة السريعة تعجبني، ورقصة الأبزاخ "زفاكوه[1]" أحسن من كل ما عداها. ولكن الحقيقة أن سبب مجيئي ليس ساراً.

– ماذا؟ – أبعَدَ تامبي الربابة من حضنه، – هل آل براغُنه...؟

– لا يا أمير، بيت براغُنه مقصِدٌ للمهنئين كما تعرف. ولكني سمعت أنهم حملوك على أن تقيد أسيرك الروسي بالسلاسل فلم أستطع البقاء في البيت لأني عانيت يوماً من هذه الأغلال.

– وعليكم سلام! – أمسك تامبي بكفيه الضخمتين الربابة الصغيرة فعزف عليها لحناً خطابياً. – أقول بربابتي للسخفاء من أهل قريتي: أحسنتم! سواء كنت أعرف أم لا أعرف فلاشك أن شخصاً مثل حمرزقوه هو من أشاع عني هذا النبأ... – تغيّر لون تامبي.

– أيٌّ منهما " حمرزقوه أسلانجري أم حمرزقوه عادل – جري؟

– وهل يمكن أن يصدر من عادل – جري مثلُ هذا؟ إنه ألطفُ من أن يُنهض ثوراً مقعياً. أتكلم على حمرزقوه أسلانجري الذي لا يودّني في الأيام الأخيرة في موضوع أسيري الروسي.

---

[1] وتسمى أيضاً " القافا" رقصة هادئة يتقابل فيها الشاب والفتاة بخطوات متناسقة وحسب نظام معين.

– ماذا يا أمير؟ – دفع الخبر المفاجئ براغُنه إلى السؤال، ثم شرح الأسباب:
– وكيف يتفق هذا الخلاف مع صداقتكما؟!
– هل سمعتَ قولهم: متى تسبَّب غناك في فقرك اضطُرْت أن تقص حتى لحية والدك؟ – سأل تامبي الذي هزّ رأسه الثقيل بضع مرات، ثم أجاب إجابة صريحة: – يتهمني حمرزقوه بأني أماطل في تحديد فدية الأسير الذي آويه في بيتي وأُطعِمه... – ثم توقف بعض الوقت واختتم باسماً: – يخاف أن أستولي على حصته النصف من الفدية... هذا يا ميشك حين تتخذ ممن دفعه حبُّ امرأة إلى قتل عمِّه صديقاً... لم أُخبِر غيرَك أن حمرزقوه يجادلني في شأن الأسير الذي انتهت علاقته به فأنا أعتمد عليك... تعال أُريك حال وعِيشة من أخبروك أني أحتفظ به مقيَّداً. وبغضِّ النظر عن هذا كنا تكلمنا أمس، أنا والأفندي، أن نكلّفك بمحادثته في أمر دينه، ولكن لا تُشعِرْه بأمر الدين الذي يقترحه الأفندي التركي. لا حاجة إليه، ليس رجلاً صالحاً مثلك. أهمُّ أمرٍ إليّ اللحظة هو الفدية. الأسرة الكبيرة التي أُجبِرت على التخلي عن أملاكها من القبرتاي إلى ضفة نهر وارب تناشِدُني... ولا أريد أن يطّلِع عبد الله على سِرّنا.
– أظنك يا أمير لا تثق بي... – ردّ ميشكا الذي يُشَكُّ في حفظه للسر بالطريقة نفسها ملاطفاً الرجل المتين الضخم الذي يضع أمله فيه.
– بمن أثق في قريتي إن لم أثق بك يا ميشك؟ – ردّ تامبي على مَن وراءه، ثم همس لِمن لم يعره اهتماماً،ممّوهاً موقفه:
– سأخبرك بأمر آخر لأنك موضع ثقتي: لستُ مَن أتى إلى هنا بالأفندي التركي، بل حمرزقوه. يريد أن يصالِح من قتل أباه عادل – جري بعدما أحسّ بالخطر.
– والله أسمع ما تقوله لأول مرة، – خابَتَ براغُنه ميشكا من كان يبتسم في وجهه، واختتم لائماً نفسه: – كأننا لم نعد نقيم في القرية، ولا في أرض الأبزاخ.
– لا تعرف هذه المعلومات لأنك لا تتابع ما ليس من شأنك يا ميشك.
– حسنٌ ألا تتدخل في ما لا يخصّك ولا تؤذي غيرك يا أسلانبج، – حسم براغُنه الموضوع رغم المديح الموجَّه إليه، – ولكن لا يمكنني إلا الاهتمام بأمور الأبزاخ. وسأقول رأيي في ما قلتَ بشأن حمرزقوه أسلانجري: من الصعب

الاحتفاظ بالرغبة في الثأر. ثم إنه متى كان ثأراً أُسرياً كان أصعب. مؤتمر الأبزاخ سيُصالِح آل حمرزقوه، ولكن الرغبة في الانتقام ستبقى إلى الأبد.

– والله هذا رأيي أنا أيضاً، – أيّد تامبي براغُنه، وأضاف في سره إلى كلامه: "اسمعْ ماذا يقول هذا، وما الذي يُقلِقه!": حسناً سنرى ما يحدث... لا أريد متابعة مهمات غيري كما يفعل حمرزقوه. وأعرف أنك أنت أيضاً لا تريده. ولكن في غمرة حديثك إلى من أصحبك إليه لا تخبره بما قال لك الأفندي. شجّعه على افتداء نفسه بصفته ضابطاً ومن أسرة عريقة. ولن نحرمك من حصتك إذا دفعوا فيه فدية جيدة. – وإن تعامل معك كما تعامل معي فلم يرضخ، – تغيرت نبرة تامبي الذي كان إلى الآن يتكلم بلطف، – فلن أُشفق عليه، سأحتفظ به مقيداً كما سمعتَ خبره. وإن لم يتحقق ما أريد قتلته كما يُقتَل أي كافر.

بدأ براغُنه حديثه متجاهلاً الألم الذي اعتصر قلبه بالقول المأثور الذي كان الأبزاخ يختتمون به مؤتمراتهم التي يعقدونها ضد من يحاربونهم، واختتم بنصيحة:

– هناك مبرِّرٌ يا أمير لقولنا: "من يمدَّ يده إلى عينك فمُدّ يدك إلى روحه"، غير أن الأفضل عدم القسوة على الأعزل من السلاح. والعفو أحد أشكال الرحمة الإلهية.

– صحيح يا ميشك، الأفضل ألا نتجاوز كلام الله، – أيّده تامبي الآن بنبرة أنعم، – حسنٌ أن تستطيع العيش دون ظلم. ولكنّ مَن يمنعُنا عن هذا نراه كلانا رأي العين، وهم تجاوزوا نهر بشزه ويقيمون على ضفة نهر لابا. وكلانا أحسّ بالمأساة التي جلبها لنا هؤلاء. يا حسرتي، دم الإنسان ولو كان قطرةً فحسبُ نارٌ حامية! – اختتم تامبي حديثه قائلاً لنفسِه: "أنت قلتَ ما عليك، وأنا أفعل ما أريد".

كان النقيب تورناو الذي أشاعوا عنه خبراً كاذباً يقيم في البيت في عِزّه: جارتهم أسلانكوز التي اتخذت قالب المراهقة، وخادمتها خان الصبية، وناقِج الرجل المكلف برعاية الأسير، وودداي، يتحلقون حول صحن خشبي كبير مليء بالجوز يقشرونه.

– انظرْ إليهم، مجموعة غيرُ قليلة، – قال تامبي لمن نهضوا احتراماً للكبار، ولم يحرم براغُنه مما يستغربه: – ها أنت يا ميشك، يا من جعل الله يومه مئة، ترى بعينيك فيدور – فيدور في كامل صحته، ولا قيد عليه، وهؤلاء يسلّونه في ساعات النهار، وفي المساء يزوره ألمجري والمسنون. كيف تتطور لغتك الروسية يا أسلانكوز؟ هل تتقدمين فيها؟ – سأل من كانت تخرج من الغرفة، ولكن دداي الجاهز دائماً أجاب مخاطباً الأمير باسمه المرخَّم:

– إنها مثلُ السنونوة يا بَج، تستطيع محادثة فيدور بالروسية!

– لستَ من سُئل! – عارض ناقج خائفاً من أن يسلبه دداي منصب الكبير،

– كم مرة نبّهتُك أن تستشيرني في ما لا تعرف! هذا ليس اسمه فيدور، بل فيدور – فيدور.

– لا تصدعْ رأسي! – صرخ دداي على مَن يُكنُّ له البغض، ولما انتبه إلى مبالغته في الصياح، لام براغنه وتامبي: – ألا تنبّهان هذا الرجل!

– سننبهه يا دداي، نعم، – تظاهر تامبي بنهْرِ ناقج، – توقَّفْ يا ناقج عن معارضة دداي إن كنا حاضرين أم لم نكن.

– ولماذا يتعالى هذا المجنون؟ أهو أعقلُ مني؟! – انتفض دداي الذي شعر بالإهانة، ووجد ذريعة لنفسه: – لولا أن أمي تناديني لقُلتُ لكم غير هذا أيضاً...

حين خرج دداي الذي أقنع نفسه بذريعته من الغرفة، تنهد تامبي أسلانبج على نحو لا تعرف إن كان محزوناً أم لا:

– هذه حالنا مع هذا البائس... المسكين ممن يُقال فيهم: مجنون عاقل.

– يتظاهر بالجنون حين يراكم يا أمير، وليس مجنوناً، – أيّد ناقج سيده المخلص له، ولكن الأخير لم يُعره اهتماماً كما توقع.

– كفاك ثرثرة! – لم يقبل تامبي، ثم كلّفه بمهمةٍ مخاطباً إياه بلهجة لطيفة: – هيا اِذهبْ إلى قُجَنِس[1]، واطلب منها ألا تنسانا فتحضِّر لنا الغداء!

[1] المعنى الحرفي: عروس القرية، وقد يكون اسماً مستعاراً مما يُطلق على النساء لتجنُّبِ نُطقِ اسمها الحقيقي.

لم يطل بقاء تامبي أسلانبج على مائدة الغداء التي كان يغلب عليها لحمُ الخروف المقلي، ولحمُ الدجاج وأكثرُه من الأجنحة التي هي طعام الأمراء، واللبنُ والقشدة والبَرَكُ الشهي مع ماء العسل. ترك وراءه تورناو الذي كان يجهل ما يُدبَّر له، وبراغُنه الذي يكتم نيّته الحقيقية، وخرج من الغرفة واعداً ألا يُطيل الغياب، رأى ناقج جالساً على المسطبة فأوصاه:

– حسناً فعلتَ إذ لم تبتعد، ابق مع هذين واسمع ما يقولان.

– سألبي كلَّ ما تطلب يا أمير، – وأضاف مع ابتسامة خفيفة، وإن فرح لاتخاذه موضع ثقة من الأمير،– ولكن كيف أتنصّتُ وأنا لا أعرف لغة الكفار؟

– تعلّمْها إن كنت لا تعرفها. ها هو بكر قد تعلم بعض ما يفيده في التواصل معه.

– تعلّمَ لأن غُفس ابن زوجة ميشكا صديقه... وأنا لستُ جاهلاً تماماً بالروسية ولكن من أحرسُه لا يجوز أن يعرف هذا. – ثم أدار ظهره إلى الغرفة التي يجلس فيها النقيب تورناو وميشكا وهمس في أذن تامبي: – لا أثقُ في ميشكا... ألا ترى ماذا فعل؟ أرسل ابن زوجته مع بكر، وجاء هو لزيارة ابن قومه الكافر.

– كفى! اذهب واسألهما إن كانا يريدان شيئاً.وانظر قبل أن تدخل الغرفة من خلل الباب الذي تركته موارَباً واسمعهما!

مدّ براغنه ميشكا إلى النقيب، حين بقي هو وإياه وحدهما، الصرة التي أخرجها من عُبّه:

– ما هذه؟ – سأل النقيب دون أن يمدّ يده.

– هذه رسالة زاس إليك. لا يجوز أن يعرف أحدٌ بالأمر!

– لن أمدّ يدي قبل أن أعرف نيّتك نحوي. – حسم تورناو ثانية بصوت جازم.

– ستعرف يا فيدور فيدوروفيتش حين تقرأ ما فيها فحسبُ، – قال له كاسباً ثقته بالدفء الذي في عينيه وبجِلسته الهادئة. ثم اختتم بصوت ألطف:

– نفّذتُ ما نصحني به قلبي دون أن يجبرني أحد. ولكن لي عندك رجاء لا

مكان للجبن فيه. متى ما انتهيت من قراءة الرسالة فمزّقْها إن ورد اسمي فيها لأني لا أعرف محتواها.

– اطمئنّ يا ميخائيل من هذه الناحية، أريد أن أناديك باسم والدك على عادتنا ولكن...

– والدي المرحوم اسمه إيزوت، – أجاب براغُنه بسرعة، – والأبزاخ الطيبون ينادونني ميشك.

– نعم يا ميشك، سأناديك كما يفعل من يأسرونني. ولكن لن أنسى ما عشتُ معروفك معي سواء أخبرتني بدافعك أم لم تخبرني.

– إيه يا فيدور فيدوروفيتش، – تنهد براغُنه، –كيف أعبّر لك عن هذا؟ "الدم نار حامية" كما يقول الأبزاخ. ليس من مهمتي أن أعلّمك، أنت خُضتَ الكثير من التجارب.ما سألتَ عنه ليس مجرد كلام... أنا كنت يوماً ما في مثل موقفك، وكنت يائساً ليس لي من أحادثه أو يساعدني. ولكن موقفنا كلينا لا يسمح بالإفصاح عنه... ثم ما فائدة الكلام الآن على ما فات... أنا فعلتُ ما أستطيع لأجلك، أما كان عليّ ان أكفّر يوماً ما؟..

– شكراً يا ميخائيل إيزوتوفيتش،– قال تورناو لمن يناديه الأبزاخ ميشك تدليلاً، ناظراً إليه نظرة رضاً، – أنا راضٍ عنك لِما خدمتني بمبادرة منك. أنظر إليك فأراك استقررت مهما عانيت من صعوبات بين الأبزاخ الذين وقعتَ بينهم. أُدعُ الله أن يفهمك وإن لم يفهمك قادة الجيش الروسي الذين عاهدتَهم. ولكن لن أتجرأ على ما فعلتَ فلا تؤاخذْني إذ لم أؤاخذك.– اختتم، ثم غضب بينه وبين نفسه: – لن أسمح بافتداء نفسي فأتسبب في إهانتي. فإما أن أهرب ممن حبسوني في مضافتهم برجولة كاذبة أو أنهي حياتي أمام شرفي بسلاح مُشهَر. لا أقصد بكلامي إهانتك يا ميخائيل إيزوتوفيتش إذ لكل إنسان موقفه من الحياة.

دخل ناقج المرهق من التنصت عليهم من وراء الباب وهو الذي لا يفهم شيئاً من كلام النقيب، وسألَهما بأسلوب المضيف:

– لم تأكلا شيئاً يذكر وأنتما غارقان في الحديث. إن كنتما تريدان من ماء العسل أتيتكما به.

–أكلنا كفايتنا، وشربنا من ماء العسل. – أجاب براغُنه، وقال على سبيل الإغاظة لمن لا يودُّه: – لا أظنك تغدّيتَ إلى الآن، اشربْ من ماء العسل مع البرك أو مع اللحم المقليّ.

– ماذا يا براغنه أتظنني أشتهي مثل دداي ما على مائدتكما! – وحين أدرك مبالغته تراجع عن كلامه محتمياً باحترامه لنفسه: – أنا فارقت اللحظةَ مائدة ليست أقل شأناً من هذه. اجلسا أنتما وتابعا كلامكما... سيعود إليكما أسلانبج بعد أن يفرغ من العزف لسيدة البيت الكبرى قُجَنس.

قال براغُنه بعدما تسلل ناقج من الغرفة بجسد ضخم ومشية ثابتة متنصتاً دون التفات:

– هذا التافه يتجسس علينا بعينه وأذنه.

– توقعتُ هذا حين ترك تامبي الباب موارَباً، – قال النقيب تورناو الذي صار الحذر جزءاً من حياته، ثم تنهد ووجهه يُمتقّع، – ولكني سأسعى وقد جرى لي ما جرى وراء حريتي. وأكرر عليك: لا أقبل أن تُدفَع فدية لي. متى عوّدتَ هؤلاء هذه العادة استطابوها وصارت عادة عندهم.

– إن كنت ترى نفسك قادراً على الإفلات من الأبزاخ فهذه رجولة منك. – ردّ براغُنه بامتعاض،شاملاً نفسه مع الأبزاخ الذين انتقص تورناو من قدرهم إذ اكتفى بالإشارة إليهم "هؤلاء" دون ذِكْرِ "الأبزاخ": – ولكن لن يسمحوا لك!

صحا النقيب من الردّ الصريح عليه:

– سامِحني يا ميخائيل إيزوتوفيتش إن كنت أهنتك بشأن الأبزاخ!

– وما قيمة ما أهنتَ به الأبزاخ إلى جانب تعليق الجنرال زاس لرؤوسهم؟! يدفعنا بإرهابه إلى الحقد عليه.

– الصدق صدقٌ دائماً. أنا أيضاً لا أوافق على هذا... – قال تورناو: "هذا الرجل كان دون أن أطلب منه عند من يغتابه، ولكنه ليس الإنسان الذي يوثق به أو يُعتمَد عليه. هو عدوُّنا لا عدوٌّ من حالفَهم، غير أني سأعرف سبب زيارته للجنرال، وحقيقةَ ما يُكنُّ لي" ولاطف براغُنه ميشكا: – نقول هذا، ولكن لم يعد سراً أنك كنت عنده.

– لا أعرف إن كنت ستفهم القول المأثور للأديغة: "معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري عدواً"، – ردّ براغُنه ميشكا بقول مأثور على تلميح النقيب، واختتم المماحكة المفاجئة التي نشبت بينهما: – أنت ترى عودتي من عند الجنرال زاس وإن كنتَ لا تعرف سبب زيارتي له، فلن نعيد الكلام في الموضوع. ولكني سأخبرك بما لا تستطيع السؤال عنه: طلبتُ منه ألا يكرر دعوتي لأتجسس له على الأبزاخ.

– أسمع ما قلتَه لأول مرة... – قال تورناو معيداً التفكير في الخبر البعيد عن الحقيقة، القريب من العلن، وأعاد السؤال:– زيارتك للجنرال زاس لمثل هذا الموضوع يتجاوز الخوف إلى الخطر؛ فكيف فعلت؟ لا، لا أنظر إليك نِظرة أخرى غير مصدِّقٍ كلامك، ولكن مع ذلك...

– هذا الخطر الذي ذكرته، – ابتسم براغُنه ميشكا، – كان عندي ممسكان يُنسياننا أنا وزاس إياه، يا فيدور فيدوروفيتش – الأول أنت – والثاني كان يعرفه حجرت نقار، والأفندي جانسعيد، وقرمرز تيمبولات، وآخرُ رفيق لك لُوَ ممت – جري، وهو أني أذهب لمناقشته في "موضوع تجسسي". والحق أنك أنت من كان زاس مهموماً به، لا أنا.

قال تورناو في نفسه: " سأعرف حقيقة هذا الرجل إذ تبيّن أنه لم يكن كما خُيِّل إليّ حين كانوا يذكرون لي سيرته، وحين طلبوا منه قراءة ما كتبتُ لزاس، مع أني كنت أتأمل منه مساعدتي إذ يجري في عروقه دم روسي، وخدمْنا في جيش واحد "، وابتسم، وردّ:

– استغللتني جيداً، ولكني عرفت أنك لن توفِّر حياتي إن تقابل سيفانا يوماً على ضفة نهر بشزه أو في أرض الأبزاخ.

– لم تُخطئ أيها النقيب. إما أنت وإما أنا. ولكن لا أتوقع أن يتحقق لك مرادك في الأبزاخ.

– سؤال آخرُ إذن: إن كنت ستتخذ مني هذا الموقف فلماذا تجاهلتَ ما في رسالتي إلى زاس حين قرأتها؟

ضحك براغُنه من أعماق قلبه:

– لا أظن أحداً غيرَ الله يعرف السبب... – ولكن ما دمتَ في الأبزاخ فإن خيري وشري... – قطع براغُنه كلامه حين سمع صوت الباب ورأى تامبي يدخل الغرفة.

XXXVII

كانت حياة الإنسان ستصبح عجيبة لو كان الحلو والمرّ، والنار والماء، والخِصْب والجدب، لاتتعايش فيها، ولو أن الرجل والمرأة لا يتفقان فيها، والحرب والسلم متعاديان، والأمل والملل متقاربان، ولولا أنهما متلازمان في جوانب كثيرة. ولكن ما جذرُ كل هذه الأمور؟ هل من اللائق،إن لم يتحقق لك الهدف الذي تنشده سواء كان فيه فائدتك أم لم تكن، أن يدينوك بإخفاقه؟ الحياة تتلقّاك بأسئلة كثيرة متنافرة فتفنيك إن كنت لا تعرف سببَ إدانتك وموضوعَ تفكيرك.

متى تأملت في ما جرى للنقيب تورناو في الأبزاخ وصلت إلى كثير من الأسئلة – الأجوبة التي لم تتوقّعها فتحرقك، وتجرحك. يدير من يلقي السؤال ومن يجيب حرباً بين براءتهما وإدانتهما، ومن يُصرَع لا يمل من النزال، والشبعان يتمنى الجوع. هل تفتح الباب لمن يقتحم بيتك والسيف في يده؟ وهل تضع قريتك ومقبرتك وأرضك وريفك وغابتك وتاريخك وخياراتك بين يديه؟

هل النقيب تورناو الذي يحتج بأنهم خدعوه فاعتقلوه وهم يستضيفونه بريء من التجسس؟ أم أرض الأبزاخ التي لم تتحقق فيها أهدافه هي المذنبة؟ المغلوب هو المذنب على ما يبدو، والغالب هو الصادق.

هل قَسَمُ الإخلاص الذي أداه النقيب تورناو أمام الجيش هو ما دفعه إلى الطريق الخطير الذي سلكه أم ما ستجلبه له هذه المغامرة من ثناء؟ ولم يكن الأخوان قرمرز ورفيقهما غازي إمام محرومين من الرجولة فيختبئوا. ولكن الأخوَين كانا يسعيان إلى استعادة القرية التي سُلِبتْ منهما. وتامبي وحمرزقوه؟ وهذان كانا يجدان تسويغاً في الملك الذي فقداه. والأمراء قانقوه وشلخ وبولتقوه، وجانسعيد الأفندي الذي عنده ما يكفيه، وغيرُهم كثير من الذين لا يعرفون ما ينتظرهم غداً وبعد غد أو في الأيام والأشهر المقبلة كانوا في همٍّ كبير. والآخر حجرت نقار ما به؟ إنه يعيش مشهوراً في الأبزاخ معتداً، وهو الفلاح العادي أصلاً، بشجاعته الصريحة، وبتودده الغالب عليه إلى الأمراء، ومطوّعاً

عامة الفلاحين بأمره. وعلى الضفة الأخرى لتهر بشزه عنده أصدقاء من القوزاق. والجنرال زاس صديقه متى أراد، وعدوه متى أراد. ولكن هذا لا يمنع مجموعة الفرسان التي يتزعمها بالاشتراك مع جانسعيد من الإغارة على القوزاق. وأما براغُنه ميشكا فيتعامل مع أبناء قومه الأصليين القوزاق بالسيف والخنجر، متشدداً أكثر من الأبزاخ الذين صار فرداً منهم، كي لا يشكّ فيه أحد. ولا يتوقف عند هذا الحد: يحتقر ويسخر من القوزاق الذين اتخذوا من الزي الأديغي زياً لهم، والذين لا تليق بهم قبعة الأديغة، ولا لباسهم حتى مِسكتهم للسوط، ورُتبُهم العسكرية، وطريقة امتطائهم الخيل، كأنه لم يولد بينهم، ولم يربّوه.

حين انتهى حجرت نقار وجانسعيد من مؤتمر الشباب الذي عقداه تحت شجرة بلوط كبيرة، وشرعا في الرحيل، سأل نقار متظاهراً باللامبالاة، مبتسماً غُفس:

– كيف حال والدك ميشكا براغُنه يا غُفَس؟ لم تدع لنا الوقت يا منحوس لنشد طرف أذن[1] أخيك الأصغر إسلام لأن أخاه الأكبر رزق بولد، ونهنئ والدك.

– خيراً، خيراً، – قال جانسعيد أفندي كي لا يشعر غفس بالحرج أمام الأكابر منه سناً، – ندعو إلى الله أن يعمّ الخيرُ الأبزاخَ للمولود الذي رزق به آل براغُنه.

– فكّرْ في الأبعد يا أفندي، قل: ليسعد به الأديغة كلهم!.. خطاب التهنئة لميشكا براغُنه بانتظارنا ولذا أدعو أن نلحق به. مع السلامة يا غُفس، نحن راضون عنك. تكلمت جيداً في اجتماع الشباب شاهداً على حُسن تربية والدك لك. أنتم، الشبابَ النشيطين، أملنا في المستقبل وإن كنا نظن أن بإمكاننا إنجاز بعض المهام. ما أخبارُ أسيرِ تامبي؟ أضيف هذا إلى همومنا.

– وهذا مما لن يغفره الأصهب زاس لأحد، – أيّد جانسعيد نقار، وسأل بكر ذا الوجه المدور الذي لم يكن يساهم البتة في الحديث: – وأنت يا بن مرزخواي ما رأيك في الموضوع؟

[1] شدُّ أذن من يولد له أخ أصغر تقليد أديغي.

– هذا الموضوع يا كبير له مقاربات ووجهات نظر كثيرة. ولكن الأفضل، على رأي والدنا، عدم التدخل في العداء الذي جلبه أسيرُ حمرزقوه وتامبي.
– الأسير الذي اعتقله حمرزقوه وتامبي في أرض الأبزاخ ليس لهما وحدهما،
– أنهى نقار فجأة الموضوع الذي كانوا يتجنبونه، وعاد فتوجه بالسؤال إلى غُفَس الذي لم يُجب على سؤاله: – أراك توقفت عن الكلام يا بن براغنه!
– لم أسكت لعجزي عن التعليق على ما قلتَه يا كبير، ربّانا والدنا على عدم التدخل في ما لا يعنينا، فأسكتُ في حضوركم. ولكن سأخبركم،إن سمحتم لي، بشيءٍ آخرَ غيرِ رأيي في موضوع الأسير الروسي: علينا، ونحن نُثني على الرجلين اللذين اعتقلاه، أن نحاسب من جاؤوا به إلى أرضنا: الأخوان قرمرز، وغازي إمام، ولَوَ ممت – جري أخيراً، ونعاقبهم.
– أحسنتَ يا غُفس، – حملتِ الكلمات الصائبة التي سمعها نقار على الاستحسان، – عبّرتَ عما في قلبي، وإذا كنت أجهل سبب إحجامك عن الإجابة فأنا أسحب امتعاضي. ولكن لا أعرف رأي والدك في ما قلتَ.
– وسأطلِعكم على رأيه، – لم يتراجع غُفَس عما قاله أمام الأكبر سناً، – لم أنقل إليكم، لا أنا ولا أخي إسلام، ما لا يُعجب والدنا. سامحوني على إطالتي في الكلام.
– ونحن يا كبارنا الأعزاء سننصرف إن وافقتم، – رجا بكر،ثم قال لغفس مبرزاً كونه الأكبر: – قفْ على يساري يا براغنه.
قال جانسعيد الأفندي بعدما سار هو ونقار مسافةً:
– يا نقار، يا من بارك الله يومه مئةً، سمعتَ ما قيل لنا لأننا نتدخل في ما ليس من شأننا.
– لن أستغرب هذا. سيعلَّق عليك من يأوون إلى الأجمة وينتظرون ما سيحدث. ولكن ما يُقلِقني هذه اللحظة شيء آخر: ما قاله لنا غفس بخصوص الأخوين قرمرز.
– وأضِف إليهما حمرزقوه وتامبي!
– ماذا؟ – سأل نقار كأنه لم يحدس ما قيل له. – ألم تسمع ثناء ابن براغنه عليهما؟

– سمعتُ، ولكنك تعرف، كما أعرف، أن زاس الخبيث رتّب موضوع تورناو مع آل قرمرز قبل حمرزقوه وتامبي... أنت وأنا يا نقار متى بدأنا نلعب لعبة الغميضة فنحن نستحق كل ما يقول بحقِّنا المختبئون في تلك الأجمة، – حثّ جانسعيد حصانه مستغلاً تقدمَه في السن على نقار، ومنصبَه الديني.

لام نقار الذي لحق برفيقه الأفندي، ووقف إلى يساره قائلاً في سرِّه: "يضربني تصنُّعي أحياناً وأنا أتذاكى، – لستُ وحدي، كل الأديغة فينا شيء من هذا الرياء. علاقات الاحترام بين الكبير والصغير، واستقبال الضيف، وتقاسُم الفرح، والتعاون على العمل، كلها عادات حسنة، ولكننا انتكبنا من وراء الحسد والغيبة والرجولة المصطنعة والارتياب فيما بيننا... وهل الأقوام الأخرى تخلو من هذه المثالب؟ وهذا الذي يعتب عليّ حجّ مرتين، وأقام في تركيا، وقابل السلطان، وصار عنده معارف كثيرون. ولم يغفر لي القليل من الخبث معه. ويعرف جيداً أنه لا يجوز التصرف هكذا مع من تتناقش معه. أيكون دم النغوي الذي في عروقه من جهة الأم هو سبب دفاعه عن الأخوين قرمرز؟ وأنا لا يحق لي أن أقول هذا: إن رجعت إلى الجد الأكبر لوالدنا، – تذكر نقار وهو يبتسم لُوَ ممت – جري، – فينا شيء من الدم الأباظي. إن وصل تفكيرك إلى هنا يا صديقي الشكّاك فسأسألك معاملاً إياك بالمثل".

– ماذا يا صديقي جانسعيد،يا من جعل الله يومه مئةً ، أيكون القليل من دم النغوي في عروقك سبب عتبِك عليّ بشأن آل قرمرز؟

– لا، أعاد الأفندي الحاج السؤال دون أن يخفف من سرعة حصانه، – وهل أعتب عليك إن كان ما فيك من دم أباظي يهيجك؟ إن دخلنا في مثل هذه التعريضات فستكون نهايتنا في التمييز بين أصول الأسر. ومَن في أرض الأديغة له نسبٌ صافٍ من التشابكات؟!

– ربما الأسير الروسي الذي يحتفظون به في الأبزاخ.

– لا تغالط يا نقار، – أجاب الأفندي دون مزاح، – ومثلُ هذا يعيش في الأبزاخ. لا تصدعْ رأسك بالموضوع، أقصد براغُنه ميشكا.

– ألا تثق فيه!.. إذن ما قاله لنا الابن الأكبر لبراغُنه كلمات كاذبة.

– أسمعك يا نقار فأراك إنساناً عجيباً... هل تصدِّق ما يقول ذاك الذي تتحدث لي عنه؟ هذا ابنَ من يكون إن لم يكن ابن براغُنه ميشكا؟
– أعرف أن بابسه لم تربّه وحدها! – ردّ نقار محتداً من طريقة سؤال جانسعيد، والآن غمغم إلى مَن وراءه حاثّاً حصانه: – لا أريد أن أسمع عن براغُنه ميشكا الذي حارب معنا عدة سنوات ضد القوزاق مثل هذا الكلام.
– توقَّفْ يا حجرت! أيّ عار تُلحِقه بي؟ – لجم جانسعيد حصانه حتى ارتفع في الهواء على قائمتيه مدفوعاً بكونه أفندياً أكثر من كونه الأكبر سناً.
– سامِحني يا كبير! – أرجع حجرت نقار حصانه، ودان نفسه أمام جانسعيد أفندي، – نسمح أحياناً بتصرفات لا تليق بنا أن تغرينا... والسبب أني لم أكن أريد أن أسمع ما يسيء إلى براغنه، الإنسان المستقيم.
– ونحن، هل تتصور أن كل ما فينا حسنٌ؟ هذا من شأن الله العلي العزيز. وأول واجباتنا كمسلمين أن لا نخالف أوامره ونواهيه، ولا نخرج عن رقابته. والحق أني لستُ فاقداً الثقة ببراغُنه ميشكا. وتابعته في مواقف كثيرة كان يحارب فيها أبناء قومه القوزاق. ولكن ألا تعرف مع ذلك ما جرى لنا... – اختتم الأفندي جانسعيد بالكلام الذي تسبّب في انتفاء الثقة بينهما، وفي نزاعهما وتصالحهما.
– ما العمل إذن يا من بارك الله في معروفه يا كبير، نحن في دنيا فانية. لو كنا نعرف ما ينتظرنا اليوم وغداً، دعْك من الشهور، لما تكلمنا على براغُنه ميشكا، ولا على أسيرِ تامبي، ولا على أقوال غُفس.
– ليغمرْنا الله برحمته مهما قُلنا ومهما نوينا، ولْيحمِنا! ولن نتعرض إلى من لا يستحقون العتاب.
صاح نقار في داخله: "تضمر لي في قلبك شيئاً أيها النغوي المخادع ولا تكشف عنه" ونظر إليه من طرف عينه – ثم تذكر أن فيه هو أيضاً بعض المثالب التي يعيّر بها الأفندي، فنصح نفسه: – "لا أظن أن في العالم إنساناً لا يحتفظ بسِرّ ما لنفسه... ولكن إذا كان كلٌّ منا سيكتم سره فعلينا أن يتصافى قلبانا اليوم في المسألة الأديغية التي نخوض فيها؛ وإلا مزَّقَنا المحاصرون لنا فرداً فرداً وعِرقاً عرقاً. وكشفتْ طريقةُ إدخال أسير تامبي هذه الفُرقة. وكل ما قاله

غُفس، ابنُ زوجة براغُنه، في هذا الصدد مما يدعو إلى التفكير. نحن ندعو الأديغة إلى الوحدة، وهم يدورون بالأسير سراً في أرضنا. ولا يكفي هذا بل يُعِزّونه في بيت الإمارة طمعاً في الفدية... ما أعجب هؤلاء الأديغة!.. نعيش حياتنا في جدال دائم ولو أننا نتكلم لغة واحدة، وتحت خيمة عادات وتقاليد واحدة، بلا دولة ولا جيش، منقسمين إلى اثني عشر عرقاً... كفى يا حجرت نقار! ماذا تقول وإلى من تصغي؟ حاكِمْ نفسك قبل أن تغتاب قومك وتنتقدهم، وأعِدِ النظر في سلوكك وتصرفاتك. ألستَ من يقابل زاس البغيض مفتخراً، مؤمِّلاً الأبزاخ بسيفك المشهَر؟ لا، لا أشاركه في موضوعات الأبزاخ. حسناً، دعْنا من هذا؛ لا أعرف سبب هذه التصرفات مني... إذا كان هو يرسل الجاسوس سراً فأنا أقابله علناً، ونتبادل بعض الكلمات العدائية... وهل يعرف رفيقي هذا؟ وكيف لي أن أعرف؟ لا يسألني، ولا أسأله. أأُخبره؟ لا؛ وهل يُطلِعني هو على أسراره؟!"

– يا جانسعيد، يا كبير، يا من أدعو له أن يديمه الله العلي العزيز على رؤوسنا، – قال نقار الذي خرج من أفكاره فجأة، – أودّ أن أسألك في موضوع يشغل بالي، وأظنه يشغلك أيضاً. ما رأيك في العلاقات الأديغية – الروسية؟

– لا أحد غيرُ الله يعرف، – أجاب جانسعيد بعد تروٍّ، – ولكن سأخبرك برأيي في ما يشغلك ويشغلني. سنقاوم هؤلاء الروس الذين غزَونا طويلاً، وسنحاربهم، غير أننا لن ننتصر عليهم. والأفضل ألا نشهد، أنا أو أنت، هذه الخاتمة الحزينة.

– أهذا رأيُك؟... – أظلمت في عيني نقار الطبيعة المضيئة التي لم يكن يُسمَع فيها غيرُ وقع حوافر الخيل. ولكنه أسرع بالقول: – لا يا جانسعيد، لا يا أفندي، لا يجوز أن نُسمِع الأبزاخ هذا الكلام. ألم نطلب إذن من الشباب اليوم عبثاً أن يتناقشوا في موضوع وحدة الأديغة؟!

– سأطلِعك على رأيي لأننا صديقان، ولا أقول هذا لكل من يسألني. أدعو إلى الله أن يحمينا ويرحمنا، لا تراجُع فإما أن نكون رجالاً أو نموت.

– نعم، نعم، – أيّد حجرت نقار رفيقه الذي توقف عند المنعطف، ثم سأل الكبير الذي ينوي التوجه إلى قريته: – هل يمكن أن تمر على قريتي ولا تدخل

بيتي ونصلي ونتغدى معاً؟ كثيرون ممن قلوبهم غيرُ صافية نحونا ينظرون إلينا بسبع عيون وكأننا تناسينا طريقة دعوة الأديغة إلى البيت؛ لن نسمح أن نكون مُضغةً في أفواهنا.

– إن كنتَ ترى أنك لم تملّ من مرافقتي طوال النهار يا نقار فدعوة الأديغة إلى المنزل لم تبدأ بك ولا بي، ولن تنتهي بنا، ولذا لن أتجاوز مضافتك. وإن شئت ذهبنا إلى أبعد فهنّأنا براعُنه ميشكا. ونقابل أسير تامبي، ونتعرف نواياه الحقيقية.

– وماذا ستكون نواياه؟ لا يتنازل، وهو الضابط الروسي، أن يفتدوه.

– سمعتُ بهذا، ولكن لا أعرف ماذا يتأمل.

– ربما يتأمل قرمرز... – دفع صوت وقع حوافر الخيل السريعة نقار إلى الالتفات، – ماذا ينوي هذان الفارسان اللذان يتدافعان؟.. انتبه يا جانسعيد!

– لا داعي للخوف يا نقار. أحدهما قرمرز تيمبولات الذي كنا في سيرته، والآخر لا أعرف اسمه.

– هذا لُوَ ممت – جري، الأمير الأباظي الصغير الذي انتكب الجاسوس على يده. والله يا جانسعيد، لا أعرف رأيك ولكن لا أريد الالتقاء بهذين، ليس في مضافة، بل حتى في طريق.

– اِصبرْ؛ أين روحك الأديغية؟

– لا أستطيع أن أفعل هذا، ومع ذلك...

– اِنسَ " ومع ذلك "، – نبّه جانسعيد رفيقه، ثم قال للفارسَين اللذين وصلا، مقدِّماً اسم الأمير: – أهلاً بكما يا ممت – جري وتيمبولات. إن كنتما في ضيق فسلاحكم سلاحنا.

– حياك الله يا جانسعيد، ليس ما يشغلُنا مما يستدعي إشهار السلاح. بل كنا نريد لقاءكما واستشارتكما فجمعَنا الله بكما. وإن لم يمنعنا وجودُنا على الطريق كاشفْناكم بما يشغلنا. فإن رفضتم فنحن ندعوكم إلى قرية شجراي إن لم تستبعداها.

ابتسم حجرت نقار في سِرّه قائلاً :" ما أذكى هذين! يظنان أنهما اتخذانا موضع ثقة، وسنقاسمُهما قلقهما، ونلبي طلبهما. يبدو أنْ لم يبق لهذين سرٌّ أم

يحتاجاننا لغير موضوع الجاسوس؟ كان زاس وسّط منذ مدة قصيرة ليفاشوف من أجل هذا الموضوع... "

– ولماذا نمضي إلى شجراي البعيدة ونحن في تخوم قريتي؟ – دفعتْ الروحُ الأديغية نقار إلى القول. – تفضلا إلى مضافتي، ونتكلم في ما يشغلنا ويشغلكم. هؤلاء، – ابتسم وأضاف مشدداً على هذه الكلمة: – يقولون إن الله جمعَنا فتقدَّمْنا يا جانسعيد!

XXXVIII

كان نهار الخريف القصير قد بدأ يتوقف عند منتصفه حين ارتفع أذان الظهر في سماء قرية تامبي حابله.

– حان وقتُ صلاة الظهر، – قالت الصبية خان التي كانت تخيط زراً لسُترة النقيب تورناو.

– إذا حانت فأنهي عملك دون تلكُّؤ. ولا تفوتي صلاتكم، – نبّه ناقج من مقعد الحارس ابنةَ الجيران الخادمة، معتداً بنفسه، شاملاً بخطابه أسلانكوز وددای اللذين ملّ منهما.

– إياك يا خان أن تردي على كلامه فتغُرّي الإبرة في إصبعك! – ردّ ددای الجاهز دائماً على غريمه المعتاد، ملاطفاً الصبية: – إن كنت لا تعرف فاعلم أن المؤذن لا يقول إن وقت الصلاة قد حان، بل يدعوكم إلى التفضُّل. وأنا سأعود وأحضِّر ماء الوضوء لأمي.

– وأنتَ أيضاً أدِّ صلاتك! – قال ناقج في إثر ددای محتجاً على تصحيح الأخير كلامه.

– أشباه الجنّ من أمثالك، – التفت ددای إلى ناقج مُضفياً على وجهه شيئاً من الخبث، وردّ عليه، – أصلي بهم منذ زمن بعيد... مهلاً، هل تسمعون؟ هذا ليس صوت مؤذننا...

– عبد الله أفندي التركي يؤذن لنا منذ ثلاثة أيام، – قالت أسلانكوز لددای، ولكن لا أعرف إن كنت لاحظتَ.

– هكذا؟.. لم أعرف، ولا أمي نبّهتني... – همس دداي لنفسه بصوت منكسر، ثم أعلن غاضباً: – ما حاجتنا نحن إلى أذان الأفندي التركي الذي يلقي الرعب في القلوب؟!

– إن كنت رجلاً فاسأل الأفندي، – لم يتراجع ناقج أمام غريمه.

– سأسأله، ولكن أهو أعلمُ من أمي؟ – خرج دداي من الغرفة محتجاً.

– والله يا أسلانكوز مللنا من دداي... سيدفعني يوماً ما إلى تحطيم أنفه.

تغيّر وجه أسلانكوز الفتاةُ ربةُ البيت جاهلةً سبب ما سمعت، وغيرَ متقبلة له، ونظرت إلى خان، والتفتت إلى الأسير. وقبل أن تجد الذريعة للخروج من الغرفة جعلها كلام تورناو تحسن رأيها فيه.

– إن كنت ستطيعني يا ناقج فلن أدعك تفعل مثل هذا.

– ماذا يا كافر؟

– لا يُضربُ أمثالُ دداي.

– قل لي ماذا يمكن أن تفعل الآن؛ ها هو يربينا مثل براغُنه ميشكا!..

– هيا يا خان، تعالي، – نهضت أسلانكوز دون أن تحني قامتها الرشيقة، – ونحن لن نفوّت صلاتنا.

وبعد ظهيرة اليوم التالي سُمع في قرية تامبي حابله صوت المنادي:

– يا رجال القرية المباركين،أنتم مدعوون إلى المكان الذي يبتهل فيه أهالي تامبي حابله وحمرزقوه حابله إلى الله. ليس ما يدعو إلى الخوف، ولا يهاجمُنا القوزاق وغيرهم من اللصوص. ندعوكم إلى البحث في موضوع إحدى قرى الأديغة، وربما تعرفونه. سنعمل على مصالحة آل حمرزقوه الذين بينهم دم.

– والله مللنا من موضوع آل حمرزقوه. دائماً عندهم مشكلة ما. – غمغم بكر لِما سمع.

– وهل تامبي عازف الربابة أفضل منهم؟! – قال مرزخواي العجوز، وشدّد على ولديه الواقفين على الباب شاملاً نفسه معهما: – لا داعي لأن يسمع أحدٌ ما يدور في أسرتنا من حديث. هيا جهّزوا لي حصاني، سنمضي إلى مكان الابتهال. سنجاري الناس في ما يقولون وما يفعلون.

– وما علاقة الأبزاخ بالاقتتال بين آل حمرزقوه؟ – لم يستطع مُحَمَّد الذي كان يرفع مائدة والده إلا أن يقول.
– يا ولد؛ إياك أن تقول بهذه الحجة شيئاً في الاجتماع!
– يا والدنا، لا نتجاوزُ الأدب حيث أنت، وليس من واجبنا أن نقول. ولكن لا نقبل من أحد أن يهينك، لا أنت فحسبُ بل الأبزاخ كلهم. ألا تروي لوالدك يا بكر ما قلتم في اجتماع الشباب بشأن الأسير الروسي !
– لا يحدث في الأبزاخ ما لستُ مطلعاً عليه يا ولد. لا تتصوروا أني وصلت إلى سن العجز وعليّ أن أتقاعد. – رد مرزخواي على ابنه الأصغر مُحَمَّد، ونهرَ بكر:
– ألستَ من كلّفتُه بالحرص على كلام أخيه الأصغر! سأقطع رأسك إن قال في الاجتماع كلاماً لا يليق بنا... ولستم وحدكم من أحذِّره بل غُفس وإسلام ابنا براغنه ميشكا. قضايا البلاد التي يعجز الكبار أمثال عبد الله أفندي عن حلها ليست من شأننا... ولستُ بعيداً عن التوجُّس مما سيحمله إلينا أسيرُ تامبي من مصائب. ولكن لا أسمح لكم أن تتدخلوا في ما لا يعنيكم.
كان بؤدّ بكر أن يسأل والده عن سبب حذره من القوزاق وهو الذي كان قاسياً عليهم يوماً ما " حتى لو حشد فيليامينوف وزاس جيوشهما ضدنا بهذه الحجة؟ " غير أن روح الأديغة عنده والاحترام منعاه من السؤال.
– هل تسمع يا فيدور – فيدور – قطع تامبي عزفه وسأل أسيره، – ما يقوله المبلّغون؟
– يدعون كل الذكور لابسي القبعات إلى المؤتمر.
– حسنٌ أنك لا تعد نفسك من غير لابسي القبعات، – ابتسم تامبي للأسير، وأجابه مُشعِراً إياه بأن مصيره في يده، – غير أن دعْوتَك إلى المؤتمر أو عدمها بيدي.
– لا أجهل أن مصيري بيدك ولكن من يعرف؟.. – قال تورناو الآن على نحوٍ أصرحَ.
– موعدُنا مع تحقيق " ولكن من يعرف " هو تنفيذك أحد الطلبين اللذين حددتُهما لك: إما أن تفتدي نفسك وتُفارقنا، أو تعتنق الإسلام، وتستقر بين الأبزاخ مثل براغُنه ميشكا. وأفضّلُ الخيار الثاني إذ أتقرب بهذا المعروف إلى الله

ولو لم أسترجع أملاكي التي نهبتموها. فإن فعلتَ هذا فكما عثرنا لبراغُنه ميشكا على أرملة تحتويه، – ضحك تامبي بطريقة تُشعِرك بارتياحه لما يقول، – فسنزوّجك من الفتاة التي تشير إليها. أليس صحيحاً يا ناقج؟

– نعم يا أمير، بالتأكيد، – أسرع ناقج بالردّ، بادياً على وجهه افتخاره باستشارة الأمير له، وكأنه يسأل الأسير إن كان سمع كلام تامبي، – وهو على كل حال عينُه على أسلانكوز.

– وأسلانكوز وخان وددايَ أصدقائي، – ابتسم تورناو مموِّهاً على تلميحهم له، – وأنت لا أعاديك رغم قسوتك معي.

– عادِني أو لا تعادني كما تريد... – واسى ناقج نفسه وما سمعه يلطّف من مشاعره. ثم اختتم بنبرة وقحة: – لم أقصد خان الخادمة، ولا دداي الأبله.بل أسلانكوز ابنة الأمير.

– فكِّرْ يا ناقج في ما تقول أحياناً! – نهره تامبي. – إن سمع الأمير ألجري ما تقوله في بيتي بشأن ابنته التي فقدت والدتها، والتي هي في مطلع شبابها طردكَ من القرية، ولامني أنا. توقَّفْ! – ولم يسمح لناقج الذي كان يريد أن يبرِّئ نفسه بالكلام. – هيا استدعِ بكر واحرساه، ونحن ماضون إلى الاجتماع.

– من تسميه ذهب برفقة والده وأخيه إلى المؤتمر.

– ومن أين تعرف؟

– هؤلاء، مروا قبل قليل يحدّقون في نوافذنا، وأنت تعزف على الربابة. وسأخبرك خبراً آخر: – وددايَ صديق هذا الكافر كان يتبعهم على رجليه.

– أما كان بإمكان أحد الأخوين أن يُردف هذا المسكين على حصانه!..

– هذا ما وجده تامبي ليقوله، ولكنه أنهى كلامه مناكداً الكافر بعدما تفكّر:

– لو جئنا بحصان لدداي الذي قضى والده على يد القوزاق في إحدى غاراتنا عليهم، لكُنّا كسبنا ثواباً! لا أقصد أني أبخل عليه بحصان من قطيعي من الخيل، ولكن لو ساعدناه على الثأر لوالده بحصان قوزاقي لارتاح قلبي.هذا الشاب ليس مجنوناً كما نتصوره.

– هذا الثرثار ليس مجنوناً بل يتظاهر، – ثم توسّل ناقج إلى تامبي مُخفياً ما سمعه: ليتني أريتُك يا أمير كيف يحدِّق في الصبية خان!.. ليته ما تسبب لنا في العار!..

– لا تفترِ عليه لأنك لا تودُّه، – لم يُطِق تورناو صبراً.

– اسمعْ ما يقول يا أسلانبج، – أسرع ناقج بالكلام متخيلاً أن الأمير وثق به، – هذا ينوي أن يهرب منا مستفيداً من هذا المجنون – العاقل.

– أسمعك وأنظر إليك فأراك ظالماً كما قال لك الأسير، – نهض تامبي أسلانبج بكل ضخامته، – ولكني أغفر لك لأن الظلم والصدق متجاوران. دعْنا نقيّد يدي هذا الصادق ورجليه لأني لا أثق به، ولأن رجال القرية ذهبوا إلى الاجتماع، واحرسه دون أن تقسو عليه. سامِحنا يا فيدور – فيدور، سنقيِّد يديك ورجليك.

حضر إلى المؤتمر، لا أهالي قرية تامبي حابله وأهالي قرية حمرزقوه حابله وحدهم، بل من قرى كثيرة من الأبزاخ، حتى من البسلني والمخوش والجمكوي والنغوي فرساناً ومشاةً. كان السبب في اجتماع كل هؤلاء الناس هو الرغبة في إغلاق هذا الموضوع الآن بالصلح بعد ما تنازع أبناء العم على الفتاة في زمن ما. وأعقب النزاعَ سفكُ الدم وسْط استغراب كل من يسمع. الأمراء والنبلاء والزعماء المتنفذون وعامة الفلاحين، كلٌّ متميز من بين أقرانه بطباعه، يرون أنفسهم فوق الآخرين مكانة. والغرباء المتميزون بين الأبزاخ هم بضعةُ الفرسان النغوي القادمون من قرية شجراي بلباسهم وسروج خيلهم.

همس تابي أسلانبج في أذن داور ألجري:

– لا أرى قرمرز تيمبولات بين النغوي الذين اصطحبهم الأمير شَلَخُ. والأمير قانقوه غائب عن الأنظار.

– كلاهما عنده عُذر في عدم حضور اجتماعنا. أولُهما طاف بجاسوسك الأسير في أرضنا، والثاني تسببتْ أخته في مأساة بين أبناء العم.

– وأين آل حمرزقوه الذين جمعونا من أجلهم يا ألجري؟ – سأل حجرتُ نقار الأميرَ حين رأى احتشاد عامة الفلاحين.

صاح أحد الفلاحين من بين مجموعة تقف على الطرف مما منع الأمير ألجري من اختتام كلامه:
– ماذا ننتظر يا نقار؟ افتتحِ الاجتماع!
– لا تدعونا نكلِّف نقار زعيم فلاحينا بمهمة لا تناسبه، – هتف فلاح آخرُ رافضاً، – لينتهِ من جمعونا من مشايخ "السفر والسفر"، من امتداح أنفسهم، ولْيفتتحوا!
ظهر عبد الله أفندي وإلى جانبيه أبناء العمّ حمرزقوه، أسلانجري وعادل – جري، ووراءهما عدد من المشايخ.
نادى عبد الله أفندي المشاركين في المؤتمر:
– أيها المسلمون، يا أمة الله العزيز القيوم علينا، دعونا نتوجهْ إلى القبلة وندعُ إلى الله ما نكسب به الثواب.– وبعدما رفع قرابة ثلاثمئة رجل أيديهم إلى السماء وابتهلوا إلى الله متمتمين، قال مَن لا يوحي قوامه المتين بأنه أفندي: – والآن أيها المسلمون الذين تقبّل الله دعاءهم، ابتعِدوا وألِّفوا حلقة دائرية كي تكون ساحة للاجتماع. وأنتما أيها الأخوان أسلانجري وعادل – جري اللذان رمى الثأر العداء بينهما، قفا أمام المجتمعين، واللهُ الذي سيغفر لكما ذنوبكما في قلبيكما، وليواجِهْ كلٌّ منكما إلى الآخر!
– وكأننا ليس عندنا مثلُ الأفندي المتعلم جانسعيد، – تمتم غُفس، – ننفذ ما يأمرنا به التركي القادم إلينا من وراء البحر!
– ليسحبْ كلٌّ منكما سكينه، ثمّ يكسِّرها على ركبته كي لا يرفعها أحد على الآخر أبداً! – وبعدما أنجز المعنيّان اللذان قسا عليهما الأفندي المهمة، غيّر نبرته إلى الألطف: – والآن لتتعانقا عناق أهل وإخوة. قولوا: آمين. والآن لنبتهل جميعنا إلى الله تعالى، ولنُقسِم أمامه أن تنتفي العداوة بين الإخوة حمرزقوه، ولا يكون بينهما إلا المحبة، وأن نقابل بالجهاد من ينشرون الجواسيس بيننا. ولْيقضِ أعداؤنا الروس على رؤوس خناجركم! وإذا كان بينكم من يود السؤال عن أمر، ولو أنّ قضاء الله لا يُسأل عنه، فسأجيبكم بصفتي موفداً له إجابات صادقة.
ساد الصمت أرض فسحة الغابة إلا عُطاس بعض الناس ونخير الخيل.

ابتسم جانسعيد، وأفهَمَ نقار بعينيه ما في نفسه، ثم قال في سِرّه: "نستحق مهما قال لنا هذا الرجل أو فعل بنا. ليس مجرد أفندي، ولو أني لم أصدِّق ما كان قاله لي قرمرز تيمبولات... هذا أخطرُ من أسير تامبي، وسيورِّطنا في ورطة لا فَكاكَ منها. قيل إن الجاسوس تورناو يعرف حقيقته فالأفضل أن يُطلِعنا عليه بطريقة ما..."

خرج دداي من مجموعة الشباب التي كانت تقف قريباً من مُستنّي عامة الفلاحين، ودخل ساحة الاجتماع، فاتجهت إليه عيون الكبار والصغار متلهفين على ما سيقوله. صحا جانسعيد من أفكاره،وشدّ عبد الله أفندي قامته دون أن يلاحظ الجمهور حوله.

– ماذا يبغي هذا الأهبل المتمرد يا تُرى؟.. – غمغم حمرزقوه أسلانجري الذي خلّصوه من مشكلته للتوّ، ولم يكتم عن الأفندي التركي ما يتوجس منه: – هذا الشاب حرّضه أحدهم... – ثم قال لدداي: – ما الذي يقلقك أيها المنحوس خلافاً لكل المؤتمرين؟ هيا أمُّك تطلبك!

– كائناً من كان يا أمير، – نصح عبد الله أفندي حمرزقوه، – متى ما توسّط ساحة الاجتماع فلا داعي للسؤال عن عقله، لِيقلْ ما يشاء. نسمعك أيها الفلاح، يا من بارك الله فيك.

– كنت أودّ أن أسألك يا أفندي، ولكن بعد أن أردّ على كلام من طهّرناه أمام الله من إجرامه،والذي أهانني،– قال دداي بكل تعقُّل كمتكلم محترف في الاجتماعات، وتوجه إلى حمرزقوه وسْط استغراب السامعين: – أنت أيها الأمير تتناسى مساعدتنا لك على التوبة أمام الله عن جريمتك، لو كانت والدتي تناديني لانصرفت ولكني لم آتِ إلى هنا دون عِلمها. الحقّ أني أتساءل يا أفندي هل أنت مؤذن أفضل من مؤذننا؟

– لا، يا مبارك، بل نفّذت رجاء أهل القرية.

– لا بأس هكذا... – اقتنع دداي بما قيل له، وعاد فسأل بسرعة: – لماذا إذن تؤذن باكياً فتزرع اليأس في قلوبنا؟

– هل سمعتم أيها المجتمعون، رعاكم الله، سؤال الفلاح دداي؟ – خرج عبد الله من عصبة الأفندية الذين يقف بينهم، واقترب من دداي.– أنا أؤذِّن من أجل

ألا أُنسيَكم أننا لا نسعد في دنيا الله الفانية الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد، وأننا على سراط جهنم. ولكنْ أحرِقوا من غزاكم بنار جهنم مستبشرين بجنة الله. وإذا كانت الأسئلة انتهت هنا فآل حمرزقوه يدعونكم إلى مائدتهم التي بارك الله فيها. هيّا يا دداي لنتناول من طعام من ابتهلنا إلى الله من أجلهم.

– لا، لا يا أفندي، لستُ ممن يشربون الباخسمه على لحوم الحيوانات التي يسلبونها أرواحها. وأمي لن تقبل مني هذا، – أسرع دداي بالردّ، ولم يكتم ما سمعه مرة من النقيب تورناو بخصوص عبد الله أفندي إلى آل تامبي. – ثم إنّك لستَ المقصود بحمرزقوه، بل أقصد عادل – جري: من لا أثق به هو أسلانجري الذي قضى والدك على يده...

– ماذا جرى لك اليوم، أحاول ألا أردّ عليك ولكن هل صرت متحدثاً عاقلاً معنا؟ – قطع حمرزقوه أسلانجري كلام دداي كاظماً غضبه بصعوبة. – لا تُثرثر!

– أتكلم كثيراً، – رد دداي على من نهره،– لأنك تناسيت أن من صالحَك إلى قريبك عبد الله أفندي جاسوس تركي!

نصح عبد الله أفندي دداي وهو مذعورٌ مما قيل في غيابه:

– تعال يا ولدي، أظن أن موعد تجديد الرقية التي كتبها لك الحاج جانسعيد قد حان. سأكتب لك حجاباً جديداً.

– أهذا أنت يا أفندي؟ – توقف دداي وعيناه لا تريان شيئاً.

– نعم، نعم، تعال. سينفعك ما يكتب لك موفد الله عبد الله أفندي... لاطف الآن حمرزقوه الغاضب ددايَ.

– هؤلاء يدفعون دداي المسكين إلى الثرثرة، – قال براغُنه ميشكا لجانسعيد ونقار، وهمس لابنه غُفس: – اذهب يا ولد، واسحب دداي من بينهم!

XXXIX

التقى حمرزقوه وتامبي بعد شهر تقريباً من الاجتماع في المكان الذي اعتادت الذئاب أن تأوي إليه.

ليس الجو دافئاً لأن الوقت أواخر الخريف وأوائل الشتاء. وحمرزقوه أسلانجري الذي وصل أولاً إلى الموعد المحدد جالِسٌ إلى أرومة عتيقة وقلبه مُثقَل ثِقلَ السماء المشحونة بالغيوم. وحين وصل تامبي المتأخر قليلاً ترجل عن الحصان فحياه أسلانجري برفع جسده قليلاً عن مجلسه، وقال:

– تفضَّلْ إن كان في قلبك خير!

– أنا في قلبي خير يا أسلانجري غير أني لا أعرف تفسيراً لحالتك. كنت ساعدتُك لو كان بمقدوري.

– تنطق اسمي بوُدٍّ يا تامبي...

– وهل نحن أعداء حتى لا أنطق اسمك بودّ؟

– وكيف لي أن أعرف؟

– أما اتفقنا ألا نتحادث بلغة الألغاز يا أمير؟

– نعم اتفقنا يا تامبي ولكنك لم تفِ بالتزامك.

– يا حمرزقوه!.. – قفز تامبي الذي لم يتحمل الإهانة واقفاً.

– يا تامبي حان الوقت للتخلص من نَزَقِك. – نهر حمرزقوه تامبي. – واجلس، لا تقف على رأسي.

– سأجلس، غير أني آنفُ من تجبُّرك عليّ.

– أفعل هذا لأن عندي أسبابي.

– إن كان الأسيرَ الروسي فقد انتهينا من موضوعه منذ زمن طويل.

– ومن يحتاج إلى من تأتي على ذِكرِه عالةً عليه؟.. ولكني أنبّهك إلى أن من تعامله بلطف وتعزف له على الربابة له أنصار في الأبزاخ فسيخيّب أملنا فيه.

– أليس لهؤلاء الأنصار أسماء؟ – رفع تامبي رأسه الضخم فجأة بعد ما كان جلس كأنه غير مبالٍ.

– مع أن السر غيرُ مكشوف فإن من يكشفه له اسمٌ، ولكنه ليس كجارك دداي الخرِف... ولو فرضنا أنه خرفٌ أما رأيتَ كيف تصرّف معي في الاجتماع؟.. في القرى كثيرٌ من المجانين يُنطِقهم بعضُهم بما يريدون... غير أني لا أكتم عتبي عليك. وإن لم أُبلِغك به فمن يُبلِغك. عاطفتك نحوي باردة متناسياً المشاقّ التي تحملناها أنت وأنا على ضفاف نهر وارب وفي الأبزاخ. وقد

برهنت على هذا في الاجتماع الماضي. ولما سُئل عمن يريد الكلام توقّعتُ أن تقف في الساحة وتتحدث عني خيراً. ولكنك أطلقتَ جارك الثرثار، وجعلت من لا يودّني يشمت بي.

– يا أسلانجري، يا من جعل الله يومه مئةً، – أعرب تامبي فيما يدعو لغريمه بالخير عن استيائه منه، – كيف كنتُ سأُثني عليك في اجتماع المصالحة دون أن تعتذر؟

– هكذا يا تامبي تتكلم من قلب من صالحوني بابن عمي.

– لا أفهم يا أمير، – تظاهر تامبي بأنه لا يعرف شيئاً.

– وهذا هو ما رماني به ذاك وإن لم تفهم. يقولون، إن كان هذا حقاً: إنكم ودّعتموه إلى ضفة نهر وارب قبل أن تفسحوا المجال لنا لنتبادل تحية الوداع.

– صحيح أننا ودّعنا قريبك عادل – جري. ولم أكن وحدي، كان معي نقار وجانسعيد وبراغُنه.

– كنتم مجموعة غير قليلة... – قفز حمرزقوه من مجلسه، وقال إلى من خلفه فيما يمتطي حصانه: – هذا موقف اختبار صدق الصداقة... لا تفتروا على من أوفده الله إلينا عبد الله أفندي، ستندمون...

– يا أمير، – نادى تامبي حمرزقوه، – لم أفهم إلى الآن ماذا تريد أن تقول.

– لا تتظاهر بالجنون يا تامبي!

– هل دعوتني إلى هنا قاصداً إهانتي؟!

– أنت تعيش منذ زمن طويل دون شعور بالإهانة!

– يا حمرزقوه! – استلّ تامبي خنجره.

– أُخطُ خطوة واحدة يا تامبي، وتختفي من الوجود فلا يجد لك أحدٌ أثراً!

– أوقف حمرزقوه حصانه على قائمتيه الخلفيتين وانصرف. ولكن الفارس العائد أرجع تامبي إلى وعيه: أنت على حق يا أسلانبج، على حق يا أمير. سامِحني يا أمير، تركتُ حميّتي تغلبني.

– نعم يا أسلانجري... ومع ذلك تعتب عليّ إن وصفتك بالنزق. ألستُ أكبر منك سناً فتعاملَني بخفّة الشباب وطيشهم يا أمير! إن تعادينا أنت وأنا فكيف سيتصرف معنا الأبزاخ العنيدون؟..

– حياك الله يا أسلانبج. إن كان هذا رأيَك فسأصارحك بما في قلبي. صالحتُ ابن عمي عادل – جري قولاً، ولكني لن أغفر له ما فعل بي. كيف كنت تريدني أن أتكلم في الاجتماع وغُشَفج في قلبي ولا تفارق خيالي؟

– ما الذي تفني به نفسك وقد أصبحتَ ربّ أسرة!

– لن تفهم أنت هذا يا أمير، – تنهّد حمرزقوه.

– ستجيبني لأني لن أفهم... علّمتَني في كبري قولَهم: الحبيب مُلكٌ غير موزَّع،

– أعاد تامبي السؤال مازحاً على حمرزقوه وهو يُشفق على قلبه: – كيف سيتصرف معك إذن عادل جري أيضاً؟

– وكيف سيتصرف معك من قتلتَ أباه؟.. – سأل وأجاب نفسه:– سنتعايش في الدنيا ونحن متصالحان اسماً. لابد أن يجد هذا الموضوع حلاً إذا كنا تصافينا أمام العالم. أنا مهموم بأسيرنا الروسي يا أسلانبج أكثر من هذا. لا تُدلِّه، جوِّعْه، واحتفظ به مقيداً. متى أشعرناه بأنه أسير، وأنه بلا أمل طلب سريعاً فِديته. وتبعاً لِما قاله تيمبولات الذي كان في تفليس دون عِلم زاس وفيلياماينوف فقد أخبرهما القيصر ألا يبخلا بالفدية.

– هل فهمتَ الآن لماذا أدلل الجاسوس؟

– هل تصدّق كلام القيصر الكافر يا أمير؟ – نقض حمرزقوه في اللحظة نفسها كلامه، وزاد نبرته قسوةً: – ما يحتاجه الجاسوس: القيد والجوع!

– أظنني سأتصرف مع هذا العنيد هكذا.

– لا تظنّ،بل عاملْه بما يستحق!

– ثقْ بي يا أسلانجري في هذا أيضاً.ولكن أيكون قرمرز بين أنصاره الذين جاؤوا على لسانك يا أمير؟

– وليس وحده.

– ونقار أيضاً لا أثق به.

– وفكِّرْ في الأبعد!

– لا أعرف إن لم أُضِف اسمَي براغُنه وجانسعيد.

– يا تامبي، أُقسُ على الجاسوس يظهرْ لك أنصاره بسرعة.

XL

كان النهار الرطب بارداً غير أن المضافة التي يقيم فيها النقيب تورناو دافئ.
دخل تامبي أسلانبج الغرفة مخفياً سوء مزاجه، وسأل متظاهراً بمعالجة نار الموقد:
– غرفتك دافئة، ولا تفتقر إلى الطعام، والجيران يزورونك؛ أليس كذلك؟
– نعم يا أمير. أنا راضٍ عنك في كل شيء إلا في شأن حريتي.
– أما أنا فلستُ راضياً عنك! – حسم تامبي الموقف لأسيره.
– سأستدرك خطئي إن لاحظتم عليّ ما لا يجوز.
– تعيش معنا وكل سلوكك أخطاء. لماذا تماطل في موضوع فديتك متذرعاً بشتى الحجج؟
– لن أدعَهم يدفعون فيّ كوبيكاً واحداً!
– إن أصررتَ فليس من صالحك.
– وليس هذا من صالحك أيضاً.
– إن كنتَ تتأمل الإفلات منا أنسيناك ما تتأمله.– ابتسم تامبي وخرج من الغرفة. – تعال إلى هنا يا ناقج!
دخل ناقج إلى الغرفة والقيد الحديدي يتدلى من كتفه[1]، ففهم تورناو نيتهم نحوه فالتمعت عيناه من الإهانة غيرِ المنتظرة.

---

[1] "... كلما اجتمعنا طرح تامبي موضوع الفدية. وفي كل مرة كنت أسعى إلى تغيير الموضوع. وكان كلانا يفكر: هو يبحث عن أعلى سعرٍ يُدفَع فيّ، وهمّي أنا أن أتحرر بأي ثمن. ولكن أمامي الاختبار الذي أمام كل أسير. بدأ حراسي يعاملونني بقسوة لأن تامبي سيسافر لبضعة أيام. وفي إحدى المرات استدعى تامبي ناقج مع سلسلة تتدلى من كتفه. ولما لم أنتظر مثل هذا فقد جُنّ جنوني. ألقيت نظرة على مسدس تامبي وخنجره أريد انتزاعهما منه فلفتُّ انتباه الأمير فتراجع خطوة. وفي اللحظة نفسها انتزع نطاق السلاح من خصره ونادى من حوله، فامتلأت الغرفة بالناس.وكان عبثاً أن تقاتل الكثرة والقوة. ووضعوا القيد في عنقي... " المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– دعني أقيّدك دون أن تجحظ لي بعينيك! – نهر تامبي الأسير الذي يضعون الطوق حول عنقه. وعلّل له: – سأغيب أسبوعاً كاملاً؛ من يدري ماذا سيخطر لك... وامنعْ عنه الزيارات يا ناقج.

– إن كنت لا تهتم بكوني نبيلاً وضابطاً فأنا أربأ بك ما فعلتَ يا أمير.

– وهل نجد ما فعلتم أنتم بنا لائقاً؟! – ردّ تامبي، وأكّد عليه وهو يخرج من الغرفة: – أعد النظر في الموضوع، ودعْني أعود وقد حضّرت الفدية.

اختفى مع تامبي الخدم الذين كانت مواقفهم متباينة من سلوك الأمير مع الأسير الذي عاش أسراً زائفاً إلى الآن، مكرَّماً من آسره. وبقي في الغرفة تورناو وناقج اللذان ارتجّ صوت إغلاق الباب في أذنيهما، يتبادلان نظرات غير ودودة. وصدر من جهة باب الدار نباح كلاب. ونهق حمار من جهة دار مرزخوي يُشعر بدُنُوّ الظهيرة. وسُمع صوت دداي الذي لا يدع شيئاً يفوته. والريح تلقي قطرات المطر الخريفي البارد إلى الغرفة عبر النافذة. واهتزاز أحد مصراعي النافذة يمزق نياط القلب.

– لأجل هذا كنت أنصحك أن تنفذ ما يأمرونك به. – تمتم ناقج الذي لا يطيق الصمت المهيمن على الغرفة. ثم نهره شاعراً بنفسه أنه الأقوى: – لا تقف تنظر إليّ شزراً، اجلسْ! – وحين رأى دداي وخان ينظران إليه عبر النافذة هددهما بقبضته وقد تذكر تعليمات الأمير. – هيا أُغربا؛ ماذا تريدان أنتما أيضاً! – ولما ضحك النقيب الذي يجرّ على أرض الغرفة قيده نهره: – وأنت لماذا تضحك؟

لم يُجب تورناو الذي كان يحصي حلقات القيد كأنها حبات خرز. وما يفكر فيه اللحظةَ هو السفر المفاجئ لتامبي: " ماذا سيفعل حيث سافر يغيب فيه أسبوعاً كاملاً؟ ولا أظن من كلّفه بحراستي يعرف السبب. وإن كان يعرف فلن يخبرني لأنه مخلص لسيده كالكلب. وإن خرق الجنرال زاس أرض الأبزاخ بحجتي؟.. إن كان زاس يعتقد أن يسلموني إليه بالتهديد فهو مخطئ. الأبزاخ،كما يقول براغُنه، لا يمكن ترهيبهم بالسلاح. ما يحميه هؤلاء هو أرضهم وسماؤهم. من أنا حتى تقلق البلاد لأجلي؟ لم أنفذ المهمة التي وثقوا بي فأوكلوها إليّ. وأثَرتُ كلاماً في غير محله بينهم وبين من يأملون مساعدته ولا

يودّونه، ومقدِّماً ممسكاً للترك والإنجليز. كثير من أمثالي سقطوا ضحايا على طرُقِ حروبهم. وجعلوا من أسمائهم وأنسابهم هباء منثوراً. ولكن سأفعل ما بوسعي بما تُسعفني به قوتي وفطنتي، سواء تذكروني أم لم يتذكروا! متى؟..
– سأل النقيب نفسه في سره، ثم سخر من نفسه: متى ستفعل ما لم تفعله قبل أن يقيدوك بالسلاسل؟ إن كان الطوق الذي على عنقي بيد هذا الحارس فسأستخلصه منه بطريقة ما. وإن لم يكن معه؟.. – أيكون حمله تامبي معه؟ لن يفعل بي مثل هذا؛ ألستُ إنساناً؟ لن يقبل منه أي إنسان يسمع به..."
– الطوق يعصر رقبتي... – قال النقيب يريد أن يعرف إن كان المفتاح مع تامبي.
– تريد أن تستدرّ شفقتي عليك؛ أليس كذلك؟.. سأله ناقج برياء مصطنع، ثم أجاب نفسه: – ألا أرى قيد يدك كم هو مرتخٍ؟
– ظهر من الباب الذي فُتح بسرعة العجوز مرزخواي، ونظر من ورائه دداي وخان.– ماذا تريدون؟ – اعترض ناقج طريق من دخلوا الغرفة. – شدّد علي الأمير أسلانبج أن أمنع الزيارات عن الجاسوس.
– لم نأت لنسلُبك مهمة الحراسة، – قال مرزخواي مستهجناً القيد على الأسير، وصرخ عليه مستغلاً كونه أكبر عمراً: – ألستَ من يُطلب منه الابتعاد يا ولد!
– سأبتعد يا مرزخواي مع معرفتي أن المهمة التي كلفوني بها لا تتعلق بكبير أو صغير... – قال ناقج معتداً بنفسه، – غير أنه لا مكان لدداي وخان في هذه الغرفة.
– لا تتناس أني لابس قبعة!.. – ردّ دداي بسرعة على ناقج، ولاطف الصبية: – الآن يمكنك أن تفارقينا يا خان. وأخبري أسلانكوز أن ترتاح.
– أنا في ما عشتُ يا فيدور – فيدور رأيت كثيراً من الأسرى، – بعدما جلس العجوز مرزخواي بعض الوقت بدأ يدور حول ما يريد أن يقول، – وأنا وقعتُ في الأسر مرتين أو ثلاثاً حين كنا نُغير على القوزاق في طريق أستراخان. وكنت أهرب كل مرة دون أن يحتفظوا بي طويلاً. وها أنت تراني أمامك أعيش

شيخوخة سعيدة وإن كان على جسدي بضعة آثار سيوف. وأنت ما تزال شاباً والحظ ينتظرك...

– يا مرزخواي، تساهلتُ معك احتراماً لسنّك،– استعجل ناقج، – أكرر: لا تشجّعه على الهروب!

– وأنت كم مرة طُلب منك ألا تقاطع كلام الأكبر منك عمراً! – ردّ على ناقج دداي الذي سمع ما يريد تماماً، وسخر منه مستغرباً ضعف ملاحظته:

– وكيف يهرب من قيّدتموه بالسلاسل؟!

– لا تصدّق يا مرزخواي ما يقول هذا، هو والكافر يتعاونان.

– أُسكُتا! – منع مرزخواي الشجار المحتمل بين الاثنين، – لا تتورعان أن تتهاترا أمام الرجل المقيد، ولا تحترمان شيخوختي. هيا يا ناقج، الآن حالاً، وعلى مرأى مني، انزعوا الطوق من عنق فيدور – فيدور. نعم، أنا المسؤول، لا أنت! سأحرس بدلاً منك. انصرفا عنا كلاكما ودعانا نتكلم على راحتنا!

– اسمعوا ماذا خطر للكبير مرزخواي! – انتفض ناقج مما لم ينتظر من الكلام.– إن كان هذا ما تقرره لي فلن أخطو خطوة خارج الغرفة. ثم هل تعرف ما سأقول لك: مفتاح الطوق ليس معي... الأفضل مما تفكران فيه أنتما يا مرزخواي ودداي أن تحثّاه على الطعام. مائدته على حالها. أَضربَ عن الطعام وعن الشراب لأنه حرِد، وقرر ألا يتناول شيئاً إلى أن يعود الأمير.

– هذا لا يجوز يا فيدور – فيدور، – رفض مرزخواي قرار الأسير، – أفهم أن الإهانة تمنعك من الطعام، ولكن من العيب أن تدع الجوع يقتلك.

– نعم، نعم، – وافق دداي مرزخواي، – وعلى رأي الحاج جانسعيد فالله أيضاً لن يقبل.

– هؤلاء إلههم غيرُ إلهنا... – ما إن بدأ ناقج الكلام حتى دخلت سيدةُ البيت قُجَنس،ومعها أسلانكوز وخان، الغرفة فنهض مرزخواي والنقيب تورناو، ووقف ناقج الذي لم يجلس في حضور الأكبر عمراً، ودداي، بقامة مشدودة.

– هُرِعت إليّ خان لأنها لم تفهم ما يجري في المضافة فجئنا أسلانكوز وأنا يا مرزخواي فلا تؤاخذني.وأنت فعلت خيراً إذ جئت إلى هنا، – تفقدت قجنس

بعينين سوداوين حادتين غرفة الضيوف، ثم اختتمت مخفية استدعاءها إلى جَمْعِ الرجال عبثاً،– أراكم على وفاق تام!

– ولكن، – أسرع ناقج ناسياً أنه في حضرة سيدة البيت، – مرزخواي لا يقبل وجود القيد على الكافر.

– بديهي ألا يقبل، – جزمت قجنس معتبرة ما ترى مدعاة للخجل. – وهل عجيب إن كان جاسوساً ليفعلوا به ما لم يفعلوه إلى الآن؟ _ أليس بشراً! لم أر أنا أيضاً من اللائق تقييده حين ترك لي الأمير مفتاحه. ها هو المفتاح، انزعِ القيد عنه. أنا المسؤول عما آمرُك به. أرجوك يا مرزخواي لأني واثقة بك أن تستلم مهمة الحراسة ريثما يعود الأمير.

– وأنا؟.. – سأل ناقج وعيناه كلٌّ في اتجاه.

– أنت تحت تصرف مرزخواي الأسنّ؛ لن تحيد عن أوامره إصبعاً. – أكّدت ربة البيت على ناقج. وفيما هي منصرفة تذكرت ما قاله دداي في مؤتمر الأبزاخ، فربتت على كتفه: – تعال يا دداي، أنت لا شأن لك بهذين.

– ما الأمر يا قجنس؛ ألا حاجة لكم إليّ؟

– لا، ولكن أمك تدعوك.

– نعم، نعم يا قجنس، أنتِ أيضاً صرت ممن يكذبن عليّ، – ابتسم دداي، – كلما حدث شيء مثير وجدتم أمي حجة... سأعود إذن ولكني التحقتُ بمرزخواي لأن ابنيه غائبان. لا تقلق يا مرزخواي، سأعود حالاً. هكذا يا قجنس، هل يقيَّد رجل هادئ مثلُ هذا وإن كان جاسوساً؟ – نظر دداي إلى ناقج من طرف عينه، مفتخراً بما تَحَقَّق له، وتبع النساء الخارجات من الغرفة.

أصاب من قال: نهارُ الخريفِ القصيرُ ليس أطول من ذيل عصفور صغير. يحلّ ظلام المساء قبل أن يجد الصباحُ المغطى بالشمس التي حجبتها السماء الملونة بلون الماء والظهيرةُ الوقتَ للامتزاج. ولولا صوت مؤذن الظهيرة في وقت محدد يرين على سماء قرية تامبي حابله لكان من الصعب تمييز مراحل النهار.

النقيب تورناو الذي رفعوا عنه القيد كُرمى لقجنس ومرزخواي، والذي كان قد أبعد الفطور عنه، يتناول العشاء الآن، وقد عاد شيء من الصحو إليه، مع العجوز الذي صار قريباً من قلبه. وناقج غير الواثق من الأسيرِ ومن مؤاكِله لم

يترك نفسه بلا عشاء: أكل على المسطبة معتداً بنفسه، آنفاً أن يأكل معهما، مرتاحاً لعودة دداي إلى بيته، تاركاً باب الأسير موارَباً. ولما عاد إلى الغرفة سأل مرزخواي عما كان يُقلِقه في أثناء تناول العشاء:

– لم أفهم يا كبير ما لاحظتُ عليكما حين جلستما للعشاء: أنت تلوتَ دعاءً، والآخر رسم الصليب.

– وفعلنا الأمر عينه بعدما انتهينا من الطعام. ما العيب في ما رأيت؟

– من أين لي أن أعرف؟ ماذا كان قال عبد الله أفندي لو رأى ما رأيتُ؟ هذا يأكل لحم الخنزير، ونحن لا نذوقه.

– هذا هو السبب؟.. – ضحك العجوز مرزخواي وهو يمسح فمه بمنديل قديم، – والنغوي، قومُ قرمرز تيمبولات يأكلون لحم الخيل ونحن لا نأكل، دون أن يمنعنا هذا من التواصل، ولا من التزاوج.فيدور – فيدور مسيحي ونحن مسلمون. أنا لا أقبل أن أتلو غيرَ دعائي، وهو لا يقبل غير دعائه.

– الناس في العالم يدينون بديانات مختلفة، – ساهم تورناو المسيحي في نقاش من يصنفان الأديان، واختتم منتظراً ما سيقال له: – أنا مسيحي ورغم ذلك لا آكل من لحم الخنزير.

– ما أغرب ما يقول يا مرزخواي! – صاح ناقج متعجباً مما يسمع، – ألا تأكل لحم الخنزير حقاً؟!

– لا، لا آكل، ومن أجل أن تصدّق ما أقول ها أنا أرسم الصليب لنفسي، ولا تدعُني ثانية بآكل لحم الخنزير.

– ولماذا لا يصدِّق؟ – وافق مرزخواي الجاسوس الروسي جدياً.ثم أضاف إلى كلامه: – لا تصدِّق يا ناقج كل ما يقول التركي عبد الله أفندي. أظنه يدعونا أن نقول في الأبزاخ كثيراً مما ليس لائقاً.

– ولكن يا كبير، – سأل ناقج متورعاً عما سمع ومتعجباً، – أليس عبد الله أفندي موفد الله العلي العزيز؟

تلعثم العجوز مرزخواي مع السؤال غير المنتظر، وفيما يبحث عن جواب أسعفه فجأة النقيب تورناو:

– وأنا كنت دخلت بلادكم باسم "الحاج الشيشاني"، غير أن مرادي لم يتحقق.

– هل سمعتم؟.. – صرخ دداي الذي دخل الغرفة فرحاً بما سمع، ولا تعرف إلى من يوجه استياءه؛ إلى مرزخواي أم إلى ناقج، – ومع ذلك تتهمونني بأن عبد الله أفندي لا يستحق ما قلته له في المؤتمر؛ حتى أمي وبّختني حين سمعت.

– لم تقل له ما لا يستحقه! – وافق مرزخواي دداي متعجباً، قائلاً في نفسه: لا بأس أن يبصِّر له أحد الماهرين في الفأل، – أنا سأتصدى لكل من يُهينك بسبب التركي. كيف حال والدتك يا دداي؟

– والدتي؟ – سأل دداي راضياً عن السؤال عن أمه، وأجاب مسروراً: – أطعمتها إذ أرسلتْ لها قُجَنس عشاء. وأنا لا تسمح لي أمي كما تعرفون أن أخرج بلا عشاء. حياك الله يا مرزخواي على أنكم لا تنسون أمي. وقد استفدنا، أمي وأنا، من رقية الحاج جانسعيد. صحيح لا تستطيع أمي أن تمشي طويلاً ولكنها تخدم نفسها بنفسها.

– هذا حسن، ويسرني، وأدعو لوالدتك ولك أن يشملكما الله بعنايته. ولا تنسوا الحاج جانسعيد صاحب الفضل في هذا. – وسأل مرزخواي النقيب راغباً أن يُعلِم النقيب تورناو أن له اطلاعاً على عالم الأديغة كما على عالم الروس، وأن لا يحسد ناقج الذي كان ينصت وهو يقضم شفتيه دداي الذي أثنوا عليه،:– ما أخبار قيصرة روسيا كاترين، وما أحوالها يا فيدور – فيدور؟ أخطأتْ في إرسالك إلينا[1].

– القيصرة إيكاترين يا مرزخواي، – ابتسم النقيب تورناو في سره، – توفيت منذ زمن بعيد.

---

[1] "العجوز ابن الثمانين عاماً كان يذهب إلى أستراخان في غارات على القوزاق. وكان ماهراً في صناعة السروج. يعمل دائماً دون راحة. وأتذكر أنه سألني: "أما تزال كاترين السيدة الكبرى قيصرة روسيا؟ لم تكن التغيرات الدولية تصل إلى العجوز، وزوجته العجوز التي من عمره، كانت ترعاني بكل ما تستطيع. وتقدم لي الدُّخن واللبن. وابنها بكر الكثيف اللحية والشاربين يبدو متمرداً ولكنه في حقيقته طيب القلب، سلس الطباع. غير أن أخاه الأصغر الذي كان يستعد ليصبح مولى كان معقداً شريراً، يوصلني أحياناً إلى حافة الانفجار غضباً...". المؤلف نقلاً من مذكرات تورناو.

– هكذا، والله لم أعرف... نحن الأديغة عاتبون على هذه القيصرة، وإن توفيت، لأنها جلبت القوزاق الأجلاف إلى أرضنا. وأنتم جاء بكم هؤلاء القوزاق من بتربف[1] وموسكو... على كل حال ليس من مهمتنا وقد حلّ الليل حلُّ ما عقّدْته القيصرة المرأة.وقد فاتتنا صلاة العشاء ونحن نخوض في هذا الحديث وذاك. أنت يا دداي عُدْ، ونحن سنفكّر بطريقة قضائنا ليلة الحراسة.

– حقاً، انتصف الليل يا مرزخواي، – اختتم ناقج الذي لا يمل من إجراءات الحذر. – أنت يا كبير اِسترِحْ، وأنا لن أرفع عيني عن الجاسوس، سواء نام أم لم ينم. وسنتصرف تبعاً لما تأمّل منا الأمير أسلانبج وسيدة البيت قُجَنس. وأنت لماذا لا تزال واقفاً معتداً بنفسك إذ امتدحوك؛ ألا تعود إلى بيتك! – تشفّى ناقج من دداي، وبدأ نوبته.

XLI

اجتمع الفرسان القادمون من أرض الأبزاخ وأرض الجمكوي في منتصف الليل في فسحة الغابة على يسار نهر لابا. والفرسان متوزعون على جماعات حسب الجهة التي أتَوا منها، وحسب قراهم. وخيولُهم، تنخر في انسجام أو متفرقةً كأنها تحس بقلق فرسانها مما ينتظرهم في اليوم القادم.

– أظن أن بولتقوه جامبولات تخلّف عنا هذه المرة أيضاً قصداً. – قال تامبي.

– وما رأي فرسان الجمكوي؟ – سأل عبد الله أفندي.

– وماذا سيكون رأيهم! – ابتسم حمرزقوه، – ليست هذه أولَ مرة يتصرف فيها بولتقوه معنا هكذا.

– من الصعب الوثوقُ بمثل هذا الإنسان... – قال الأفندي دون الإعراب تماماً عما في نفسه، واختتم بصوت أشدَّ حزماً: – متى عدتم من حيث تتوجهون وقد حقق الله مرادكم فسنتكلم في الموضوع على نحوٍ أعمق.

– ليس الأمير بولتقوه ممن يُخلِفون بوعدهم. ربما أخّره عائق ما، – قال براغُنه، وسأل من داخلَه الشك فيه: – ألن ترافقنا يا أفندي إلى حيث توجّهُنا؟

---

[1] التسمية الأديغية لسان بطرسبورغ. وكانت رمزاً للبعد والمهلكة: ليأخذْه الله إلى بتربف! أي بلا رجعة.

– أنا لا أخالف ما يأمرني به الله العلي العزيز. ولكن إن عرف الروس أني من دولة أخرى فسيثيرون مشكلة، ولذا سأساعدكم بأسلوب آخر. ما الأخبار التي أتانا بها الرُّصّاد؟

– الريف الممتد على يمين نهر لابا هادئ. أجاب حمرزقوه، – وفي أعالي نهر شاملق الصغير يرعى القوزاقُ قرابةَ مئة حصان. ورصدوا في ضواحي قلعة فوزنيسين قطعاناً من المواشي. ورعاة هذه القطعان ليسوا مجرد رعاة،هم قوزاق مسلّحون. وتحوم في الريف مجموعات صغيرة أخرى من الفرسان.

– إذن، – اختتم تامبي الحديث،– القوزاق لا يغفلون عما يحرسون.

– ماذا كنتَ تريد إذن يا تامبي؟ – ابتسم حمرزقوه، – هل كنت تريد أن يعبر القوزاق نهر لابا ويسلِّموك مواشيهم باليد؟!

– لو تفضّل القوزاق علينا بهذا، – ردّ تامبي على المزاح بمزاح، – لما رفضتُ. ليس حراماً ان تأخذ منهم ما يعطونك. ألا يكفي أننا منحناهم مراعينا ومعها مواشينا؟.. – ولكن ليس هذا ما أريد أن أقوله لك يا أمير، بل تعليقك على أيّ شيء أقوله.

– اعتدْ على أن تفكّرِ قبل أن تقول شيئاً يا تامبي، – اعترض حمرزقوه دون أن يرفع صوته.

– يا حمرزقوه!

– توقفا أيها الأميران، يا من رعاكما الله. – فصل عبد الله بين الأميرين اللذين همّا بالاشتباك،– لا أرى بينكما سبباً للعداء. أليس صحيحاً يا براغُنه؟

– صحيح يا أفندي، – أيّد براغُنه ميشكا التركيَّ الذي يكرهه، واختتم بما يعرف هو: – ولكن في كلام الأميرين شيئاً من الصحة. هؤلاء في مشكلة بسبب أملاكهما... وأضيف إليها تعسُّرُ موضوع أسيرهما.

– لم أسمع خبراً جديداً عليّ... – ردّ الأفندي على براغُنه اعتباطاً، وسأل دون تحديد المسؤول: – وهل هؤلاء الفرسان الذين أطلقناهم دون هموم؟ ولكن لا أعرف موقفكم من أمور شريعتنا. أما أنا فأرى فيها شيئاً لا أفهمه. أمن أجل أن نحصل على بعض الغنائم أم لنسفك دماء الكفار المحتلين أرض الأديغة، ومن لا يتقبلون دين الله؟ أما كنا تكلّمنا في الموضوع قبل أن نأتي إلى هنا يا من

رعاكم الله أسلانبج وأسلانجري وميشك؟ إذن، – تكلم عبد الله أفندي الآن بصوت ضابطٍ صارم، – اسمعوا كلامي: نقسم المجموعة التي نقودها إلى ثلاثة أقسام: حمرزقوه قائداً للمجموعة الأولى، وبراغنه للثانية، وتامبي للثالثة.سيهاجم أسلانجري وميشكا قلعة فوزنيسين من جانبين، وستكون المجموعة الثالثة بقيادة أسلانبج بينكما على مسافة غلوتي حصان أو ثلاث.

– وأنت يا أفندي، مع أي مجموعة من الثلاث ستكون؟ – سأل بكر ببراءة.

– أنا سأحمل لكم علم الله الأخضر، – قال عبد الله أفندي بعدما نظر نحو محمدٍ أخي بكر.

– سامِحني يا والدي على سؤالي لموفد الله، – استأذن غُفس والده ميشكا، – لا أفهم يا أفندي كيف سترافق المجموعات الثلاث وعلمُ الله الأخضرُ بيدك؟

– أجبتَ، يا من بارك الله فيك، على سؤالك بنفسك. – متى دخلتم ساحة الجهاد واللهُ في قلوبكم، كنتُ معكم بقلبي لأني موفده. ولكن سأُطلِعكم أيتها الجماعة على أمرٍ لا تعرفونه... أنا جئت من تركيا كما سبقتُ وأخبرتكم، ولذا إذا نقضت دولتي اتفاق سلام أدريانوبول... أنتم تفهمون ما أريد أن أقول ولو لم أصارحكم تماماً.

– نفهم يا موفد الله، نفهم، – خرج مُحَمَّد الراغب في أن يصبح مولى، وحيا الأفندي، ووقف إلى جانبه عدد من الأشخاص مهيّؤون لهذا، – أنت يا أفندي اِبقَ في هذا المكان الذي يُبتهَل فيه إلى الله، وستعبر المجموعات التي وزّعتها بعِلْمِ الله نهر لابا.

– الحق أني أتعجب كيف لا تحسب حساب الأمراء وكبار السن فتحتل الساحة! – نهر بكر أخاه الأصغر.

– قد يُحسب حساب الأكبر والأصغر في قضايا الإسلام، – بدأ عبد الله أفندي يناور حول الموضوع، واختتم بسرعة: – لو سمعتَ كلامي يا بكر لما سمحتُ لك أن تخاطب بهذه الطريقة أخاك الأصغر الذي عيّنه الله الذي أرسلني إليكم معاوناً للمولى. غير أن الله اختبرك بكلامك فلا تخطئْ ثانية في شأن أخيك. وسأقول لك شيئاً آخر: حين ولد للفلاح مرزخواي ابنه الأصغر، وحين اختاروا له اسمه المبارك، كان النبي مُحَمَّد مطّلِعاً على الموضوع. ولذا أيتها

الجماعة سنبقى أنا ومعاون المولى مُحَمَّد مع مجموعة مختارة لنقيم الذكر والدعاء هنا. أخبِرْهم يا مُحَمَّد المولى بأسماء المختارين للذكر. والآن اركبوا يا مقاتلي الإسلام، يا من رعاكم الله لقتال الكفار، ودعاؤنا وذِكْرُنا يشحنانكم بالقوة. لا إله إلا الله! – رفع عبد الله أفندي الضابط يديه وتلا ذِكرَه. ومجموعات الفرسان الثلاثة الذين قفزوا إلى لابا وصلوا إلى الضفة الثانية.

XLII

السلاح، سيفاً كان أم خنجراً أم بندقية أم مدفعاً، لا يميز بين الناس: من يصبْه يجرحْه، يقتلْه، ومن ينْبُ عنه يعشْ.

لإشهار السلاح عواقب كثيرة غيرُ منتظرة. قلعة فوزنيسين التي كانت مستعدة لغارة الأديغة أطلقت بضع طلقات مدفعية على المجموعة التي كان يتزعمها حمرزقوه، ودفعت بعدد من المقاتلين القوزاق المسلحين بالسيوف يفوق جداً عدد الأديغة.وبراغُنه ميشكا الذي رأى هذا انسحب بجنوده واصطحب مجموعة تامبي أسلانبج وتوجه لمساعدة حمرزقوه أسلانجري. ولكن مع تفاوت خسائر الطرفين المتجابهين لم تمنع أذكار عبد الله أفندي والمولى مُحَمَّد وأدعيتهما الأديغة من الاضطرار للانسحاب.

وفي اليوم نفسه، وفي اليوم التالي، ارتفعت مناحات القتلى من الطرفين على ضفتي نهر لابا. ووقع حجرت نقار والحاج جانسعيد اللذان أُخفيَ عنهما موضوع الغارة على القوزاق في ورطة كبيرة: كُلِّفا باسترجاع الضحايا من ساحة القتال مقابل رؤوس من الماشية. وأضيف إلى الرجلين المشهورين في الأبزاخ بولتقوه جامبولات. وفيما هم يفتدون القتلى ويدفنونهم تمكن عبد الله أفندي والمولى مُحَمَّد من إقناع أهالي الضحايا من الأبزاخ والجمكوي بأن هؤلاء سقطوا في ساحة الجهاد، وأن أبواب الجنة فُتِحت لهم. ولكن كان بعض الناس لا يصدِّقون هذا. وكان العجوز مرزخواي من بين الأخيرين.

حين رأى مرزخوي مُحَمَّداً الذي اختفى أسبوعاً كاملاً استقبله بسوط الخيل وسأله:

– رجعت أخيراً؟

– نعم يا والدنا الذي رعاه الله.

– متى يا سليلَ الكلبين، نصفَ المولى، الطفيلي، صرت معاوناً للأفندي التركي؟ – ساط مرزخواي ظهر ابنه.
– أيّ عار ألحقتَ بي؟ الله لن يقبل منك هذا يا والدنا.
– سيقبل يا عديم الإيمان. وهذه الجلدة باسم الله الذي خدعتماه، وباسم من تسببتم في قتلهم!
وقف بكر الذي خرج مسرعاً من إسطبل الخيل بين والده وأخيه الأصغر:
– هذا يستحق ما تفعله به، ولكن أضبُط نفسك!
– أُغربْ أنت أيضاً من وجهي! تركتم هذا التافه يخدعكم!.. رمى مرزخواي السوط على من كان ينهرهما، وانصرف. وسأل ابنيه لحظة دخوله الغرفة: – أين هو المجرم التركي الذي خدعكم؟
– كان من المقرر أن يسافر إلى أرض البجدوغ يا والدنا... – رد مُحَمَّد بلطف على والده وكأنه ليس من جُلِد.
– وهؤلاء يريد إثارتهم مردداً " لا إله إلا الله "؟.. – تمتم مرزخواي الآن بشيء من الحذر، وقال لمن أشفق عليه: – هيا اذهب إلى والدتك الملهوفة عليك وطمئِنْها. – وحين التقى بعجوزه على الباب قال لها دون أن ينظر إليها: – إلى أين تركضين يا ابنة الشابسغ؟ كان الأفضل أن تنصحي ولدك الذي تجاوز الثلاثين من أن تربتي على كتفيه. عودي! ومن دلّلته سيأتي إليك.
لم يردع كلام العجوز الذي كان يتماثل للهدوء عجوزه فنزلت من المسطبة وهي تنادي:
– يا " مُحَمَّدي " يا ولدي العسليَّ العينين، جعلتنا ننتظرك أسبوعاً كاملاً!..
– مهلاً يا والدتنا، مهلاً، – قطع بكر فرحة أمه وهو يشير إلى جهة القرية، – عند جيراننا مأتم جديد...
– نعم يا " بكري " ويا "مُحَمَّدي "، فيم نحن أحرار يا حسرتي. هذا عنده فرح والآخر عنده مأتم. ادخلا إلى البيت وهدّئا قلب والدكما.
بدا مرزخواي غير عابئ بولديه اللذين وقفا إلى قائمتي الباب، غير أنه أمر ابنه بكر:

– اصحب أخاك الأصغر إلى جيراننا ليعزيهم. وأنا سأعود براغُنه ميشكا المريض. سأخبره أنك رجعت لأنه يسأل عنك دائماً.
– هل جُرحُ ميشكا الذي أدعو له بالسلامة خطير؟ – سأل مُحَمَّد الذي لا ينسى " مولويته " أباه.
– لا يعبأ براغنه ميشكا بالجرح الذي أصابه به القوزاق، ولكنه يشعر بالإهانة إذ ردّوكم على أعقابكم من لابا.
– وهذا كان الله قدّره سلفاً فلم يسمع دعاءنا وذِكرنا. – اختتم مُحَمَّد بما هو مخلص له.
– لم يسمع الله ذكركم لأنكم لم تستشيروا الكبار في ما سيكلفكم به التركي المخادع، ولم تتخذوا من أمثال حجرت نقار والحاج جانسعيد موضع ثقة.
انتظر قليلاً، ثم سأله بنيرة أنعم: – هل ما تزال يا ولد صادقاً لمولويتك؟
– الله صار جزءاً مني ولذا فأنا مخلص له.ولكن لو أذِنتَ لي بالحج يا والدنا لكسبتَ لنفسك ثواب العمر.
– اسمع ماذا يقول... – ابتسم مرزخواي، وردّ دون خبث: – أليس كونك من دمي ثواباً لك؟.. هيا إلى العزاء، ثم نتكلم في الموضوع...– وقال مرزخواي الذي نهض بسرعة لا تتناسب مع عمره لابنه الأصغر عند الباب الذي فُتِح له:
– سألبي طلبك على ألا تسمح لمن خدعك أن يخدعك ثانية، ولكني أريد أن تقف في صفِّ حجرت نقار والحاج جانسعيد في الإسلام الذي آمنتَ به. إن تعلمت العربية بدلاً من التركية فستفهم على نحو أفضل القرآن الكريم الذي أنزله الله علينا. وستتلوه أحياناً على من يتجنبون الدين كالأبزاخ العنيدين مثلي. وليخرجْ من أسرتنا أيها المنحوس أحدٌ يعرف القراءة والكتابة!..
تبادل الأخوان النظرات وقد فتح كلام والدهما قلبيهما الواحد نحو الآخر.وألقت الشمس نظرة من النافذة كأنها فرِحة بما يجري. ومن جهة القرية صدر طرقُ الحداد على السندان. وصاح الديك الفتيّ ممزِّقاً حنجرته. وهُرع الصبي الذي يربط خنجراً خشبياً إلى نطاقه ممتطياً حصانه – العصا إلى بكر، فقال له والده:
– هيا يا قليل التربية اذهب إلى عمك، هل تراني لأول مرة؟

– لا، سيقول لي مَمَتْ: " لم تحفظ: قل هو الله " أفضِّل أن أسقي حصاني...
– وكما دخل مسرعاً خرج.
– اسمعوا ماذا يقول... ارجعْ يا رَدَدْ! – صاح بكر وراء ابنه.
– هل أنت بحاجتي؟ – عاد ردد الآن بسرعة ممسكاً حصانه الخشبي.
– لماذا لا تطيع جدك وجدتك؟ ألا يطلبان منك الأدب في حضرة الكبار؟ هيّا اقرأْ لعمّك " قل هو الله أحد".
– لم تقصِّر جدتي معي فحفّظتني. سأتلوها عليك: " قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد... "
– أحسنت يا ردد، أرضيتني؛رضي الله عنك! – حنى مُحَمَّد رأسه للصبي، ومازحه: – هيا، اِمضِ الآن واسق حصانك، وروِّضْه. لهذا يا كبير أقول إن أمثال ردد من صِبيان وصبايا يجب أن تُفتح لأجلهم مدرسة في الجامع يتعلمون فيها.
– ومن سيعلِّمهم فيه؟
– براغُنه إسلام وأنا سنعلّم الصبيان، وأسلانكوز ستعلم الصبايا.
– وبأي لغة؟
– بلغة القرآن العربي الذي أنزله الله علينا.
– لماذا في ذهني إذن أن القرآن مكتوب باللغة التركية؟.. – سأل بكر لائماً نفسه على جهله: – ومن علّم براغُنه إسلام لغة القرآن؟
– علمته أمه كما علّمتني أمي الألفبائية التي كتب بها القرآن. ولكننا لا نفهم ما فيه.
– هذا أمرٌ سيء!.. وإذا كان براغُنه ميشكا يقرأ ويكتب بالروسية فلماذا لا نعلّم أولادنا في المدرسة بلغتنا؟
– لم يكن عندنا مانع لو كان عندنا، نحن الأديغة، ألفبائية...
– فكّروا في الموضوع إن كنتم أذكياء.
– سنفكر إن لم يسدّ علينا الكفار الذين يغزوننا منافذ الحياة!

– سننجو من أمثال أسير تامبي بطريقةٍ ما كما يقول والدنا. أحياناً تعتب على والدنا يا أخي ولكن في كلامه نصيباً من الصحة: تثقُ بعبد الله الأفندي وأنت تعرف طبيعته. لا تدعْهم يسمعونك تذكر اسمه في العزاء حيث نذهب.

– وأمام القوزاق الذين قتلوا المرحوم جارنا أيضاً؟! سأل مُحَمَّد تغلبه روح السخرية.

– ألا تفهم يا مبارك النسل؟ – غضب بكر الآن غير قادر على ضبط أعصابه. – ألا تخجل من أن جارنا البريء وكثيراً من الرجال الصادقين قضَوا من وراء ذِكركم الكاذب!

– يا بكر، يا كبير، – غطى مُحَمَّد وجهه بيديه البيضاوين البضتين كأنه يحتمي بهما. – أُدعُ إلى الله ألا يسمع كلماتك الكافرة، لن يقبلها منا. يا إلهي اغفرْ لأخي الأكبر بكر؛ ليس في قلبه إلا الخير، وأنعِم عليه بعطفك! هذه الكلمات الآثمةُ أنطقه بها جِنُّ الأسير الكافر عند تامبي.

– كفاك؛ ألستَ من طلبوا منه السكوت! – عنّف بكر أخاه مرة أخرى. ثم لان معه: – تعال إلى العزاء إن أردت.

– سنذهب حتماً إذ أمرَنا والدنا، ولكن دعْنا نتوضّأ أولاً.

– أيّ وضوء هذا؛ هل نذهب إلى الصلاة أم إلى العزاء؟!

– وكيف ندعو يا كبير لمن نحن ذاهبون نعزيهم إن لم نتوضأ؟

– واللهِ رجال الدين يتطبّعون بطباع عجيبة لا تُطاق. – تمتم بكر وأثبت صحة كلامه: – يُلحِقون بالدين ما يخطر لهم... توضّأْ أنت إن شئت، أما أنا فلن أجاريك في ما لم أفعل إلى الآن.

– لا تقل هذا يا كبير؛ الله يحب النظافة.

– لا تصدع رأسي! – نهر بكر أخاه ثانية لا يُطيق ما سمعه. – سأنتظرك في أرض الدار.

خرج المحمد المولى يصلح هندامه، ومشى إلى يسار أخيه مدة، ثم لاطف أخاه ناصحاً:

– يا بكر لا تدعْ والدنا يتراجع عن وعده بإرسالي إلى الحج!

– ليس كل من زار الكعبة صار شيخاً.

– أعرف هذا. ولكني أفكر: ألن يحترمنا الأبزاخ إن عدت من الحج كما يحترمون الحاج جانسعيد؟..
اكتفى بكر بالابتسام في سره دون أن يعير اهتماماً بالموضوع، ولم يجب أخاه.

XLIII

ألقى تامبي أسلانبج الغائب ثلاثة أيام، المكدَّر المزاج، الزمامَ والصدار في يد خادم الحصان الذي استقبله، واستدعى حال دخوله البيتَ وهو ينفض حذاءه قُجنس:
– ما الأخبار في نواحينا بإذن الله؟
– كل شيء بخير وسلام يا أمير.
– هكذا؟.. – تظاهر بأنه لا يصدّق ما يسمع، ثم قال لها: – لماذا أنت واقفة؟ اِجلسي!
– وكيف أجلس وأنت عائد في هذه الحالة؟
– اجلسي؛ لم يحدث لي أي مكروه حيث كنت... وكيف يحدث وقد حاربنا من سيفتدون أسيرنا حرباً دامية؟!
– كنا يا حسرتي تكلمنا أنت وأنا في هذا الموضوع.
– وهل كنتُ راغباً في ما فعلنا؟! لم أستطع الوقوف في وجه حمرزقوه وعبد الله أفندي. أين هما الآن؟.. استقبلني ليفاشوي الأشعث استقبالاً حسناً، وأطلعني على نوايا زاس الأبرص بحقِّنا. ليفاشوي ليس بيده شيء... أُرشُه بقليل من المال يأتِك بزاس مكتّفاً، وربما بفيلياميتوف... سأخبرك، وقد بدأنا بالموضوع، بحقيقة موقفنا، ولكن لا تخبري أحداً: زاس يجهّز نفسه لمهاجمتنا، لا أعرف إن كان اليوم أو غداً...
– يا مصيبتي يا أمير!.. – ارتعبت قجنس. – أعِد الضابط الذي عندك، بلاه الله بالكوليرا! وليتركونا نعيش في سلام!
– دون أن يعوضوني ما أطعمته وآويته؟! كيف تريدينني أن أعيل الأسرة؟
– نعيش كما يعيش الآخرون.
– ومن الآخرون؟

– دعْكَ من هذا، لا أعرف يا أمير كيف أعبّر لك... – نظرت قجنس إلى الرجل بعين الرضا حذِرةً، لا تجد من اللائق أن تتكابر أو تتصاغر في حضرته. وفصّلت له الجواب: – أقصد سكان قرى الأبزاخ أبناء عِرقِنا الذين التجأنا إليهم.

– في ما تقولينه نصيب من الصحة، – لاطف أسلانبج الذي عكّر مزاجَه الأفكار المقلقة مدةً، زوجتَه، وردّ عليها: – ولكننا لسنا مثلَهم. لا تنسَي أننا أسرة أمراء. وإن لم نتميز بهذا النسب ذُبْنا بين منظفي روث الخيل الذين رمانا الله بينهم. لا تتعجبي مما سمعتِ. من أوجّه إليه الكلام أنت، لا زوجة الثرثار براغنه ميشكا العجوزة. ليست هذه مشكلة؛ كيف تصرّف أسيرنا خلال غيابي؟

– وكيف لا يكون مشكلة وأنت تخبرني بأن القوزاق سيغيرون علينا؟ – كررت قجنس الخبر المشؤوم الذي أرعبها.

– وهل يهاجمنا القوزاق للمرة الأولى كأنه ليس عندنا الغابة التي نلجأ إليها؟ – أجاب أسلانبج بلا مبالاة، وعاد فسأل عما كان يقلقه هو: – كيف يتصرف ضابطنا الكافر؟

ارتعبت المرأة من سؤال الرجل عن الأسير بقدر ما ارتعبت من خبر غارة القوزاق المتوقعة. كانت تجاهلت في البداية سؤال الزوج ولكنها ليست الآن في موقف يسمح لها بتجاهُل السؤال. ولما كانت تعرف أن عدم إجابتها على السؤال سيثير الأقاويل بدأت بالجواب مُناوِرةً حول أمْرِها برفْع القيد عن النقيب تورناو:

– وكيف سيتصرف... لا أعرف ماذا سيكون تعليقُك، حين بدأ ناقج يعامله بقسوة مبالغة، أمرت بصحبة مرزخواي برفع القيد عنه.

– وكيف كان رد فعل ناقج؟

– لم يخرج عن أمرنا وإن كان مستاء مما سمع منا، – قالت المرأة، وأضافت بسرعة: سامحني يا أمير على نقْضي قولك وفِعلك!

– يبدو أنك أشفقت على عدونا.

– ألستُ أنثى، والعدو إنساناً يا أمير... – شهدت قجنس على صحة ما قالت بتنهُّدِها، وتوددت إلى زوجها: – لا أريد أن يتهم أحد الأمير تامبي أسلانبج بالظلم. سأصارحك يا نور عيني بما أريد أن أقول لك: من أقصد بـ "أحد" الروس والأديغة معاً.

– إن كنت قادرة على هذا فهو حسنٌ، – ضحك تامبي من خارج قلبه، – ولكن من الصعب التأليف بين المختلفات. لا بأس إن أمرتِ بنزع القيد. سأجيب من يسألون عن تصرفك بأنه جرى بعلمي. القيد ليس حبلاً ولا خرقة – لن يتجمد ولن يتقطع، نعيده متى أردنا، ولكن لا تتدخلي ثانية في ما أفعل وما أقول؛ يكفي ما أعاني من مشقات!

– نعم يا أمير، نعم يا نور عيني، تسبَّبَ لنا في مشكلات كثيرة لم نتوقّعها البتة. إن لم أتحملها معك يا إحدى عينيّ فمن يتحملها يا حسرتي؟ ليس ما على ألسنة كل من يبشّون في وجهك، ويشيرون إليك بشارات الاحترام، وما في قلوبهم واحداً. الله حريص على عباده فاحرص أنت أيضاً يا أمير. لا تثق بجماعة حمرزقوه أسلانجري. سننتكب على أيديهم.

– حياك الله، سأستخلص العبرة مما قلتِ إن وُجدتْ. متى قدّمتِ لي الغداء عرّجتُ على جارنا ألمجري.

– دون أن تستريح من عناء السفر؟

– لا، لا، – قاطع أسلانبج كلام المرأة، – لي شغلٌ مع ألمجري.

لم يجر شيء مما كانت تتوجس منه قُجنس عند ألمجري: استقبله بوجه طلقٍ الرجلُ الذي كان جالساً إلى جانب جدار الحظيرة يستحم بنور الشمس الشاحبة التي تشرق أحياناً من بين السحب. وبعدما جلسا مدة وُضع أمامهما البرك الساخن وماء العسل، والماء الذي يغسلان به أيديهما، والمنديل. وتراجعت الخادمة، وانتحت جانباً كي لا تسمع كلام الأميرين.

– ذُق من البرك يا أمير وهو ساخن.

– والله يا ألمجري أنا تغدّيت قبل لحظات، ومع ذلك سأذوق من الطعام الذي أرسلته ربة البيت. أدعو إلى الله أن يضاعف لها ما صنعت منه مئة ضعف، وأن تعيش هي وأولادها بأمان وسلام.

– حياك الله يا أسلانبج وسمع كلامك، وقبِلَ دعاءك! – مازح داور ألمجري الذي لم يكن راضياً عن طريقة تناول الأمير للبرك جاره: – عجيب ألا تستطيع وأنت الرجل الجسيم أن تأكل إلا قطعة واحدة من البرك، لا يعذرك أنك تغديت قبل قليل. هذا لا يجوز... قلْ يا أسلانبج إن كان هناك ما يشغل بالك، هل نحن جيران عبثاً؟..

– أنت على حق في هذا يا ألمجري، – قال تامبي مرتاحاً لعثوره على مدخل إلى ما يشغله. – كنا جيراناً في القبرتاي أيضاً، وتابعْنا في الأبزاخ: تقاسمنا أفراحنا وأحزاننا. ولكن هل تعرف ما أريد أن أقوله لك يا جاري الدائم، – ضحك تامبي أسلانبج مخفياً ضيقه، – ماذا إن لم ينزل إلى حنجرتك ما تأكله؟

– قل ما يُقلِقك يا أمير ولا تُفْنِ نفسك لأجله؛ نفِّس عن كربك. أسمعك يا أسلانبج.

– وهل كانت مشكلةً لو كنت أنا وحدي المعنيّ بها؟.. – زفر تامبي عميقاً، – أتكلم على المأساة التي جرت لنا عند نهر لابا. أنتما، بولتقوه وأنت، تبيّن أنكما حكيمان. لم تنخدعا بعبد الله الأفندي التركي.

– كنتم معه، أنت وحمرزقوه أسلانجري وبراغُنه ميشكا، وابنا مرزخواي. لو كان في سحب السيوف والخناجر فائدة لتفانى الناس كلهم... ليس من الذكاء أن يتبادل العالم الرعب بالسلاح المشهَر. حسنٌ أنك ندمت على ما فعلت يا أسلانبج دون التعلّلِ بأن ما جرى جرى وانتهى. ولكني لا أتوقع أن يتفهم أسلانجري وعبد الله أفندي هذا...

– ماذا يا ترى كان رأي عادل – جري الذي تحلل من ثأره في ما جرى لنا؟ – مضى زمن غير قصير على آخر مرة رأيته فيها. – قال تامبي، وأضاف ما يُقلقه: – كان من المفروض أن يكون معنا حسب كلام أسلانجري، ولكن لا أعرف سبب تراجُعِه.

– يا أسلانبج، يا من رعاك الله، كيف تصدِّق ما يقوله كل الناس؟! – سأل ألمجري متعجباً مما سمع، غير مدرك تفسيراً له، – متى كان أسلانجري يشتاق إلى عادل – جري الذي لم يظهر بعد الاجتماع؟ لو كان هناك مثلُ هذا لما حرمَني،

كان استشاريني. كنا تكلمنا في يوم الاجتماع نفسه على أنهما سيبقيان متنافرين ولو صالحوا بينهما.

– نعم، كنا تكلمنا. ولكني، كما قلتَ لي، أثق بالجميع، أنا من هذا النوع من الناس... وهل كنت احتفظتُ في بيتي بالأسير الكافر أُطعِمه وأَخدمه لو لم أكن هكذا! وهو يماطل بين اليوم والغد، وجماعته لا يردون بشيء. وهل سمحتُ لهم أن يخدعوني في الغارة على القوزاق... حسناً، ليست هذه مشكلة، لابد أن نجد حلاً لها... ألا ترسلُ أحداً يا أمير إلى بيتنا يأتيني بربابتي أنفّس بها أنا عن ضيقي، وأُدخلُ المرح إلى نفسك. مجلسُنا هذا لا يصلح أن نعزف فيه. سيستاء من لهم مأتم ومن ليس لهم. ما العمل؟ هذه حال الدنيا؛ أحدهم يبكي والآخر يرقص؛ دعنا ندخلْ المضافة.

قال ألمجري نفسه: "أعرف أسلانبج منذ طفولتنا ومع ذلك لم أفهم من أي نوع من الناس هو. لم يكن صبياً يُحسد على ذكائه لولا أنه كان متميزاً منا بضخامته. وكان أولَّ من يعثرون عليه حين نلعب لعبة الطميمة، وآخر من يصل إلى خطِّ النهاية في السباق. وحين نذهب للسباحة يستلقي في المكان الضحل من الماء مكشوفَ الظهر لأنه لا يعرف السباحة... – تساءل ألمجري الذي يتذكر صباه باسماً: – وكأنك تتناسى أنه كان قوياً يصرعنا إن صارعناه؟ والعزف على الربابة؟ كان يعزف حتى يبعث فينا السأم فلا نعرف أين نهرب من عزفه فنختبئ منه متى رأيناه يحمل آلته... ولم ينس إلى الآن هوَسَه بها..."

– الحق يا أسلانبج أني لا أعرف إن كنتَ أنت نفّستَ عن ضيقك، – قال ألمجري لمن توقف عن العزف، – أما نحن فقد أنعشت أرواحنا.أليس صحيحاً يا دداي؟ – سأل دداي الذي جاء بالربابة.

– هذا بديهي يا ألمجري، – أسرع دداي الذي احمرّت وجنتاه بالقول، – أسعدُ حين يعزف بج على الربابة وتراودني الرغبة في الرقص.

– وهل تعرف الرقص؟ – سأل أسلانبج دداي.

– وكيف لا أعرف يا تامبي الرقص وأنا أبزاخي؟! سأقول لك يا جاري إذن شيئاً لا تعرفه: متى سمعتك تعزف رقصتُ في الغرفة.

– وحدك؟

– ولماذا وحدي؟ أمي تصفق لي.
– والله عجيب،– قال ألمجري وفرحُه بما يسمع أكثرُ من استغرابه، وأضاف جادّاً: – إن أردتَ أرسلتُ وراء خان ترقص معك.
– إن كان هذا رأيك يا أمير فلا اعتراض لديّ على خان وأسلانكوز. – استعجل دداي، ثم تراجع، – ولكن ليس الآن، بل بعد قليل. اجلسا أنتما إذن،تحادثا. وأنا سأعود إلى البنات إن لم تطلبني أمي. وسألعب معهن لعبة الأحاجي.
قال ألمجري لأسلانبج حين خرج دداي من الغرفة:
– الآن قل لي، وقد نفّست عن ضيقك وأنعشت روحي، ما يشغل بالك.
– الحقيقة أني لا أعرف كيف أحدّثك في هذا... – جعل الكلام الصريح تامبي ينتفض برأسه الضخم، – من حرّضونا على الغارة ضد القوزاق وتركونا وحدنا في الساحة معروفون.ولكن ما صار همّاً لي شيء آخر. من منّا وشى بنا إلى القوزاق ثم أطلقّهم علينا يقتلوننا؟ لا تستغرب سؤالي يا أمير. كان القوزاق مستعدين لهجومنا.
– وهل تعرف القوزاق اليوم فحسبُ؟ هم يرصدوننا منذ أن أحاطوا بنا. إن كان هناك من تشكّ فيه فلا تُخْفِ، غيركُ أيضاً يهتم بالموضوع، سنفكر معاً.
جرى الكلام قبل أيام في حفلة الجابشه التي تقام لبراغُنه ميشكا، فشكّ من تكلموا ومن لم يتكلموا في أنفسهم. ثم تسلل كلٌّ إلى بيته.
– هذا هو يا ألمجري، – أزاح تامبي ربابته جانباً بكل حِرصٍ كمن يريد ألا يُطلعه على سرّه، وأسندها إلى الوسادة الصغيرة، – ما يجعلنا لا نعرف ماذا نقول وماذا نفعل. نظل يشك بعضنا في بعض والخائن يفعل بنا ما يريد. لا أريد أن أفتري على أحد ولكن لا بد أن يظهر يوماً. ماذا نقول عن الجندبة؟ "تقفزين مرة، واثنتين، وفي الثالثة تقعين". أنا أعرف من يستحق أن يفعلوا به ما فعلوا بالجندبة، غير أني لا أبوح لأحد به.
– أتكون تقصد الأفندي التركي؟
– وأنت أيضاً هل تشك فيه؟

– لا، وكيف أشكّ فيه وكل دعواته الشريرة وخبثه موجهة نحو الكفار؟ خطر لي اسمه لأني لا أودّه كما أنت لا توده.
– لا بأس إذن. ولكن لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يفعلوا بك... وأسيري لا أثق به.
– يا أسلانبج يا أمير، – سأل داور مستغرباً ما يسمع، غير عارف تفسيراً: – وهل تشكّ فيه أيضاً؟
– أنا أشك في كثيرين. ولكن لا أعرف على من سيرسو اتهامي. – ابتسم تامبي على نحو لا يليق به البتة، ثم دان نفسه: – ليس هو فحسبُ، بل نشك في أنفسنا أحياناً. شجّعَنا حمرزقوه على اعتقال الأسير على أمل أن نجني منه ثروة طائلة، وها أنت تراه الآن تخلى عني. ومع ذلك يسألني متى تقاسمني المال؟
– هل تعرف لو كنت مكانك؟ – قال المجري بعد فاصل قصير: – كنت أعدت الجاسوس نكاية به.
– وهذا رأيك أنت أيضاً؟ – أسأل لأن أحدهم اقترح عليّ الاقتراح نفسَه... ومجاناً؟ ارتفع صوت تامبي رغماً عنه فجأة. – إن فعلتُ هذا سخر مني أصدقائي وأعدائي. سيتهمونني بأني أتأمل من الروس فيتحاملون عليّ. والله لا أعرف يا أمير... وقعنا في ورطة، لا نعرف أين نحن؟ سأفكر، وسأتصرف كما يأمر الله. اقترب موعد صلاة العصر. ولن أعود والربابة تحت إبطي، دعْ أحد الخدم يعيدها إليّ. نهص تامبي أسلانبج وجسده الضخم يثقل عليه.
لم يكن أسلانبج راغباً في الدخول إلى الغرفة التي يقيم فيها النقيب تورناو. تجاوزها دون الالتفات إليها، ووقف بعض الوقت يتفقد الدار الواسعة، ثم توجه إلى غرفة الإمارة. ولولا صلاة العصر والمطر الخفيف البارد ما كان دخلها. كان قلبه يشبه نهار الخريف الثقيل الآيل إلى الظلام. وبعدما انتهى من صلاته التي لم يُطِلها سأل الخادمة التي كانت تلف سجادة الصلاة:
– ما أخبار الأسير؟

– وماذا ستكون أخباره يا أمير؟ – ابتسمت الخادمة في سِرّها، – يعيش في بيتِنا المسلمِ وهو يرسم صليب الكفار متى نام، ومتى استيقظ،وقبل الطعام وبعده.

– وهل أنتِ عاتبة عليه؟

– لا، ولكن ألا يجب إيجاد حلٍّ لمشكلة هذا الكافر يا أمير؟ القرية كلها تسأل عنه، ومهمومة به... – تذكرت الخادمة أنها تتدخل في ما لا شأن لها به، فاستدركت: – أقول هذا لأني لا أعتقد أنه سيندمج فينا مثل براغُنه ميشكا... ثم أريد أن أقول لك ما هو أعجبُ: كان يريد زيارة براغُنه في مرضه... – أضافت هامسةً.

– لا يتناسى ابنَ قومه، صحيح؟.. – سأل تامبي مخفياً احتداده مما سمع.

– نعم، يا أمير، نعم، قائمة البقرة لا تقتل عجلاً...

– هذا صحيح ولكن، – غيّر تامبي أيضاً موقفه، – ستنالون ثواب زيارتكم للمريض... لا أرى في هذا خطأ.

– لن يفعل ناقج هذا دون الرجوع إليك يا أمير. لولا سيدة الدار ما كان ليسمعَ كلام مرزخواي ويسمحَ بفك القيد عن الأسير.

– مَن في هذه اللحظة عند فيدور – فيدور؟ – سأل تامبي وهو ينطق اسم الأسير على نحو مُتقَن.

– لا أحد غير ناقج.

نهض ناقج والنقيب حين دخل تامبي الغرفة. وبعدما أمرهما بالجلوس سألهما معاً:

– ما أحوالكما بإذن الله؟ وهل تشتعل نار موقدكم جيداً؟

– وكيف تكون أحوالنا يا أمير، – طفا حزن ناقج إلى السطح رغماً عنه، – تمرد الكافر منذ أن جعلوني أفكّ القيد عنه. يقول ما يريد ويفعل، لا يسمع كلامنا.

– هذا لا يجوز يا فيدور – فيدور. يجب أن تنفذ أوامر هؤلاء. – تظاهر تامبي بلومه، وخاشَنَه: –إن لم تنفذ كلامنا فلن أكتفي بإعادة القيد إليك فحسبُ، بل سأطلب منهم معاقبتك جسدياً.

ارتفع الدم إلى رأس تورناو من الإهانة التي سمعها. والتقط جذوة الحطب من الموقد بلا وعي، وصرخ عليه:
– إن زِدتَ كلمة واحدة على كلماتك الجارحة فسأقلع عينك بهذه الجمرة. فإن فعلتُ هذا قتلوني أنا، أما أنت فستعيش بقية عمرك أعمى.أنا أتحمل القيد والجوع والبرد ولكن لن أتحمل الإهانة. وإن مدّ أحدهم يده عليّ فلْيعرف أني سأخنقه.
شحب تامبي أسلانبج، ولكنه لم يتراجع خطوة واحدة.
– ضع الجمرة من يدك! قلتُ لك ما قلتُ اعتباطاً ولن يمد أحدٌ يده عليك. أعرف أنك من النبلاء. الأديغة يمكنهم أن يقتلوا النبيل، ولكنهم لن يمدوا أيديهم إليه بالضرب. ويسرني أن يكون لدى الروس مثلُ هذا التقليد[1] – قال للأسير مُشعراً إياه بانطفاء نار غضبه.

---

[1] "كان قلبي يمتلئ كمداً حين يتوجب علينا في الليالي القلقة الاختباء في الغابة. ولكني كنت أخفي ما ألاقي من مشقة. وأطيع الحارس دون أي اعتراض. كنت أعرف أني إن تصرفت دون أن أعبأ بآلامي الجسدية، ولا أقلق للخوف، فسأكسب احترام الشراكسة. ولكن تحقق لي قراري بعدم تحمل أي إهانة مهما صغرت. بدأ حارسي يوقظني ليلاً صارخاً: " الروس قادمون، هيا إلى الغابة! " فيجبرني على السير في البرد. ثم يعيدني ضاحكاً إلى الغرفة معترفاً بأنه كان يمزح. ثم اعترضتُه في المحاولة التالية بحزم، مفهِما إياه أني لن ألبي طلبه. وهذا الموقف جعل الحارس يصرف النظر عن محاولة إجباري. وبعد مدة أخبر الحارسُ تامبيَ باعتراضي الجديد، فقال لي متجهماً بروسية مكسَّرة " إن أمرك حارسك أن تمضي إلى الغابة في الليل فاذهبْ؛ وإلا فوّضته بضربك!.. " وقبل أن يُكمل تامبي كلامه أمسكت بالجذع الذي يتطاير منه الشرر وصرختُ عليه: " إن أضفت كلمة واحدة أحرقت عينيك بهذه الجمرة. وبعدها سيقتلونني أما أنت فتعيش باقي عمرك أعمى. لا شيء لا أتحمله: القيود على اليدين والرجلين، والجوع والبرد، ولكن لا أقبل أن يهينني أحد. وسأخنق حالاً أي شخص يتجرّأ فيمد يده عليّ" امتُقع تامبي غير أنه لم يتحرك من مكانه. ثم قال لي وقد تغيّر وجهه الغاضب: " إرمِ الجمرة. لن يلمسك أحد. كان ما سمعتَه فورة غضب مني. النبلاء يمكن أن تقتلهم ولكن لا تجوز إهانتهم. وأعرف أن لدى الروس مثل هذا التقليد " ومنذ ذلك الوقت

XLIV

بعدما حاول النقيب تورناو التشفي بالجذوة الملتهبة من أحزانه المتراكمة طوال سنة ونصف بدأ الخدم يتصرفون بإنسانية أكثر مع الأسير. أما ناقج فكان يتغافل عن تلبية متطلبات الأسير التي بيده في وقتها: إشعال نار الموقد، وتبديل الماء، والسماح له بقضاء حاجاته الطبيعية – وهل قليل ما يحتاج إليه الإنسان – رغم تخليه عن بعض مظاهر العداء له. ولكن أفضل مكسب حققه هو أن الحراس كفّوا عن إيقاظه في الليل لمناكدته بحجة أن " الروس يهاجموننا، هيا إلى الغابة! ". ورغم استراحته من هذا الإزعاج فقد كان يلاحظ أن زواره في الليل تناقصوا. والسبب في هذا مُسِنّو القرية وليس أسلانكوز وخان وددايّ: هؤلاء لم تنقطع زياراتهم مهما اعترضهم ناقج.

قال النقيب تورناو وهو يتأمل الثلج الذي جلبه شتاء عام 1837: "لم يظهر مرزخواي ولا بكر في الأيام القليلة الماضية... أما مُحَمَّد فيكرهني حتى العظم... أيكون الأب وابنه عاتبَين عليّ؟ لا أعرف من نفسي أني أسأت إلى أحدهما. مرزخواي متقدم في العمر فهل يكون متوعكاً؟ لا، أمس، رأيته، أكيد البارحة، يسوق قطيع الغنم إلى الدار. ووجبة "الشيبس باستا" الساخنة التي قدموها إليّ فاستمتعت بها كانت البارحة. وبكر راكبٌ صيفاً وشتاء. عجيبٌ غياب مرزخواي عني..."

– هذه حالنا... – قال النقيب، وتنهّد.

– ماذا تقصد بكلامك؟ – صاح ناقج إلى من وراءه وهو يشعل نار الموقد.

– حلَّ العام الجديد، وتساقط الثلج.

– يقول مرزخواي إن الثلج دائمٌ في نواحيكم.– لم يلتفت ناقج هذه المرة أيضاً.

– هل تشتاق إلى ثلج بلادكم؟

لم أسمع أي كلمة مهينة من تامبي أو حمرزقوه ولا من خدمهما وعبيدهما. وبدأ الأبزاخ الذين روى لهم الحادثة ينظرون إليّ نظرة أخرى... وبعدها جرت لي أحداث كثيرة في مكان أسري عند الأبزاخ". المؤلف نقلاً من مذكرات تورناو.

– ليست بلادنا مُثلجة دائماً، – ضحك النقيب، – السنةُ فيها منقسمة إلى أربعة فصول كما هنا: ربيع وصيف وخريف وشتاء.
– أليس صديقك العجوز مرزخواي يكذب علينا متعالِماً؟.. – هذه المرة استدار ناقج وسأل، وأضاف سريعاً: – الثلج الذي أرسله الله إلينا نفرح به أكثر من فرحك. نعم، نعم، لا ترمِني بنظراتك العدائية، لن تستطيع الهروب.
– وهل عندي مثلُ هذه النية؟
– أتوجس من مثل هذا.
– سأقول لك ما يسمي به الروس أمثالك من الشكّاكين: الديك الرومي وقع في الحساء وهو يدور حول نفسه دائخاً.
– لا تصفني يا كافر بما ليس فيّ! لن أغفر لك ما يغفره لك أسلانبج الرحيم!
– تمتم ناقج بصوت ألطف بعدما انتبه إلى ارتفاع صوته وإلى حديثه عن الأمير:
– أفسَدوا أخلاقك مدللين إياك، ملبّين كل ما تطلب...
قفز دداي إلى الغرفة جالباً معه الهواء البارد:
– وأنت ماذا تفعل في هذا الجو القارس؟ – نهر ناقج دداي.
– سأقول لك ما أفعل أيها الكسول، – لم يبحث دداي عن كلمات مناسبة:
– أشعلت نار موقدنا منذ وقت طويل. وجرفتُ الثلج من أمام بابنا. وأنت جالس تنفخ في الحطب الطري... جئتُ أعرف أخباركم. حين رآني مرزخواي العجوز المبارك وهو ينظف باب داره من الثلج هنّأني بالعام الجديد ولذا أهنئكم أنتم أيضاً. هذا هو يا ناقج، يا منحوس، كما يقول براغُنه ميشكا، سببُ قدومي.
– حسنٌ، حسنٌ مجيئك...– ردّ ناقج هذه المرة كأنه يطلب رضاه: – هيا عُدْ، أمك تناديك.
– سأعود إن كانت أمي تطلبني، ولكنَّ مَن على هذه الدنيا ولا أحدَ يسأل عنه هو أنت... – توقف دداي وهو خارج عند الباب، وقال لتورناو الكئيب الذي لم يقل شيئاً إلى الآن، يريد أن يُدخل شيئاً من المرح إلى قلبه: – أنا سأساعد العجوز مرزخواي قليلاً وأعود يا نقيب تورناو.

حين رأى دداي بعدما ساعد مرزخواي في جرف الثلج، وقضى ساعة وأكثر مع الأطفال الذين يلعبون بالبلابل الخشبية، تامبي أسلانبج ذاهباً إلى النقيب برفقة براغُنه ميشكا، ترك مجموعة الأطفال، ولحق بهما.

– نهاركما سعيد أيها الكبيران، أهنّئكما على ثلج العام الجديد. وأنت يا براغُنه الحمد الله على سلامتك.أحزنني أنك سمحت للقوزاق أن يجرحوك. ولكني حضرت حفلات الجابشه التي أقيمت لك.

– نعم، أتذكر يا دداي، وأنت أحد أسباب شفائي.

– لا تدع القوزاق يجرحونك ثانية بهذه الحجة يا ميشك. وأنا كنت عند فيدور

– فيدور الذي تصحب براغُنه إليه يا بج. سأرافقكما إن قبلتماني رفيقاً.

– ليرسل الله إلينا أمثالك من الرفاق الصالحين! – قال تامبي جادّاً، – تعال يا جاري.

– شكراً يا أمير. ولكني لن أرافقكما طويلاً. مضى على تركي أمي وحدها في البيت بعضُ الوقت. – انظرا! – استغرب دداي ما يرى، – الدخان يتصاعد من الوجاق. أشعل ناقج النار. نعم، نعم يا بج. ليتك عرفت كم هو كسول ناقج! يبرد المسكين فيدور – فيدور في البيت بسبب عجْزِ ناقج عن إشعال النار.

يتعجب تامبي: هل تسمعُ ما يقول؟ يقول "المسكين فيدور – فيدور" بِمَ سحر الجاسوس ذو الأنف الضخم هؤلاء؟

– أنا أصفك بأنك ولد صالح فأمتدحك يا دداي؛ غير أني أراك تشي بناقج للأمير. قال براغُنه بين اللوم والمزاح، محاكِماً ما سمع من زاوية أخرى.

– يا بج، – لم يكف دداي أنه يمشي إلى يمين الأمير[1]، فسبقه، وسأله متراجعاً:

– هل أنا واشٍ إن وصفتُ ناقج على حقيقته؟

– وكيف تكون واشياً إذا قلتَ الحقيقة! – تساءل تامبي يريد تجنُّب إزعاج دداي الذي عاد إلى مساره على اليمين.

[1] العادة إذا مشى أكثر من اثنين معاً أن يكون الأصغر بينهم على اليمين.

– هل سمعت يا براغنه – ردّ دداي الآن مرتاح الضمير. – فهمتُ يا ميشك سبب إشفاقك على ناقج؛ الأُباوة في حفلة الجابشه المقامة على شرفك جرحتْ فمه ؛ أليس صحيحاً؟

– وكيف نميز الصحيح من غيره؟ – ابتسم براغنه كأنه يدين نفسه، ولكني أظنك أصبتَ في تعليلك. ربما هذا سبب، على كل حال لا مشكلة!

– لا بأس إذن... – قال دداي على نحوٍ لا تعرف معه إن كان الجواب أعجبه أم لا. وفجأة ندم على مصاحبتهما بالإضافة إلى موقفه غير الودّي من ناقج:

– تابعا إذن طريقكما، وأنا سأطمئن على أمي وأعود حالاً.

اكتفى تامبي أسلانبج بهزّ رأسه لجاره الشاب المدخول، كما يفعل عادة، متعجباً من دقة ملاحظاته ولم يعلّق بشيء. وتابع براغنه ميشكا دداي المنصرف راضياً عنه، وتألم له قلبه.

كان الصبيان الذين يلعبون بالبلابل، والصبايا اللواتي يترامين بكرات الثلج، ينادون دداي القلق على أمه والتي اتخذها ذريعة لمفارقة الرجلين، ولكنه لم يلتفت إليهم: وصل إلى باب داره يسير حذراً على الطريق الذي فُتِح عبر الثلج المتلألئ للشمس، المجروف من أمام أبواب الدور.

سأل تامبي أسلانبج أسيره حين دخل إلى الغرفة مع براغُنه ميشكا، متعجباً مما يرى، غيرَ عارف تفسيراً له:

– أراك وحيداً؟

– لا، الله معي كما تقولون أيها المسلمون.

– أظنك لم تيأس بعدُ إذ ما زلت تمزح، –ابتسم تامبي، وسأل ثانية: – أين حارسك؟

– إن كنت تسأل يا أمير، – التفت تورناو نحو براغنه، – فاليائس هو من سألت عنه: الإسهال يقضُّ مضجعه.

– توقّعتُ من طريقة أكله أن يحدث له شيء من هذا القبيل...

– جئتم في المرة الوحيدة التي خرجتُ فيها من البيت؟.. – عاد ناقج إلى الغرفة متظاهراً بالحياء، وأحسّ أن الحديث يدور حوله، فعزا سبب مرضه إلى مهنة الحارس: – أشكّ في أن هذا أطعمني شيئاً تسبب في مرضي.

– لا تفترِ عليّ! – غضب النقيب تورناو مما سمع، وسأله بفظاظة: – ألست من أكل اللحم الفاسد مساء أول من أمس رغم تحذيري بعدما عرّضته قليلاً للنار؟

– اذهب إلى بيت الإمارة يسقوك شيئاً يهدّئ بطنك، أفضلُ من أن تجادل فيدور – فيدور وتتهمه بما ليس من ذنبه، – تكلم تامبي إلى ناقج بقسوة.– ولما خرج ناقج مسرعاً قال تامبي للنقيب: – هذا هو يا فيدور – فيدور من كنت تريد عيادته، جئتك به.

– الحمد لله على السلامة يا ميخائيل إيزوتوفيتش، – قال النقيب تورناو في نفسه: " يبدو أنهم ينقلون إليه أي كلمة تخرج من فمي. هنّأ النقيبُ تورناو براغُنه باللغة الروسية ذاكراً اسمه واسم والده.

– في كلام الأمير أسلانبج نصيب من الصحة يا فيدور فيدوروفيتش. ما العمل؛ يحدث لك مثلُ هذا إذا لم تكن حراً بنفسك. ولكن شكراً لك، حقق لي تامبي ما كان في قلبي نحوك وإن مضى زمن طويل.

– والله أغبطكما كليكما، – قال تامبي بنبرة لا تميّز صدقها من كذبها للرجلين اللذين جمعهما. تتحادثان بأسلوب جميل دون أن تنسيا اسم والد المخاطب، وبصيغة الجمع "أنتم"... نحن لا نُلحِق أسماء آبائنا بأسمائنا، ولا أدري صحة هذه العادة. ولكن ميشكا خبير بعاداتنا، نحن لا ننساهم أحياء كانوا أم أمواتاً.نستشيرهم، ونحترمهم.

– كنت أعرف هذه العادات قبل أن أخالطكم يا أمير، – قال تورناو كأنه ضيفٌ لا أسير.– ولكن اتضحت تماماً لي خلال العام والنصف، مدة حياتي بينكم.

ضحك تامبي أسلانبج سعيداً، وكلّف براغُنه بالتعليق على ما سمع:

–أخبِرْ فيدور – فيدور ماذا نقول للضيف متى مضى على وجوده ثلاثة أيام.

– وأعرف هذا أيضاً،نظر النقيب تورناو إلى تامبي نظرة بشاشة لم يعهدوها منه منذ وقع في الأسر. وشرح له ما أتى على ذكْرِه: – متى أقام الضيف ثلاثة أيام صار جزءاً من الأسرة.

– يا عجيب يا براغُنه، – هتف تامبي مرائياً، – جاءنا هذا مربياً لا مستطلعاً. إذن إذا كنت تأنف يا فيدور – فيدور أن يفتدوك، وكانت عاداتنا وعلاقاتنا تعجبك، كبراغُنه ميشكا، فاعتنقْ ديننا، واستقِرَّ بيننا. وسيفرح الأبزاخ بك، وسيُعِزّونك. أنا ستكون الجنة بانتظاري مكافأة على ما علّمتُك. وأنت سأدعو لك أن يُفتح لك بابها الذهبيّ. وسأطلب من القرية كلها أن تساهم في الدعاء. وهل تعتقد أننا سنكتفي بهذا؟ لو لم يبق غيري، ولكونك أنت ابن أسرة متنفذة، ولأن أسلانكوز ابنة أسرة أميرية، وتأتيني أخباركما أنكما على وفاق، فسأزوجك من هذه الفتاة الجميلة.

– كنت أخبرتك يا أمير أني لستُ ممن يبدلون دينهم،– جزم النقيب، ومازحه في شأن الحب: – متى بِعتني فلا مانع عندي إن أرفقتني بأسلانكوز. بل أنا جاهز منذ اللحظة.

– اسمعْ يا براغنه ما يقول! – ضحك تامبي من خارج قلبه، – لا مانع لديه إن أطلقوه وأرفقوه بأجمل فتاة في القرية!– نهض وهو يقول لنفسه: " سيطول انتظارك! " – اجلسا أنتما إذن، وتحادثا، وأنا سأعود إليكما بعد قليل.– ما إن أنهى أسلانبج جملته حتى انتفض برأسه من صوت البكاء الذي ارتفع: – صوتُ من هذا؟!

– والله هذا صوت المسكين دداي! – هبّ براغُنه ميشكا من مجلسه واقفاً. ولم يتأخر عنهما تورناو الذي بقي بلا حارس.

تراكض أهل القرية إلى الغرفة التي صدر منها بكاء دداي.

قال براغُنه الذي خرج من الغرفة إلى المسطبة للناس الذين كانوا يتجمعون:

– افتحوا أبواب الدار، والدةُ المسكين دداي رحلت عن الدنيا. والشاب الذي سنعزيه وأمه بلا أقارب فليقف عدد من الجيران إلى جانب دداي حسب تسلسل أعمارهم من أجل تلقي العزاء بها.

وقف بكر إلى يسار دداي فوقف غُفس وإسلام وشاب آخر إلى جانبه. كان بؤدِّ ناقج أن يتميز ممن يتجمعون في الدار ولكنه التصق بأسيره الذي لا يرفع طرْفَه عنه غير عارفٍ مكاناً آخر له. ولكن الأسير الروسي الذي يحرسه ناقج كانت أنظاره نحو المعزين، فكان ناقج راضياً بتقاسمه النظرات معه.

– أهذا هو أسيرُ تامبي الذي صدعوا رؤوسنا به؟ – سأل رجلٌ أبزاخي نحيف لا تليق به قبعته المصنوعة من جلد الخروف، رفيقه. – وما أسوأ لباسه!

– ليرضَ الكافر بأي لباسٍ؛ هل اصطحبوه إلى عرس! – أجاب الرجل المسؤول القصير، وأضاف: – يقال إن المسؤولين عنه لا يفتدونه فلْيستقرّ بيننا مثل براغُنه إن كان رجلاً! الأرامل عندنا كثيرات. وكانت التي خلّفت هذا البائس دداي إحداهنّ.

– يقال إن رُقى الحاج جانسعيد تفيد دداي.

– ربما تتكلم على رقية عبد الله أفندي؟

– لا يا رجل، من يأتي على ذِكْرِ التركي المسافر العابر! أتكلم على رُقية الحاج جانسعيد فحسبُ.

– هكذا؟.. – لو سمعتَني ما سمحتُ لك أن تصف عبد الله أفندي بهذه الأوصاف. حسناً، حسناً، لا ترفعْ صوتك؛ الناس ينظرون إلينا.

طلب تامبي أسلانبج النقيب تورناو كمن سمع الحديث عن رثاثة ثيابه، وأجلسه إلى جانبه، وقال لناقج:

– هيا اذهبْ إلى دار الإمارة وهات لفيدور إحدى قبعاتي من جلد الخروف،وفروتي الذئبية اللون. المأساة المفاجئة لم تسمح له بأن يلبس ما يريد.

– ألا يمكن يا أمير أن ينصرف عنا هذا الكافر فلا يشاركنا عزاء إسلامياً؟ – تظاهر مُحَمَّد أفندي الذي تتدلى السّبحة من ساعده بأنه يسأل تامبي، ناظراً إلى مرزخواي يخاطبه بعينه متمنياً ألا يتدخل في أموره الدينية. غير أنه غيّر موقفه لما لاحظ أن والده لم يعجبه تصرُّفُه: – إن كان رأيكم هكذا فلْيبقَ بيننا على ألا يدعو على طريقة المسيحيين، ولْيرَ أننا، نحن المسلمين، أناس مسالمون خلافاً لهم. قولوا آمين يا أمة الله المسلمة الأعِزّاء. – رفع الحضور باستثناء النقيب تورناو أيديهم بأمر من مُحَمَّد أفندي، وبدأ يُقرِئهم الدعاء. أما النقيب تورناو فدعا لنفسه عبر إشارة الصليب غير عابئ بتعريض الأفندي، وبدأ يتلو على روح والدة المخلص له دداي صلاة: يا أبانا في السماء.

XLV

لا تفارق جنازة والدة دداي عيني النقيب وإن مضت عدة أيام على دفنِها: لم تهب ريح يمكنها أن تحرك، بل تهزّ الأغصان المحمّلة بالثلج. والطبيعة التي تلمع منها الشمس بيضاء ناصعة. والجو معتدل. والحي يضيق بالناس. والرجال والنساء في مجموعات كلٌّ على حدة. ولما حُمل الجثمان المغطى بغطاء أخضر من الغرفة ووضع أمام المجتمعين أبّن مُحَمَّد أفندي المتوفاةَ ببضع كلمات، ودعا لها، ثم سأل الحضور إن كان هناك من يريد إلقاء كلمة، فتكلم الأمير تامبي أسلانبج أولاً، ثم العجوز مرزخواي، والأمير ألجري، وباسم الشباب براغُنه إسلام، كلماتٍ طيبةً بحق من ستمثُل أمام الله. ولم ينسوا ما يقوي قلب دداي، ويرفع من روحه.

رجع الناس من المقبرة فرافق الشباب دداي إلى البيت. ورثَوا معه أمه للمرة الأخيرة. وبعد قليل، حين انتهى موفدو الزائرين وأهل المأتم من شكر الحضور، كلٌّ بدوره، أبلغهم بكر بموعد رفْعِ ملابس المتوفاة. ثم صافح الزوارُ دداي مودّعين، وتفرقوا.ولكن في الأيام السبعة التالية، ريثما جاء يوم رفع الملابس، لم يغب دداي عن أعين الجيران – يقيمون معه في البيت، ولم تترك النساء الموقد حيث يطبخن.

" قبل أن آتي إلى هنا، إلى بلاد الشركس، سمعتُ بعض أخبارهم شفاهاً. وقرأت ما كتب الديسمبريون، وأشعار بوشكين، وكنت قابلت بعض الضباط الذين حاربوا في هذه النواحي. وكانت مذكراتهم الجامحة عجيبة حتى لَتُنسيك الحقيقة. وقرأت كتاب " أمالات بيك "لبيستوجيف مارلينسك مرتين. وهو أقرب الجميع إلى حياة الشراكسة إن كنت راغباً في معرفتها. وليست قليلةً المطبوعات التي أصدرتْها الصحف الصادرة في تفليس... تنهد النقيب الذي هاجمته الذكريات خِفية عن ناقج، وتابع أفكاره: – لن تفهم طبيعة الشراكسة بمجرد الالتقاء بهم والجلوس معهم. اِفرحْ إن استطعت أن تفهم هؤلاء معايشاً إياهم في صباحهم ونهارهم ومسائهم وليلهم، حتى مضافاتهم. الناس الذين يصفونهم بأنهم قوم متمردون يثرثرون في ما لا يعرفون، مخطئون، فأتركهم لله يحاسبهم. وأنا أتفكّر في الأسْر الذي فرضه عليّ فيُخيَّل إليّ أن القوزاق خدعونا فأتينا إلى شمال

القفقاس دون استعداد، واحتشدنا على ساحل البحر الأسود... وهذا الرأي لن يصدّقه من أرسلوني إلى هنا ولو واجهتَهم به. ولكن ما رأيته بعينيّ واضح لي وإن كنتُ مخطئاً. الشراكسة فيهم عيوب كثيرة يمكن أن تجدها في كل الأقوام. وليس قليلاً عندهم المتبجحون والمغتابون والحُسّاد والجشعون إلى المال. ويعيشون متميزين في أعراق كثيرة، وليست عندهم دولة خاصة بهم، غير أن شِرعتهم: الأديغة خابزه " تُنسيك حتى الدول القائمة منذ قرون طويلة. وحياة هؤلاء مفصَّلة على الحياة العسكرية دون أن يشعروا: زيُّهم الشعبي، ولباسهم، وتدريبهم خيولَهم، وسروجها مصممة لهذا النمط من الحياة. وعلاقات كبارهم بصغارهم، وموقع المرأة فيهم؟ وتقاليد مآتمهم، وأعراسهم وحفلات الرقص المصاحبة لها، ومضافاتهم، وحفلات الجابشه، وسباقات خيلهم، ومؤتمراتهم – اجتماعاتهم؟.. "

– فيمَ أنت شارد يا فيدور – فيدور؟ – سأل ناقج هذه المرة حذراً خلافاً لعادته.

– وهل قليل ما يمكن أن تفكر فيه؟.. – أعاد النقيب تورناو السؤال متظاهراً باستغراب طريقة سؤال ناقج، وأضاف دون أن ينتظر الجواب: – وهذا تدركه حين تقع في مثل ما وقعتُ فيه.

– لا تذكّرْني بوضعك! – غضب ناقج، ثم وعى إلى نفسه فأكمل بصوت يكاد يسيطر عليه:– أنا في هذا الوضع منذ زمن طويل... أين أبي وأمي وأخي الأصغر وأختي؟ كنت في الرابعة عشرة من عمري حين أبقيتموني وحيداً.

– لم أعرف هذا.

– أُخبرُك إن لم يكن عندك عِلمٌ! – تنمّر ناقج الآن على الأسير، وقيّمه شاملاً قومه معه: – لستم أناساً صالحين، أنتم تنهبون ما ليس لكم.

– إن كنتُ المقصود باتّهامك تقبّلْتُه وإن على مضض، – عاد النقيب تورناو الذي كان يضبط أعصابه بصعوبة فلام ناقج، – ولكن اتهام الشعب الروسي كله بهذا عيبٌ وظلم.

– أنتم أناس صالحون، ونحن ظالمون؟

– لا أحكم بهذا عليكم جميعكم، ولكن...

– هذه الـ "ولكن" أنتم لا أنا. – قاطع ناقج كلام النقيب، ثم أضاف كمن ندم: – تقول: "الروس بأسرهم"... هل تظن أنكم وحدكم المقصودون بهذا الحكم؟ الترك مثلُكم. غزوتمونا كما يقول حجرت نقار.

– لو قلتَ "جاؤوا بكم إلينا" بدلاً من "غزوتمونا" لكان أفضل وأقرب إلى الحقيقة، – حدّق تورناو باسماً في ناقج.ألا ينفّذ الأبزاخ قرارات مؤتمرهم؟

– وكيف لا ينفذون!

– وجيشنا ينفذ أوامر قيصر دولتنا.

– هذا قصْدُك!.. – تمتم ناقج لنفسه، – نحن لا سلطان عندنا، بل زعماء وقادة. وكما يقول الأمير تامبي: لو كان ما يقرره أحدهم لا ينقضه الآخر... ألا يحدث مثلُ هذا في دولتكم؟

– كلام قيصرنا لمرة واحدة، لا يكرره. لا أحد ينقضه.

– والله عجيب، لم يكن أحد يصدّق براغُنه ميشكا حين يروي مثل هذه الأخبار. تحدّثنا جيداً دون قصد، – اختتم ناقج السلام المفاجئ الذي حلّ بين شخصين من عرقين مختلفين.

– تحادثنا جيداً ولو كنتَ أصغر مني عمراً، ومن غير قومي لأننا نتشابه في ما جرى لنا كلينا في حياته؛ ألسنا بشراً أولاً وأخيراً؟ – قال النقيب تورناو بصدق.

– كيف نتشابه أنت وأنا؟! – انتفض ناقج برأسه مما سمع. – أنت أسير، وأنا طليق!

– وأنت ألم تؤسَر أيضاً؟

– أهذا ما تقصده؟.. – نعم أُسِرتُ ولكن المرحوم والدي رشا أحد القوزاق في طريقنا إلى نواحيكم فسمح لي بالهروب... ولكن لا تتأمل إن أخبرتك هذا الخبر أن أُطلِقك ولو دفعتَ لي حصاناً بسرجه.

– ليس عندي مثلُ هذه النية فاطمئنَّ! وكيف أعتب عليك إذا كنت تنفذ مهمتك؟.. غير أني سأخبِرك بما أنا عاتب عليك فيه، – مازح النقيب حارسَه متظاهراً بالضحك، – لا تفكّرِ عبثاً، لن تخمّن. لماذا تمعّنت في قبعة أسلانبج بعد أن خلعتَها عني بعد جنازة المرحومة والدة دداي، ولماذا نفضْتَها بكل هذ الحِرص؟

– هل تسمع يا إلهي ماذا تذكّر هذا الرجل؟.. – ضحك ناقج. ثم أجاب دون أي مبالاة: – مسحتها من أجل ألا تفوح رائحة عرقك الكافرة من قبعة رجل مسلم. ألستُ حراً في ما أفعل؟!

– حرٌّ، ولكن كان عليك بعد هذا أن تغسل يديك.

– يا فيدور – فيدور، أحاول تحمُّلك، ولكن لا تُهنِّي!

– وهل يهين أحدُنا الآخر لمجرد أننا نستعيد ملاحظات أحدنا على الآخر؟ سأقول لك إن أردت رأيي في أفظع إهانة للإنسان، – تألم قلب النقيب ولكنه أخفى ألمه، – حرمانك من الحرية يا أخي.

– ما الذي يجعل مني ومنك أخوين؟.. – تمتم ناقج ثانية بصوت منكسر، وأضاف:– ولكن في كلامك صحة. ومن أجل أن أصدّق كلامك بادلْ نفسك بالأسرى الأديغة فدعني أرى ثانية أبويّ.

– لو كان الأمر بيدي لحققتُ لك طلبك. ولكن لا أعتقد أن بإمكان بروجني أوكوب وستافروبول وتفليس تحقيق هذا. هذا من شأن القيصر.

– أتساءل: مَن هذا القيصر الذي لا تنفكون عن ذِكْره؟ إن كان ذلك السلطان الجبان الذي يوكِل إلى سلطانِ خان جري، سليلِ أسرة أمراء من الخمشي البجدوغ، حراستَه فلا تذكرْه لي. أنا أعتقد أن سلطانكم أصلبُ من زاس ومن فيلياميتوف... – قال ناقج بفظاظة وهو يراقب عبْر النافذة: – هذه هي الحال لولا أن خان وأسلانكوز لن تدَعانا نكمل حديثنا؛ ها هما قادمتان، ووراءهما دداي. حسنٌ أن يأتي، سنحاول الترويح عنه.– أضاف بنبرة لطيفة.

أُستُدعي ناقج إلى الخارج قبل أن يجد الداخلون الوقت للجلوس. ولما عاد دون تأخر قال للنقيب تورناو:

– طُلب مني أن أصحبك إلى ضيوف الأمير أسلانبج بعد إصلاح هندامك.

دخل ناقج بصحبة تورناو إلى غرفة الأمير، وخرج. حيا النقيبُ الحاجَّ جانسعيد وحمرزقوه أسلانجري اللذين نهضا لاستقباله متناسيين كونه أسيراً، وجلس حيث أشار تامبي.

– نحن يا فيدور – فيدور، لا تستغرب، – لم يماطل حمرزقوه في الدخول إلى الموضوع، – موفدان من قرمرز تيمبولات. أنا أنفِّذ ما كلفوني به: وهذا الفرو

من جلد الخروف، والتبغ، والسكر، أرسلها إليك. هذا حسن، ونحن سعداء به، وإن قبلت أوصلْنا إليه شكرك. ولكن كتاب الجنرال زاس إليك المكتوب بالألمانية عرضناه على كثيرين ممن يعرفون التركية والفرنسية والروسية والإنجليزية فلم يستطيعوا فهمه. ونحن سنجد عاجلاً أم آجلاً من يفهم ما في الرسالة. فإن كنت تريد أن نثق بك فقل لنا ما كُتب إليك دون إسقاط كلمة إن كان خيراً أم شراً.

اكتفى الحاج جانسعيد بنظرة حادة إلى النقيب دون كلام. وكان تامبي أسلانبج جالساً مخفياً قلقه مما في الرسالة.

– فهمت ما تريدون، – قال تورناو باختصار، وشرع يترجم لهم محتوى الرسالة:

– " نعرف أن آسريك سيقرؤون ما نرسل إليك فلن نتوقف طويلاً أيها النقيب عند هذه النقطة. ثق بأننا سنحررك بالاستفادة من كل إمكاناتنا فكن صامداً أيها النقيب ولا تيأس. أخبِرْ آسريك أننا سندفع مبلغاً جيداً فدية لك.واستمر في حياتك معهم دون أن تثير أحقادهم، ولكن لا تُؤمِّلهم في ما لا نستطيع... "

– مهلاً، سأل تامبي، – أيّ "سيحررونك" تقول الرسالة؟ اقرأ مرة ثانية!

– هذا يعني أنه سيصبح حراً متى افتدَوه، – قال جانسعيد بلامبالاة.

– لا بأس إذن، – وافق تامبي، ثم سأل حمرزقوه: – ماذا سنفعل به إذن يا أمير؟

– والله لا أعرف ماذا سنقرر بشأنه، – ابتسم حمرزقوه، – ليفتدوه إن أرادوا! ولكننا نحن من سيقرر المبلغ، لا هم. لن نتكلم في هذا الموضوع والأسيرُ بيننا، تعالوا ننصرف عنه. لا تؤاخذنا يا جانسعيد!

قال الحاج جانسعيد فجأة حين بقي هو وتورناو وحدهما في الغرفة:

– أنا فهمتُ طبيعتك. ما العمل، الماضي لا يعود. كنت أفضّل أن نلتقي في الحرب فتنفاني على أن أراك هكذا. ولكن سيأتي يوم تغيّر فيه نظرتك إليّ فانتظرْ! تيمبولات وأنا صديقان ودودان. ضعْ ثقتك فيه. وثق بي أيضاً...

عاد تامبي وحمرزقوه إلى الغرفة قبل أن يجد تورناو الوقت ليسأل الحاج عما سيخدمانه به هو وتيمبولات. وحين بدأ الرجلان يتبادلان النظرات دون كلام قال لهما النقيب تورناو ناسياً أنه أسير:

– أسمعكما أيها الأميران.

– ما نزال على ما أبلغناك به سابقاً، – قال حمرزقوه، ونظر إلى تامبي.

– هذا ما استقر عليه رأينا، – فسر تامبي وهو يشهد على صحة ما سُئل عنه بالنظر: – إما أن تعيد إلينا روسيا ما سلبتنا دون حق أو تعطينا ربع مليون سومة فضية.

– طلبتما مبلغاً جيداً،– ابتسم النقيب تورناو.

– نحن نعرف قيمتك وإن لم تعرفها أنت.– مازحه حمرزقوه.

– حياكما الله على هذه القيمة التي تمنحونني إياها. غير أن من تساومانهم سيعتبرونه ثمناً غالياً.

– خُصماؤنا ليسوا أفراداً مستقلين، – جزم تامبي، – بل دولتك التي أنت من رعاياها، وتحاربنا. أليس كلامي صحيحاً يا جانسعيد، يا زعيم الخير؟

– أوافقكم على أن غريمكم هو الدولة التي تحاربنا، – أجاب الحاج جانسعيد،

– ولكن في كلام الضابط الروسي الأسير شيئاً من الصواب. ليس ما تطلبانه شيئاً يُذكر إلى الدولة العظمى التي تهاجمنا، كثير من أمثاله قضَوا على رؤوس رماحنا، وسيقضون.

– وما العمل إذن يا حاجّ؟ – دفع الضيق حمرزقوه إلى السؤال.

– فكّرا، قد تكون هناك مخارج كثيرة... ليفتدِ نفسَه!

– وهل يفتدي نفسه؟! – احتدّ حمرزقوه، ثم اختتم بنبرة ألطف: – يعد نفسه فقدَ شرفه العسكري إن فعل هذا.

– لا تقحموا موضوع الفدية، – لم يقبل تامبي، ثم غمغم كمن يحدّث نفسه، مُسمعاً الآخرين: – إن حسبتَ السعر الذي سيعطيه لنفسه فهو ما يساوي ما أنفقته عليه خلال العام والنصف.

كان حمرزقوه يودّ أن يجيب الأمير تامبي:" وهل أطعمته وحدك؟ إذن ذهبت الخراف التي بعثتها إليك، وأكياس القمح عبثاً. وكان قرمرز أرسل إليه فروا وملابس، وتبغاً وسكراً... " ولكنه كظم غيظه قائلاً: ليس الآن، لاحقاً.

– أوافق الأميرين على ما قالاه بشأن افتداء نفسي بنفسي، – شارك النقيب في الحوار كأن الكلام يجري على شخص آخر، – ولْنفكّرِ في رأي الحاج جانسعيد زعيم الخير أنه قد تكون هناك مخارج أخرى. وإن قبلتم عرضت عليكم بعض ما خطر لي. ألم يكن حسناً لو بادلتموني بعدد من أسراكم عندنا؟

– لا بأس إن تحلى الطرفان المتجابهان بشيء من مثل هذه الإنسانية، – عرض الحاج جانسعيد رأيه مُشعراً النقيب بموافقته على كلام الضابط الروسي قبل الآن حين بقيا وحدهما في الغرفة.

– هذا غيرُ مقبول مطلقاً! – جزم تامبي هذه المرة أيضاً، وسأل حمرزقوه: – هل يحتفظ القوزاق يا أمير بأحد أتباعك أو أقربائك؟ إن لم يكن عندهم فلا أسرى من جماعتي أيضاً. كم نبّهناك على أن ترضخ، لا أن تجادل! لن نتنازل عن السعر الذي حددناه لك؛ أليس كذلك يا أسلانجري؟

– نعم يا تامبي. أنا لا أكرر ما قلته.

– وأنت يا زعيم الخير؟

– أنا أشهد على ما قلتم ولستُ شريككم في أسْر الضابط الروسي، – أجاب الحاج جانسعيد بما يشبه إرضاء للطرفين.

– أجبْ من أرسلوك إلينا كما سمعتَ، وبشهادة الحاج جانسعيد.

– الآن حالاً؟.. – سأل تورناو مماطلاً في كتابة الجواب الذي أجبر عليه.

– حالاً! ألا يكفي ما أقمت بيننا متسكعاً؟

– دعوه يفكر، ما مضى كثيره سيمضي قليله – اقترح الحاج جانسعيد الأفندي.

– إن كان هذا رأيَك أمهلتك خمسة أيام، – ختم تامبي وحده حديث الرجال الأربعة.

XLVI

– ألا يمكن يا حاج أن نستدعي قرمرز إليّ أو إليك دون أن نسافر إلى شجراي؟ – سأل حمرزقوه أسلانجري بعد خروج الفارسين من قرية تامبي حابله.

– كان هذا ممكناً، ولكن أليس الأفضل أن تذهب بنفسك إلى من لك عنده حاجة. – أجاب الحاج جانسعيد وأوقف حصانه: – حان وقت صلاة الظهر، هيا نتوضأ عند ساقية المضيق ونمثل أمام الله.

– نحن في سفر؛ ألا يجوز...

– لا، لا، – قطع جانسعيد كلام حمرزقوه، – الله أنعم علينا بيوم جميل وإن انصرفنا وقد عكّر تامبي مزاجنا. الشمس تشرق، والثلج يلمع من تحتها. والكساء الجليدي لنهر قجبس أزرق تماماً. سندعو إلى الله مسامحين أسلانبج على نزقه.

– لن نفوّت صلاتنا يا حاجّ. وسنبتهل إلى الله،ولكن لن أدعو إلى الله مُسامِحاً تامبي على تصرفه معنا. ألا ترى كيف راءى معي كمن لا يبالي ذلك الرجلُ الضخم الذي يأكل خروفاً في وجبة واحدة. ظل يوافقني ويستشيرني دون أن يوصل إلى الجاسوس أيّ شيء مما قلتُ؟ لا أعرف رأيك يا زعيم الخير، ولكن يُخيَّل إليّ إن هذا الدبّ متواطئ مع الجاسوس على أمرٍ ما.

– والله لا أعرف بِمَ أعلّق على هذا... لن تُقبل صلاتنا إن أديناها بنوايا غير صافية، سنتابع الموضوع الذي يُقلقك متى انصرفنا من حضرة الله بقلوب صافية.– انتزَعا بعدما توضّأا بماء بارد سجادةَ الصلاة السفرية المعلقة بالسرج، وشرعا في الصلاة. ثم ركبا بعد الصلاة. وبعدما مشيا مسافة استأنف الحاج سعيد الموضوع حسب ما وعد به رفيقه: – تقبّل الله صلاتنا، وغمرنا برحمته يا أمير. لو كانت أمورنا كلها تسير في دنيانا العارية كما نشتهي... أظن أنكم، أربعَتكم، تقاسمتم سراً ما يا أمير؟ – سأل جانسعيد حمرزقوه فجأة.

– من تقصد بالأربعة يا حاج؟ – خمّن حمرزقوه من لم يسمِّهم الحاج ولكنه سأل كمن لا يعرف.

– أنت، وتامبي، والأسير الروسي...

– ومن الرابع؟ – قطع حمرزقوه تعداد الحاج، وسأله دون أن يثير ارتيابه.

– هو من نذهب لأجله إلى شجراي، قرمرز تيمبولات!
– وما شأن الخائن قرمرز بموضوعنا؟
– وتيمبولات هذا الذي وسمتَه بالخيانة يعرف منكما سراً يمسكه عليكما، أنت وتامبي.
– وأيُّ سِرٍّ؟ شدّ حمرزقوه حَكَمة حصانه فجمّده مكانه.
– لا تعاند يا حمرزقوه، وعُدْ إلى مكانك على يساري، – قال الحاج جانسعيد إلى من وراءه بلا اهتمام. وحين عاد إلى جانبه خاطبه بنبرة أقسى: – الأفضل لك أن تتناسى نزقَك يا أمير وتبقى إلى جانبي. أنسافر إلى قرمرز تيمبولات أم لا؟
– كيف أسافر ضيفاً على قرمرز دون أن تُطلعني على ما يعرفه من سرّ؟
– نذهب إلى ضيافته للبحث في موضوع أسيركم. ما كان عليكم أن تخدعوا زاس وآل قرمرز!
– هذا ما تقصده يا زعيم الخير؟.. – لان موقف حمرزقوه، وبدأ يبرّئ نفسه ويستدرك خطأه: – يقولون: المضطر يجعلك ترمي نفسك على صدرك. كنا اتفقنا مع زاس على أن ننقل الأسير من نواحينا مقابل إعادة أملاكنا إلينا حين عرفنا نية زاس لأننا محتاجون وبلا مال. ولكننا خفنا ألا يفي بعهده فتراجعنا. لا أكتم، لم نكن واثقين منه ألا يُطلِع غيرنا عليه، فأمسكنا بـ " الحاج الشيشاني " الذي كان يدور به قرمرز، ثم تعرف الورطة التي وقعْنا فيها.
– أعرف، وأعرف غيرها أيضاً، – سأل الحاج جانسعيد بعد وقفة بنبرة مشددة: – هل نحن ماضون يا أمير إلى قرمرز؟
– طبعاً، إذا كان قادراً على الاحتفاظ بسِرّنا كلّمناه... – قال حمرزقوه كاتماً عدم تقبّله لما وقع من أجله في مأزق، وأنهى بوجه قلق: – لا يجوز أن يعرف هذا الأمر جماعة حجرت نقار الفلاح الأبزاخ أيها الزعيم المبارك، وأنا واثق منك.
قال حاج جانسعيد في سره:" إن لم يشِ بكم إلى الآن فافرحوا يا أبناء الزنا على حد تعبير القبرتاي جماعتِكم... " وأطلق حصانه.

XLVII

كانت مهلة الأيام الخمسة التي منحها تامبي أسلانبج لأسيره قد انقضت، ولكن يبدو على وجهه أنه لم نسيانها. ولم يكن النقيب بعيداً عن الاهتمام بالأمر، ولكن لا يعرف تفسيراً لعزوف تامبي عن آلته بعدما اختلف مع حمرزقوه وجانسعيد، فتُداخِله الهواجس. وإذا سأل ناقج عن السبب أجابه: "وما حاجتك إلى آلته يصدع رؤوسنا بها". وإذا سأل دداي الذي عاد إلى طبيعته بعد وفاة أمه كان جوابه أقرب إلى الحقيقة: "هذا مهووس بالسفر يا فيدور – فيدور، نحن أيضاً لم نعد نراه... أليست مهام جاري كثيرة! ثم قيل إن موضوعك هو المستعصي عليه.ألا توعز لهم أن يفتدوك فيرتاح بج المسكين! وقُجَنِس تتوهم أنك ستجلب المصيبة للأسرة. ولو كان الأمر بيدها لسلّمتك إلى قوزاقك البغيضين.

حين ارتفع أذان العشاء خرج النقيب من أفكاره، قال لناقج الذي غفا مع نار الموقد، غير متحمل طريقة نعاسه:

– الأفضل لك أن تصلي من أن تنعس.

– أنا صاحب القرار في ما سأفعل أو لن أفعل. أنا حرٌ في أن أقول لك ما أريد في أيام غياب الأمير. وأستطيع أن أجعلك تقضي الليل برجلين مقيدتين غير أني لا أريد أن أكسب ذنباً بسببك.

– شكراً على لهفتك من أجلي. الريح الشرقية دفّأت الجو، يمكنك تخفيف نار الموقد.

– إن كانت الغرفة دافئة جداً سمعتُ كلامك. – قال ناقج بعدما جلس مدة يقلّب جمر الموقد: – لا أعرف يا فيدور – فيدور ماذا جرى لي حين تكلمنا قبل أيام بقلوب منفتحة؛ تغيرت نظرتي إليك.

– شكراً إن كنت صادقاً... – أجاب تورناو بحرص.

– الشكر لك أنت، جعلْتني أعيد التفكير ففتحت عيني من جديد. من أنا؟.. أنا عبدٌ لتامبي لا تسعني الدنيا حين يبشّ لي، أو يُثني عليّ. أنا أسيرٌ مثلُك وإن لم أكن أسيراً... إن أردتَ، – أسرع ناقج بالقول، – سنمتطي أحد أحصنة تامبي ونهرب!

– لا يا ناقج، لا يخطرْ لك مثلُ هذا!
– هل تخاف مني؟
– أحمي حريتي.
– وهل هناك مثلُ هذه الحماية للحرية؟
– نعم، إن تحليت بالصبر – الأمل.
– فهمتُ... – مسح ناقج الدمعة التي غزت عينه وهو يشعل من جديد نار الموقد الآيلة للانطفاء.

ربما كان المطر البارد الذي تحمله ريح أيام الفصل بين الشتاء والربيع هو السبب في انقطاع زيارات الجيران: كان النقيب وناقج وحدهما في الغرفة، وصلاة العشاء انقضت للتو حين دخل مرزخواي العجوز وبراغُنه ميشكا الغرفة ينفضان عنهما الرذاذ البارد. استقبل النقيب وناقج اللذان أمضيا المساء كله يتخاصمان ويتصالحان الضيوفَ بوجوه طلقة، ولكن ناقج قال لنفسه: "ماذا يريد هذان وقد تأخر الليل؟.."

– نحن لن نجلس طويلاً، – قال مرزخواي وهو يجلس قريباً من الباب، – كنا مارَّين فلم نستطع إلا أن نعرّج عليكما. مضت عدة أيام لم أر فيها فيدور – فيدور. وأنت أيضاً يا ناقج. كيف حالُكما بإذن الله؟
– ونحن بخير، – أجاب ناقج مسروراً لإبراز اسمه، وسأل الاثنين، – وأنتما، كيف حالكما وكيف تجري أموركما؟
– بفضل الله، – تكلّم براغُنه الآن، – كما تريانا، بخير، وبصحة جيدة. ونحن خارجان من الجامع بعدما صلى بنا الحاج مُحَمَّد. يُنسيني مُحَمَّد أفندي ولو أنه لايزال شاباً،ولا أقول هذا كرمى لمرزخواي – متّعك الله يا كبير بشيخوخة سعيدة معه – حين أسمع موعظته كروبي، ويغمر قلبي بالخير.
– حسنٌ أن تنسى كروبك، ويملأ قلبك بالخير يا ميشك، – تظاهر مرزخواي بأن ما سمعه بشأنه مبالغ فيه مع أنه مرتاح له، وقال لميشكا: – لو سمعتَ نصيحتي لطلبت منك أن تخفف مديحك لابننا الصغير. وهل عجيب إن كان أفندياً؟.. وإن حجّ وعاد؟.. وعبد الله أفندي حاجٌّ ولكنه يجلب المصيبة لمن يخالطهم، وينكب من يتصل بهم.

– هذا صحيح، – أيّد براغنه مرزخوايَ، ثم أضاف رأيه: – ولكن لا يمكن أن تدّعي أن عبد الله أفندي ليس مطّلِعاً على الإسلام. ليتنا كنا نعرف الإسلام كما يعرفه فيدور فيدوروفيتش!..

– لا جدال في أنه مطّلعٌ على الإسلام – أسرع ناقج بالقول مستغلاً لحظة سكوتٍ من الكبيرين،– لولا أننا لا نسمع كلامه معبّرين إياه بكفره. هذا قبضنا عليه واعتقلناه، والآخر نسمح له بالتجول في الأبزاخ على راحته. هذا هو يا مرزخواي، وأنت أيضاً يا ميشك. لا تستغربا ما سمعتما، أنا أقول الحقيقة فحسبُ. وأنا لا أتهم من أحرسه بما ليس ذنبَه. ألا تقول شيئاً يا فيدور – فيدور لهذين!

تبادل مرزخواي وميشكا النظرات إثْرَ الكلمات الأخيرة لناقج.

– وماذا أقول لهما؟– قال النقيب تورناو، – شكراً للكبيرين على إطلالتهما وعدم نسيانهما إيانا. العالم مركب من أمور سهلة وأمور صعبة. هذا أموره ناجحة، والآخر خائبة. هذا محظوظ، والآخر منحوس.

– واللهِ صحيحٌ يا فيدور فيدوروفيتش، – قال براغُنه، وفسّر ما يشغل باله، – ولكن الظاهر هو أن كلَّ إنسان وما يقدِّمه لنفسه فحسبُ.

– لا يا ميخائيل إيزوتوفيتش، لا أحد يستطيع أن يحيا دون أمل واقتناع. لا أوافق مرزخواي على ما قاله بشأن ابنه. حسنٌ ما فعل إذ لم ينفِّر من الحج ابنه الراغب فيه. أفهم أن الأب لا يجوز أن يمتدح ابنه حب العادات الأديغية، ولكن إن كان يضمر الخير للناس فعليك أن ترتاح إليه.

– وهذا رأيي أنا، يا فيدور – فيدور، ولكن لا أريد أن يتخلّق بشيء من أخلاق عبد الله أفندي بحُجة الأفندية والحج. وليس وحده، بل من طباعك أنت أيضاً.

– اطمئنَّ من هذه الناحية.– ابتسم تورناو، – لا يمكنه أن تقع عينُه عليّ فكيف يكتسب شيئاً من أخلاقي؟! هل تعرف ما قال لي في مأتم والدة دداي؟.. كان ناقج شاهدي فلْيقلْ لكما.

– قال له:" لا تتصور نفسك مسلماً إذا ألبسوك قبعة أديغية! " – أسرع ناقج كأنه كان ينتظر هذه الشهادة.

– يا عديم الإيمان، – غضب مرزخواي الآن من أعماقه، – ثم يدّعي أنه أفندي!
– أليس هاجم من لا يدين بدينه لأنه أفندي؟ – قال براغُنه، وغيّر موقفه بسرعة: – يتصرف على نحو صحيح.
– أظنك أفسدت كلامك يا براغنه، – ابتسم مرزخواي كاظماً غيظه، ثم تمتم: – وبهذه الحجة أفسدتم من يدعون إلى الله بلغةٍ غيرِ لغتهم، ولا يفهمونها، لا تعتب علينا يا فيدور – فيدور. وإن سمعَنا بكر لن يكون راضياً.
– بكر، الحارس عند الأمير أسلانبج يتباهى أحياناً، ولكن، – قال ناقج معتداً بنفسه، مدعياً التقدم في العمر، – لم يفقد بعدُ صدقه وإنسانيته، لماذا تتهمه بما ليس ذنبه؟ كان قال لأخيه: فكّرْ في ما تقول، واحرِص على نفسك!
– ألا تقول هذا يا مبارك النسل! – عاد الحبور إلى العجوز مرزخواي، – كيف كان ردُّ فعله إذن؟
– وماذا سيكون؟ – ابتسم ناقج في وجه تورناو مرائياً، – ألا تعرف كيف يتصرف الأفندية: يغضبون حيناً، ويسكتون حيناً، وفي هذه المرة تظاهر بالصمم.
– ما ختمت به ليس حسناً... – قال مرزخواي بصوت منكسر، وأنهى باختصار: – أنا سأتصدى له!
– الآن إن سمعتَ كلامي يا مرزخواي لن أسمح لك أن تفعل هذا، – قال براغنه، ثم سأله: – هل تظن أن الكلمة التي رمى بها مُحَمَّد أفندي لفيدور فيدوروفيتش من عنده؟
– ما يحزنني أني لا أعتقد أنه من عنده!.. أرسلناه إلى الحج دون اعتراض على اشتغاله بالدين، ليعشْ بإرادته وعقله دون أن يسمح لأحد أن يخدعه. وأنتم تعرفون المقصود وإن لم أسمِّه.
– ولماذا لا نعرفه، قل: هو عبدالله أفندي التركي، وانتهى! – سأل براغُنه الضابط الأسير كي يشهد معه: – أليس صحيحاً يا فيدور فيدوروفيتش؟
– لا أعرف حقيقة أفندية عبد الله التركي، – أجاب النقيب تورناو على السؤال، – ولكن إذا كنتُ أنا ضابطاً روسياً فهو ضابط تركي. هذا جاسوس

حرّ، وأنا أسيرٌ أستحق ما أُعامَل به. إذا كان مُحَمَّد أفندي قال لي ما أستحقه تبعاً للدين الذي يعمل في خدمته فأنا لا أعتب عليه يا مرزخواي، يا زعيم الخير. لا تجرحْ قلبه لهذا السبب! أوافقك على ضرورة أن يتصرف بعقله هو، وعلى ضرورة إيصال تعاليم الله إلى المسلمين، ولكني أستغرب كيف تسمحون لجاسوس مثلي، تركيٍّ، أن يخدعكم.

– نعم، صحيح، – وافق ناقج محروسه.

– ما هذا الصحيح؟ – اعترض براغُنه ميشكا على ناقج، – هل يخدعُنا إن حذّرَنا من حملة الروس علينا؟ أقول لكم إن شئتم: – هذا الضابط الروسي أمامكم، وذاك الضابط التركي سِيّان عندي.

– اسمع يا مرزخواي، – صرخ ناقج متناسياً موضوع الأكبر عمراً والأصغر، لاطماً فخذيه، – ما يقول لنا ميشكا!.. ليس ما في قلبك مثلَ ما على لسانك يا ميشك.

وقبل أن يجد براغُنه ميشكا الذي قطّب جبينه الفرصة للإجابة فتح دداي الباب على مصراعيه وقفز إلى الغرفة. وقال واستياؤه من الخبر الذي جاء به بادٍ عليه:

– عندك ضيوف يا مرزخواي.

– حسنٌ أن يأتيك ضيوف. اللهم اجعل فيهم الخير! – دعا العجوز مرزخواي لنفسه بالقول المعروف عند الأديغة في العلاقة بين الضيف والمضيف، ونهض بهذه الحُجّة. – تعال يا براغُنه، جاءنا ضيوف ونحن هنا نصدع رأس فيدور – فيدور. سنرحّب بهم، ونسلّيهم سواءٌ كانوا أصغر منا أم من جيلنا.

سأل ناقج بعدما خرج مرزخواي وبراغنه من البيت:

– من ضيوف مرزخواي يا دداي؟ هل تعرفهم؟

– ولِمَ لا أعرفهم؛ أحدهم من معارفكم، هو عبد الله أفندي التركي، والآخر قيل إنه داغستاني. تصبحان على خير، أنا منصرف إلى بيتي.

– ألا تجلس يا دداي؛ لماذا العَجَلة؟ – رجا ناقج من كان يخرج من الغرفة.

– لم يكن بأس لو جلست ولكن، كما يقول براغُنه إسلام: لا بيتَ أفضل من بيتك. ليلة سعيدة!

– من جاءنا به التركي الآن؟.. – قال ناقج ووجهه يشي بعدم ارتياحه للخبر، وبدأ يؤجج نار الموقد الآيلة للانطفاء.
– قد يكون مبعوث إمام الشيشان والداغستان، الشيخ شامل... – لم يكتم تورناو ما خمّنه.
– وماذا يريد؟ – استدار ناقج بسرعة – أتكون أنت؟ في وقتٍ يغيب فيه الأمير أسلانبج...
– ألم يبق في تامبي حابله أحد؟ – سأل النقيب ناقج كأنه غيرُ مبالٍ، ثم نصحه: اِطمئِنَّ!
– لا، لا، لا تدعْنا نغفل عن الموضوع بهذه الحجة... ألا ترى دداي كيف تسلل من الغرفة وقتَ حاجتنا إليه!نظر ناقج نحو النافذة مهموماً، والتفت إلى الباب.– لا أعرف هل نخبر ربة المنزل قجنس، ولكن كان الأفضل أن نخبر جارنا الأمير ألجري... غريب ألا يظهر أحدُ خدمِنا... تركونا نحن الاثنين في البيت وحدنا واختفَوا جميعهم...
– ألستَ من طُلب منه الاطمئنان! – نهر النقيب تورناو بصوتٍ قاسٍ حازم ناقج الذي فقد صوابه.
– ولماذا تصرخ عليّ يا كافر!.. – أغضب الصوت غيرُ المتوقَّع ناقج، ولكنه هدأ حين رأى الجلسة المرتاحة لمن نهره: – نعم يا فيدور – فيدور، فهمتُ، سامِحْني. كنت أتساءل ماذا يمكن أن يصدر من هؤلاء... هل تعرف إلى أين كنا وصلْنا حين اقترحتُ عليك الهروب؟..
– لا داعي لهذا الكلام، – قال الضابط الأسير الذي كان يجهّز فراشه للنوم.
– إن كان هذا رأيك فأطيعك الآن أيضاً، ولكنك ستندم...

XLVIII

كان موضوع حديث الرجال الثلاثة الجالسين في مضافة قرمرز تيمبولات هو النقيب تورناو. صحيح أن قرمرز وأسلانجري لم يصلا بعدُ إلى موقف الشجار ولكنهما كانا في شبه مهاترة. والحاج جانسعيد كان يبدو كأنه موفد من الاثنين، ولكن الأمير أسلانجري كان قد تأكد خلال سفرهما أن عواطفه مع المضيف، فكان يكظم غضبه وحميّته.

سأل حمرزقوه نفسه: " إن تعذر علينا، تامبي وأنا، العيش في الأبزاخ، بسبب السر الذي يعرفه منا هذان الاثنان جليسانا وينكشف في الأبزاخ فما حاجتنا إلى الكافر، وماذا سينفعنا المال الذي نكسبه من ورائه؟ – ما سيرفعه هذان أمامي قاله لي الجنرال زاس منذ زمن بعيد... وهما وزاس الأصهب يعرف بعضهم بعضاً... ولكنهما محتاجان إليّ على انفراد ولذا سأدعُهما يكاشفاننا بما يريدان تماماً، ولن أعاند فأحرم نفسي من المال. وسأترك الأهبل تامبي بلا شيء، لا من هنا، ولا من هناك. والآن أفهم لماذا يرفض النقيب تورناو افتداء نفسه، ولماذا لا يفتدونه... وإن هجم علينا الأبزاخ المحتدّون وقتلوه رغماً عنا؟ سيقولون: أنتم تُطعمون الكافر، وتسمحون له أن ينّجِسنا، فيسوّغون عملهم بكل بساطة... والتركي عبد الله كان قد اختفى ولكن هذا هو ما يريده. ويقال إن أحدهم جاءنا من الداغستان إن كان صحيحاً..."

– لا أعرف إن كنتما ستصدّقان أيها الزعيمان الخيّران، – قال حمرزقوه أسلانجري، – لا أرى هذا الموضوع الذي نتكلم فيه مهماً. ولكن سأقول لكما الوضع: ما دفعَني إلى فِعْل ما فعلت هو حميّتي تجاه من يغزوننا، وإلّا فمن كان بحاجة إلى الضابط الكافر؟ وإذا كان الهدف هو القليل الذي سأكسبه من ورائه فبإمكاني الحصول عليه من غارة واحدة على القوزاق. ثم ألا تعرفان طبيعة تامبي: لا يتركك دون أن تنفّذ له ما يريد.

– كأن من تأتي على ذكرهم شماعات فحسْبُ تعلق بها أخطاءك يا أمير، – قال قرمرز لحمرزقوه دون الإصرار على كلماته.

– نعم يا تيمبولات؛ إن كنت تعرف مني سراً آخر فلماذا لا تكشفه؟ – برّأ حمرزقوه نفسه وإن كان يحدس ما سيقوله له، متظاهراً بجهله.

– نحن بيننا أسرار كثيرة، ولكن لماذا أشهد على ما تخمّنه؟

– إن كان قصدُك يا تيمبولات الجاسوسَ الذي كنتم تدورون به في بلاد الأديغة فلماذا نتراشق بسرٍّ نتشاركُ فيه كما تقول أنت؟ ولكنْ إن تأملتم مني أن أكون موضع ثقة وأنتم تعرفون أني تخليت لتامبي عن هذا الموضوع فما تحمّلونني حِمْلي. ولا أظنك يا جانسعيد غيرَ مهتم بالموضوع... – قال حمرزقوه أسلانجري وما

على لسانه غيرُ ما في قلبه، واختتم: – أنتما وما تستطيعان به الاتفاق مع تامبي دون أن يظهر الي دورٌ في المسألة.
– وإن ردّ علينا بما رددتَ أنت؟ – سأل تيمبولات الضيف حالاً.
– أتساءل يا تيمبولات لماذا لا تثق بي البتّة وأنت تعرف علاقتي بتامبي؟! ردّ حمرزقوه ونزقُه يطغى عليه، ثم ضحك: – مضى أكثر من عام على جفوتنا، تامبي وأنا، بسبب الأسير الروسي... ألم تسمع يا جانسعيد ما قال لي اليوم في مضافته؟
– صحيح يا أمير وإن كنت ممن لا يحبون الشهادة. – وافق الحاج جانسعيد تيمبولات: – أنتم الثلاثة، أنت والأسير الروسي وتامبي، – يريد قرمرز أن يذكّرك دائماً بأن الخيط الذي يربطكم سينقطع يوماً ما... متى عرف الأبزاخ هذا...
– هذا أيها الزعيم المبارك، – فهم حمرزقوه ما سيقول الحاج، فقاطعه شاملاً الحاج أيضاً بكلامه، – لا يجوز أن يعرفه أحدٌ! إن كان رأيكم هكذا فسأكلم تامبي ولو أن علاقتنا واهية، بل سأهدده إن لمحت منه إعراضاً. ولكن الأفضل ألا ينشأ بيننا مثل هذا الموقف.
– الله لا يحب الحرام، ولا العداء، ولا الكذب، – اختتم الحاج سعيد بما لا يستطيع حمرزقوه قوله، مُفهماً إياه.

XLIX

مضى أسبوع على زيارة قرمرز تيمبولات للبارون روزين في تفليس. وكان تامبي أسلانبج واثقاً من أن أسيره لن يهرب في غياب الموفد الذي أُرسِل إلى روزين قائد جيوش القفقاس، فتركه يعيش في مزيد من الحرية: في الليل فحسبُ كان ناقج يتفقده. وفي النهار كان تورناو يجلس في أرض الدار يتدفّأ شمس الربيع، أو يقف على باب الدار يراقب منه دون أن يخرج. وحين يرى أشخاصاً لا يودّهم يفارقه. وما لم يكن يملّ منه هو لعبة "الباي" التي يلعبها الأطفال في الفسحة المقابلة للباب بإشراف دداي وناقج. وكان هؤلاء يتجمعون بعد الظهر في الأرض الخالية، فيلعبون حتى موعد عودة قطعان المواشي.

الأمراء الأديغة يعيشون، سواء كانوا راكبين أو مشاة، محاطين بالنبلاء والخدم. وأبواب دورهم عالية، وأفنيتهم فسيحة، وبيوتهم تشرح القلب، ومضافاتهم واسعة. ويتميزون من أبناء عرقهم بأزيائهم وأسلحتهم، وصولاً إلى أسواط خيلهم.وينفذ أوامرَهم من يشرفون على أراضي الأمير ومواشيه، ويُثنون على أفعاله. وإن كان وحيداً قضى النهار كله في المضافة: يمسح أسلحته، ويُصلح سرج حصانه. وحين يتعب فيغفو يمشي الخدم على رؤوس أصابعهم. وينهرون الديك إذا صاح، والكلب إذا نبح. ويجري كلامهم همساً. وكذلك حياة ربة المنزل. تطرز غالباً بخيوط الذهب والفضة مستعينة بالخادمات. وتخيط كيساً للرجل يضع فيه تبغه. ومتى غلبها النعاس فاضطجعت لم يسمحوا لذبابة تائهة أن تحوم في الغرفة.

أسرة تامبي التي رحلت بضع مرات وهي تخسر من ملكها في كل هجرة لم تكن تنسى أنها أسرة إمارة وإن لم تكن غنية في عيشتها. ولو حاولوا نسيانها لما سمح العبيد لهم. ولم يخل هؤلاء من حاملِ جفوة نحو الأمير ولكنهم كانوا يكتمون هذا، ويظهرون الاحترام الذي يظنون أن الله فرضه عليهم للأمير. والأبزاخ الذين عاشوا حياتهم أحراراً بلا أمراء، بل بزعامات متنفذة،لم يكونوا يرفضون أي لاجئ إليهم وإن كانوا يبتسمون من تقاليد الإمارة. ولم يكونوا يتدخلون في شؤون هؤلاء.

ولم يكن الأبزاخ يجبرون صغارهم على أن يفعلوا ما يفعل كبارهم وإن كانوا من أوائل من اعتنقوا الإسلام من بين الأديغة. وإذا كان يظهر بين الشباب أمثالُ مُحَمَّد أفندي الحاج ممن يشتغلون بالدين فقد كانوا يمارسون عاداتهم وتقاليدهم الأديغية دون أن يُقلِقهم شيء لولا أن الجيش الروسي احتشد على حدودهم. يعيشون محترِمين تقاليد العلاقة بين الكبير والصغير، ويثمنون علاقات الأدب والوقار بين الشباب والبنات. يلتقي الشباب بالبنات في الأعراس، ويتراقصون، ويتغازلون، ويحمي بعضهم بعضاً دون مبالغة كما يلاحظ النقيب تورناو.

– والله يا فيدور – فيدور دفعناك إلى الملل من هذا... – أوقف تامبي فجأة عزفه، – تتحملني لأنك لا تريد أن تسبب الحزن لي. أتظنني أعزف عليها سروراً أيها البائس؟ ليس أكثر من تنفيس عن ضيقي... سأقول لك لتعرف، شئتَ

أم أبيتَ: نحن الأديغة تعساء الحظ. نضيعُ محصورين بين بحر قزوين والبحر الأسود. لا أعرف لماذا عتب الله علينا بعدما حبانا بأجمل بقاع الأرض. لماذا تضحك؟ هل قلتُ ما لا يُقال؟

– ما يُضحكني يا أمير هو قولك إن الله أعطاكم أرضكم.

– ماذا، هل تسخر ممن ليس إلهك؟

– لا يا أمير.

– ماذا إذن؟ – ارتفع صوت تامبي الآن.

– بل لأن الأديغة لم يكونوا يعرفون الإسلام حين اختاروا هذه الأرض معاشاً لهم.

– هذا مستحيل! – صرخ عليه الأمير تامبي وحذّره: – لا تتكلمْ في ما لا تعرف!

– ليس مستحسناً الكلامُ على ما لا تعلم. ولكن جيرة تركيا لكم من الجهة المقابلة من البحر الأسود ليست قديمةً.

– متى إذن؟

– قبل القرن الذي صاهركم فيه القيصر الروسي إيفان غروزني بمدة غير قصيرة، في حدود عام 1450، في العصر الذي احتل فيه العثمانيون مدينة القسطنطينية.

– والله عجيب، ما كنتُ أسمعه هو أن الترك كانوا جيراناً للأديغة منذ الأزل، قبل الروس... هذا ما يجري معك يا فيدور – فيدور إذا استمعت إلى مواعظ عبد الله أفندي التركي... حسناً، ليست هذه مشكلة، أصلِح هندامك قليلاً، سنذهب إلى مكان ما.

– الأديغة ليس من عادتهم أن يسألوا في مثل حالتي: إلى أين؛ غير أني أريد أن أعرف.

– والله هذا صحيح أيضاً، – ضحك تامبي، – لا أدينك على سؤالك إذ أنك لست أديغياً. على كل حال ليس بعيداً، مضافة مرزخواي. سنستمع إلى النائب مُحَمَّد أمين إذ سيلقي موعظة بمناسبة شهر رمضان المقبل. لستَ مجبَراً، لا تأت إن شئت، ولكني سأُطلع من أذهب بك إليهم على أنك رجل مثقف

بتاريخ الأقوام الأخرى وإن لم تكن مسلماً. إذن يا فيدور – فيدوروفيتش، ماذا كان دين الأديغة قبل الإسلام؟ كانوا إن لم أخطئ وثنيين؛ أليس كذلك؟
– أنت مخطئ يا أمير، ما تتكلم عليه لا يُعدُّ ديناً.
– عرفت أنك ستجيبني هذا الجواب. ومع ذلك لا يزال عندنا آلهة كثيرون...
– قطع تامبي كلامه حين عاد ناقج إلى الغرفة: – حسناً إذ رجعتَ، أعِدْ ترتيب الغرفة وأشعِلِ النار لأننا فيدور – فيدور وأنا ذاهبان إلى مكان ما.
– أعرف إلى أين ذاهبان؛ ليتكما اصطحبتماني...
– كفى! ما معروفك حتى يدور بك الأمير؟ نفِّذ ما أُمِرتَ به.
نظر ناقج إلى الأسير المدلل تورناو نظرةَ احتقار وعتاب خَفِيّةً، قاصداً أن يقول: لم تدعني يا أمير أحقق رغبتي، وبشّ لتامبي:
– حسنٌ إذن يا أمير إن كان هذا رأيَك. سأشعل النار، وأسخن الماء الذي سيغسل به أسيرنا رجليه قبل النوم... – ثم غيّر ناقج الموضوع نادماً على كلماته الأخيرة التي أنطقه بها الغضب: – ولكني رأيت الأمير ألجري ماضياً في ذلك الاتجاه قبل لحظات.
– هيا يا فيدور – فيدور، لن نتأخر عن جارنا.– وبدلاً من أن ينهر الحارس على تصريحه بأن الأسير يغسل رجليه بماء دافئ، والتي قصد بها الأمير تامبي، غمغم تامبي الشكاك في سره: " انظر كيف لم يدعُني ألمجري إلى الذهاب معاً! أيكون هو مدعواً في حين لم يدعوني؟ " – من يا تُرى في مضافة مرزخواي غير الشخص الآتي من الداغستان؟
– والله لا أعرف يا أمير مَن هناك، – قال ناقج الآن متوسلاً، – ولكن تبعاً لما أخبرني به دداي فليس فيها الكثير، ربما لأنهم يقاطعون عبد الله أفندي.
– لا تصدع رأسي بمن ذكرتَ اسمه؛ ما أحوجَني إليه! مرة أخرى تسلل الداغستاني إلى الأبزاخ بحجة الأفندي... – لم يُخبِرني بقدومه إلى قريتي...
يُخيَّل إليك أن الأشجار التي عانت من الشتاء لم تنس أيام الجليد فتخاف أن تهتزّ رغم أن الربيع بدأ بالتفتُّح. ولكنك متى راقبت الغابة العظيمة التي تحيط بتامبي حابله، وأنصتَّ، أحسستَ بقلبك وبصدرك بالربيع المتناثر من خلال أصواته الخفية – العلنية – المرحة، ومن خلال القلق المحمرّ للشمس الغاربة.

– ما أجمل براعم شجرة الصفصاف تلك يا فيدور – فيدور! – توقف تامبي أسلانبج فجأة، وأشار للنقيب إليها. إنها مثل الفتاة التي تختار بين خُطّابها. وهل تعرف بِمَ أشبّهها أيضاً؟ بأسلانكوز التي تتحرق شوقاً لرؤيتك؟

– أنت على حق، شجرة جميلة تخطف منك العين يا أمير، الآن أفهم، – بادله المزاح، – لماذا تحب العزف على الربابة.

– طبعاً: العزف على الربابة والغناء والحب كلها في السياق نفسه. لهذا روحي في الربابة ولو صدعتُ رؤوسكم بها. أنتم لا تعرفونني، أنا رجل رقيق في داخلي بالقياس إلى حمرزقوه أسلانجري وإن بدت مني بعض القسوة أحياناً.

– نعم، صحيح، لحن الأغنية ينبثق من الروح. ولكنك مخطئ بشأن أسلانكوز يا أمير. لا علاقة بيننا أسلانكوز وأنا من النوع الذي في ذهنك.

– لا تخطئ يا فيدور – فيدور، أنت لا تعرف، الحب نار هائلة، أقوى من هذه الشمس التي تغيب الآن. إن لم تحذر يحرقْك وأنت تظنه يدفئك. أريد أن أسألك فأنسى. أعرف أن لا أسرة لديك في الجهة التي أرسلوك إلينا منها. ولكن إن تركت حبيبتك، ونحن أيضاً كنا شباباً، وأحرقنا أنفسنا في قصص حب كثيرة، فلا داعي للخجل، أخبِرْني، نعم، لا تستغرب، جعلني هذا الحب أصحب الكلب لأسقيه إلى أن اختطفتُ قجنس.

– وهل تجشّمت كل هذه الصعاب لتتزوج من قجنس يا أمير؟ – مازح النقيب الأمير مع شيء من الرياء.

– لماذا؟ هل تقصد أنها ليست من مستواي؟

– لا، لأنكما تعيشان متفاهمين حتى إن الناس يحسدونكما.

– ليملأِ التراب عيون من يحسدوننا، أيّاً كانوا! – أسرع تامبي خائفاً من أن تصاب أسرته بالعين، ثم ضحك. – أمزح فحسب وإلا فمن يحسد المِسنّ!

– تجاوزتما الستين للتو يا أمير، لا ينطبق عليكما الوصف بالكبر. وها هو مرزخواي الذي تجاوز الثمانين لا يزال في قوّته.

– وهل مرزخواي مهموم بأمر ما! – قال تامبي ثم علّق على جاره العجوز بطريقة لا تعرف معها إن كان جاداً أم هازلاً: – مرزخواي يشرب الحساء وينام، وحين يفيق ينهض وهو يتثاءب. لا، لا يا فيدور – فيدور لم تسمع

شيئاً. لا يقال مثل هذا، غفر الله لي، في والد مُحَمَّد أفندي. كان حارسي ومراسلي منذ طفولتي إثر وفاة والدي. والآن شهامة مرزخواي تفوق شهامة أمثالي. حسناً لا شأن لنا بالجار العجوز،صرفتَنا عن أخبار حبك باستطراداتك. إن كانت أسلانكوز الفتاة الممشوقة القوام لا تلفت نظرك أفليس الخبر الذي رويتُه صحيحاً إذن؟ هل ابنة الجنرال زاس التي تنتظرك في بروجني أوكوب جميلة إلى هذا الحد؟

– إن كنت تتكلم على ليزا يا أمير فليس عندي تعليق إلا أنها ابنة الجنرال زاس.

– الشمس التي كنت تنظر إليها يا بج غابت، ما الذي لا تشبعان إلى الآن من النظر إليه؟ – سألهما دداي الذي لم ينتبها إلى حضوره، – ينتظرونكما في مضافة مرزخواي التي يغيب عنها الحاج جانسعيد المحترم. ولكن لماذا أفتري على الأفندي القادم من الداغستان؟ أفحم الأفنديَ عبد الله التركي، جازى صاحب تلك العيون الزرقاء بما يستحق. – يقول دداي الذي رافقهما متنقلاً من أمامهما إلى يمينهما، – مُحَمَّد بن مرزخواي واقف إلى جانب قائمة الباب يرفض الجلوس ولو أنه أفندي القرية. ولو لم يكن بكر ابنه الأكبر غائباً عن القرية لفعل الأمر نفسه.

– وأين بكر؟ – سأل تامبي الذي يعرف أين هو من أجل أن يُسكت دداي.

– وكيف أعرف؟ يقال إنه في غارة على القوزاق.

الحق أنه لم يكن في مضافة مرزخواي العجوز إلا بضعة أشخاص. وقد استقبل هؤلاء الضيفين الجديدين بأن ارتفعوا قليلاً عن مكان الجلوس على طريقة الأديغة. تُرك دداي عند قائمة الباب، المكانِ اللائق لعمره، ودُعي تامبي وتورناو إلى صدر المجلس. ومن نهض على مضض وجلس هو عبد الله أفندي الذي رأى الضابط الروسي. وربما لو كانت القرية التي توقف فيها غيرَ قرية تامبي لما نهض. وبعدما تعرف على الأفندي الداغستاني وجلسا بعض الوقت يتحدثان قال عبد الله التركي مستغلاً انقطاع الحديث:

– أسيرك الكافر يا أمير هذا، ألم يفتدِه بعدُ أصحابه آكلو لحم الخنزير؟

– هل تقصد فيدور – فيدور؟ – سأل تامبي عبد الله أفندي بالاسم الذي ينادي به الأبزاخ أسيره دون أن يتوقف عند سخرية الأفندي التركي وكلماته الجارحة.
– تناديه باسم جميل، لم أعرف إن كان له مثلُه، – ردّ التركي أيضاً.
– نناديه بالروسية باسم فيدور – فيدور كما نناديك عبد الله التركي.
– تتناسون أنه ضابط كافر. الله لن يقبل منكم، – غمغم عبد الله دون أن تختلج عضلة في وجهه.
– وأنت لن يقبل الله منك إقامتك في أرض الأديغة مخفياً أنك ضابط تركي، منتحلاً صفة أفندي زائف.
ساد الصمتُ المضافة إذ لا يعرف الحاضرون ماذا يقولون أو يفعلون. ثم صحا النائب مُحَمَّد أمين موفد إمام الداغستان والشيشان الإمام شامل قبل غيره، وقال لتامبي أسلانبج كمن كان صديقه طوال عمره كاظماً رياءه:
– والله يا أسلانبج، يا زعيم الخير، لولم يؤت على ذكْرِ رفيقك الآن، ولولم تنادِه باسمه الروسي، لما ترددت في أن أعده واحداً منكم.
– من يرسله إلينا أعداؤنا الكفار هم من لهم سحنة أديغية يا موفد الإمام شامل.
– يا عبد الله أفندي، – قال مُحَمَّد واضعاً النبرة على "أفندي"، – لا تدعونا في مستهل شهر الصيام نتكلم في موضوعات تثير الفُرقة والعداء. الأفضل أن نقرأ "قل هو الله" و"ألحم[1]" دعونا، إذ بيننا الأفندي الغريب، دعونا نقرأ القرآن الذي أنزله علينا الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد، فلن يضرنا. الله لا يميز بين الناس الذين انضموا إلى أمته بعلمه تعالى.
– سامِحني أيها النائب الذي يقدّره الأديغة كلهم على مقاطعتي لك، – قال عبد الله الذي كان يتميز غيظاً بنبرة ألطف الآن، ضابطاً أعصابه، وسأل: – لماذا هاجر النبي مُحَمَّد من مكة إلى المدينة حامياً نفسه من الكفار؟
– مَن هؤلاء الكفار؟ – سأل أحد الشباب المتجمعين أمام الباب.

[1] يقصد: سورة الفاتحة.

– ومن يكونون؟ – أجاب عبد الله سريعاً بالجواب الذي يريده، – أليسوا واضحين، – هم الروس.
اتجهت أنظار أكثر الحاضرين إلى الأسير، وقال له أحدهم بغضب:
– هل تسمع؟ كنتم أعداء النبي مُحَمَّد!
– وهل مكة والمدينة في نواحينا؟ سأل النقيب تورناو عبد الله التركي.
– هم في جهة الجنوب، – أجاب عبد الله معتداً.
– وأين يعيش الروس إذن؟ سأل النقيبُ التركيَّ بلامبالاة، وأجاب بنفسه: – هم في جهة الشمال. هم يعيشون منذ الأزل في تلك الأنحاء.
– لا تصدِّقوا كلام الكافر! – غضب التركي عبد الله. – ربما كانوا من قوم الكفار الذين ضيّقوا على نبينا الخناق. هؤلاء، أيا كان أصلُهم، أعداؤه ولذلك نحن أيضاً أعداؤه[1]. – حين صرخ عبد الله التركي: الله أكبر! ردد الحاضرون وراءه إلا النقيب تورناو بأصوات مؤتلفة ومختلفة.
– لا إله إلا الله! ردِّدوا ذكر الله العلي العزيز! فاجأ النائب مُحَمَّد أمين الحضور بهذا الطلب يريد أن يضع حداً للجدال في الغرفة. ولما كان الأسير الروسي هو الوحيد الذي لا يردد الذكر طلب النائب التوقف وقال لأسلانبج: – لماذا أيها

[1] "توجب عليّ مرة أن أستمع إلى ضابط تركي " أفندي ". تروي إحدى سور القرآن كيف ألجأ الكفار مُحَمَّداً النبي إلى الهجرة إلى المدينة. سأل أحد المستمعين: " من كان هؤلاء الكفار؟ " أجاب التركي بلا تردد: ومن سيكونون: الروس، أليس واضحاً. نظر إليّ الحضور وكلهم مسلمون. تهامس بعضهم، أرأيت أيها الروسي؟ كنتم أعداء النبي أيضاً. فسألت الموفد التركي: " أين يقع قبر النبي مُحَمَّد؟ أشار إلى الجنوب، والروس أين؟ في مكان آخر، في الشمال. تبادل الشراكسة النظرات لا يعرفون تفسير ما يسمعون. سألتُ التركي ثانية: كيف حدث إذن أن يطرد الروس الذين يعيشون في الشمال مُحَمَّداً من مكة في الجنوب؟!
وجد التركي جواباً فقال عابساً غاضباً : لا تنغرّوا بخبث الكافر! – من كانوا يطاردون مُحَمَّداً إن لم يكونوا روساً فهم إخوتهم. كل الكفار ينتمون إلى أسرة واحدة. يكرههم الله كلهم على نفس الدرجة. ويحافظ على وجودهم على الأرض من أجل أن نكفّر عن سيئاتنا عبْرهم... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

الأمير يجلس الضابط الروسي وحده أبكم بلا ذكْرٍ؟ الله يعتبره ذنباً علينا. أرسِلْ هذا التعيس إلى البيت!
– والله أنا أيضاً خطر لي هذا أيها الضيف، – نهض تامبي راضياً، – إن سمحتم لي فسأعيده إذ أني أنا من أتى به. تعال يا فيدور – فيدور!
– وأنا تركت البيت خالياً، عائدٌ معكم... – تبع دداي الرجلين الخارجَين من المضافة.

L

اليوم آخرُ أيام رمضان، يوم العودة إلى الإفطار.
يخيم الليلة لأول مرة منذ شهر على تامبي حابله رائحة شواء لحم طيبة، وهي التي لم يذق فيها أحداً طعاماً ما بين السحور والإفطار طوال شهر كامل إلا الأطفال. وفي كل مكان من القرية المختبئة وسط الغابة تصدح أصوات المرح: مجموعات الأولاد تلعب لعبة الطميمة، والصبايا يغنين على الأراجيح. والأحصنة المربوطة إلى أعمدة المضافة تصهل أحياناً. ومن هنا وهناك يرتفع فجأة نباح الكلاب. والمسنون الجالسون على جذوع أشجار أمام أسوار بيوتهم مهمومون أكثر من ذي قبل بالقلق الذي يخيم على بلادهم. لا تهُمُّهم أشخاصهم بل يفنيهم القلق على المصير الغامض الذي ينتظر هؤلاء الصبيان والصبايا.
جاء العيد إلى تامبي حابله بصباح صافٍ. وكل أسرة، غنية كانت أم فقيرة، مائدتها عامرة بألوان الطعام: لحم الدجاج، ولحم المواشي المسلوق والمقليّ، والشلامه والبرك، والجبن الطازج، وأكواب العسل. ولا يسمحون للأقارب الذين يدعون لهم أن يتقبل الله صيامهم بالانصراف دون أن يذوقوا من المائدة. الناس الذين يتناسون قلقهم وخوفهم وأحزانهم، يلبسون ثياباً نظيفة، وينشرون المرح في كل مكان.
دخل تامبي أسلانبج إلى الغرفة مرتدياً كساءً من صوف الخروف من لون القبعة، عليه ظروف الرصاص المتلامعة، إلى جانبه سيف فضي، منتعلاً حذاء من الجلد الناعم، وسأل تورناو الجالس إلى المائدة وليس على وجهه أيّ أمارة على الفرح:

– أراك يا فيدور – فيدور وحدك، وما أشد حزنك! وأين ناقج؟
– لا يا أمير، لستُ حزيناً،– نهض النقيب على عادة الأديغة الذين وقع بينهم، وقال لتامبي: – تفضَّلْ!
– سأجلس، ولن أدعك وحيداً على مائدة العيد. وأنا سأدعو لنفسي بنفسي أن يتقبل الله صيامي، بغضِّ النظر عما ستقول أنت. – وبعدما أمسك بقطعة الخبز غمسها في العسل، ثم دعا، ليس لنفسه فحسبُ، بل لكل الأديغة المسلمين. لم يماطل في المناورة حول أسيره: – ما العمل إذن، هذا يحتفل بعيده، والآخر عنده ما يحزنه... في الأيام الأخيرة لاحظت على ناقج أموراً لم تعجبني، أيكون أساء إليك؟
– ناقج بعيد عن الشكوك في مثل هذه الأمور يا أمير. قبل دخولك بلحظات ذهب ناقج وددداي لتهنئة مرزخواي.
– وهما كانا جاءا إليّ للتهنئة. تعال، وهل عجيب إن لم يكن اليوم عيداً للروس. ولماذا تبقى في البيت وحيداً! تعال نهنئ ألجري.لا أحد في حينا لا يعرفك ولذا سنجعلهم يقولون: جاءنا الأمير تامبي وتورناو الضابط الروسي. متى عاد قرمرز تيمبولات من تفليس رأيت كيف تنحل أمورك بخير يا فيدور – فيدور. لا تسمعْ كلام أمثال حمرزقوه أسلانجري، والتركي عبد الله أفندي. ونقار زعيم العامة الفلاحين يقول الكثير؛ لا تهتم بشيء مما يقول كل هؤلاء. ألجري الذي سأصطحبك إليه ليس سيئاً بالقياس إلى صديقي حمرزقوه أسلانجري، ولكنه خبيث. مِن بين القريبَين من آل حمرزقوه أنا ميال بقلبي في الواقع إلى عادلجري الذي صاهر الأمير قانقوه. أقول هذا ولكن لم أره منذ وقت طويل. ربما أزوره فور انتهاء العيد... – ضحك تامبي فجأة.
– ما الذي يُضحكك يا أمير؟ لا أظنه عادلجري.
– انتبهتَ إليّ، ليس عادل جري، بل ناقج، حين سألتُك عنه كان جوابك بأنه يتصرف معي كما تتصرف أنت: يقولون: لا يرقص أحد مع آخر مختلف عنه، صحيح أنت وأنا مختلفان عنهم، غير أن هذا المسكين مخلص لي جداً، وأنا أرعاه لأنه وحيد بلا أسرة. ولكن إذا فقد احترامه لك بحُكم علاقتكما أمكنني أن أردعه.

– لا، ابتسم تورناو في قلبه، – لم نصل بعدُ إلى هذا الحدّ. ولكن المسكين قلقٌ إذ سيبقى عاطلاً عن العمل متى افتدَوني.

– ليتهم افتدوك وأنا ما كنتُ أتركه عاطلاً... والله يا فيدور – فيدور إن أردت الحق فأنا قلقٌ على تأخُّر قرمرز. ولكننا لن نسمح للخواطر السيئة أن تغزو رؤوسنا في العيد السنوي الوحيد. إن عاد هذا من حيث سافر، وإن كان طريقه صعباً، بخبر سارٍّ ارتاحت نفسي، وارتاح أيضاً حمرزقوه الذي يتهمني بإهمال موضوعك... الحق يا فيدور– فيدور لماذا نحن قاعدان؟ ومن نمتدح ونغتاب؟ ولماذا لا نذهب إلى حيث قررنا؟ لو لم يكن حمرزقوه أسلانجري أكبر مني ببضعة أيام لما زرته، بل طلبت منه أن يزورني. ولكن من تأسُره تقاليد الأكبر والأصغر الأديغية هو أنا.

– رغم أنك أمير القرية، واسمك على الألسن؟

– يمكن أن تقول الكثير في شأن الإمارة الأديغية يا فيدور – فيدور. ولكنهم سيخافون منك حين تتكبر على رعاياك وتتعالى، ولن يحترموك. وهل تظنني مَن وضع للأديغة هذه التقاليد؟ وهذا جزء من شِرعة الأديغة (أديغة خابزه) التي تحافظ على وجودنا طوال قرون. ولكن لا أزعم أننا نخلو من الظلم والخبث والغيرة والدسائس. وإن كانت القضية حرمانك من الحرية فإنه لم يجر لك ما لم تجْنِه أيديكم. يحدّثني قلبي أن موضوع افتدائك سينحلّ في تفليس. ولكن، – ارتفع صوت تامبي فجأة وهو الذي كان يتحدث بمرحٍ إلى الآن، – إن لم ينحل في تفليس فسأحيل القضية إلى رجال الدين. وسنتصرف معك تبعاً لما يقررون. لا أقول هذا على سبيل التهديد بل أقول الواقع. – غضب تامبي حين سمع الصوت القادم من جهة باب الغرفة، – انظر ما يجري، لن يدَعوك تتكلم... تفضَّلْ، تفضّلْ يا أمجري! كنا نوينا قبل لحظات أن نأتي إليك فيدور – فيدور وأنا.تقبّل الله صلاتك وصيامك يا جاري الأكبر!..

– حياك الله يا أمير، وتقبل صلاتك وصيامك أنت أيضاً! وأنت يا فيدور – فيدور تُقاسمنا عيدَنا بالخير ولو لم تكن حراً في شيء. إن شاء الله نراك عدت حراً! عدتُ العشيةَ من ضفة نهر وارب فحمّلني عادلجري سلامه إليك يا أمير.

– وعليكم السلام، شكراً لك. ما أحوال عادلجري إن شاء الله؟ وماذا يجري في تلك النواحي؟

– لا يزال في صحة جيدة كما رأيتَه آخر مرة. وإلى الآن لا ينسى ما جرى لوالده وإن لم يستطع الإفصاح تماماً... لا، لا أقصد أنه تعادى هو أسلانجري بعدما صالحوهما. يتزاوران وإن قليلاً. ويحافظان على علاقاتهما... هذا انطباعي عن عادلجري... والناس الذين تسأل عن أحوالهم مثلُنا. هم في حيرة إذ لا يعرفون ما سيحدث لهم غداً. لا نزال نعيش في الدنيا التي نَتَنازعُها بيننا. ألا أقول الحق يا فيدور – فيدور؟

– إن كان شخصي هو المقصود أو شخصك فقد يكون صحيحاً، – قال النقيب تورناو على نحوٍ لا تعرف المقصود بالكلام، واختتم: – لم تبدأ المسألة بنا.

– مهلاً، مهلاً يا فيدور – فيدور. ألم نتفق على أن يكون في قلبنا الخير في يوم العيد هذا؟ إذن إن أيّدَنا ألمجري فسنزور مرزخواي لأنه الأكبر سناً متجاهلين كونه والد مُحَمَّد أفندي. – صافح تامبي وهو ينطق بهذه الكلمات مرزخواي الكبير وهو يبشُّ له دون أن ينسى سبب ذِكرِه داور ألمجري، متجاهلاً العلاقة بين أسلانجري وعادلجري.

LI

قد يكون قولُهم: يوم السعد يتلوه يوم النحس، صحيحاً. بعد مضي أسبوع على العيد قامت في قرية تامبي حابله ضجة ومأساة: وصل إلى أهل القرية خبرٌ مفادُه أن الجنرال زاس يجتاز بالجيش نهر شحغواشه. هبّت القرية المستعدة لأي مأساة. العربات المحمَّلة بالأثاث وبالطعام يركب فيها الأطفال والنساء والمرضى. والفرسان المسنون الذين لم يعودوا قادرين على مجابهة العدو يسبقون العربات أو يسيرون وراءها أو على أجنابها. والأسير المقيّدة يداه جالس في ذيل عربة الثيران. وناقج المسلَّح ببندقية يمشي وراء تلك العربة بمسافة قصيرة. كان الناس معتادين ظاهراً على الهجرات الكثيرة التي شهدوها في السنين الأخيرة ولكنهم

يكتمون ما يعتمل في قلوبهم ويسيرون صامتين فلا يُسمع إلا صرير عجلات عرباتهم. بل إن الكلاب التي تتبعهم نسيت النباح فتجاريهم في رحلتهم[1].

سأل النقيب تورناو نفسه قلقاً:" أيكون صحيحاً يا تُرى خبرُ عبور زاس بالقوزاق نهر شحغواشه؟ – أهُم القوزاق أم الجيش الروسي؟ إن كان الجيش الروسي فهذا يعني أنهم اقتحموا أرض الأبزاخ مقاتلين. وهذه الحملة ليست من مبادرة الجنرال زاس. إن لم يصدر أمرٌ من سان بطرس بورغ فليس من صلاحيات تفليس ولا ستافروبول إطلاق مثل هذه الحملة. والقوزاق لم يصلوا في غاراتهم إلى هنا. ألا يكفيهم إقليم لابا؟ وإن كنتُ من يبحثون عنه فمجموعات الفرسان المنطلقة من القرى لن تسمح لهم بالوصول إلى مضيق قجبس... بالإضافة إلى أن زاس الذي أرسل تيمبولات إلى تفليس لن يفعل هذا. في هذه المسألة يجري شيء لا يعرفه الأديغة. أيكون خبراً كاذباً؟.. لو لم يكن هناك خطر داهمٌ لما رحلت القرية. وإن انتقم مني هؤلاء متهمين إياي بأني سبب المأساة؟! أستحق إن تصرفوا معي هكذا. حدث معي الأسوأ وأنا أنتظر الأحسن!.. "

– يا ناقج، لا أرى المسكين دداي، أين هو؟ سأل تورناوُ حارسَه.

– بقي في القرية. ألا تعرف طبيعته؟ لم يقبل الخروج قائلاً: لأقضِ على يد من قتل والدي وتسبب في موت والدتي!

– كان عليكم ألا تسمحوا لدداي بهذا.

---

[1] "في أحد الأيام،وقد اقترب المساء، وتامبي غائب، قامت ضجة غيرُ مألوفة في القرية: سُمعت من كل الجهات صرخات تقول: الروس يهاجموننا. أركَبوني في عربة ثيران بعجلتين. كانوا يقتنون كثيراً من هذا النوع من العربات، وفيها تجلس النساء يغطين رؤوسهن بأغطية بيضاء. وعلى عادة الناس في المشرق لم تكن العجلات مشحمة، وكنا نسير في طريق سيء مغطى بكتل طينية فتصدر العربات صريراً حاداً. وكنا نسير والفرسان والمشاة الأديغة على جانبينا. سرنا طوال الليل. وقبل الفجر توقفنا عند ساقية صغيرة تجري في وهدة سحيقة. بنينا أولاً مآويَ للنساء والأطفال مستفيدين من أغصان الأشجار والأكسية والبسط الأرضية والجدارية. ثم بدأنا بتحضير لوازم الأمير... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– وهل كان يسمع كلامك؟! – غضب ناقج وهو ينقل البندقية إلى الجانب الآخر. و أضاف بعدما مشوا مسافة وهدأ غضبه: أقول هذا ولكنه ليس وحده. تعهد عدد من مسني القرية الذين تكفلوا بحماية القرية من المجرمين اللصوص برعايته.

– لا بأس إذن. لا أرى مرزخواي بين رفاقنا المسنين فلا بد أن يعتني به.

– ركب مرزخواي وبراغُنه مع الفرسان المتجهين لمجابهة العدو.

– ألا يمكن فكُّ يدي هذا البائس؟ سألت قجنس الجالسة في العربة ناقج لائمةً.

– يمكن، غير أني أنفذ تعليمات الأمير أسلانبج. – أجاب ناقج مخفياً سروره بما سمع.

– نفّذ أيضاً شيئاً من كلامي أنا. لن يهرب إن أُخرِج من العربة. دعْه يروِّض رجليه. ولو أعطوكما فرساً لكان أفضل.

– إن كان هذا رأيك يا سيدة البيت فسأحرر يديه. ولكن لن أقبل ولو سعيتِ لنا أن يعطونا حصاناً. – أجاب ناقج معتداً بنفسه، وهمس في أذن الأسير لائماً وهو يفكّ يديه: – لأجل هذا كنت عرضتُ عليك الهروب معاً. انظرِ الآن ما جرى لنا... فكِّرْ؛ لم يفُتِ الوقتُ بعدُ.

– لا، مصيرنا مصير رفاقنا...

– ألستَ من طُلب منه ترويض رجليه؟ – نهر الآن ناقج أسيره غاضباً منه.

بدأ الجو يتبدل بعدما غابت الشمس: زادت السحب التي احتلت السماءَ الغابةَ ظلاماً على ظلام. والريح تتلاعب بأعالي الأشجار فيعلو حفيفها في الفضاء، وتُسقِط منها الأغصانَ الصغيرة اليابسة. وشيئاً بعد شيء يتحول الرذاذ مطراً.

العربات المبللة بالمطر الذي لم يهدأ طوال الليل توقفت مع الفجر عند سفح الجبل الذي قطع طريقهم. وفي " تحَمز" التي تكثر فيها المخابئ ارتفعت أصوات الناس: حتى الأطفال والمسنون ليسوا بلا عمل. الجميع مشغولون بصنع العرائش التي سيقيمون فيها ريثما يعودون إلى القرية. الكبار يحضّرون الأوتاد والأعمدة. والأصاغر سناً يقطعون العصيّ، ويأتون بالحشيش من ضفة البركة.

– لماذا أنتما عاطلان عن العمل؟ – نهر أحد المسنين ناقج وتورناو بعدما رمى عن ظهره حِمْل الأعمدة. – هيا ساعِداهمَ!
– وأين أذهب بفيدور – فيدور؟ ماذا إن هرب؟
– أيُّ فيدورُ – فيدورٍ تدللونه الآن! نهرَه العجوزُ الضئيل العاجز عن ثنْيِ ركبته اليمنى. – هذا ضابط كافر! لِيهربْ إن كان مستغنياً عن روحه. لا غريب يحمي تحَمَز.وهل من مهمتي تحليل موضوع الجاسوس؟ هؤلاء لم يكفِ أن شوّهوا رجلي فها هم الآن يلاحقوننا! هيّا احمل هذه الخشبة قبل أن أكسر على رأسك هذا العمود يا سليل الكلاب!
– إن كان هذا رأيَك يا حسن حمْلته لك.
– وهل تعرف اسمي؟ – سأل العجوز راضياً بنطق اسمه.
– لا أظن أحداً في تامبي حابله يجهل اسمك يا كبير، – امتدح النقيبُ تورناو العجوزَ الذي رآه قبلُ، – سمعتُهم يذكرونك كثيراً.
– ولماذا لا تسمع! هل تتوقع أن أتقاعد عن القتال لأنكم شوّهتموني في القبرتاي[1]؟ هيا يا ناقج احمل أنت أيضاً أحد الأعمدة التي نجَّرَها المسنون، وأنا سأحرس أسيرك.
انتصبت الملاجئ في تْحَمَز بفعل الرجال الذي عملوا دون أن يوقفهم المطر الهاطل نهاراً وليلاً.وفي بعض تلك الملاجئ وطّنوا الصبايا والنساء. وفي البعض الآخر الصبيانَ والرجال المسنين.
– لماذا لا تنام؟ سأل النقيب تورناو ناقج.
– أحرسك لأني لا أعرف كيف ستتصرف. – مازحه ناقج النائم على مدخل ملجأ أسرة الأمير.
– لا تُؤذِ نفسك لهذا السبب، نَمْ، لم نهدأ طوال النهار. ألم تسمع تعريض العجوز حسن لنا بأن لا غريب يحمي تحمز؟!
– وهل أنا مهتم بكلام العجوز حسن، هو يقول ما يريد وأنا أفعل ما يجب. هل تعرف يا فيدور – فيدور ما سيفعل بي تامبي وحمرزقوه إن هربتَ تاركاً إياي

[1] العجوز في هذا الحوار يتكلم بلهجة القبرتاي.

وحدي غيرَ واثق بي؟ – سأل ناقج هامساً، واختتم: – أنت لا تعرف طبيعة هذين الرجلين بعدُ... سيربطانني إلى الحصانين ويمزقانني...

– كفى، لا يخطر لك مثلُ هذا. ولكن ما يقلقني شيءٌ آخرُ. لا أصدِّق أن الجيش الروسي عبَرَ شحغواشه، بل حتى نهر لابا... لا يحدّثني قلبي أن مثل هذا الأمر صدر من نواحينا. كيف سنهاجم الأديغة قبل أن ننتهي من الشيشان والداغستان... – لام النقيب تورناو نفسه بنفسه.

– ما الأمر؟ – أسرع ناقج قائلاً، – أليس القبرتاي الذين أنا منهم أديغة؟

– نعم، أديغة. – أجاب النقيب قائلاً في نفسه: انظر ما الذي انتبه إليه هذا! – ولكن وضْع القبرتاي مختلف.

– تخدعوننا بهذه الحجة، – ردّ ناقج بغضب وقد جلس، – اهربْ إذن بهذه الحجة وسأجعل القرية كلها تلاحقك!.. – ورجاه بعدما جلس قليلاً وهدأ: – كفى يا رجل، تدفعني إلى أن أقول ما لا فائدة فيه.

– حسناً، حسناً، – رضخ النقيب لتلميح ناقج، وعاد فلامه: – ولكن احرص على كلامك... – دعْنا ننام، أمامنا غداً نهار ثقيل.

– ألا يمكن لهذا النهار الثقيل أن يأتي الليلة، لا غداً؟ حسن الأعرج يركب حصاناً جيداً... لا تقول شيئاً؛ ألستُ موثوقاً؟

– ألم أطلب منك أن تنام؟.. لن نفعل هذا في هذا الوقت العصيب على تامبي حابله!.. – انقلب تورناو على جنبه الأيسر قبل أن يكمل كلامه.

– لا تجده لائقاً، صحيح؟ – رد ناقج على الأسير بسرعة، وتمتم: – سترى ما يفعل بك من تشفق عليهم!

"ربما كان في كلام ناقج شيء من الصحة..." – لم يكن النقيب يستطيع النوم رغم تعب النهار كله. كانت الأشهر الثمانية الأخيرة من أَسْره حافلة بالأفكار. بل يمكن أن تقول: الأعوام العشرون التي يتذكرها هو مِن أعوامه الستة والعشرين التي عاشها. عمر الإنسان قصير، ولكن ما يمر به من مشاقَّ أكثر... " لم أتوقع أن يحدث لي ما حدث،ونحن نردد: " ارضخ يا قفقاس، ها هو يرمولوف قادم! " لا تجري أمورنا في شمال القفقاس التي تعيش فيها أعراق كثيرة

من البشر كما يتخيل المسؤولون في تفليس وستافروبول[1]. إذا كان سكان غروزين وأرمينيا مسيحيين فأغلب السكان هنا مسلمون. والأديغة الذين باعتهم تركيا للروس على ورقة لا تزال تطمع فيهم، وترسل إليهم أمثال عبد الله "أفندي" والنائب سليمان[2]... وإذا سألتهم عما إذا كانت القرى الأخرى هاجرت أجابوني: ومن يعرف؟ كلٌّ مهموم بقريته. وماذا يفعل زعيم عامة الأبزاخ حجرت نقار إن لم يتابع مثل هذه القضايا؟! هو ماهر في التحدث إلى المؤتمرات، وفي حضور المآدب، واتركْه يجري إلى بروجني أوكوب مدعياً أنه لا يخاف من أحد، ودعْه يدخل إلى ستافروبول ويغازل أرامل القوزاق، ويُقاسم غنائم المغيرين عليهم!.. لم أكن أصدِّق حين يقال إن كلَّ عرق من الأديغة، وكلَّ زعيم عرق، بل كلُّ قرية، تتابع قضاياها فحسبُ، ولكني عاينتُ الأمر بنفسي. مِن صالحِنا أن يكون الأديغة بهذه الحالة من التشتت. ولكن إن وجدوا من يسمعون كلمته، ويؤسس فيهم الوحدة فسيصبحون قوة عظيمة تجابِهُنا. حتى حَسَنٌ العجوز الأعرج الصغير استطاع أن يُخضِعنا اليوم. وأنا ماذا؟ أنا أسيرٌ، وفي موقف عليّ أن أنفّذ فه كلَّ ما يُطلَب مني. وأبناء تامبي حابله؟ هؤلاء تزعّمَهم حسن فشغَّلهم ولم يوفّر بحقهم كلاماً. وناقج يهمس في أذني واثقاً أننا في موقف مناسب جداً للهروب... أنا إن فعلتُ هذا أيّدني من يسمع الخبر، أما أنت فتبقى موسوماً بالخيانة إلى الأبد... أفهم أنه أبْترُ من الأقارب، ويتأمل مساعدتي. ولستَ وحدك من يطمع فيّ، بل أفهم أنه حتى تامبي وحمرزقوه يتأملان مني شيئاً. الأمل الوحيد لي هو قرمرز تيمبولات ولذا سأتصرف وفق الخبر الذي سيحمله لي من تفليس... أنا أحب الحرية كما تحبونها أنتم. لا تضربوا لي براغُنه مقياساً، أقول هذا ولكن الناس لا يولدون متشابهين... مهما كان براغُنه يتمتع بالرجولة فقد سمح بنفسه للمصيبة التي أصابته أن تفنيه. وكما يقول فربما كان محظوظاً بأسرته وأولاده، ولكن لا أصدّق... "

---

[1] الشعر لبوشكين. ويرمولوف القائد الروسي الدموي الذي أخضَعَ القفقاس.

[2] نائب داغستاني سبق النائب مُحَمَّد أمين إلى القفقاس، واتُّهِم بالعمالة للروس.

– هل أنت نائم يا فيدور – فيدور؟.. – سأل ناقج ثانية وهو بين النائم وغير النائم.ثم عاد فغرق في النوم.

" وهذا المسكين نحن من جئناه بمصيبته... – تابع تورناو تفكيره، – اطمئن! لن أهرب متجاوزاً إياك. لا أعرف إن كان يريد أن يتجه إلى نواحينا مثل ما فعل براغُنه نحو الأديغة. أيكون والداه على قيد الحياة؟ قد يجدهما وإن كانت روسيا واسعة. لو عادت إليّ حريتي لساعدته... "

– والله أنتما كسولان، – أزاح حسن العجوز،وهو يقول هذا، الكساءَ المبلول المتدلي من سقف مأوى الإمارة.

– من هذا؟ وأين الجاسوس؟.. – قفز ناقج من فراشه.

– أنا هنا، لم أغادر إلى أي مكان، – خرج تورناو من الزاوية يجفف يديه ووجهه.

– أجفلْتُ ناقج، أنت بالقياس إليه يا فيدور – فيدور رجل نشيط.– الآن نطق العجوز حسن لأول مرة منذ البارحة اسم النقيب على نحو صحيح. – حطبُ نارك جاهز.

– لا أزعم أني أحب النهوض باكراً، ولكن أتصرف كما عوّدوني في الجيش. – لم ينم حارسي طوال الليل، ولذا قد يكون استرسل في النوم قليلاً.

– هذا صحيح، – قال ناقج، واستدرك: أحسست بك حين خرجتَ من كوخ الإمارة، ربما جئتنا لتعمل معنا يا حسن، نسمعك.

– البطالة تجعلك كسولاً يا ناقج. – العجوز أرسلت لكما هذا اللحم المجفف فذوقا منه لنتابع أعمال البارحة. – سأل خانَ التي جاءت بصحن مغطى: – وأنت ماذا جلبت لنا يا ابنتي الصغيرة؟

– هذا أرسلته معي أسلانكوز لجماعة ناقج، هنيئاً يا فيدور – فيدور،– سلّمتْ خان الطعام لناقج وانصرفت.

– توقّعتُ ألا تسمح لكما نساؤنا الرؤوفات بأن تجوعا... – دفعت أصوات الخيل القادمة العجوز حسن إلى الانتفاض برأسه. – من هؤلاء؟ لن يأتي إلى هنا من لا يعرف بوجودنا. هما بكر وإسلام. ومن طريقة امتطائهما الخيل يبدو أنهما لا يحملان خبراً سيئاً.

– لا داعي للخوف يا أمير، – قال بكر. – حين رأى المخوش مجموعة فرسان قوزاق على ضفة نهر لابا ظنوا أن الجيش الروسي قادم فاستنفرونا. في نواحينا يسود السلام. أرسلنا الأمير أسلانبج لتعودوا إلى تامبي حابله.
جهز الأبزاج المعتادون على الرحيل منذ الأزل للرحيل، واتخذوا الطريق بمزاجٍ غيرِ ما كان عندهم قبل يومين.

LII

آل حمرزقوه، أسلانجري وعادل جري صالحوهما في المؤتمر،ولكن غُشَفج لم تجد راحةً في أسرتها.
– كيف تسامح من سفك دم والدك؟! – لا تقبل ما فعل زوجُها ولو مضت على المصالحة شهور. – قال لك اغفرْ لي إذ قتلتُك؛ أليس كذلك؟ وهل كانت مشكلةً لو لم أكن أنا السبب في ما بينكما؟.. سيبقى دم حمي وصمة عار أبدية في جبيني وفي جبينكم ولو تصالحتما. الثأر لا يكون ثأراً دون دم!..
– أنا لم أنس شيئاً يا غُشفج، – قال عادل جري للمرأة، – ولكن لا أريد أن أتخلق بالقسوة التي لم تكن فيّ إلى الآن، ولا أن يقول الناس إن آل حمرزقوه يتفانون.
– تصالحتما وكل من يسمع يسخر منا...
– لا تعيّرينني بما لا أستحقّ، ولكن لا تطلبي مني يا غشفج ركوب حصان بلا سرج ولا رِكاب!
– لا أحرِّضك بل أذكّرك.
– من يُهَنْ يجد فرصة للانتقام.
– هل أنت واثق من لُوَ ممت – جري وقرمرز تيمبولات؟
– ليس الارتياب من طبعي.
– وتامبي؟
– هذا يتابع مصالحة الخاصة. متى انتهينا من موضوع قريبي المجرم قاتِلِ والدي فسيكون قرمرز تيمبولات خصيمه – أمله. أليس ما تحدثنا فيه من موضوع ليس من شأن النساء كثيراً عليك يا حلوتي؟ – تظاهر عادلجري بممازحة المرأة وهو يجهز نفسه.

– أنا من كانت السببَ في مأساةِ آل حمرزقوه، والعارَ الذي لحق بآل قانقوه فأذنْ لي أركبْ معك!

– لم يصل موضوعي إلى هذا الحد يا ابنة آل قانقوه!– احتدّ صوت عادلجري،

– لا أزال لابساً قبّعةً، ولن أبدّله بغطاء رأس امرأة. ومن أجل أن تصدِّقي سأجعلهم يضعون رأسه أمامك!

– أحسنتَ! ولكن الأفضل أن ترسله إلى المرأة المتمردة التي لم تُضِف أحداً إلى آل حمرزقوه.رافقتك السلامة، وحقق الله لك نيتك! سأكون معك بقلبي وروحي.

– أنا لن أذهب بعيداً. سأدعوه أن يتفضل إلى بيتنا إذ ينتظرني على ضفة نهر وارب مع مجموعة من الفرسان. وسأستضيف معهم الأمير لُو ممت – جري الذي سألتِ عنه، وأمير النغوي سيت، مُري أن يجهزوا لنا مائدة ممتازة!

كانت الليلة الصيفية حارّة فهجر ضيوف عادلجري الغرفة وجلسوا في أرض الدار تحت ضوء القمر. وأسلانجري الأكبر من عادلجري بسنة واحدة على رأس المائدة مطمئنّاً. وعلى يساره سيت الذي سُرِق منه مئة حصان هذا الربيع. وممت – جري على يسار المضيف. ويكتم الأربعة ألمهم: يشربون الباخسمه، ويتبادلون الأنخاب، ويأكلون من لحم الغنم المسلوق والمشوي. ولا يدَعون البرك الساخن يبرد، ولا يُبقون على القشطة واللبن. والجالسون إلى المائدة العامرة يصلون بأخبارهم القريبة – البعيدة إلى بروجني أوكوب وستافروبول وتفليس وسان بطرسبورغ. ولا يملّون من تكرار أخبار القوزاق. ويقلقون لِما يجري في الشيشان والداغستان. ولكنهم لا يهتمون بانعدام الوحدة بين أعراقهم.

– والله حزنتُ لأجلك يا سيت، ولستُ وحدي بل كثيرون مثلي. القوزاق سرقوا قطيع خيلك، – واسى أسلانجري أميرَ النغوي، – أصحاب القبعات الحمر ارتكبوا جريمة.

– جرى لي هذا في فصل الربيع يا أمير، – ضحك أمير النغوي في قلبه قائلاً: " اسمع ماذا يقول! كم هو عديم الشرف؛ يتهم القوزاق بفِعلته دون حياء "، – ولكن من سرق الخيول ليسوا مَن سَمَّيتهم.

– هذا رأيُك يا أمير؟ – هل أفتري عليهم كما يُتَّهم الذئب بما افترس وما لم يفترس؟

– ما الفائدة من أن تتهم أحداً دون أن تمسكه بجرمه... – سنجمع قطيعاً جديداً إن عشنا. ليس هذا مشكلة. دعونا نتكلم في هذه الليلة الجميلة في ما يشرح القلب!

– والله هذا أيضاً صحيح، – قال أسلانجري مصدِّقاً نفسه أنهم لا يشكّون فيه. أخطُب متمنياً أن نعيش والحب ينير قلوب الأديغة والأباظة والنغوي؛ ولو أن الجمع الذي ينتظرني في الغابة لا يستمتعون بهذه الليلة الجميلة. ولْيعش القوزاقُ، ولكن توقّفْ يا ممت – جري عن إدخال هؤلاء إلى أرضنا! أوقعتمونا تامبي وأنا في ورطة من خلال الجاسوس الروسي. ليتهم أبعدوا هذا المسكين من عندنا!

– ألا يمكن أن تُطلِقوا سراح مَن تشفقون عليه؟ – سأل عادلجري مع علمه بما سيجيب به.

– لن نتأخر عن هذا يا أخي الصغير. ولكن هل نحن أحرار في ما نفعل؛ هل يقبل منا الأبزاخ؟ كنا أطلقنا سراح من صار رفيق طريق لممت – جري ولكن الضابط الروسي الجاسوس... حسناً، لا بد أن ينحلّ هذا على نحو ما. أليس من أمسكوا به بشراً وإن كان جاسوساً؟ سنتصرف متى عاد قرمرز تيمبولات من تفليس حسب المعلومات التي سيعود بها. نحن قلقون لتأخر قرمرز، هل يمكن أن تكون عندك بعض المعلومات عن سبب تأخره؟ ما الأخبار في النغوي، نواحيكم، بشأنه؟

– من يتحالف مع الكافر يا أمير لا يعود من قومنا. ولا نعدُّه بشراً.

– أحسنتَ، هذا كلام حق، – ارتاح أسلانجري لِما سمع منتشياً بالباخسمه، وعرّض بأمير الأباظة: – هل سمعتَ يا ممت – جري؟

– يا أمير، – أجاب ممت – جري كاظماً غضبه، – يلجُمني كونك أكبر مني عمراً، ولكن اِحرص على كلامك!

– والله هذا أيضاً صحيح يا أمير. أظن مشروب كنّتنا تَمَكّنَ مني نوعاً ما يا أخي الصغير. يجب أن يكون حان موعد راحتنا؛ ما رأيكم أنتم؟

– كما يقول الأكبر، – وافق الثلاثة.
في منتصف الليل دخل عادلجري على رأس ممت – جري وسيت إلى الغرفة التي ينام فيها أسلانجري.وحين وقفوا على رأس النائم قال عادلجري لأمير الأباظة:
– أيقِظْ هذا، لن نفعل به ما يستحق وهو نائم!
– ماذا تنوون؟! – أسرع حمرزقوه أسلانجري إلى مسدسه تحت الوسادة. – سدد عادلجري المسدس على ابن عمه.
– وهذه من أجل الضابط الروسي!– صرع ممت – جري الرجل الذي حاول القفز من السرير.
– وهذه من أجل خيولي، – أردتْ طلقة سيت حمرزقوه.
في الفجر الباكر أعاد الفرسان المئة من أباظة ونغوي جثة حمرزقوه أسلانجري على كفل الحصان إلى اللصوص الذين كانوا بانتظارها في الغابة، وأضافوا إليها: افرحوا إن أطلقناكم أنتم أحياءً[1].

---

[1] "بعدما صالحَ المجلسُ الشرعي عادلجري وأسلانجري صار الأخوان يلتقيان أكثر ولكن قلبيهما لم يتصافيا. كتم عادلجري الاجتماع المخصص للثأر، ولم ينس شيئاً، ولم يكن ينوي أن يسامحه على أي شيء. اعتبر عادلجري أن عليه الامتثال للواقع فابتعد عن الأبزاخ باتجاه الروس على ضفة نهر وارب. وبدأ يحاول من أجل الإعداد لثأره إقناعَ أخيه بأنه يُكِنّ له الود. وكان ينقل إليه الأخبار الصادقة من أجل تنفيذ هدفه الحقيقي. وأنقذه عدة مرات من الوقوع في قبضة الروس. وقد انخدع أسلانجري بهذه المظاهر التي أعادت إليه الثقة في قريبه، وخفَّ حَذَرُه منه.ولم يكن عادل جري يريد أكثر من هذا. نسي أسلانجري الرياء وعدم التسامح، وأنه لا يجوز عدم إهمال الحذر من العدو من أجل الثأر. وحان الوقت لينفذ عادلجري نيّته. وتحالف معه شخصان هما لُوَ ممت — جري وأمير النغوي أقسما أن يسفكا دمه للانتقام من الإهانة التي ألحقها بهما أسلانجري. كان قد سلب أمير النغوي قطيعاً من الخيل، وكان الاثنان يتصيدانه منذ زمن بعيد في غابة وارب. ومن سوء حظ أسلانجري أنه استعد للإغارة على الجانب الروسي. فسافر مع عدد من قطاع الطرق إلى قرية أخيه، ولما وصله خبر مفاده أن القوزاق شوهدوا في أطرافها أرسل رفاقه إلى الغابة وبقي هو في القرية يقضي ليلته فيها. وكان خصومه قد ابتكروا خبر القوزاق لإبعاده عن رفاقه. وبعدما أكلوا وشربوا وانتشَوا تمنى

LIII

كان تامبي ينتظر منذ زمن بعيد ما حدث لحمرزقوه أسلانجري ولكنه أسرع إلى عينيه حين نقل بكر الخبر إليه يمسحهما كأنه سيبكي عليه. وبعدما صمَتَ مدة متفكراً قال:

– ماذا بيدنا، الله وحده من بيده كل شيء. ما كتبه على جباهنا مفروض علينا. هل داور أمجري يعرف ما جرى لنا؟ أخبِروه إن لم يكن يعرف. وأخبِروا براغنه. وبلّغوا كل من يستطيع وضْع قدميه في الركاب من المسنين. سنذهب إلى حمرزقوه حابله بقيادة أخيك الأصغر مُحَّد أفندي لتقديم واجب العزاء. وسنصطحب فيدور – فيدور بغضّ النظر عن كونه روسياً، وعن بعض الخلاف بينهما إذ يعرف أحدهما الآخر. وسأبلغه أنا وإن كان نقل الخبر الحزين صعباً. وأنت بلّغ الآخرين، وسنلتقي عند الجامع.

لم يماطل تامبي في رواية الخبر الذي نقله تواً إلى النقيب:

– لا أعرف إن كان خيراً أم شراً يا فيدور – فيدور، بقينا أنت وأنا وحدنا. توفي حمرزقوه أسلانجري الذي أوقعَنا في الورطة. ويقال إن قريبه عادلجري ثأر لوالده. سأصطحبك إلى العزاء... صحيح لا أجبرك. ثم نتكلم على موضوعاتنا، ونفكر في ما فيه فائدة لكلينا. اطمئنَّ، لا تسمعْ كلام أحد!

– شكراً، – كان جواب النقيب مختصراً.

قال النقيب في نفسه:" لم يكن الذهابُ إلى حيث دعاني تامبي خطأً... لم يكن حمرزقوه إنساناً من العامّة. كان واحداً من أشهر المجاهدين – اللصوص الذين

كلٌّ ليلة سعيدة للآخر، وناموا. دخل عادلجري وممت – جري وسيت غرفة أسلانجري في آخر الليل،وكان قتْلُ النائم سهلاً ولكنهم أنِفوا أن يفعلوا هذا؛ كانوا يريدون أن يرى القتيل وجوه قاتِليه، ويعرف سبب قتله. أيقظوا الرجل، أطلقوا عليه ثلاث طلقات وهم يصرخون " من أجل والدنا، من أجل الضابط الروسي، من أجل قطيع الخيل!" نقل الفرسان المئة المؤلفون من الأديغة والأباظة والنغوي الجثة إلى رفاقه اللصوص، ورووا لهم جرائم رفيقهم. وطلبوا منهم أن يشكروا الله على مغادرتهم ضفة نهر وارب أحياء...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

ظهروا في الأبزاخ. وسيأتي معزون كثيرون لأجله. وستسمع أخباراً متنوعة هناك تتعلق بنا. هل أغيّر جوابي إذن وأصحبه؟ ولكن على مَن أحزن؟ على مَن اعتقلني ليربح من ورائي، مَن وضع القيد على يديّ ورجليّ؟.. " وتامبي الذي يُحسِن إليّ فيصطحبني قائلاً "بقينا، أنت وأنا وحدنا" ليس أحسنَ منه. ماذا؛ هل أنا دُبٌّ للعرض؟! طلب مني مرافقته وقبْلَ أن أجيبه اختفى. لماذا تراجع؟ الذنبُ ذنبي، حاولتُ أن أتخابث معه فتبيّن أنه أخبث مني. لا تندم على أنك أفهمتَهم ما لا تودّه أيها النقيب الركن! – نصح تورناو نفسه – ولكن كان شرْحُ سبب عدم رغبتك أفضل من أن تُفهمه بتغيُّر لونك. ألأني رضخت لحكم الله؟.. لا، لا، وهذه "لا" ثالثة! حسناً فعلتُ. ربما لو مات من مرض أو قُتِل على يد جيشنا لعزّيت أهله دون اعتبار إجرامه إذ هو إنسان في النهاية... ولكني رأيت تامبي مرتاحاً لِما حدث لحمرزقوه وإن اعتبره مأساة. كان حسناً لو أطعتُ ناقج دون الدخول في هذه المشكلات. دعْنا يا ناقج نصبرْ، لِننتظرْ قرمرز تيمبولات. سنتصرف تبعاً لما سيأتي به خيراً أم شراً... "

لم يتردد على بيت حمرزقوه أسلانجري كثيرٌ من المعزين كما توقّع تامبي أسلانبج ورفاقه، والنقيب تورناو. وباستثناء مجموعة الفرسان القادمة من تامبي حابله كان المعزون من قريته قليلين. ولم يأت أحدٌ من الجمكوي والبجدوغ والمخوش. ومن كانوا يؤدون مراسم المأتم كانوا قلائل من أقرباء الزوجة.

– هذا ما سيجري إن لم يكن عندك أقارب، أو كانوا قليلين... – انحنى تامبي القادم من العزاء برأسه الضخم على ألمجري، وهمس في أذنه.

– يقولون: مَن أهله كثيرون قبرُه فسيح... – وهمس ألمجري بدوره: ولكن من قضى في غير وقته لم يكن محروماً من الأهل.

– نعم، كان المنحوس، وإن كانوا لا يتكلمون بسوء على الميت، حرم نفسه بنفسه من الأقارب. ولكن لا أعرف إن كانوا سيسامحونه على ما فعل بعمه.

– هذا من شأن الله. ما أفكر فيه في هذه اللحظة شيء آخرُ: يمكن تسويغُ ما فعله الأمير لُو ممت – جري، والأمير سيت، على نحوٍ ما، ولكن ما لا أعرفه هو كيف سيتحمل عادلجري وغُشَفج مصرع اثنين من وراء حبهما.

– وهذا، على رأيك، من شأن الله.ولكنَّ حقيقةَ أن الحب لا يقبل القسمة لم يبدأ منهما ولن ينتهي بهما. ألا يقولون: من يمدَّ يده إلى عينك فمدّ يدك إلى روحه. لن ينفع حمرزقوه إشفاقُنا عليه إلا أن ندفع عن روحه الصدقة. وإذا كنا لم نستطع أن نقول لمن قتَل عمَّه: إنك مجرم،فلن نقوله لعادلجري. إن لم أكن على حق يا إلهي فما تحمّلُني حملك لأن الدنيا الفانية دارُ ابتلائي. هيا، لنمضِ، اقترب موعد صلاة العصر. سنتلو دعاء بحق الأحياء والأموات...– حثّ تامبي حصانه، ونهر نفسه قائلاً " وهل عليّ أن أحقِّق في مصرع حمرزقوه الذي لم يكن يرعوي عن الشر فنال جزاءه؟ حتى أنا صديقُه لم أكن أسلم من إهاناته وإن سكتُّ عنها. ليرضَ إن سامحتُه عليها!

حثّ ألمجري أيضاً حصانه قائلاً: "ما أصعب أن نفهم دنياك العارية يا إلهي!– ليس إليك يا إلهي هذا الكلام بل إلى جاري تامبي. ما سمعتُه الآن، وأنا من كان يغبط تامبي وحمرزقوه على صداقتهما في الطفولة، معيبٌ... صحيح أن الجار يحافِظون على صداقته ولكن جاري ليس إنساناً صالحاً. هل أساء إليّ فأصفه بهذه الصفة؟ لا يجوز أن أسيء إليه إذا لم يستطع هو وحمرزقوه تقاسُم الأسير الروسي. ولكن إن ثبتت صحة توقُّعي أن عادلجري الذي لم ينس الثأر، وتامبي تحالفا؟ وهذا أيضاً ليس من شأني، ولن أدع جاري هذا يعتب عليّ..."

– أظن يا أسلانبج أن الريح الشرقية ستحمل معها البرد، – غيّر ألمجري موضوع أفكاره، – والشمس حمراء تماماً.

– والله أنا أيضاً فكرت في هذا... –كان تامبي مسروراً لخروجه من أفكاره، – ليس البرد مشكلة إن لم تحمل الريح الشرقية الحرّ فتسبب المحل، وتدَعَنا بلا غلاتٍ ولا مواشيَ. حسناً، إن حدث مثلُ هذا أنقذْنا أنفسنا بالقوزاق... – ضحك تامبي من أعماق قلبه معتبراً اختتامه للحديث موفقاً.

– وهل شمس القوزاق وريحُهم مختلفتان عما لدينا يا أمير؟ – ردّ ألمجري على تامبي بمزحة أخرى.

– والله هذا صحيح أيضاً. لا أعرف إن كنا نهذي في كبرنا. لا يا ألمجري لم نصل إلى هذه المرحلة من العمر. لا تزال أمامنا مهمات كثيرة.

– وهل يتحقق لنا في كبرنا ما لم يتحقق لنا أيام عزّنا!.. أرضى إن سالمنا القوزاق أيام قحْطِنا.

– ماذا جرى لك اليوم يا ألجري؟ كأن الموت أرهبك. افرحْ بأن هذه الشمس ستشرق عليك غداً. حُثَّ حصانك إن أردت يا صديقي العتيق، ودعنا نتذكر أيام الشباب فنتسابق. ومن يربح يستحقَّ أحسن حصان في قطيعينا؛ هيّا!

– هذا عيب ونحن عائدان من تعزية. وماذا سيقول لنا رفاقُنا الأكبر سناً!

– والله أنت إنسان عجيب يا أمير. تصدع رأسك بما لا يستحق. تمتَّعْ ما دمت حياً وإن احتجنا فنحن من بيده الأمر. وسنُشرِك جماعة مرزخواي في السباق. أم لا تسخو نفسك بالحصان الذي ستخسره؟ حسناً فهمتُ، لن نفعل هذا في يوم التعزية. ولكن فكرة سباق المسنين خاطرة جيدة من اقتراحي. وسيسرّ هذا مسنّينا إذ يُذكِّرهم بأيام الشباب. وإن رأيت فائدة في استضافة أحد المسنين القوزاق الذين تخاف منهم. وهل عجيب إن كنا نتبادل نظرات الريبة إلا إن لم يسمح زاس لهم... ومن جهتنا سيظهر من لن يسمح بالسباق. والله نحن في عالمٍ متجافٍ، ومن حسن حظ أجدادنا أن لم يشهدوا مثل هذا العالم.– مرة أخرى حثّ تامبي حصانه، والمسنون الذين لم يعودوا يسمعون كلام الأميرين لحقوا بهما.

وداور المراعي سِنَّه كان إلى يمين تامبي قائلاً في نفسه: " لا، لم أخطئ، جرى للرجل حادثٌ يجعله يفرح من أعماقه "

عرّج تامبي أسلانبج حين عاد إلى البيت على الأسير الذي لم يغب عن باله طوال النهار:

– حسناً فعلتَ يا فيدور – فيدور إذ لم تأت إلى العزاء، ما كان لك فيه مكان. لم يكن فيه أي رجل مهم إلا ألجري وأنا. منذ زمن بعيد لم أشهد مثل هذا العزاء الهزيل... والذنب كله يقع على حمرزقوه نفسه. ما أكثر ما قلتُ له في شبابنا ألا يتنافس مع قريبه على غُشَفج؛ ستتسبب لهما في مشكلة! ولم يسمع كلامي. وفي النهاية ما العمل، دفنّا البائس قليل الحظ وعُدنا. وأنت يا دداي لمَ لم أرك بين المعزّين؟

– كانت أمي يا بج تقول: الميت لا يُغتاب وإن لم يكن في حياته صالحاً. كان من الممكن أن أرافقكم إلى القرية المجاورة للعزاء؛ غير أني لم أوفَّق.– كان كلام دداي صحيحاً من جهة، ولكنه لم يستطع الإفصاح عن سبب عدم توفيقه.
– لو كنا جميعنا أناساً صالحين لكانت جنازته مختلفة. ولكن ما سبب "عدم توفيقك" إن لم يكن سراً؟
– الحق أني لا أعرف كيف أعبّر لك.
– قلْ له الواقع كما هو، – قالَ ناقج من أجل دداي. – هذا الشاب أفاق يا أمير وحصانه ليس في الإسطبل.
– وكيف يفعلون مثل هذا بجار الأمير! – غضب تامبي شاعراً بالعار مما سمع، ولما صحا اختتم بمزحة: – من فعل هذا يمكنه أن يسرقنا أنت وأنا من غُرفِنا... ولكن لا تقنط ما دمتُ حياً يا جاري. وعلى مبدأ: ما يُسرَق يضيع بالسرقة أيضاً، فالحصان القوزاقي الذي سُرِق منك أعوّضه بحصان تختاره من قطيعي لا يقل قيمة عن حصانك المسروق، وبشهادة فيدور – فيدور. ما تستطيع الإمساك به لك. ما رأيك يا دداي؟
– ماذا سيكون رأيي يا أمير. لِيعوّضك الله مئة ضعف عما تجود به نفسك كما كانت أمي تقول. ولكن لا أرى من اللائق أن آخذَ منك بلا مقابل دون أن تكون لي دالّةٌ عليك.
– هل نسيت أن والدك الرجل الصالح قانشاو كان مراسلي ومن حرسي؛ ماذا تقول يا دداي؟ ولكن إذا تقاسمنا الخبز والملح، ووقعت الآن في وضع صعب فكيف أجعل من نفسي نصف نبيل! أليس صحيحاً يا فيدور – فيدور؟ أنت أَخبرُ منا بتعاملات النبلاء.
– من عادة النبلاء أن يفوا بوعودهم... – أجاب الأسير الجالس بصمت يفكر في شخصه، والتعريض في كلامه أكثر من التصريح.
– حسنٌ إن كان هذا رأيكما، – قال دداي موجهاً الكلام إلى الاثنين ثم لام تامبي: – لا أعرف يا أمير لماذا لا تثق في قدرتي على الإمساك بحصان. إن لم يكن مهراً فلا أسهلّ عليّ منه.

– هذا موعده الغد، – نهض تامبي وهو يقول: هذا الشاب يعود شيئاً فشيئاً إلى حاله، – إن أردت ذهبنا معاً إلى الصلاة.
– لو كان هذا المساءُ مساء يوم جمعة لذهبتُ معك يا أمير. ولكن بيننا وبينه يومين. أنا أصلي في البيت في الأيام العادية. وسأعود إلى البيت بعد أن أجلس قليلاً مع هذين.
– حسنٌ، حسنٌ، – ظل يردد إلى أن وصل إلى قائمة الباب فأكّد على الثلاثة: – أنتظركم غداً صباحاً في إسطبل خيلي في ظاهر القرية. لا تتأخروا! وسيكون معي الأمير ألمجري والعجوز مرزخواي.
في اليوم التالي جاء تامبي مع الرجلين المعينين إلى الإسطبل قبل الوقت المحدد. وأطلع بكر على ما يجب أن يفعله:
– ها هم قادمون، – قال بكر الذي رأى الثلاثة الخارجين من القرية.
– وهل هم راجلون؟! سأل ألمجري.
– ماذا يا أمير؛ هل تريدني أن أحمل الضابط الأسير على الحصان! – مازح تامبي جاره.
عبّر مرزخواي عن ثقته من عدم هروبه حتى لو أعطيته حصاناً، ولم يُبدِ نظرته إلى بكر. ولكنه سأل عما كان يقلقه:
– إن لم يستطع دداي الإمساك بالحصان الموعود يا أمير؟
– إن لم يستطع لم يستطع!.. – ابتسم تامبي. – وهل أنقض كلامي؟ سأعطيه ما يشير إليه باستثناء أحصنتي والمهار. ونحن لنفعلْ معروفاً! ألستُ على حق يا أمير؟
– ليسمعْك الله يا أسلانبج، ولْيقبلْ معروفك! – دعا ألمجري لجاره، – وأنا سأطلب من مرزخواي ان يصنع سرجاً جيداً من أجل دداي.
– أحسنتم ثلاثتُكم، لم تدَعونا ننتظر. جئتم في الموعد. – أثنى تامبي أسلانبج على مَن حياهم، ومازحهم: – إن كنتم تريدون أن يحصل دداي على حصان جيد فاختاروا من بين تلك الأحصنة الثلاثة دون أن تطمعوا فيها.
– ذاك الكستناوي الأغرّ، – لم يطُلْ تردُّدُ دداي.

– حصان ممتاز إن استطعتَ الإمساك به... – ألحّ تامبي ثانية على عبارة "استطعت الإمساك".
تفرقت الخيل التي لم تألف وجه دداي حذرةً قلقةً حين توجه إلى القطيع المنهك من الحر. ولكن الحصان الأغر الذي لم يركض بعيداً التفت إليه.
– لا تخف يا حصاني الجميل،أنا دداي من اختارك، – اقترب دداي ملاطفاً هامساً ومسح على جبهته وعنقه. والتفت إلى الحشد الذي ينتظره غيرَ مصدِّقٍ ما جرى.
– والله يا ألجري جارُنا دداي ساحرٌ... – لم يعرف تامبي تفسير ما يرى. – مبروك عليك، الأغرّ لك.
– دداي ليس ساحراً يا أمير، – قال ناقج للأمير بحذر.
– لماذا أطاعه إذن أشرس الأحصنة في القطيع؟
– ربما لأنه إنسان طيب القلب... – قال تورناو ما يُضمره لدداي.
– نعم، دداي إنسان طيب، – أيده ناقج.

LIV

انقضى الربيع البارد الذي أنسى الأبزاخَ شتاءَهم، وحلّ الصيف الذي كان النقيب تورناو ينتظره. واكتست الغابة التي أرهقتها الأمطار اللامتناهية بالأوراق المتعددة الألوان. ونهر قجبس الذي امتلأ بالثلوج التي تذوب من أعالي الجبال، يلملم نفسه. وماؤه يصفو شيئاً فشيئاً من تلقاء نفسه. وتزيد سماكة الحشيش في منابته. والأزهار المرائية تتفتح في مجموعات أو منفردة خادعة فتغطي مراعي الغابة.
الأسير المقيم على ضفة قجبس اليمنى لا يحلو شيء في عينيه رغم أن السماء عالية والنهار يشرح الصدر. ولم يعد يرى ناقج الذي يرمي بالأحجار المسطحة على سطح الماء فتتدحرج عليه. أفكاره بعيدة، وأحزانه قريبة. الورقة التي أرسلها إليه الليلة قرمرز تيمبولات لا تحمل أملاً: "ما حاجة قائد الجيش في تفليس المحبُّ للمهام، والذي عمل على تغيير روزين الرجل المستقيم، إليّ. تَحقّق ما كان يريد فيلياماينوف. لم يبق لي إلا ناقج على ما يبدو... إن كانت يدك مُدهِنة فامسح بها رأسك، كما يقول الأديغة. إن أنقذت نفسي بنفسي مِن بين مَن

وقعت فيهم فلن أدع من نسوني يعيّرونني بما حدث لي. ويجب الاستعداد لهذ الفكرة جيداً. ما الخبر الذي سيحمله تامبي الغائب عن القرية منذ عدة أيام؟ هل يُخبره تيمبولات إن التقى به حقيقةَ وضعي؟ لا يزال عندي الآن مخرج آخرُ: إن لم يفتدوني فسأؤمل تامبي مدعياً أني سأشتري نفسي. وأكسب رضاه وثقته..."

وقف النقيب تورناو إلى النافذة المتجهة نحو الريف. واستغرب وقوف دداي يشرف على الأطفال الذين يلعبون "الغُر[1]". وامتثل أمام عينيه مروره أمام باب دار ألمجري راكباً حصانه الأغر، سواء كان مشغولاً أم لم يكن، فابتسمَ. وفيما هو مهموم بحبّ ابن الجيران الخفيّ انتصبت أمام عينيه أسلانكوز "وهذه لا أعرف إن كانت عاتبة عليّ. لم تقع عيني عليها منذ أول من أمس فلا أعرف أنه خرج من فمي ما يسيء إليها. وليست وحدها، بل خان أيضاً. ماذا أهذي؟ أليست جاءتني أمس ببرك ساخن وحليب؟ وربما كانت أسلانكوز تعرف بالموضوع... وأين ناقج الآن؟ لا يزال غائباً مع وعده بالرجوع. أيكون رفع رقابته عني ليختبرني؟ أليس عرْضُه علي أن يصبح رفيقي كاذباً؟ حسناً فعلتُ إذ لم أعِده... عليّ أن أختبره مرة أخرى على نحوٍ علني. متى؟ الوقتُ يفوتني وأنا أؤجّلُ..."

عاد ناقج إلى الغرفة معبّراً بعينيه اللامعتين عن خبر عجيب يحمله. ولكن عدم حمل الغداء إلى الأسير أنساه الخبر فسأل:

– أين غداؤكم؟ لن يتحرك هؤلاء إلا بطلبٍ مني!

– مهلاً، مهلاً يا ناقج، – أوقف النقيب ناقج الخارج من الغرفة، – الغداء ليس مهماً، أنت لا بد أنك حملتَ خبراً ما.

– ليس خبراً فحسبُ، بل خبر عجيب.هل تعرف ما أخبرني به دداي؟ طلب مني مرافقته إلى الأمير ألمجري.

– وماذا تفعلان عنده؟

– سنطلب من الأمير ألا يبيع خان لعبد الله أفندي، بل يزوجها من دداي. سنتوسل إليه.

---

[1] قرص خشبي يُدفع بالعصا.

– ما علاقة الضابط التركي بموضوع خان؟.. – احتدّ تورناو مما سمع. – وأنا سأرافقكما. ولكن حان موعد عودة الأمير تامبي. من المناسب أن ننتظره لنستشيره في ما نقول ونفعل.

– ومتى سيعود هذا؟ الآخر الذي سيشتريها ينتظرونه بين اليوم والغد. والسعر الذي سيدفعه من أجل خان معروف.– سومة فضية!

– أيكون توسُّلُكم من أجل سومة فضية؟

– لا يساوي حصان دداي سومة فضية. ولكن إن وافق ألمجري فسيعطيه حصانه. وإن لم يوافق فسأحل الموضوع دون علاقة بدداي.

– لا تسمح لهذه الأفكار أن تغزو رأسك! تعال، أطلِعْ دداي على الموضوع، ونزور الأمير. وما رأيُك في اصطحاب بكر؟

– لا، لا، أخوه المولى له ضلعٌ في الموضوع.

– ألم نسمع أن مُحَمَّد أفندي وعبد الله أفندي متعاديان؟

– لا تصدِّق يا فيدور – فيدور ما يُشيع هؤلاء الأفندية عن أنفسهم. ابتسم ناقج، – يقولون شيئاً ويفعلون غيره.

– أعرف أن عبد الله أفندي ضابط تركي؛ غير أني لا أعرف سبب تسمية مُحَمَّد أفندي بالمولى.

– المولى والأفندي عندي سِيّان. كلاهما يخدعنا.

– وهل هذا هو رأيك أيضاً في جانسعيد أفندي؟ – سأل تورناو عما كان يشغله منذ وقت طويل.

– لا تقارن جانسعيد أفندي بهؤلاء، –أسرع ناقج بالجواب، – سيسخر الناس منك. هذا أفنديٌّ حقيقيّ. ولا تتوقف مرتبته هنا فإنه رجلٌ لا يُعلى عليه. يسرني يا فيدور – فيدور أن تعرض مرافقتنا إلى ألمجري واضعاً مشكلتك جانباً. ولكن الأفضل أن نقابله قبل ذلك.

– لا تغتروا بكون ألمجري رجلاً هادئاً، ليس كما تتصورونه؛ سأرافقكما. – جزم تورناو ناسياً أنه أسيرٌ.

– تعال إذن، – ابتسم ناقج ثانية معتداً بنفسه، – ولكن لا تعترض على ما سأقول لألمجري إن لم يوافق.

– هل نذهب لنناقش أم لنهدد؟ سأل تورناو ناقج كاظماً نفسه بصعوبة، واختتم بصوت ألطف: – سنكلِّمه تبعاً لاستقباله لنا. وهل يسترجع السرج الذي أوصى به له؟ وهل يطمع في الحصان الذي أُهدي إليه؟ سنترجاه، فإن أكرم طلبَنا فحسنٌ، ولكن تجنّبا موضوع التهديد.

زار الثلاثة داور ألمجري بعد الظهر. واستقبلهم بوجه طلق داور الذي لم يعرف سبب زيارتهم:

– والله يسرني أنكم جئتم معاً. ربما سمعتم أني متوعك. لم يعد يناسبنا الحر ولا البرد... وأنتم ما أحوالكم؟ وأسلانبج المسافر إلى ضفة نهر وارب يسوِّف عودته. وحشنا بغيبته. كان أخبرني أنه سيسافر من هناك إلى الأمير قانقوه في البسلني. والله أنا أتأثر، ربما لأني لا أراكم كثيراً، ما أحوالكم؟ – كرر سؤاله لهم.

– ليس من العادة أن يسأل المضيف ضيوفه، ولكن إن كان هناك ما يشغلكم فأخبروني. سأفيدكم بقدر استطاعتي. أما موضوع أسْرك يا فيدور – فيدور فشيء آخر. أقول هذا لأني أتساءل عما إذا كان رفيقاك عندهم ما يطلبانه.

دخلت أسلانكوز وخان الغرفة معهما صحنُ برك ساخنٍ وإبريقٌ من ماء العسل. تبادل الشبان الثلاثة والفتاتان نظرات صامتة. وحين خرجت الفتاتان من الغرفة قال تورناو:

– سأعبّر بصراحة عن مطلب رفيقيّ، فأنا مهموم كما لاحظتَ بموضوع دداي. جاء إليك بنا الخبرُ المزعج الذي سمعناه من طرفكم. قيل إن التركي عبد الله أفندي يشتري خان.

نظر داور بخبث إلى أسيرٍ تامبي، وابتسم:

– أن تسمع مَن يخبرك أفضلُ من أن تسمع ما يقال. هذا الخبر أسمعه لأول مرة.

– هل سمعتما؟ إن لم تسمعا فقد كنت أود التحدث مع الأمير ألمجري على انفراد. لماذا تجلسان صامتين يا ناقج؟ ألا تثقان بي؟

– أثق بك ولكن مع ذلك... – قال ناقج، ثم سحب دداي من الغرفة معتبراً عمله غير لائق.

– أنت تعرف حالي، وما لم يستطع ناقج الإفصاح عنه فهمتَه يا أمير. – لم يماطل النقيب في الإجابة. – هل ما قلتَه بشأن خان صحيح.

– ولماذا أكتم عنك؟ في الخبر جانب صحيح، وآخر غير صحيح. رغبةُ عبد الله أفندي في شراء خان صحيحة، أرسل لي خبراً من ساحل البحر حيث يقيم. ولكن الجواب شأني أنا. الحق أن قلقك من أجل دداي يرضيني. وتشاركك أسلانكوز في القلق.

– وماذا تريد هذه أيضاً؟.. – لم يفهم تورناو في البداية. ثم سخر من نفسه على سؤاله: – شكراً لأسلانكوز على تأييدها لنا، وعلى لهفتها من أجل خان.

– أسلانكوز التي نشأت بلا أم ليس لها ما يُفرحها في الدنيا إلا أنا وخان. ويسرني موقفها من خادمتها خان. لن أعطيها للتركي مهما دفع متجاوزاً دداي، وتعرفون أنه دفع سومة فضية ثمناً لها. ولكن بما أننا دخلنا، أنت وأنا، أيها الضابط الروسي،في موضوع الزواج، – احتدّ صوت الأمير الذي كان يتكلم إلى الآن بلطف، – فسأقول لك ما لن أقبله منك: لا تتعلل بأن أسلانكوز تعاملك معاملة حسنة فتثيرَ متناسياً أصلَك قلبَ الصبية التي صارت في سن الزواج. ولو دفعتَ، لا سومة ذهبية، بل خزاناً من الذهب،مهراً فيها فلن تكون من نصيبك. الأفضل لك من هذا أن تطلب ممن أرسلوك افتداءك. لا أهددك، ولكن أكلّمك بصراحة.

– لا أعرف لمَ هذا الكلام يا أمير.

– لا أتكلم على ما لا أعرف.

– ربما يخدعونك يا أمير.

– أكرر ما قلتُ ولو كانوا يخدعونني. تدفع الأبزاخ كلها إلى الكلام عليك وأنت تماطل في طلب افتدائك. إذا استغنى عنك من أرسلوك، وكنت فقيراً، فسأعطيك لا سومة ذهبية بل أكثر تفتدي بها نفسك من تامبي، وتنصرف عنّا.

– يا داور لا تتجبّرْ عليّ، ولا تخطئْ، – رفعتِ الإهانة التي أُلحِقت بتورناو صوته فجأة، – لم أصل إلى أن تدفع عني صدقة. لستُ ممن يبيعون شرف الضابط بخزان من الذهب.

– اسمعْ ما يقول هذا! – ابتسم ألمجري الآن على نحوٍ لا تعرف معه إن كان ساخطاً عليه أم لا، وسأله:
– أليس صحيحاً إذن ما يُقال من أنك توصل أسرارنا إلى زاس وأنت في الأبزاخ؟
– وليس هذا وحده، – أنا مرتبط بستافروبول وتفليس وسان بطرس بورغ، ومعها أيضاً إستانبول.
– وما علاقتك بإستانبول؟.. – حين ردّ على الأسير وهو لم يفهم ما قيل له صحا: – كفى، لا تُدخِلنا يا فيدور – فيدور في مواضيع لا فائدة فيها. الأفضل من هذا أن تفكر في ما قلت لك... لم يكن من الضروري أن أُخبرك أن الأبزاخ لا يضمرون لك الخير.
– ربما يعرف الأبزاخ أني لم آتِ إليهم من أجل أن أحبّبهم بشخصي.
– أليس لأجل هذا أطلب منك الحرص على نفسك!
– حياك الله. – قال في نفسه: "سأعرف ما في قلبه نحوي"، وسأله حالاً: – إن كنت تقلق عليّ يا أمير على هذا النحو فلماذا لا تُعينني؟
شدّ ألمجري قامته التي انحنت إشفاقاً على أسلانكوز ابنة زوجة الأب القاسية، بعد السؤال المفاجئ. وارتفعت نارٌ خفيفة لا تُدفئ من العينين اللتين على وشك الانطفاء. ومسح براحته الناعمة على لحيته الشائبة وشاربيه. وأجاب وهو يُصلح وضع الخنجر على الحزام الفضي:
– حسنٌ أنك تتأمل مني. ولكن كيف أعطيك الأمل الذي لا تقدمه لنفسك؟ انتهينا من موضوع دداي وخان. ولن نعيد الكلام على أسلانكوز.
– لماذا نعيد الكلام فيه بعدما أدليتَ برأيك في موضوعي؟ – ردّ عليه النقيب شِبه مازحٍ دون أن ينتقص من قدره هو.
– استقرَّ إذن بين الأبزاخ!
– مثل براغُنه؟
– هل عندك أسلوب آخر؟
– وانتهينا من هذا أيضاً.
– إن كان هذا رأيك فلن أضرَّك إن لم أنفعك.

– شكراً، وكيف ستكون تلك المساعدة ؟
– هل سمعتهم يقولون: لا تشمِّر عن ساقيك قبل الوصول إلى المخاضة. إن كنتَ سمعتَ فأخبِرْني قبل أن تفعل هذا.
– ألا يكفي ما تبادلْناه قبل لحظات؟
– قلت لك: "قبل أن تفعل"، لا "حالاً"
– إذن سؤال آخر: لماذا ستُحسِن إليّ أنا الضابط الروسي، وليس لي عندك معروفٌ تردّه؟
– وهل يحمل العدوّ معروفاً؟ – أعرف أني لن أكسب منك خيراً لأسرتي فأريد أن أُخرِجك يا تورناو.
– وهذه ذريعة جيدة. ولكني أكرر خطأك في شأن أسلانكوز يا أمير. لا أحد يعرف عني ما يشككه في شأن أسلانكوز إلا أنني أقول: إنها فتاة رحيمة. إذا كانت أسلانكوز تعلّمني اللغة الأديغية وكتابة اللغة العربية فأنا أعلّمها الروسية.
– ما أحوجنا إلى لغتك الروسية!
– ما من لغة لا تحتاجها. كيف كنا نتواصل الآن لو لم أكن أعرف لغتك؟
– وأنا لست جاهلاً بالقوزاقية تماماً.
– ما من لغة قوزاقية. هؤلاء يتكلمون اللغة الأوكرانية القريبة من الروسية.
– أما قلتُ لك إننا كنا نعيش قبل أن نتعلم لغتك... لا تنظرْ إلي هكذا. فهمتُ ما لا تستطيع قوله يا فيدور – فيدور. واللغة التركية على " سردم – بردم " لا نحتاجها!..
نظر ناقج من خلل الباب:
– حلَّ الظلام يا فيدور – فيدور.
– احذر من ناقج، لا تثق به!
– ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا أمير؟
– من يعرف؟ أقول: اِحذرْ، وكفى. ما قلناه يبقى بيننا. ولكني أريد أن أستودعك سراً في موضوع معين. ربة البيت مصرّة على ألا تخرج خان من

البيت إلا لقاء مبلغ من المال[1]. وأعرف أن دداي لا يملك شيئاً، ومن أين له أن يملك؛ ولذا أعطِه من عندي نصف السومة الفضية هذه دون أن يعرف أنها مني. وهذا المبلغ كسبتْه خان بعملها في بيتنا. لا تُخبِرْ أحداً، لن تقبل مَن في بيتي إن سمعت.

– اعتبرْني لم أسمع شيئاً.وأنا خبّأتُ أباسة فضية[2] سأضيفها إلى نصف سومتك.

– لا، لا، حتى نصف السومة كثير على الجشِعة التي في بيتي. أعطِ لدداي "أباستك" إن لم تعد تنفعك. ولكن لا تدع تامبي يعلم لأنه لا يقبل أن يفعل أحدٌ غيرُه ما لم يفعله هو. يظل يعيرني بأني أقلّده في فعل الخير فأُنسي الناس معروفه. لا يفهم تامبي أن الله يعوِّض كل معروف بمئة ضعف. والآن سأستشيرك أيضاً في موضوع يشغل بالي: هل يستطيع دداي تأسيس أسرة؟ لا أخاف على خان، تستطيع تدبير أمورها، هذه مهاراتها اليدوية وفطنتها تصل إلى كثير من الأمور. أخاف أن يعاود المرضُ دداي البائس... ما رأيُك أن نطلب من جانسعيد أفندي أن يكتب له رُقية دون علم دداي نفسه؟

– اطلب من جانسعيد إن كان مفيداً. – أجاب تورناو قائلاً في نفسه:" عجيب أنك لم تُضِف عبد الله أفندي أيضاً "، – ولكنه لما كان حديث السنّ فعقابيل الرعب الذي أصابه من مصير أهله استمرت مع المصائب الأخرى التي شهدها. وأنت تعرف أن أمثاله متى أسسوا أسرة تخلَّصوا من أزماتهم فاطمئنَّ يا أمير!

– وهذا رأيُك أنت أيضاً؟.. – ابتسم داور مرة أخرى ابتسامة خبيثة. – ليُسعد اللهُ الشابين! ونحن سنقدم لهما كل ما بيدنا.

حين خرج دداي من الغرفة لا يسعه الفرح سأله ناقج:

– ماذا قلتما يا فيدور – فيدور حين أخرجتمانا، دداي وأنا، من الغرفة، طوال هذه المدة؟

---

[1] يتكلم على تقليد لا يزال عند الأديغة، وهو أن يدفع العريس أو الناس المكلَّفون بزفافها من بيت أهلها مبلغاً من المال غير محدد.

[2] عملة تساوي عشرين كوبيكاً.

– وهل قليلٌ ما يمكننا التحدث فيه؟.. – فكر تورناو في جواب السؤال غير المنتظَر، وماطل، ثم أجاب: – ليس سهلاً يا ناقج تأسيس أسرة.
– وهل هذا كان موضوع حديثكما؟
– وماذا سيكون غيرَه؟..
– ومن أين لي أن أعرف، أتساءل إن كنتما تكلمتما على أسلانكوز فحسبُ...
اكتفى النقيب تورناو بالابتسام، ولم يُخبرْ ناقج بشيء يتعلق بالفتاة.

LV

حين أوصل الفرسان الخمسة تامبي أسلانبج في صباح صيفي إلى باب داره وهو عائد من غارة، فعلَ كما يفعل عادة بعد العودة من الغارة فلم ينزّه بصره في دار الإمارة الفسيحة، ولا اهتمّ بالخدم الذين استقبلوه، بل دلف إلى الغرفة التي يُحتفَظ فيها بالنقيب تورناو. قفز ناقج الذي كان قاعداً إلى جانب قائمة الباب غافياً، وقام الضابط الذي كان يلعب مع نفسه لعبة الكعوب الخشبية.
– أنتما تشعران بالنعاس، تسلّيان نفسيكما؟.. – كان قلب تامبي متهيّجاً، ولكنه كتم حميّته، وطلب منهما الجلوس بين الساخر والمترجّي. – أراكما حبستما نفسيكما في الغرفة في هذا النهار الجميل... وأنا ألاحق بكل هَبَلٍ ما ليس من مهامي، والسرج خدّر مؤخرتي. لم يأت قرمرز بخبر سارٍّ من تفليس.
– أعرف يا أمير.
– من أخبرك؟
انتفض ناقج برأسه من الخبر الذي لا يعرف عنه شيئاً. وفي اللحظة نفسها خطر له داور.
– هل هناك خبر مزعج؟
– أعطِني جواباً صحيحاً دون أن تكلمني بالألغاز.
– أنت جئت من سفر طويل، – استعجل ناقج مدركاً أنهم سيدينونه، – سآتيك يا أمير بإبريق وطست.
– أُسكتْ يا ناقج إن كنت تعرف ذنبك!.. – أستمعُ إليك أيها الجاسوس الخبيث.

– لا عِلْمَ لناقج بالموضوع الذي تتحدث فيه يا أمير. كان قرمز تيمبولات أرسل إليّ هذه الورقة سراً يوم سفرك.
– هاتِها! ماذا كتب لك؟
– يكتب لي بالإضافة إلى الخبر السيء الذي حملتَه عبارة "هناك أمل". ولا أعرف ماذا يقصد بها.
– وأنا قال لي النغوي المرائي الكلام نفسه، ولكن لم يكشف لي السرّ. لا يمكنني انتظار "أملِه". دعنا نفكرْ في ما سنفعله!
– فكرتُ وانتهيتُ يا أمير.
– هكذا؟ اتركنا لحظة يا ناقج.
– ما سأقوله ليس سراً. سأفتدي نفسي بنفسي إذ لم يعد أحدٌ يسأل عني.
– قلتُ لك هذا منذ وقت طويل... – لان تامبي، ثم سأله مؤكداً عليه: – وكيف سترتّب هذا الأمر؟
– سأرسل إلى عمّي في سان بطرس بورغ رسولاً.
– ومن تتأمل أن يستطيع هذا؟
– أتأمل أن يحلّ موضوعي الآن قرمز الذي تكفلّ سابقاً وأخفق.
– إذن أنت عرفت ما تعلّق به قلبُ قرمز؟
– أعرف، لأن فيه فائدته. ألا يجوز أن يفي يوماً ما بنذره؟ ليأخُذ إلى عمي رسالتي التي فيها رجائي، ولن يقصِّر في شيء. وأنا لا أَعْدمُ بعض المال الذي جمعته لأتزوج.
– بديهي أن يكون عندك بعض المال إذا قررت أن تؤسس أسرة... أليس صحيحاً يا ناقج؟
– طبعاً يا أمير. الأسرة فوق كل شيء كما يقول داور أمجري... – وافق ناقج تامبي بكل رضاً.
– الفدية التي سترسلها أقول لك مقدارها وإن لم تسأل. لا يجوز أن تقل عن أربع سومات ذهبية إذا أضفنا تكاليف ضيافتك مدة سنتين. أليس كذلك يا ناقج؟

– نعم، نعم يا أمير، بل أضف سومة ذهبية أيضاً. ألا يساوي الضابط الروسي خمس سومات؟

– هل سمعتَ يا فيدور – فيدور؟ فِديتُك خمس سومات ذهبية تماماً.

– لتكنْ خمس سومات، لا بأسَ! ما العمل؟ أنا راض بحكم الله. – أطلعهم النقيب على مقدار الفدية قائلاً في نفسه: "ولكنكم ستنتظرونها طويلاً!". – ضابط في رتبتي يحصل بمشقة على سومتين أو ثلاث في السنة.

– وهل سيغيب قرمرز طويلاً حيث نرسله؟ – سأل تامبي عن المدة التي تشغل باله.

– سيعود خلال شهر أو اثنين.

– هذا كثير، ولكن لا بأس. اكتبِ الرسالة لقرمرز اليوم. وسنوصلها أنت وأنا إليه بشكل ما. فكِّرْ في ما ستكتب إلى عمك. ويمكن أن ترسلها غداً. ما مضى كثيره سيمضي قليله... لا تحبسوا أنفسكم في الغرفة فتحرموها من هذا اليوم الجميل.

كان تامبي أسلانبج الذي عاد من سفر طويل قد نام ليستريح ولكنه لم يستطع النوم لأن موضوع الأسير لم ينحلّ كما توقّع. يدقّقُ في كلمات النقيب الروسي، ويقارنها بعضها ببعض، خائفاً أن تتضمن خدعة ما. وفي كل خطوة ترتسم أمام عينيه جهامة وجه قرمرز: " هل يوافق هذا الخبيث يا ترى على ما سنطلبه منه؟ سيوافق لأن فيه فائدته على حد تعبير الضابط الروسي. ولم يكن المرحوم حمرزقوه أسلانجري ليخرج من هذه المسألة خاوي اليدين لولا أنه شاكسني. كان قاسَمني السومات الخمس... – ابتسم تامبي: – يقول الضابط الروسي إنه لا يكسب سومتين أو ثلاثاً مقابل خدمة سنة كاملة... افرحْ بأنهم سيقبلون منك الفدية! ستكسب أضعافها إن امتدّ بك العمر. أنت ذكي جداً ولكنك لا تعرف قيمة حياتك. لولا منافسة الأخوين قرمرز لما وقعنا أنت وأنا في مشكلة. الأرض التي يعشقها الروس كنا كشفناها لك، وما أكثرَها، وكنا حصلنا على المال الذي نجادل بشأنه، وعدتَ أنت وعشنا كلانا في راحة وعزّ. والآن توجّب علينا أن نترجى قرمرز الذي قطع الطريق على آمالنا... من حسن حظي أني لم أوافق حمرزقوه حين اقترح عليّ أن نقتل من غزانا، إذ من كنا

سنرسل الآن إلى بطرس بورغ؟.. يا ربي ماذا يفعل الاثنان اللذان تركتهما في الغرفة؟ أيكون من كان يرفض الفدية إلى الآن قد كتب الرسالة يا ترى؟ "
تبيّن أن الرجلين اللذين اقترح عليهما تامبي ألا يحرما نفسيهما من الجو الجميل قد ذهبا جهة نهر قجبس فتوجه هو الآخر إلى تلك الناحية متظاهراً بعدم الاهتمام. وسأل الضابط الروسي دون أن يسمح له بالنهوض لأجله:
– أراك يا فيدور – فيدور لا تستحم؟
– أنا انتهيت من الاستحمام، وناقج يرفض الخروج من الماء.
– انظر ما أشدّ تمرده!
– يا أمير، وأنت أيضاً فيدور – فيدور،– صاح ناقج، – أديرا ظهريكما من فضلكما إذ سأخرج من الماء.
– كان يجب ألا تسبح عارياً في عز الظهيرة، – سأل تامبي الذي كان يدير ظهره محتجاً: – هل فكرت في رسالتك؟
– انتهيت منها.
– بهذه السرعة؟
– ها هي، – أخرج النقيب ورقة مطوية من جيبه، – ليس من الصعب كتابة بضع كلمات.
– أليست قصيرة؟ – سأله، واستدرك بسرعة: – حقاً، الرجاء لا يحتاج إلى كلام كثير. ترجِمْها لي.
– اسمعْ يا أمير: " عمي العزيز الذي أحبه جداً فريديريك غريغوريفيتش: كاتبُ هذه الرسالة هو فيدور فيدوروفيتش تورناو ابن أخيك فيدور غريغوروفيتش. أنا مأسورٌ في شمال القفقاس عند الشراكسة في الأبزاخ. ما طلبوه من فديةً هو خمس سومات ذهبية. أعرف أنه مبلغ كبير غير أن حياتي أغلى. وأنا واثق من حامل الورقة فأعطه المبلغ المطلوب، وسيصلني بالتأكيد. فيدور تورناو.
– ألّفتها جيداً، أنت ماهر في الكتابة... ولكن أضف إليها: "إن لم تحققوا طلبي فالشراكسة سينهون حياتي، ولن نلتقي ثانية"
– وسأضيف هذه.

– عودا إلى البيت. وأضف الكلمات التي أوصيتك بها، وأوصِل إلي الورقة. وسأطلب التدقيق فيها مرة أخرى.

حين طلب منهما طيَّ الورقة كان من تذكّره تورناو هو براغُنه ولكن تامبي لم يكن واثقاً منه. وفي اليوم نفسه طلب أسلانكوز إليه، وقال لها:

– أنا أعرف أنك تقرئين التركية، ويسرني أنك فتاة حكيمة يا أسلانكوز[1]. سمعتُ أن أسيرنا يعلمك كتابة الكفار فهل تستطيعين قراءة ما في هذه الورقة؟

– أعرف كتابةَ لغةِ فيدور – فيدور. – استلمت أسلانكوز الورقة مرتعبةً مما طُلب منها. – نعم هذه كتابة تورناو... لا أعرف المعنى غير أني أستطيع قراءتها.

– لا تستعجلي يا ابنتي، اقرئي. وأنا تعلمت مضطراً شيئاً من لغة القوزاق ولذا سأفهم ما تقرئين. ليس كل ما في الورقة، يكفي أن تقرئي الخاتمة. – حين قرأت أسلانكوز ما طلب تامبي صاح الأمير رغماً عنه: – صحيح، لم يخدعني! هل بصم تحتها يا ابنتي؟ نعم، نعم، أراها.

– ليس فيدور – فيدور من النوع الذي يخدعك.– لم تستطع أسلانكوز إلا أن تضيف رأيها.

– نعم، نعم، لن يخدعنا؛ أليس من أسرة نبلاء، وضابطاً؟

---

[1] "كنت أتجول في الفسحة القريبة من البيت حين يرفعون القيد عني. ولم أكن أخرج من الدار المسوَّرة. وكان ناقج يحرسني حين أقترب من الحدود التي حددوها لي، أو يكلمني شخص لا يعرفونه. وفي أحد الأيام وأنا في الهواء الطلق رأيت فتاة لا أعرفها وأمامها عنزة تتقافز. وكان اسم الفتاة التي ترافقها خادمتها خان هو أسلانكوز. كانت ممشوقة القوام جذابة. وبعدما تعرفت عليها اكتشفتُ أنها تعرف القراءة والكتابة بالعربية والتركية (كانتا بألفبائية واحدة في ذلك العصر. المترجم)، والسبب في هذا هو افتقار الأديغة إلى الكتابة. ثم بدأتُ أعلّمها ورفيقاتها اللغة الروسية. والسبب في تذكُّري تلك الأحداث هو القيمة الكبيرة لها في تلك الأيام. كانت هؤلاء الفتيات يخفِّفْن على نحوٍ ما حالةَ اليأس في الأسْر...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

فكر تامبي طويلاً في طريقة اللقاء بقرمرز تيمبولات. ولكنه أرسل بعد بضعة أيام رسولاً إلى قرية شجراي قائلاً في نفسه " الأفضل أن أقابله وحدي دون مرافقة الضابط الروسي الأسير الذي سيطلب منه المهمة، ولكن هؤلاء غيرُ جديرين بالثقة، لا تعرفُ ما يمكن أن يبدر منهم، فلْيأت إلى ملتقانا المعهود عند شجرة البلوط الكبيرة على حدود الأبزاخ – البسلني ".

وفي الموعد المتفق عليه التقت مجموعتان من الفرسان واتفقتا دون حاجة إلى كثير من الكلام.

– لم يعاند قرمرز وإن لم يكن متحمساً للقائك، وافق على لقائك... ربما يعرف ذنبه... – لم يعلق تورناو على كلام تامبي، فأكَّد تامبي على بكر: – لا تثقوا يا بكر بهؤلاء، ليسبقْنا عدد من الفرسان، ولْيتأخرْ عنا مثلُهم.

كان الجو حاراً غير أن الحرّ لم يؤذ الفرسان الذين يتتابعون مستمتعين بالقليل من الهواء الذي يثيرونه، وكلٌّ منهم غارق في أفكاره. والقمم البيضاء تظهر من يسارهم لا قريبة ولا بعيدة. وعلى يمينهم يجري السهل الضيق الذي لم يتغلغل في عمق الغابة. وفي السماء تحوم بعض الجوارح. وتتطاير في الهواء الفراشات اللعوبة. وتامبي الذي لم يُحسّ بمواطن الجمال هذه مهموماً بفُرص نجاح المهمة التي بدأ فيها سأل تورناو:

– لماذا لا تقول شيئاً يا فيدور – فيدور؟.. أنكون كلّفنا قرمرز بمهمة لن يستطيع إنجازها كما لم يستطع قبل عامين؟..

– أنا واثق منه يا أمير.

– حسنٌ إن لم يخدعنا... أقول هذا لأن الارتياب صار من طبعي... سيتحقق هدفنا لأنه خير يا فيدور – فيدور!

– هناك آراء كثيرة في الخير تبعاً لمن يُضمره في قلبه يا أمير... ولكننا سندعو إلى الله لأن ثلاثتنا راغبون فيه...

LVI

ربما كان السبب في قولهم "الملهوف يبتر يده" صحيحاً. لم يكف الهمُّ الذي كان يعيشه النقيب تورناو فجلب لنفسه همّاً آخر. لم يكن ما يشغل باله هو وعدُه تامبي بافتداء نفسه، بل أيكون قرمرز لم يفهم ما قاله له بالعين، فصدّق ما في

الرسالة واتخذ طريقه إلى بطرسبورغ؟ يعرف قرمرز طبيعة تامبي والأفكار الخبيثة التي تراوده. وغازي إمام الذي لم يسمحوا له أن يكلّمه، رجلٌ حكيم وذكيّ. ولكن ماذا إن أخطؤوا من لهفتهم عليه؟ ومن يثق فيه هؤلاء أكثر من غيره هو الحاج جانسعيد الأفندي ولكن متى سيأتي هذا الرجل إلى تامبي حابله؟..

لا يجوز الاحتفاظ بهمّ تورناو الذي اضطُرّ إليه، والذي صار الآن علناً. من في تامبي حابله يمكن أن يساعده؟ بكر؟ ناقج؟ دداي؟ براغُنه؟.. أأترجى براغُنه الذي طلب مني الكفَّ عن طلب مساعدته في قضاياي الروسية؟.. عندما يؤول الأمر إلى الظروف الخاصة بكل شخص فلا يجوز أن تفقد الأمل وإن عاتبته! – نهر تورناو نفسه بنفسه. – مضى زمن طويل على الوقت الذي كان يجب أن أهرب فيه... جزء من مسؤولية التأخر يقع عليّ وجزء لا يقع... هذا الذي يشخر عند أسفل الباب سيتبعني حتى من هذه اللحظة. مهلاً، لا تدع الحميّة تسلبك اتزانك يا تورناو. أين كنت إلى الآن، أيُّ يأس سمحتَ له أن يتسرب إلى نفسك فيه فقيّدك؟ أتعاقب نفسك في الأسر على مبدأ: البحث عن أعذار يقيدك. ما لا تعرفه عن نفسك أصارحك به: لستَ جاهزاً إلى الآن للهروب! لا تدع تامبي الذي يقيدك ويرفع القيد عنك يخدعك. ولا تحاول أن تكسب وُدَّ الأبزاخ. ولا يخطر لك أن يحبوك يوماً ما. وهل كلهم أناس أردياء حتى يرفضوك؟.. وأسلانكوز؟.. "

انتفض ناقج جالساً من صوت الكلاب القادم من أعلى القرية ونباح كلب الدار تجاوباً معه:

– ماذا جرى؟ وأين أنت؟

– اطمئنَّ، لا شيء مهم، – صاح تورناو من عند النافذة.

– لماذا أنت هناك؟

– شخيرك لا يدعني أنام.

– كم مرة نصحتك أن تعتاد عليه!.. – ردّ ناقج بجفاء ناسياً لطافة حديثه أمس، ثم لامه: – تعيش ولك كل يوم رأي!

– يا ناقج! التفت الأسير المستغرب ما يسمع.

– نعم، أنا ناقج، ناقج؛ ما الغريب؟

– أريد أن أعرف سبب عتبِك عليّ.
كرهتك منذ قابلت قرمرز الذي لا يفي بوعوده، بالإضافة إلى تملُّقِك تامبي. كنت أظنك أشد رجولة... – أدار ناقج ظهره وعاد إلى النوم.
ترك تورناو النافذة التي كان ليل الصيف القصير يفارقها غير متحمل المزيد. ثم ملأ غليونه وعاد إليها دون أن يشعله. وحين عجز عن إشعال فتيلة القداحة قال له ناقج بلامبالاة:
– لا تُتعِبْ يدك عبثاً، الجمر مغمور برماد الموقد. – ولما لم يسمع تورناو كلام محدثه وظل يقدح نهض ناقج: – أحاول أن أتحمل ولكنك في منتهى العناد!..
– مدّ له الجمرة الصغيرة التي اختطفها من تحت الرماد وهو يلعب بها في راحة كفه: – خذ؛ أشعِل!
– نعم سأشعل بكل سرور! – اختطف تورناو بإصبعيه الجمرة من كفّ ناقج، وقذفها في غليونه. – هل تدخن؟
– يكفيني دخان تبغك، – قال ناقج، وتمتم من تحت الشاربين الخفيفين اللذين شرع يربيهما.– ترهقني بغليونك الذي لا يفارق فمك ليلاً ونهاراً... لا أعرف كيف تتحملك أسلانكوز ورفيقاتها...
– ألم تلاحظ أني أخفف من التدخين حين تأتي أسلانكوز إلينا؟.. – مصّ النقيب الدخان بنهمٍ ونفخه.
– لستُ وحدي من لاحظ، دداي وخان أيضاً لاحظا. ولكن لا تعدّني بين من " تأتي إليهم أسلانكوز "... تتبادلان الابتسامات ناسيين أني جالس معكما.
" اسمع بِمَ يلمّح إليّ!". ابتسم تورناو في سِرّه وأجابه:
– ألم تُخبرني إذن عتَبَك عليّ بشأن أسلانكوز! لا أعرف بِمَ أجيبك في هذا الموضوع.
– إن كنت تنسى ما تفعل فسأقول لك ما يجب أن تفعل: احفظ الله في قلبك، وانزع منه أسلانكوز. لماذا تتلاعب بعواطف الصبية في الوقت الذي تفكر فيه بالهروب؟
– هل تخليت عن نية مرافقتي؟

– من الصعب أن تحاول ثانية ما لم تفعله في وقته.
– وهل تعدُّ موضوع أسري منتهياً؟
– اِسألْ تامبي!
اقترب تورناو بهدوء من حارسه، ونفض الصفوة في الموقد البارد. وأعاد الغليون إلى الكيس الذي خاطته له أسلانكوز وخان، وعلقه بالحائط. ولما كان الظلام ما يزال مهيمناً عاد فوقف إلى النافذة التي يعبرها شيء من النور. والطبيعة التي احتوت نباح الكلاب وعواء الذئاب هادئة. ويبدو من جهة الغابة المحاذية للشارع العريض سواد ليس ثابتاً يوحي إلى القلب بشيء من الرهبة. ومن جهة بيت دداي صوت بوم يرتفع حيناً، ويخبو حيناً.
– هل أنت نائم؟مرة أخرى سأل الضابط الأسير مَن وراءه؟
– لم أسمع جواب سؤالي، – لم يدعه ناقج ينتظر.
– على أيّ سؤال من أسئلتك تريدني أن أجيب؟
– ابدأ بأسهلها عليك!
– إن كنت تجد من اللائق بك أن تسمع وأنت مستلقٍ أجبتك.
– وأنت أسمعك إن كنت ترى من اللائق أن تدير ظهرك. ولكن إن لم أثق بك إلى الآن فلن أثق بعدُ.
اتجه كلٌّ منهما إلى الآخر: خرج ناقج من فراشه، ومدّ تورناو يده إلى كيس التبغ. وأغلق الحارس الباب الموارب. لم يكن الظلام يسمح لهما أن يرى الواحد وجه الآخر وإن كانا يتبادلان نظرات الاحتقار.
– هل تسمح لي أن أدخن؟ – سأل تورناو مموّهاً سوء التفاهم بينهما، وابتسم.
– إن اعترفت بذنبك فدخِّن عليه، – أضاف ناقج إلى من يحقد عليه وإن لم يتراجع: – أفهم معاناتك!
– شكراً على تفهُّمك إياي. اختبرنا كلانا ما بيننا من صدق، ولذا سأخبرك بما أنا راضٍ به عنك، وما أعتب عليك لأجله: لما كان ما جرى لكلينا متشابهاً كما أخبرتك مرة كنت أغفر لك ظلمك لي واثقاً من أنك ستعود يوماً إلى وعيك.

– لا أعرف، ولا أفهم وجه الشبه بيننا... أنت جئتنا عدواً صريحاً، وأنا أعيش وحيداً أتحمل كل ما يقولون لي ويفعلون بي. ثم إنكم أنتم المسؤولون.
– من كان يعرف أننا سنلتقي هكذا؟ ألسنا بشراً وإن كنا نتكلم لغتين مختلفتين، ونتطبع بطباع مختلفة، ولا ندين بدين واحد...
– حسنٌ أنك اعترفت بهذا... ألأنك وجدت نفسك في موقف صعب؟ أطلقتم علينا القوزاق ينهبوننا ما ليس لكم.
– أتقبل تعريضك لي على أنه موجّه لشخصي، – أجاب تورناو مستغرباً، قائلاً لنفسه: " هذا الشاب ذكي وإن حدث بيننا جفاء... " دون أن يستبعد السؤال الأخير معبراً عن رأيه:
– عالم البشر يا ناقج مركب من أمور مفهومة وأخرى مستعصية على الفهم.
– كالعلاقة بيننا؟
– لم تخطئ يا أخي، – " يا لها من طريقة سؤال! " – استغرب تورناو ثانية في داخله. – ولكني أقول هذا عن الرجلِ الكبير القائم علينا، قيصرِنا. حين تكون أقسمت يمين الولاء له فعدم الوفاء بالقسم والموت سِيّان.
– أليس براغُنه حنث بقسمه إذن؟
– براغُنه ليس ضابطاً، قوزاقي من العامّة. صحيح أني لا أوافق على ما فعل، ولكن ما العمل؟ العالم مركَّبٌ على نحو يصعب فهْمُه. أنا ما كنت أتجرأ على ما فعله. وأنت؟ أما زلتَ على قولك لي؟.. – سأل يريد التأكد مما إذا كان لا يزال على اتفاقهما الهرب معاً.
– أنا وافقت على هذا منذ زمن بعيد يا فيدور – فيدور، ولكن ليس أمري على ما تتصور. لم أكن أنوي مرافقتَك إلى جيشك الروسي، ولا حمْلَ سلاحه. نويت مساعدتك مقابل أن تساعدني على العثور على والديّ وأخي وأختي الصغيرين.
– على ما يبدو، – ابتسم تورناو، – خدمة مقابل خدمة؛ صحيح؟
– ماذا كنت تتأمل إذن؟ هل تريد أن تكون إنساناً نحو قومك وغير إنسان نحو الآخرين؟

– أنا لم أتأمل معونة إلا من الله ومنك. ولكني لا أفهم اعتبارَك توافُقنا شيئاً من الماضي. قل لي إن كنت تراجعتَ لأني لا أزال واثقاً منك.

– لا، لا أفكر في التراجع. بل لأن بعض التغييرات طرأت حسب ردِّك على كلامي... وإن أردت سأصارحك بما لا ترتاب فيه: أسلانكوز لن تسعد معك. يُخيل إليّ أننا، هي وأنا، سنسعد أكثر. والحقُّ أني لا أعرف كيف نسعد مع الحرب التي أعلنتموها علينا.

– لا تهتمّ إلى هذا الحد يا ناقج! – نصح النقيب تورناو حارسه غير مستغرب ما كان يخمّنه منذ هذا الربيع. – أمَا أخبرتك أنه ليس بيني وبين أسلانكوز إلا مشاعر الشفقة والإنسانية؟ معاني المرأة الشفوق كثيرة، ولكنك مخطئ في وساوسك. وسأخبرك بالحقيقة التامة: أنا إنسان ورجلٌ، أيُّ حبٍ تحدّثني عنه؟ همّي الآن هو كيف أنقذ شرفي العسكري وأنجو بنفسي من أسْرِكم. متى وفيتَ بوعدك وأصبحتُ حراً فأنا أدعو من أجلك أن يحقق لك أمنيتك إن كنتَ واثقاً من نفسك إلى هذا الحد أن أسلانكوز تريدك.

– كان عليك أن تفعل هذا منذ زمن طويل إن كنت تنوي الخروج من الموضوع. أنا سأبرّ بعهدي. أنت اطمئنَّ وموعدنا ساعةُ كونك جاهزاً. ولكني سأخبرك بشيء لا يعرفه تامبي ولا داور ولا أسلانكوز ولا أنت، ولا القرية كلها... أنا لستُ ناقج، تامبي هو من لقّبني بهذا اللمْز للسخرية مني[1]. أنا اسمي الحقيقي جامبج. وأنا من أسرة نبلاء. ومن آل أرجان. ما أشد استغرابك؛ ألا تصدّقُني؟

– ولماذا لا أصدق يا جامبج أنك سليل نبلاء؟ سأناديك منذ اليوم باسمك الحقيقي.

– لا يا فيدور – فيدور. لن يقبل منك تامبي هذا الاسم. هل تعرف بِمَ أجابني حين أخبرته أن اسمي جامبج؟ " لن أناديك باسم جدّي الأمير وقد التقطوك

---

[1] اللمز: الألقاب القبيحة التي نهى عنها الإسلام :﴿ ولا تلمزوا أنفُسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ (الحجرات 49 / 11)، ويعني اللقب الأعشى أو ضعيف البصر، وفي الاسم لمزٌ آخرُ وهو الجيم في نهايته التي تعني أيضاً نوعاً من التحقير.

من الطريق وجاؤوا بك على حارك حصان وأنت خادم عندي. اِفرحْ إن ناديتك "ناقج!" وإذا كان داور لن يصدّقني فسأجعله يصدق كُرمى لأسلانكوز. ولكني لن أغفر لتامبي إهاناته لي.

– كنت أشكّ أحياناً في أنك لست من عامة الفلاحين. ولكن لم يخطر لي أنك سليل نبلاء.

– ألأني كنت قاسياً عليك؟

– لستُ وحدي، كنتَ قاسياً أيضاً على دداي. ولكن لن نعيد الكلام في هذا الموضوع في اليوم الذي نفتح فيه قلبينا، أحدنا للآخر. ولن أكتمك ما أنا عاتبٌ عليك لأجله: كان عليك أن تُعلِمني أنك من أسرة نبلاء بصفتي من أسرة نبلاء أيضاً، بغضِّ النظر عن كوني ضابطاً روسياً.

– وماذا كان بإمكانك أن تفعل بوظيفة الحارس؟.. نعم، نعم، أتذكّر كيف هددت تامبي بجذوة مشتعلة... ولكن هذا ليس بطولةً. لو تركتنا وهربت إلى أصلك لاعتبرته رجولة منك. ولكن انتهى بك المطاف إلى الأبزاخ تسمح لمن يقيدونك ثم يعتذرون أن يخدعوك، ولا فرح يعادل عندك فرحك بأسلانكوز، وتفكر في أمنيات لن تتحقق لك.

بدأ الفجر يغلب الظلام والأسيرُ وحارسه يتبادلان الأحاديث التي تقرب أحدهما إلى الآخر، وتُباعِدهما. والآن رأى تورناو وجه ناقج على نحوٍ أوضح: لاحظ أفضل من السابق قامته القوية الرشيقة ورأسه المنتصب. ولم يطق صبراً على الخاطرة المفاجئة التي غلبته:

– وأنت؛ ما قعودك ترضخ لإهاناتهم؟

– وأين أذهب؟ إلى روسيا؟ وماذا أفعل فيها إن ذهبت إليها؟ تريدني أن أفعل هناك ما لم تفعله أنت هنا؟ إن كنت تنوي الانصراف عنا كما تقول ساعدتُك حالاً. ولكنك عليك أيضاً أن تُساعدني في العثور على أهلي عندكم في روسيا.

– أعطيك وعد الضابط في هذا. وجواباً لعرضك فأنا لست جاهزاً اليوم. هذا يحتاج إلى وقت.

– كم من الوقت؟ – سأل ناقج الأسير وهو ما يزال مستغرباً ما سمع. – مَن هذا أو هذه الذي لا تطيق فراقه.

– سأقول لك: – حسم النقيب تورناو، وأضاف لنفسه: "ما الذي لا يعجبك في هذا". قائلاً لها: "عدنا ثانية إلى خدمة مقابل خدمة"، – إن كنت تقصد أسلانكوز، – ردّ بكل بساطة، – بارك الله لك فيها يا رجل!

ردّ ناقج على الأسير الذي استهان بحبيبته الأولى، كاظماً غيظه: "هذا بديهي، ما حاجتك أنت إلى أسلانكوز؟.. انصرِفْ عني وكفى!.."

LVII

– هناك خبران ساران لك ولي يا فيدور – فيدور، – قال تامبي الذي دخل الغرفة يتطاير به الفرح. – أحدهما تعرفه، والآخر لا عِلْمَ لك به. قرمرز على الطريق إلى بطرس بورغ كما أخبروني. والآخر لن تحزره لو فكرت طوال النهار، وهو أني سمعت أن حارس القيصر خان جري القادم إلى جَلَنْجِق في القفقاس سيرسل فدية لك منه. هل سمعت يا ناقج؟ أنت يا ناقج لا تعير أهمية لتامبي ولكن اسمي يُذكر أمام القيصر في بتربف. هيا أُطلب لي ربابتي! هل أنت يا يدج هو الجالس صامتاً؟ هل أرعبناك؟ – سأل الصبيَّ الذي في حدود الثانية عشرة. – كيف حال أختك أسلانكوز؟

– هي في البيت، – أسرع بالردّ يدج الذي لا يطيق تصرفات الأمير الجسيم. ثم أضاف مناكداً: – تتعلم كتابة لغة فيدور – فيدور.

– وماذا ستفعل بها؟.. لِتتعلمْ إن شاءت... الأفضل من هذا أن تستمعوا إلى ربابتي. أليس صحيحاً يا ناقج؟

– طبعاً يا أمير، – أيّد ناقج مضطراً، وقال لنفسه "كم صدعتَ رؤوسنا بربابتك هذه! سأكسرها يوماً على رأسك"

تبادل ناقج وتورناو النظرات متسائلَين وإن كانت أفكارهما مختلفة.

" ما الذي جاء باسم أسلانكوز على لسانه الآن؟.. – حمل اهتمام ناقج في الأشهر الأخيرة على أن يسأل نفسه. – هل صحيح إذن ما قاله لي دداي قبل أيام؟.. وليس دداي وحده بل قاله لي أيضاً تورناو. خان هي من تعرف حقيقة الأمر. إن كان تامبي يتأمل أن تكون أسلانكوز زوجته الثانية فقد أهان نفسه بنفسه وإن لم أتدخل أنا... ولماذا لا أتدخل؟ يتذرع عبد الله أفندي التركي بأن القرآن يسمح للرجل بأربع زوجات فيزرع بين الأديغة عادة ليست فيهم. وإن

سمعت السيدة قُجنس بالموضوع؟.. أنا لن أُخبِرها ولكن كثيرين في القرية،بل في دار الإمارة نفسِها، مستعدون لإبلاغها... وهل جُنَّ داور ألمجري فيعطيَ ابنته للعجوز المتصابي؟.."

ضحك النقيب تورناو في سِرّه: "أنا من أوصلتُ إليك خبر بدء قرمرز رحلته وهو لم يفعل في الحقيقة... لم تُخطئ في خبر زيارة القيصر إلى جَلَنْجِق، أما خبر إيصال سلطان خان جري الفدية إليك فأسمعه أول مرة... ولكن من سيقف في طريق حصولك على الفدية من القيصر أو من خان جري أو من قرمرز فهو أنا..."

– أنتما، ناقج وفيدور – فيدور، لا يصلكما صوت ربابتي وغنائي. أليس صحيحاً يا يدج؟ احفظ في قلبك يا ولدي ألحان الأديغة.

– أنا حفظت اللحن يا بج ولكنك لا تغني الكلمات المرافقة له، – لام يدج الصغير تامبي.

– والدك من يعرف الكلمات، – ردّ على الصبي دون أن يتوقف عن العزف.

سأل يدج تورناو دون اهتمام بجواب تامبي:

– لماذا لا تزور أسلانكوز يا فيدور – فيدور؟ عندها تكون في مزاج جيد، وهنا في اكتئاب[1].

– ها! – صرخ تامبي بين الجد والهزل، – طبعاً هو سعيد عند أسلانكوز، يعرف مصلحته، ولكن الله لم يعطها العقل والجمال من أجل الكافر. اذهب إلى أختك يا يدج واسألها إن كانت ترغب في الزواج مني. أنا أفْضلُ منه لأني مسلم ومن أمراء القبرتاي.

---

[1] "كان تامبي يعزف في المضافة، – وكان واضحاً من عزفه سروره بالمال الذي سيأتيه، ينتظر كيساً من الذهب والفضة فدية لي متى عاد قرمرز من بطرس بورغ. وكنت أنا على النافذة غيرَ بعيد عن تامبي أدخِّن من الغليون. وأفكاري تحلق بعيداً مع الدخان. وكان يدجُ، الابنُ الأصغر لداور ألمجري، يرقص أمامنا. كان الصبي يحبني جداً. وانتبه إلى أني شاردٌ مع أفكاري...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

ركض يدج إلى بيته لينفذ ما طلب تامبي. وما لبث أن عاد حاملاً الجواب للأمير وعيناه تلمعان:

– أسلانكوز لا تريدك. لِيكتفِ بقجنس الجميلة!

– يحزنني يا يدج أن أختك لا ترغب فيّ. ولكن متى زاد غِناي _ نظر تامبي في عيني أسيره مرائياً، – فستندم أختك. وكانت قُجنس ستعنى بها ملاطِفةً إياها ومدلِّلة.

نتأ رأسا كتفَي ناقج، ونظر إلى الصبي، والتفت إلى الأسير.

– ماذا جرى لك يا ناقج حتى تغضب؟ – عنّفه تامبي، ثم سأله ساخراً: – وأنت أيضاً هل تنافسنا؟

قال تورناو ليدج متظاهراً بالمزاح من أجل منع مهاترة بين الأمير وناقج:

– اسأل أختك إن كانت ترغب في الزواج مني إذ أنها لا تريد الأمير.

مرة أخرى ركض يدج إلى أهله. وغاب هذه المرة طويلاً خلافاً للمرة الأولى. ولمح تامبي المرتاح لتأخر الصبي إلى ناقج:

– لماذا تجلس مكموم الفم؟ هذا الضابط الروسي لا يفهمنا نحن ولا أغنيتنا، ولكن ما بالك أنت؛ ألستَ أديغياً؛ لماذا لا تغني مع الأغنية ولا تصفّق مع اللحن؟

لم يجد ناقج المغتاظ من أنهم يسلبونه حبيبته ويسخرون منه الوقت للجواب إذ عاد يدج وعيناه خاليتان من أي أثر للفرح، وقال مُضفياً على نفسه مسحة الرجال:

– متى ما اعتنقت الإسلام تزوَّجتْك أختي، أما الآن فلا.

– أختك ذكية، ستهدي الكافر إلى الإسلام فتفتح لنفسها باب الجنة... – ابتسم تامبي وهو يردّ على الصبي مخفياً إهانة غروره، وخرج من الغرفة متذرعاً باقتراب صلاة الظهر.

– كيف أغيّر ديني؟ سأل تورناو يدج مازحاً. – أنا أسير بائس، لا أملك التصرف في شخصي، وربما قُطع رأسي قريباً.

– أسلانكوز فكرت في هذا. – لم يقبل يدج ما سمع وأجاب كعجوز صغير. – الأبزاخ سيدفعون لك الفدية متى غيّرت دينك الكافر، ويحررونك. وسيعطونك،

قالت أختي، الأرضَ والحصان والماشية والسلاح. وستُخلِص لك، وستحارب أنت الروس الكفار.
" اسمع ماذا يقول هذا الثرثار الصغير! – أجاب تورناو باسماً الرسول الصبي، – أنا جاهز لألبي لها ما تريد، ولكن أخبرها أني لن أغيّر ديني، ولن أحارب إخوتي الروس.
ساد الرعب الغرفة. وتبادل الثلاثة النظرات، وما في قلب كلٍّ منهم مختلف عن الآخر.
– إن كان هذا رأيك يا فيدور – فيدور فسأبلغ أختي... – انطلق الصبي إلى بيته.
– ما أشد امتعاض نظراتك مني وجفاءها يا جامبج؟ – سأل تورناو حذراً مَن تركَه عند الباب.
– أنظر إليك لأني لا أفهم ما قررت أن تفعله من أجل أسلانكوز... – أمَا رجوتك ألا تناديني باسمي الحقيقي! – كان مرتاحاً في الحقيقة لمناداته باسمه ولكن لم يملك إلا أن يحتجّ.
– استعجلتُ على اسمك حقاً، غير أن عدم ثقتك فيّ بشأن أسلانكوز، مع معرفتك بما في قلبي نحوها، يحزنني.
– وإن قبلتْ ألا تغيّر دينك؟
– أتعجب من أنك لم تلاحظ ما لاحظه الصبي... تمنح حبك اللذيذ طعم المرارة بنفسك. قلتُ ليدج هكذا بلا سبب وليس في قلبي شيء منه. أمَا أخبرتك أن الأمور ستسير على ما يرام!
– بلى أخبرتني، ولكن لا أعرف متى... – غادر ناقج مغمغماً لجلب الغداء.

LVIII

مضى أسبوع على إرسال تورناو جوابه المبهم إلى أسلانكوز.
كان الصبي يدج يأتي إلى تورناو، غير أن أسلانكوز امتنعت عن الظهور. ولم يكن تورناو يجد من اللائق أن يأتي على ذِكْرها أو يستدعيها. ناقج مسرور، وتورناو مهموم فقدَ أمله في الفتاة التي كانت واحدة ممن يعتمد عليهم لنيل حريته قبل أن يجد الوقت لاتخاذها موضع ثقة. وفيما يفكر في الموضوع أرسل

فيليامينوف فجأة رسولين إلى تامبي: أحدهما أَباته شِحام، والآخر تامبي لأكاس، ابن عم أسلانبج.

– الجنرال فيليامين يا أمير، – قال أباته، يطلب منك إعادة النقيب تورناو دون قيد أو شرط. فإن قبلتَ سامحك على ما ارتكبت من ذنب بأسْره، وتعهد بإعادة أملاكك التي تطالب بها. وإن لم تقبل، وبقيت على موقفك تطالب بزيادة الفدية فلن يُبقيك في الأبزاخ، بل على وجه الأرض كلها.

– والله يا أباته، وأنت أيضاً يا بن عمي لأكاس تناقشانني مع تهديد وقح، – نظر تامبي أسلانبج إلى داور، والتفت إلى الضابط الأسير، ولم يغب عن عينيه بكر وبراغنه وناقج.

– لسنا من يجادلك يا أمير، بل الجنرال فيليامينوف، – ساهم تامبي لأكاس معتداً، ولكن القرابة أعادته إلى حاله: – ما شأننا نحن، ألا تعرف طبيعة الجنرال الأحمر؟ طلب منا القدوم إليك فقدِمْنا.

– ما قاله قريبك لأكاس صحيح يا أمير. ومع ذلك، وأنت تعرف، لسنا أولاداً صغاراً فنُهرَع إلى حيث يأمروننا.

– حياكما الله على سعيِكما إلى فعل المعروف... – قال لهما أسلانبج، وأضاف دون أن تعرف سبب اعتداده بنفسه: – أنتما، على ما أرى، لا مانع لديكما من أن يقطع زاس رأسي، دون أن تردعكما روح أديغية، بل من حُسن حظي أنكما لستما موفدين من زاس. ولكن لا تهتمّا بهذا، نحن سنحمي أنفسنا بطريقة ما. كيف حال والدك يا قريبي؟ ألا يزال يعيش بقلب روسي؟

– لا أعرف إن كان والدنا بقلب روسي، – اعترض لأكاس ابن عمه، – يلازم الفراش منذ أكثر من سنة. اعتبر عدم سؤالك عنه في أثناء زيارتك لعادل جري إهانة.

– وهل أتيتم لدعوتي إليكم حين سمعتم بأني عند حمرزقوه عادل جري؟

– وهل تحتاج إلى دعوة لتزور عمك؟

– والله هذا صحيح... – تراجع أسلانبج نادماً على خوض الحديث في القرابة. – والله أستحق ما تعيّرني به، كنا غارقين في شواغل لا نهاية لها.

– قلْ هكذا إذن... – قلقَ والدنا عليك، وإن لم تعرّج عليه، خوفاً من أن يكون لك ضلع في اقتتال آل حمرزقوه... – قال لأكاس هكذا اعتباطاً.
"اسمع بِمَ يلمِّح لي قريبنا، كأنه يرتاب في أني مساهم في قتل أسلانجري..." – صاح تامبي في سرّه لابن عمه، ونظر بطرف عينه لناقج إثْر الضجة التي ثارت من جهة الشارع محاولاً التخلص من النقاش:
– أليس هذا صوت "خوس"؟ اطلب منهم السكوت، وليحرصوا على الفرسان القوزاقِ المسالمين المرافقين للضيوف!
– نحن لسنا ضيوفاً، – حسم أباته الموضوع حين سمع كلمة " ضيوف " – ننتظر جواب مهمتنا.
– ألستم أديغة فترفضوا أن تذوقوا طعام أسرة أديغية؟.. – قال داور الذي لم يقل شيئاً إلى الآن، وسأل النقيب تورناو يريد منه مساندته: – أليس صحيحاً يا فيدور – فيدور؟
– نعم يا أمير... – وافقه تورناو الذي يخفي انشغاله بموضوعه، قائلاً في نفسه: " أنتم ستنصرفون، وأنا سأبقى بين هؤلاء" – لا أرى من المناسب أن يمتنع من جاءا من أجلي عن الطعام لأنهما يتابعان موضوعي.
– نحن لسنا ممن يتخلَّون عن أديغيتهم، – لم يتراجع أباته، – ولكن المهمة التي جئنا من أجلها هي فوق كل شيء. لا يمكن إلا أن نسافر اليوم.
– ما العمل إذا كانت أذيال خيلكم تشتعل؟ – ابتسم تامبي في سره دون أن تختلج عضلةٌ من عضلات وجهه. – نحن أبلغناكم ما يجب، والباقي عليكم... ما أتعس الأديغة!.. ولكن بما أننا لم ننتظركم فعلينا، داور الأمير وأنا، أن نتشاور. تعال يا داور ألجري؛ وأين هو ناقج؟ هذا أنت؟ هل رجعت؟
حين بقي ناقج وبراغُنه والموفدان وحدهم في الغرفة سأل أباته تورناو:
– أراك لا تقول شيئاً أيها النقيب؟ كيف حالك وصحتك؟
– مهلاً، مهلاً – استعجل ناقج وعينه نحو براغنه،– لا تتكلموا في ما ليس ضرورياً. مَن تقلقان لأجله أمامكما، بخير وبصحة جيدة. وهل عجيب إن كان كساؤه مهترئاً قليلاً؟ من بقي في الدنيا من الأديغة لم يتهرّأ ثيابه في ظل الحصار الروسي! ستنتهي خياطة كسائه الجديد اليوم أو غداً... إن حملتموهم على دفع

دية جيدة فسنعيده إليكم بملابس جديدة تماماً كملابس طالب الزواج... – مزح معهم. خطر له أن يسأل الضيفين، من يعرف، إن كان في ناحيتهما أسرة تحمل نسب " أرجان" ولكن لم يجد السؤال لائقاً بوجود براغُنه.

وفي هذه اللحظة سأله براغُنه الذي لا يثق به ناقجَ الذي يتكلم كثيراً:

– أيُّ ازدحام ثار على الشارع؟

– ألا تعرف طبيعة "خوس"؛ سخر من الفرسان القوزاق، فلم نقبل منه، بكر وأنا. – ثم توجه إلى النقيب تورناو وقال له: – أجب يا فيدور – فيدور على سؤالهما حتى لا يتخيلا شيئاً غير صحيح.

– سأجيب إن رأيت الرسالة التي حملها إليّ أباته، وعرفتُ ما فيها.

– سأسلِّمك متى صرنا وحدنا.

– لا سرَّ أخفيه عن ناقج وبراغُنه.

– إن كانا موضع ثقتك فها هي رسالة الجنرال فيليامين، اقرأها[1]!

تصفّح النقيب الورقة بسرعة، ولحظة انتهائه من الرد عليها على جانب من الورقة[2] عاد تامبي أسلانبج وداور ألمجري إلى الغرفة.

– ماذا في الورقة التي معك؟ – سأل المضيفُ الأسيرَ.

– لا شيء يسرنا كلينا يا أمير. تكرر ما قلناه في العام الماضي... – قال النقيب في نفسه " ليفعلْ بي ما يريد! " فلم يُفصح لتامبي عما فيها اعتماداً على براغُنه الذي سيطلبون منه قراءتها.

---

[1] "ليس عندي طريقة أخرى لافتدائك، ولذا حدِّدْ لنفسك المبلغ وأبلغْني عن طريق أناس تثق بهم وأثق. أمِّلْ آسرك لأننا قادرون عليه. لستُ الوحيد المهتم بحريتك، بل رؤساؤنا أيضاً. وأنا أنبّهك إلى هذا بإرسال الموفدين إليك ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

[2] لا أرى من اللائق بشرفي كضابط أن تفتدوني.لا يستطيع الأسير المقيد أن يقيّم نفسه. ولا أريد أن أبدو أمامك يا سموكم يائساً. أعرف المخرج الوحيد لحريتي. ولكن ما أريده قبل افتدائي هو معاقبة من خدعوني ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– إذا كان فيليامين الأحمر لا يزال يقول هكذا، –لم يماطل تامبي في الإجابة، – فنحن ما نزال على السعر الذي حددناه وهو رُبع ألف سومة فضية. اِقرأ يا براغنه ما جاؤونا به من شتقاله – ستافروبول، وجوابَ النقيب عليه.

– سأقرؤهما يا أمير إن كنتم واثقين مني. وسأترجم ما فيهما.

– كيف لا نثق بك يا ميشك، هل أصبحت جزءاً منا عبثاً؟ اقرأ دون اهتمام بالتفاصيل لأن الموفدين على عجلة من أمرهما، أعلِمنا بالمضمون فحسبُ.

قرأ براغنه متظاهراً باللامبالاة ما كتبه الطرفان. وباللامبالاة نفسها أعادها إلى أباته قائلاً:

– ما قاله الأسير تورناو صحيح. أستغرب كيف أتى من شتقاله البعيدة من ليس لهم إلا هذا العرض وهذا الأمل.

– ربما يريدون أن يعرفوا إن كان ضابطهم ما يزال على قيد الحياة... – أسرع ناقج بالإجابة.

– قد يكون هذا صحيحاً... – قال براغنه موافقاً ناقج، – ولكن إن أردت أن تلخِّص ما فيها فهذا هو: إن تنازلوا عن نصف المبلغ الذي طلبوه افتديناك، وإن أصروا على المبلغ فافتدِ نفسك بنفسك.

– لم نتفق إذن على المبلغ. لا نريد من فيليامين الأحمر البغيض أن يعلِّمنا. – اختتم تامبي أسلانبج مهمة الموفدَين، وأضاف مقطباً جبينه: – إن لم يصلنا المبلغ المحدد من قِبَلنا خلال أسبوعين فسنعيد إليكم رأس النقيب تورناو مقطوعاً.

– إن كانت هذه نهايتي، – ردّ النقيب على تامبي، – فملِّحوا رأسي كي لا يفسد في الصيف القائظ.

– يا بن الـ...!..– احتد تامبي، ثم صبَّ حقده على الموفدَين الأديغيين: – وأنتما لستما أفضل منه، اغرُبا عن وجهي، ولكن إن جئتني ثانية يا بن عمي بمثل هذه المهمة فاعلم أني سأكسر رجليك.

LIV

"نحن رموز الدولة، نوسِّع بالسلاح حدود بلادنا مُجبِرين من لا يريدنا على الرضوخ بدلاً من أن نرتب أمورنا بأنفسنا دون أن نعترف بما لنا من حسنات

وسيئات. نحن نوع عجيب من البشر... – يتأمل فيليامينوف أصله الروسي: يعاتب نفسه وينصحها، يذرع أرض الغرفة، يقترب من النافذة، ينظر باتجاه أرض الأديغة، ثم يبتعد عنها. – من هم هؤلاء الذين أنتظرهم منذ أكثر من شهر؟ العقيد سلطانوف خان جري، والرائد فريفسك. الأول منهما شركسي، والثاني ألماني. ثلاثتنا، بمن فيهم أصلي الروسي، نقلق للألماني الذي لا نستطيع حلّ مشكلته. ومن هو زاس الذي لا يكفّ عن ملاحقتي؟ هو الآخر ألماني؛ أعجيب إن كان جنرالاً روسياً؟ وروزين الذي استدعوه من تفليس ألماني أيضاً. وبنكندورف رئيس الفرع الثالث من البوليس السري؟ كان ألكسي بيتروفيتش يرمولوف روسياً فعزلوه بحجة الاستراحة. والآن أظن دورنا، إفدوكيموف وأنا، قد حان... "

دخل معاون فيليامينوف الرشيق إلى الغرفة، وقال للجنرال:

– يا سموكم: العقيد سلطانوف، والرائد فريفسك.

– ليدخلا!

– تفضلا أيها الضيفان العزيزان.– استقبل الجنرال فيليامينوف الذي كان قبل قليل يفكر في أصله الروسي، وفي ترتيب أمور دولته ضيفيه بوجه طلق كأنه شخص آخر. وصافحهما متعجباً من عدم ارتدائهما زي الضباط، ومعللاً لهما، وسألهما: – ألم يكن طريقكما مريحاً، لا أظن أحداً أزعجكما عليه. وهل وصل في الوقت المناسب حراسكما الذين استقبلوكما؟

– شكراً يا سموّكم، – قال سلطان خان جري للجنرال، –كان طريقنا عبر بلاد الأديغة مريحاً ربما لأننا موفدو سلام. لم يؤذنا أحد، ولكن لا أعرف كيف سيكون طريقنا من ستافروبول إلى إيكاترينودار.

– وهذا لن يكون صعباً عليكما. ولكن لماذا لا أخبركما أيها السيدان بحقيقة وضْعِنا، لن يكون طريقكما من ستافروبول إلى بروجني أو كوب عبر البسلني والأبزاخ والجمكوي سهلاً. لصوص الأبزاخ لا يدعوننا نهنأ بالعيش.

– وأنتم يا سموكم، – سأل فريفسك قريب وزير الدفاع الروسي تشيرنشيف، – ألا تزعجون الأبزاخ؟ – هل تنفذون الأمر القيصري بالحرص على سكان شمال القفقاس ولا سيما الشراكسة طوال تنفيذنا مهمة السلام؟

– أنتما ثمّنتما للتوّ عملنا يا بارون دون حاجة إلى أن أتكلم في الموضوع. مهمتكم السلمية، – ابتسم فيليامينوف في سرّه، – ننتظر نتائجها ونكظم أنفسنا؛ وإلا كنا اقتحمنا الأبزاخ منذ زمن طويل، وكنا انتزعنا منهم النقيب تورناو الذي يشغل بال قيصرنا... ولولا روزين ما كنتُ سمحتُ له أن يدخل أرض الأبزاخ... الأبزاخ بلا شرف، ولا أمان لهم. ليسوا مثل قومك البجدوغ المسالمين يا خان جري، وسامِحْني على مخاطبتك باسمك المجرد.

– وقومي البجدوغ ليسوا كما تصفهم تماماً على ما أظن. أجاب خان جري متصنعاً الابتسام، وارتمى بقلبه في لوستان حابله التي رُبّي فيها. وانتصبت جدته قانْتات أمام عينيه، وأطل على إيكاترينودار على ضفة نهر بشزه حيث تعلّم طفلاً. وامتثلت له بطرس بورغ حيث يقيم القيصر. وإذا عاد عدة سنين إلى الوراء آلمته حرب بولونيا التي لم تكن ترضخ فسال فيها الدم فتحمّل ألمه. ثم تابع كلامه: – وفي البجدوغ كثيرون ممن لا يحبوننا. ولكني واثق أن هؤلاء سيرضخون إلى حلٍّ ما. ولهذا ندور، البارون وأنا، في أرض الشراكسة منذ سنة لا ندَّخر جهداً،حاملين تعليمات القيصر. وكتم في نفسه ما لم يستطع قوله صراحة: " أنتم لا تفهمون أن من لا يرضخون لكم إن ضربتموهم سوطاً ردّوا عليكم. لا ترتدعون بما فعل يرمولوف في أرض القبرتاي، ولا يُعيدون إليكم الوعي... "

– متى سيصالِحنا هؤلاء أيها العقيد؟ – تناسى فيليامينوف أن المسؤول هو من قوم هؤلاء.

– لا تتصور يا جنرال أن رتبة من تسأله أدنى من رتبتك. – دفع السؤالُ الوقح للجنرال البارونَ فريفسك إلى القول، – الجالسُ أمامك هو موفد قيصر روسيا، ورئيسُ حرسه؛ الأفضل أن تحرص على تعابيرك.

– سامِحوني إن رفعتُ صوتي قليلاً، – وجد فيليامينوف عذراً لعدم ضبْطِه ما في قلبه وإن حاول استدراك خطئه. – يمكن أن يحدث لك مثلُ هذا متى كنت ليلاً ونهاراً تخوض حرباً وهمية. صحيح أني أعرف أنكما، ولو كنتما أصغر مني سناً، حاربتما. سلطانوف خان جري وأنا حاربنا معاً في إيران ولو لم يكن أحدنا يعرف الآخر. وإن كنا نتبادل الثقة صارحتكم بما في قلبي: يُفنيني قعودنا

مكتوفي الأيدي، رِجلاً على رِجل. والجيش الذي أقوده يفقد لياقته الحربية يوماً بعد يوم. والأبزاخ يعرفون أننا لن نقتحم أرضهم خلال سنة على الأقل فيعبرون نهر لابا ويصلون إلى هنا، وإلى أبعد منه.

– شكراً يا جنرال على ثقتك بنا، – قال خان جري لمن كان يحاول التمويه على فلتة لسانه، – ونحن نستحق الثقة. ولكني أود أن أقول لك معترفين بالخدمة التي أديتها لروسيا التي في قلوبنا نحن الثلاثة: كل قوم من البشر أياً كان، الأفضل ألا تستعجل معهم على الكلام الذي لم ينضج بعدُ في القلب. شمال القفقاس، لا الأديغة وحدهم، مركّب بطريقة عجيبة خلافاً لما تتصور الأقوامُ الأخرى، وخلافاً لما نتصور نحن في روسيا. وقد طمع في الاستيلاء على هذه المنطقة الكثيرون ابتداءً من الإسكندر المقدوني، وجنكيز خان، وتيمورلنك، وانتهاء بالفرس والترك والإنجليز والقرم، وغيرهم، فسُفك الكثير من الدم، ولكن لم يستطع أحدٌ احتلالها.

– على كلامك يا عقيد، – قال فيليامينوف الذي يعرف كل هذه المعلومات منذ زمن بعيد، – وصل الدور إلى روسيا.

– لم يصل الدور إلينا فحسبُ، بل صارت القفقاس لنا. ولكن حسب ما يقول ممثلو العروق الاثني عشر للأديغة الذين اجتمعنا، أنا والبارون بهم، سيستغرق الأمر سنوات طويلة.

– ودواء هذه الحالة ورّثنا إياه الجنرال ألكسي بيتروفيتش يرمولوف.

– وما هو هذا؟ – سأل فريفسك.

– هذا الدواء نعرفه أنت وأنا يا بارون، – قال فيليامينوف للرائد الذي أُرفِق بخان جري بمعرفةِ بنكندورف مستطلعاً وجاسوساً عليه. – كنت أود أن أعرف إن كانت معلوماتي ومعلوماتكما متطابقة. – قال فيليامينوف كأن بلا مبالاة، غير أن عينيه التهبتا بالغضب. " هذان لا يجوز التحدث إليهما بصراحة على ما يبدو لي. وهما،وإن بدا عليهما أنهما صديقان، لا أظنهما يتبادلان الثقة. نوسّع روسيا في الجهات الأربع ونقوّيها ولكن مَن هذان؟ هما مِن الذين سينقضون أساسنا يوماً ما. نحن ندعو الشراكسة إلى مائدتنا مع علمنا أنهم سيطردوننا منها يوماً كما يقولون. ولا يكفي هذا بل نزين أكتافهم بالرتب. ثم

يعلّموننا واجبنا باسم القيصر!.. وأنتِ يا روسيا، بلادي المسكينة، تربّين من ستكون نهايتك على أيديهم في أسرتك وتدللينهم كما يقال من أن الدجاجة تحفر بقائمتيها ما ستكون نهايتها فيه... أليس من البؤس أن تطلب ممن تحاربهم أن يحموك غيرَ واثقٍ من الروس الذين أنت قيصرهم؟.. وهناك من يرى أن القيصر يحتفظ بهؤلاء ويطوف بهم نوعاً من الزينة والعرض، ولكن هذا الرأي غيرُ مقنِع لي... " – صحا فيليامينوف الذي كان يعذب نفسه بإحساسه الروسي، ودان ضيفيه تحت ستار التمويه على كلماته العاتبة التي لم يصارحهما به: – أراكما أيها السيدان لا تقولان شيئاً؟

– لم نعترضك يا جنرال لأننا رأيناك سرحتَ بعيداً مع خواطرك، – مازحه خان جري بما في قلبه.

– نعم يا سيد، نعم، سامِحاني، متى كان في يدك مصير آلاف الجنود، والبلادُ وقيصرها المنير يتأملان منك، فلن تكون أفكارك محدودة... أسمعكما يا ضيفيّ العزيزين.

– ربما تتكلم يا جنرال على طريقة فصْلِ القبرتاي عن الاثني عشر عرقاً من عروق الأديغة؟ – سأل خان جري، وأضاف غيرَ منتظر الجواب: – منذ زمن غير قصير فكّرنا، البارون وأنا، في هذا الموضوع.

– يسرني أيها السيدان، ولا أستغرب، أن تتطابق أفكارنا نحن جنود روسيا الثلاثة...! – فرح فيليامينوف بتحقُّق ما يريد، – والآن ما المهمة التي أمامنا؟

– سألهما وأجاب: سنُخضع الأعراق الأحد عشر المتبقية من الأديغة، مشتتين إياها عِرقاً عرقاً، دون أن نتيح لها الفرصة لأن تعود إلى وعيها وتتوحد.

– وإن لم تخضع؟ – سأل فيرفيسكُ مرافقُ خان جري الشركسي، العقيدِ الروسي، قائدِ حرس القيصر، الذي كان ينتظر تعليق خان جري.

– إن لم يخضعوا، – لم يدع خان جري ينتظرانه، – سينطبق على الأديغة قولهم المأثور: " من لا يرضخ يجد نفسه خارجاً "... مهمتنا التي نضطلع بها هي رسالة القيصر السلمية. ولا يجوز أن نفعل هذا خلال هذه المهمة. عالمُ ما وراء البحار لا يغفل عن متابعة أمور شمال القفقاس. ويرى قيصرُنا المنير أنه يجب

إعداد الرأي العام العالمي للوصول إلى هذا الإجراء.ويضطلع وزير الخارجية بكل ما يتطلبه الموضوع.

– نعم، نعم أيها العقيد. – وافق فيليامينوف ثانية بفمه خان جري الذي لا يثق فيه، ثم شهِد معتضداً بقول روسي مأثور، معتداً بذكائه، ملتفتاً نحو الرائد فيرفيسك: – كل فاكهةٍ طيبةٌ في موسمها. تكلمنا في كثير من الموضوعات أيها السيدان، ولكننا غفلنا عن النقيب تورناو المأسور في الأبزاخ. ماذا يمكن أن نفعل لأجل هذا المسكين؟ ومع ذلك لا أظنكما أيها السيدان تجهلان عدم موافقتي للجنرال روزين الذي نقلوه من تفليس على إرسال تورناو إلى أرض الشراكسة. وكنت كتبت لقيصرنا رأيي الحقيقي في الموضوع. وأظنكما تعرفانه.

– نعم، نعرف، – حسم خان جري بصوت قاطع.

– ونعرف رأي القيصر في رسالتك يا جنرال، – وافق فيرفيسك خان جري، – نثمّن رجولتك، ولكنهم لا ينسون الضابط المخلص لبلاده الواقع في محنة.

– هذا له حلول كثيرة، – أضاف خان جري إلى كلام فيرفيسك.

" انظر إلى تعاوُنِ هذين!.. – قال فيليامينوف في سره مبتسماً دون أن تغلبه رهافة الحس.– الشركسي يتضامن مع الألماني، والألماني يدافع عن الألماني... هذان يخفيان عني شيئاً لا أعرفه... هل يعرفان مني ما يدينانني به؟.. – سأل نفسه وأجابها دون أن يتناسى رجولته: – لو كان عندهما مثلُ هذه النية لما تحدثنا ثلاثتُنا حديثاً صريحاً. وماذا يمكن أن يضراني؟ هل يشيان بي إلى القيصر؟.. – ثم نهر نفسه من جديد: – إن كنت لا تعدّ عاراً كونَك مقاتلاً روسياً، جنرالاً مخلصاً لبلادك، فما من شيء تخاف منه.

– حقاً، ما تتحدثان عنه له حلول كثيرة... – قال فيليامينوف الآن بنبرة ألطف، ضابطاً أعصابه، بين المعاتب نفسه والمواسي لها، ولكنه لم يغير رأيه: – لو كان الأمرُ بيدي لحشدتُ الجيش في الأبزاخ وحررت الضابط الذي لم يستطع تأدية مهمته، والذي تتلهفان من أجله... تطلب المحال على قول الشراكسة "لا تُقم في البيت ولا تخرجْ، ولا أدخلْ إليه وأنت فيه"؛ أهذا ما تريد أن تقوله لي أيها العقيد؟

– فكِّرْ أيها الجنرال في معنى ما تقول! – جزم سلطان خان جري لفيليامينوف عارفاً حدود مهمته وعمله. ثم ضبط نفسه، وردَّ على تلميحه بتلميح: – تُوظِّف القول الشركسي الصائب جيداً ولكنه لا ينطبق عليك ولا عليّ. أنت تتطلع إلى أبعد مما ينبغي... لما كنا وحدنا في هذا المكان فسنتناساه ثلاثتنا. لا تخطئ في شأن الضابط الأسير الذي ترانا نتلهف من أجله. إذا كان القيصر العظيم يقلق بشخصه على ضابط جيشه فعلينا، أنت ونحن، أن نفعل مثله. قابلْنا نحن، الرائدُ فيرفيسك، الممثلُ الشخصي لوزير القوات المسلحة وأنا، قرمرزَ تيمبولات ولُوَ ممت – جري. نعم يا جنرال لا تستغرب، حين كنا نتجول في البسلني قابلْناهم في قرية شجراي، فأطلَعانا على موضوع النقيب تورناو. وأنا أرى رجاء النقيب ألا يفتدوه صحيحاً. إن استطاع أن ينجو منهم بجهده الشخصي فهو مناسب للجيش الروسي. وآل قرمرز سيقابلونك فنأمل منك أن تساعدهم. وسنبلغ الموقف نفسه للجنرال زاس حين نزور بروجني أوكوب.

لم يجد فيليامينوف الفرصة للإجابة بدخول معاونه الذي قال له:

– يا سموّكم، جاء الأمير حمرزقوه عادلجري، وغازي إمام، ممثلا الشراكسة في ناحية وارب واللاجئين إليها من آل قرمرز، لمقابلة ممثلَي القيصر العظيم.

– وماذا يريدان؟.. – سأل فيليامينوف قائلاً لنفسه: "كرهْنا هؤلاء!" واختتم بجواب حاسم: – لينتظرونا ساعتين أو ثلاثاً! – ثم توجه إلى الجليسَين: – وأنتما أيها السيدان وصلتُما حديثاً، سنتصرف كما تريدان بعد الغداء.

– لا يا جنرال، – استشار خان جري رفيقه فيرفيسك بعينيه، – وهذان وصلا للتو، لن نجعلهما ينتظراننا كل هذا الوقت.

– لِيدخلا! – لم يُبدِ فيليامينوف عدم رغبته فيهما.

حيا الموفدان الحضور باسم من أرسلوهما، ثم قال حمرزقوه:

– نحن يا جنرال نريد التحدث إلى موفدي القيصر وحدنا.

– لا سِرَّ عندنا هنا مع أحد، – أبعد خان جري الثقة التي أولياها بهما. – قولا ما تريدان منا صراحةً.

– حسنٌ إن كان هذا رأيكم، – فهم حمرزقوه أن لا مكان لشكواهما بحضور فيليامينوف فغيّر موقفه واثقاً أن رفيقه غازي إمام سيؤيده، – كان لنا رجاءٌ أن تسمحوا لنا بمقابلة القيصر القادم إلى القفقاس، ستافروبول.

– القيصر ينوي مقابلة كل من صالحَنا من الأعراق المختلفة، لا أنتم وحدكم حين يزور القفقاس في الخريف القادم. فثقوا أنكم تستطيعون ذلك.

– لما كان موفدا القيصر أكّدا الخبر الذي وصلَنا أيها المحترم فلن نشغل الزعماء الذين عندهم مهام كبيرة أكثر من هذا، – اختتم غازي إمام اللقاء القصير، وخرجا من الغرفة مع شارة احترام.

قال فيليامينوف باسماً دون سخرية:

– هذه أحوالُنا يا عقيد كما تريان...

تظاهر خان جري وفريفسك بعدم سماع كلام فيليامينوف، ومع ذلك أرسل الأخيرُ في الليلة نفسها رسولاً إلى بروجني أوكوب يأمر بإخفاء رؤوس الأديغة المعلَّقة على الأعمدة عن موفدَي القيصر.

LX

أيقظت أصوات المدافع الصادرة من جهة نهر شحغواشه النقيب تورناو من النوم متحفزاً، وركض إلى النافذة. وخرج من الغرفة ناقج الذي كان يردد:" ليس هذا دويّ رعد ". وكان يخيم على القرية ضجيج الناس، ووقعُ حوافر الخيل، ونباحُ الكلاب. والمبلّغان يناديان " النجدة، زاس عبر بجيشه نهر شحغواشه! صُدّوا القوزاق يا من يلبسون قبعات ويقدرون على حمل السلاح، أوقفوا زحْف العدوّ!.. "

– لماذا أنت واقف يا ناقج، تعال! – ناداه دداي من على صهوة حصانه الأغر، وتجاوزه مسرعاً.

– أين أذهب وأنا حارس الأسير؟! – تابعه ناقج.

– لا تبق من أجلي إن كان لك فائدة، – سمع ناقج مِن ورائه وهو في حيرة من أمره.

– هذا أنت!.. – التفت ناقج بمزاج سيء وتشفى بأسيره: – تريدني أن أتركك كي تهرب؟ هيا أُدخل إلى الغرفة.

– لماذا لا تذهب إلى ساحة استعراض البطولة حيث الأمير تامبي؟ – قالت قجنس التي دنت منهما حاملة عصا فضية مزخرفة. – نحن، نساء الأسرة، سنحرس الأسير بطريقة ما.

– سأسمع كلامك إذن، ولكن لا أعرف كيف سيتصرف هذا معكنّ.

– إن كنت تريد أن تريحنا فضع القيد عليه، – أعطت قجنس المفتاح إلى ناقج، وانصرفت دون أن يلمس طرفُ عصاها الأرض.

– ما زِلْتَ تؤجل هروبك إلى الغد وبعده فاستنفرت جيش زاس... – وضع ناقج القيد على رِجلي تورناو وهو غير مرتاح لِما يفعل، وربط طرفه برجل الصوفا: – هذا ما تستحقه ولو أنك عاتبٌ عليّ...

شعر تورناو بالإهانة إذ لم يكن ينتظر أن يجري له مثل هذا في هذه الأيام. ولكنه لم يقصّر في الجواب:

– لم أكن أنتظر أحداً ولكن لم يتركوا لي الوقت لأحقق مرادي. أنت مَن تراجع عن كلامه. أما في موضوع حريتي فأنت من بدّل كلامه، وإن كنت تعرف أني لا أريد من أحد أن يُطلقني بالخير أو بالشر فأنا أذكّرُك ثانية به. اِحرص على نفسك حيث يرسلونك، السيف والرصاص لا يستشيران من يصيبانه.

خيّم الخوف على القرية في الساعة التي انطلق فيها الفرسان والمشاة من تامبي حابله. انقطعت أصوات الناس والكلاب، بل الطيور. لا يرى تورناو إلا الذباب الذي يتراقص في الغرفة بأجنحته الرفيعة. يقول لنفسه وهو يراقب الذبابة التي لا تستطيع أن تخرق زجاج النافذة مشبّهاً نفسه بها: "الوحدة مأساة غير أن فقدان الحرية أعظم منها... – هل ستتعب وتهدأ أم تظل تكافح من أجل حريتها حتى تستنفد قواها؟.. كان أفضل شيء لها أن تجد حفرة صغيرة لنفسها دون أن يُفتَح لها الباب أو النافذة... ما العمل أيتها الذبابة الصغيرة ذات الروح؟ أنتِ وأنا، دون أن يعرف أحدنا الآخر، حبسونا معاً في الغرفة. أنتِ على كل حال تستطيعين النظر عبْر النافذة، وأنا قلقٌ لما سيجري لي وأنا أعرف ولا أعرف ما جرى. يبدو أن زاس صدّق توقُّع مهاجمة الأبزاخ. أمَا كان الأجدر بهم أن ينتظروا فراغ خان جري والبارون فريفسك في الأبزاخ؟..

لا أظنهما وصلا إلى الآن إلى جلنجق حيث سترسو سفينة القيصر... أيكون فيلياميتوف أطلق جيشه إلى الأبزاخ بحجة تحريري؟.."

– هيه! ألم يبق في الدار أحد؟ هل لجأتم جميعكم إلى الغابة؟.. – جعل القلق تورناو يصيح إلى خارج الغرفة، ولكنه نصح نفسه حين لم يردّ أحد: – انقطعت أصوات المدافع... من يُخبرني ماذا يجري في نواحي شحغواشه؟.. – حاول أن ينهض فقذفه القيد إلى الخلف فسقط. وفي اللحظة التي عاد يتابع أفكاره فيها نظر يدج الصبي عبر النافذة، – تعال، أُدخُل من الباب، – ناداه مشيراً إليه بيده.

– هل أنت في البيت شاعراً بالملل؟.. – سأله يدج غير عارف تفسير ما يرى في البيت. – أنا سألت قجنس فأخبرتني أنك هُرِعت مع الأبزاخ للقتال...

– ربما مازحتْك...

– لماذا تمزح معي قجنس في مثل هذا اليوم؟ ألستُ لابس قبعة؟.. انظر ماذا فعل بك هؤلاء... – هجم يدج على القيد، ولكنه حين رأى القفل عرف أن محاولته يائسة فقال له شاكياً: – اِصبرْ يا فيدور – فيدور، سأكلِّم قجنس حالاً لفك القيد عنك.

– المفتاح ليس معها.

– هل اصطحبه ناقج إلى ساحة المعركة إذن؟– جحظت عينا يدج الصغيرتان السوداوان.

– لا تقلق، سيفكُّه ناقج متى عاد من المعركة.

– وإن لم يعد؟

– سيعود! – لم يدع تورناو اليأس يدبّ إلى قلب الصبي. ولكن أضاف إليه: – لا سمح الله بمثل هذه المصيبة! سمَّوا الحربَ حرباً لأنها مأساة[1] إن حدث أن لم يعد ناقج فلا بد أن نجد حلاً له. – ثم إن أصوات المدافع انقطعت.

– هذه صمتت منذ وقت غير قصير يا فيدور – فيدور.

– هذا هو الوضع يا يدج... – ومع ذلك تبكي... – يمزح تورناو مع الصبي ويواسيه ولكن جوابه جعله يندم.

---

[1] المعنى الحرفي للحرب في الأديغية هو تبادُل الضرب.

– لا تظن أني خائف... أُشفِقُ عليك فحسبُ.
– شكراً يا يدج.
– وهل يستحق هذا الشكرَ؟ – مرة أخرى قلق لأجله متظاهراً بعدم الاهتمام بما قيل له: – حان موعد أذان الظهر، ولا أظنهم قدموا لك الفطور. سأسرع إلى بيتنا وآتيك بشيء تأكله.
– لا أريد أن تعرف أسلانكوز وضعي ولا أن تراني.
– فهمتُ، حالاً أنا...
" ما لا تفعله في وقته يعود عليك بالضرر... حين بقي تورناو وحده إلى جانب قائمة الصوفا، أضاف إلى أفكاره:" أستحق ما كان يقوله لي ناقج، وما عيّرني به هذا الصباح حين طلبوا منه الاشتراك في المعركة. أُتيحت لي فرص كثيرة للهروب في خريف العام الماضي، وفي هذا الربيع، وفي الأيام القليلة الماضية. ولكن هل كنتُ أنتظر أن يتراجع ناقج؟ – سأل نفسه وهو يسخر منها، – ونيّته نحو أسلانكوز لم أعرفها إلا منذ زمن قصير... وها هو مَن كان سيحررني قيّدني، وحمل السلاح ضد من كان يُفترض أن يفتدوني. لو كان يودّني ويريد حقاً أن يحررني لأعطاني مفتاح القيد بطريقة ما... ماذا أقول، وعلام أتكلم، وماذا أنتظر؟ أخشى إن بقيت على حالي أن أسلك طريق براغنه الخائن... لا، كفاك أيها الضابط تورناو، عدْ إلى وعيك، لا يجوز أن تصدِّق كل من يبتسم في وجهك! – رفع رأسه على إثْر أصوات الكلاب التي ارتفعت من طرف القرية، ووصله وقْعُ حوافر الخيل: – ما أسعد أن تعود الروح إلى القرية التي بدا للحظة أن لا حيَّ فيها غيرُ يدج الصغير وغيري..."
دلف يدج الحاملُ صحناً فيه بعض الفطائر فرِحاً، وقال لتورناو مشيراً إلى من خلفه:
– ها هو ناقج قد عاد يا فيدور – فيدور!
– ما الأخبار حيث كنتَ؟ – سأل تورناو ناقج الذي كان يرفع عنه القيد.
– وماذا سيكون من أخبار؟.. نصب قوزاق زاس مدفعَيهم على ضفة شحغواشه وقصفوا الأبزاخ. ولكن طلقاتهما لم تصل إليهم. والآن تبادلنا قبضات التهديد وافترقنا.

– لا قتلى ولا جرحى إن شاء الله؟.. – قال الأسير المحررة ساقاه وهو يروِّضُهما على أرض الغرفة. – تناولْ أنت أيضاً قطعة من البرك، ربما لم تتناول شيئاً طوال النهار... ماذا قال لك الأمير أسلانبج حين رآك؟

– مَن سألتَ عنه، – ردّ محتقراً تامبي دون ذِكْرِ اسمه، – لم تقع عيني عليه. رأيت هناك حجرت نقار وداور أمجري.

– بديهي أن ترى والدنا هناك! – سُرَّ يدج بما سمع.

خرج الثلاثة من الغرفة على إثر الأصوات التي سُمعتْ من جهة باب الدار. ولما رأى الفلاح خوس الأسير امتشق خنجره مؤلّباً رفاقه:

– أنت أيها الخنزير الكافر من جلب لنا هؤلاء! – وأضاف بالروسية غيرَ مكتفٍ بما قال له بالأديغية: –.أنت خنزير والروس خنازير؟.....

– سأقتلك إن لم تتراجع عن كلامك اللحظةَ! – حين هجم تورناو دون وعيٍ وانتزع عموداً من أعمدة الحائط، أسرع أحد الواقفين وأمسك بيده، وهجم عليه آخرُ. ولما فهم الضابط الأسير أنه لن يستطيع التغلب على هؤلاء رمى "السلاح" الذي كان يعتمد عليه إلى الأبزاخ، وعاد إلى الغرفة يرفع رأسَي كتفيه ويخفضهما[1].

في اليوم نفسه، في بدايات المساء، حين رووا لتامبي ما جرى عند باب داره كان كلامه مختصراً:

– أعيدوا إليه القيد!

---

[1] قال لي خوس الذي ظل يرمي من ضفة شحغواشه حتى استنفد طلقاته حين رآني، بالأديغية " أنت خنزير شرير " وأضاف بالروسية : أنت خنزير والروس خنازير؟....ولم أُطِقْ صبراً فانتزعت عموداً مسناً من الحائط وهجمت عليه. ولكن بعض الواقفين أمسكوا بي. وحين فهمتُ أني عاجزٌ عن التغلب عليهم رميت بالعمود وانصرفتُ. وبقيت في الغرفة غير عابئ بما جرى بعد ذلك. كنت فقدت الأمل في الحرية، واستوى عندي كل شيء... وفي المساء عاد تامبي إلى القرية. ولما رووا له ما جرى عند باب داره هددني عابساً: " سيبقى عليك القيد منذ الآن ليلاً ونهاراً. وسأقيد يديك لتجرُّئك على محاولة قتل المسلم... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

وبعد هذه الحادثة بثلاثة أيام سُمعتْ أصوات رجال يقفون عند جدار الغرفة التي يُحتفَظ فيها بالأسير: ينظر عبر نافذته أناس لا يعرفهم، وينصرفون.

– ماذا يريد هؤلاء؟.. – سأل تورناو ناقج شاعراً بالإهانة مما يفعلون به.

– لم أكن أريد إخبارك. يجتمع موفدون من الأبزاخ في مضافة داور للحكم عليك بسبب محاولتك قتل مسلمٍ.

– وهل سيستدعونني؟

– لا، الوحيد الذي طُلب من جهتنا هو تامبي. يتهمونني وأنت معه.

– ألا يجب أن يستدعوني إن كانوا يدينوننا ليتحققوا من تهمتي؟

– وهذا رأيي أنا أيضاً... ولكن لا أظن أن تامبي الذي يحاول بيعك سيتخلى عنك. استدعى سليمانَ أفندي الذي أرسله الإمام شامل من الداغستان للتدخل في موضوعك. وتوسلتْ أسلانكوز إلى والدها أن ينحاز إلى صفّك. ما حمّلَنا اللهُ حِملُنا ولذا سندعو إليه. وأنت يا فيدور – فيدور أُدعُ إلى ربك، من يعرف ماذا سيقرر الأبزاخ العنيدون[1]!

---

[1] "أصدروا حكماً عليّ في بيت داور، – وكان تامبي يُقنع، حامياً مصلحته الشخصية، كلَّ الأعضاء أن كل آماله في استرجاع كل ما فقده عند الروس ستنتهي متى قتلوني. من كانت كفّتُه راجحة في هذا النقاش:؟ أهو كلام من أسرَني أم نيّتي أن أُزهق روح مسلم أبزاخي؟ لم يتفقوا على هذا فقرروا إحالة أمري إلى أفندي الداغستان سليمان أفندي. ولم يعترض الأفندي على قضية الأبزاخ التي لا مردّ لها. المسلم أغلى من الكافر أولاً بشعر لحيته، وشخصه أغلى من شخص الكافر ثانياً. العقاب واجب على من يحاول الاعتداء على روح مسلم. وفي هذا اتُّهِمتُ في ما يطالب به الأبزاخ. وأخبرهم أن على تامبي تسليمي لهم. ثم بدأ بحقوق من أنا أسيرُه:غلاء أملاك المسلم الحامل للقرآن، وإمكان أن يخسرها تامبي بسبب الكفار. وأقنعهم أن بإمكانه الإبقاء عليه إذ سيخسر مُلكه إذا قُتلتُ،وسيتوجب على الأبزاخ تعويضه. وقرر الأفندي أن يدفع الأبزاخ، لا اثني عشر ألف سومة فضية كما سيدفع الروس، بل نصف المبلغ. وصدر القرار دون ضجيج. وكل هذا روته لي أسلانكوز فرِحة...". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

LXI

فهم تورناو أنه لن يستطيع البقاء مع الأبزاخ مزيداً من الوقت وإن كان الحكم الصادر من المحكمة المنعقدة في مضافة داور حسناً له ولتامبي: الليلة أو ليلة الغد، وفي أسوأ الأحوال ليلة ما بعد غد. ولاشك أنه إن لم يفعل هذا فمصيره حدُّ سيف الشريعة.

"لا تزال تسوِّف إلى اليوم والغد وما بعد غد!" – نهر تورناو نفسَه. وانتفض ناقج الذي كان يشحذ خنجره وكأنه شعر بأفكار تورناو.

– ما العمل يا ناقج؟ – سأل من كان يستعجل الآن في شحذ خنجره. – لماذا لا تقول شيئاً؟

لم يجب ناقج بل مسح الخنجر وأعاده إلى غمده. وفيما هو خارج من الغرفة قال بلا اهتمام:

– اعمل ما تريد؛ ملّلْتني!.. – وقبل أن يكمل خطوته خارج الغرفة عاد مسرعاً إليها: – أسلانكوز قادمة... لا أريد أن تراك والقيد عليك، دعني أنزعها!

– شكراً، – ما إن أصلح تورناو هندامه حتى دخلت بنت الجيران.

– سبب مجيئي... – قالت أسلانكوز، والتفتت إلى ناقج.

– قولي ما تريدين يا أسلانكوز، ليس جامبج غريباً عنك وعني. لا تتعجبي، لم يعد اسمه ناقج. هو من نبلاء أسرة أرجان من القبرتاي.

– كنت سمعت الأمير يروي مثل هذا الخبر ضاحكاً... ولكن والدي أمرني بحزم ألا أتكلم في الموضوع. سأقول إن كنا سنتبادل ثلاثتنا الثقة: انجُ بنفسك حالاً يا فيدور – فيدور. وأنت يا جامبج أتأمل منك أن تساعده بقدر استطاعتك.

– أنا جاهزٌ من هذه اللحظة لهروب فيدور – فيدور، – قال ناقج سعيداً، – ولكن أمامه مسير أسبوع في الغابة، سيحتاج إلى زاد.

– فكّرنا في هذا خان وأنا، وددي موضع ثقتنا. نستطيع أن نوصل إليكما حذاء احتياطياً وطعاماً هذا المساء.

– أنا لن أهرب مع فيدور – فيدور يا أسلانكوز... – علّق ناقج على عبارة " سنوصل إليكما ".

– لا تقلقي يا أسلانكوز، – فهم تورناو ما يعتمل في قلب حارسه. – سنرتب أمر هروبي على نحو لا يظهر فيه دورٌ لجامبج. غير أني أترجاك أن تعتني به مهما حدث لي. لا شيء لا يستحقه جامبج. ليس الآن، بل لاحقاً، لاحقاً، سيخبرك بشخصه.

وجد ناقج – جامبج حجة للخروج من الغرفة بسبب الحرج الذي أوقعَه فيه شعوره أن تورناو يغازِل من أجله:

– سأعيد حجر المسنّ إلى دداي وأعود.

جلس الأسير الروسي وابنة الأمير الشركسي متقابلين على مسافة لا قريبة ولا بعيدة حين بقيا وحدهما في الغرفة. حنت أسلانكوز رأسها الجميل المعصوب من جبينها إلى منتصف رأسها بغطاء حريري أزرق. وقال تورناو وما يراه يؤلم قلبه:

– سامِحيني يا أسلانكوز... – لولا أنتِ ما تحملت إلى الآن أسْري.

– مع أني لم أستطع أن أصارحك بطريقة خروجك من المأزق الذي وقعت فيه،

– الآن احمرّ وجه أسلانكوز الشاحب، – عاملتُك بطريقة تفهمها.ولكنك لم تفهمني.

– ولكن السبب في موقفي منك، وأنت يا أسلانكوز تعرفين، ليس بُعْدَ قلبي عنك. لم أكن أجد من اللائق أن أفعل ما لا أستطيع...

– وكيف تجد من اللائق وأنت معتاد على قصر كبير، وحياة أخرى!.. – أنطقتها الكلماتُ التي شعرت معها بالإهانة، وردّت باسمة مناكِفة: – أنا متى نظرت في المرآة عرفتُ أني لست أبشع من بنات قريتي. كثير من شباب الأبزاخ يقولون لي هذا. وهم جاهزون لدفع المهر الغالي الذي أستحقه. وأنا يا فيدور – فيدور لم أعد أعتب عليك بعد حديثنا عبر النافذة... ولكن، وأنت تعرف ما في قلبي نحوك، – انكسر صوتُ أسلانكوز، – يحزنني أن تغازلني من أجل ناقج. أفهم أن جامبج في موقف صعب، وأن أحداً لا يفهم هذا الموقف، وقد لا يكون أسوأ من شبابنا الأبزاخ، ومع ذلك...

– أتقبل ما قلتِ لي يا أسلانكوز. أنا لا أعرف ما سيجري لي غداً. الله وحده مَن يعرف. ولكني لن أنسى معروفك ما حييتُ. وسيبقى وجهك البريء في مخيلتي إلى الأبد.

– كفى! – أقفلت أسلانكوز الحديث مع الضابط الأسير، ونهضتْ والشرر يتطاير من عينيها. ثم لامت بصوت لطيف مَن لم يتفهّم حبها: – الحب الذي يُخفق صاحبه في إفهام الطرف الآخر به لا يُستجدى بل يُجنى. مع السلامة إن كنت قررت الهروب ليلاً، ولْيكن إلهنا وإلهكم في عونك. سأرسل الزاد والحذاء بُعيد العِشاء مع دداي. – ثم قالت آخر كلماتها دون اصطناع لتورناو في حضرة ناقج الذي عاد إلى الغرفة: – تفضل يا جامبج، غبتَ طويلاً... نحن، فيدور – فيدور وأنا، اتفقنا على مشروع الليلة. – خرجت أسلانكوز مخفية انفعالها.

– هكذا إذن يا جامبج... – قال تورناو مخفياً مواساته نفسه بنفسه، – ستتحسن أمورك، سترى.

– هل تكلمتما علي أنت وأسلانكوز؟..

– لم يكن عندنا شاغلٌ سواك طوال غيابك. أسلانكوز فتاة ذكية، أظنها فهمتْ ما قلت لها بشأنك.

– هل تظن فحسبُ؟.. – سأل ناقج المعتاد على الارتياب، ثم ندم، – نعم، نعم يا فيدور – فيدور فهمتُ.

– حسنٌ أنك فهمت.– ابتسم تورناو ببراءة، وكرر ما قيل له: – الحب لا يُستجدى، بل يُجنى.

– والله وهذا صحيح.

– هذا هو إن كان صحيحاً...

يُظلِم جدار البيت شاهداً على غياب شمس الصيف القائظ. وتنقطع أصوات الأطفال الذين كانوا يلعبون على تخم الغابة كأنهم أسرعوا لاستقبال المواشي. البرد اللطيف الذي يُبعِد النهار الثقيل عن الأرض شيئاً فشيئاً يتسلل عبر النافذة نصف المفتوحة، ولكن قلب تورناو فارق الغرفة. يفكر خارقاً الغابة بعينيه في كيفية الهروب متى هدأت دار الإمارة، وسكنت القرية عابراً نهر لابا

والشرق إلى يمينه. ويفهم أن المئة والخمسين فرستاً التي عليه قطعُها ليست سهلة. ولكن أصعب ما عليه هو الخروج من القرية دون أن يُحسّ به أحد.
– أمورك يا فيدور – فيدور، يحدّثني قلبي، – ينصح ناقج الذي لاحظ قلق تورناو، وإن كان الأخير يُخفي قلقه، – ستتيسّر الليلة. ولكن سامِحني على أني لن أرافقك... سأدعو إلى الله أن يحقق نيّتك. وأنا إن تيسرت أموري وتحقّقَ ما أريد فسآتي كما اتفقنا إلى نواحيكم من أجل والديّ... – أوقف صوت القادم نحو الباب كلامَه. – أظنه دداي.
– هذه أرسلتها خان وأسلانكوز إليك يا فيدور – فيدور، – وضع دداي كيس الزاد والحذاء أمام الأسير. ولم يقبل من ناقج أن يبقى القيد على الأسير: – لماذا لا تزال محتفظاً بفيدور – فيدور مقيداً؟
– ربما يأتي تامبي على عادته وقت الخلود إلى النوم، – علّل تورناو وضْعه.
– هكذا؟ إذن وأنا أيضاً لم ترياني، ولا أنا رأيتكما. مع السلامة يا فيدور – فيدور... – عاد دداي بصوت منكسر بعدما وصل إلى الباب وعانقه عناق الوداع.
– هل أنت واثق منه؟.. – جعلت الريبةُ النقيبَ يسأل.
ارتعب قلب ناقج – جامبج مما سمع، غير أنه لم يُجب.
قال ناقج الذي كان مستعجلاً على الوقت السائر بطيئاً نحو منتصف الليل:
– ستربط قدميّ ويديّ، وتكمّ فمي بخرقة، وتهرب. انتبه من كلبَي مرزخواي وددای الطليقين في الليل.
حين أنصت ناقج – جامبج المقيد والمكموم فمه بعض الوقت فلم يسمع شيئاً غفل دون أن يدري وهو يفكر في ما سيجري له، وكيف ستتصرف معه أسلانكوز. وحين أجفلته الأصوات الصادرة داخل الغرفة رأى الغرفة مُنارة، وأسلانبج فوق رأسه:
– ماذا جرى لك أيها الغبي حتى يُقيّدوك؟ فُكّوه! وانتزعوا الخرقة من فمه... هيا يا بكر استنفِروا القرية ولنلاحق الكافر! لم يذهب بعيداً، حاصِروا معبر نهر شحغواشه!

– نعم يا أمير، نعم!.. هذا الكافر اللعين لا يعرف السباحة. – وناقج الغارق في الرياء يصرخ، ويجحظ بعينيه، – لن أغفر له ما فعله بي!.. هيا يا دداي لا نتأخرْ عن الركب... اسمح لي يا أمير أن أركب أحد أحصنتك لأنتقم ممن أهانني!..

– أنا أعرف ما يستحقه دعيٌّ مثلُك!.. – نهر تامبي ناقج، وقال للخادم: "ليس هناك عين زائدة": – أعط هذا حصاناً بلا سرج...

LXII

لم يتجه تورناو إلى ضفة نهر شحغواشه كما خمّن تامبي، بل ركض حتى الفجر جهة الجنوب ولا همَّ له إلا الاختباء في عمق الغابة القريبة. ولم يسترح استراحة قصيرة أسفل جذع شجرة إلا مرتين خلال خمس ساعات.

حين قاس الغابة الكثيفة التي لا طريق لها بالساعات الخمس التي سارها شهد صمتُ الغابة على أنه قطع من عشرة فرستات إلى خمسة عشر. ومهما كانت الغابة التي ركد فيها الهواء هادئة فقد قرر تورناو أن لا يسير نهاراً بانتظار الليل. وكان أحسنُ ما ينتظره أن يجد ساقية ما.

جلس إلى جذع شجرة بلوط رطبة، وأنصت: تهيّأ له أنه سمع خرير ماء جارٍ. وحين فتش رأى الساقية التي تحمل أوراق الأشجار بصعوبة. انحنى عليها وشرب راسماً الصليب لنفسه. وغسل وجهه. وتمنى لو يأكل. ولما أخرج من الكيس قرص الجبن اليابس والخبز غير المخمَّر خطرت له أسلانكوز وخان فابتسم. وتمثّل له جامبج – ناقج: فتألم قلبه لأجله قائلاً في نفسه: "ما أخبار هذا المسكين يا تُرى؛ أيكون تامبي صدّق الحيلة التي ابتكرها لأجلي؟" ولكن وضْعَه في هذه الساعة لم يكن يسمح له بالقلق على غير شخصه.

شرب تورناو الماء بعد غدائه المتأخر عارفاً أنه لا يجوز اتخاذ أي ساقية موضع ثقة. ولما لمس ظهرُه المتعرق الشجرةَ غلبه النعاس. أجفله صوت غريب وهو لا يعرف كم نام: لمعت في الظلام عينا الذئب الذي كان يراقبه. هُرع إلى العصا ونهض فاختفى في عمق الغابة الذئب المرتعب أكثر منه. ركض تورناو المذعور بعض الوقت غير أن كيسه الذي علِق بجذع شجرة أعاده. فتابع طريقه الليلي متفائلاً بهروب الذئب منه وبعثوره على كيسه. والآن دليله القمر والنجوم. كان

يمشي باتجاه البسلني تاركاً القمر على يمينه مجموعة نجوم المرأة المسلسلة على يساره.
حين بدأ الأفق يحمرّ عرف أنه يمشي في الطريق الصحيح. وحين أنصت سمع صوت نهر جارٍ حيث يتوجه. ورغم عطشه قرر ألا يقترب منه حتى حلول الظلام. ووجد مكاناً آمناً في اعتقاده،وبدأ يشعر بالبرد ناسياً عطشه ربما لانبعاث الهواء البارد من النهر القريب منه. " كنت اعترضت على إلباس جامبج إياي هذا الصدار الذي لا أكمام له ولكن... – فرح تورناو لقبوله الصدار.– ليل الصيف بارد في الجبل، نفعني هذا الصدار... "
الزاد يحافظ على حياة الإنسان، ولذا وجد المضطرُ الذي كان يحمي شخصه شجرةَ تفاح. قضى النهار يأكل من التفاح الحامض – المر كلما شعر بالعطش. وما إن حل الليل حتى توجه إلى النهر الذي يرتفع خريره ليلاً. وعرف أن هذا هو نهر قجبس، وأن ملاحقيه لن يصلوا إلى هنا. ولكن نباح الكلاب الصادر فجأة من جهة شحغواشه أنساه نيّته. رفع جسمه عن الضفة وأنصت وهو يراقب بعينيه وبقلبه. لا شيء في القريب، ولا في البعيد مما يثير الشك. نهر قجبس يجري قافزاً بأمواجه متضاحكاً. ونجوم السماء القريبة تتغامز. وإحداها تمد جسراً من اللهب في قبة السماء. صدر عواء ذئب من ناحية مخاضة النهر. وجاوبه غيرُه في الجهة نفسها. ومرة أخرى ارتفع نباح الكلاب. ضجَّ منتصف الليل بطلقتي بندقية ثم هدأ. ولما اشتمّ تورناو الهواء انتبه إلى وجود مستراحٍ للأغنام في القرب. فاستدار بسرعة إلى اليسار وعاد إلى الغابة. وبعدما جرى قرابة الساعة نهر نفسه قائلاً: إن كانت أمامي قرية فالمستراح ليس مشكلة. ما الذي جرى لك أيها الضابط تورناو تجري بلا وعي؟ لا نباح الكلاب ولا طلقات البندقية تبحث عنك. والذئاب المتعاوية لا تريدك. افرح بأنك نجوت من يدَي تامبي وتعود إلى قومك! اِختفِ أيضاً يومين أو ثلاثة في الغابة يتعبْ ملاحقوك ويتفرقوا. تحلّ بالصبر والإيمان تتحقّقْ لك الحرية التي اشتهيتها طوال سنتين... "
النقيب تورناو الذي لام نفسه وواساها في الفجر عبَر دغلاً من أشجار البندق وهو يتناول من ثمارها الفجة. وبعدما مشى وقتاً غير طويل وجد نفسه أمام

حقل من توت الفريز. رأى كلبين يجريان نحوه وهما ينبحان ولم يتركا له الفرصة ليأكل فترك كيس الطعام العزيز عليه، وعاد راكضاً إلى الغابة. ولما خاف أن يصل الكلبان إليه ألقى إليهما صداره المصنوع من جلد الخروف وتسلق قمة شجرة ريثما تنازع الكلبان على جلد الخروف. ثم اختفى الكلبان اللذان أعادهما صوت الطلقات إلى وعيهما. ولما نزل تورناو من قمة الشجرة لم يعبأ بالغصن الذي انغرز في عقب قدمه بل كان همُّه الوحيد هو الابتعاد ما أمكن.

سمع تورناو قُبيل الظهر أصوات أناس يتحدثون. رأى فارسين يتجهان بكل بساطة إلى الدغل الذي اختبأ فيه: أحدهما ناقج والآخر دداي.

– لم توافقني ولكن خيراً فعلْنا إذ لم نرسل تامبي إلى هذه الجهة. ولكني أظن أن مُحَمَّد مولى لا يثق بنا... – يقول دداي لناقج ويسأله: – أين هما الاثنان اللذان كانا يتبعاننا: مولى مُحَمَّد وبراغُنه ميشكا؟

– لا يتأخران عنا، يتابعاننا، – ابتسم ناقج دون أن يلتفت. – ما الأمر؛ ألا تثق ببراغُنه؟

– مهلاً... – رأى دداي تورناو مستلقياً في الدغل، وهمس في أذن ناقج. ثم قال بصوتٍ عالٍ مُسمِعاً من وراءهما: – ألم أقل إن الكافر الخبيث لن يتجه إلى قُجبس! كان علينا أن نُسرع إلى شحغواشه حيث توجه بكر وأصحابه... والآن يا مُحَمَّد مولى هل نتابع إلى الأمام أم نعود؟

– وأنت يا ميشك، يا من جعل الله يومه مئة، ما رأيك أنت؟ – استشار مولى براغُنه موضعَ ثقته.

– من المؤكد أن الضابط الروسي الأسير لن يفلت منا ويخرج من حدود الأبزاخ أينما اتجه. سترون إن لم يخرج وحده من الغابة لا يعرف أين يذهب، فيستسلم.

– صدِّقوا أن الكافر لن يتخطى أدعيتي، – قال المولى مُحَمَّد واثقاً من نفسه، ثم لوى عنق حصانه...

لم يكن تورناو في وضعٍ يسمح له بمتابعة طريقه ولو أن الفرسان الأربعة اختفوا عن ناظريه: كانت قطعة الحطب التي انغرزت في أخمص قدمه تمنعه. وكان أسوأ ما في الأمر استحالةُ إخراجها. لامس نثارة الحطب مرتين أو ثلاثاً بالموسى التي أعطته إياها أسلانكوز فلم يستفد إن لم يتأذَّ منها. وكانت القدم تتورم مع

الوقت ملوّنة رجله بالأحمر – الأسود، فيزداد الألم. "ما تحتاجه رجلي هذه اللحظة هو الماء البارد". نهض تورناو، وفتش متخفياً وراء ساق الشجرة، وأنصت. الجو لطيف، والخضرة تسود كل مكان، والأزهار الملوّنة تسلبك النظر. والشمس التي تهيمن على كل هذا المنظر تتجه رويداً رويداً نحو الظهيرة.
كان عالَم الأبزاخ الجميل يبدو آمناً ولكن الضابط الروسي غريبٌ عنه. نصح نفسه كما هي عادته حين يجد نفسه في مأزق: "لا داعي لليأس. وهل عجيب إن انغرزت شوكة في قدمك! متى تقيَّحت خرجت الشوكة مع القيح. لابد أن هناك ماءً في الوهدة التي تظهر فيها أشجار الصفصاف...[1] "
ذهب تورناو يعرج إلى حيث قرر. ولم يخطئ التقدير في موضع الماء: غمس عقِبه التي لا تدعه يهنأ في الجدول الكبير على أن يعدّ ساقية، والصغير على أن يعد نهراً. وتورناو الذي كان يتأمل في النهر الجبلي الصغير الذي يخفف الألم سأله أحد الفارسين اللذين أتياه من الخلف:
– من أنت، وماذا تفعل هنا؟
– أنت ترى من أنا، – أجاب تورناو كمن لا يولي أهمية، – ولا تتأمل أن تسمع مني غير هذا. – وأضاف وهو يحدِّث نفسه " ليس هذان ممن يبحثون عني ": – وأنت ترى ما أفعل،– أستريح.
ابتعد الفارسان، ربما لأنه يرتدي الزي الأديغي، وليس مسلحاً، ويبدو غير مهتم، وتهامسا مدة، ثم قال له أكبرهما بصوت حاسم:
– هيا انهض وتعال!

---

[1] عجزتُ بعدما هاجمتني الكلاب عن إخراج نثارة الحطب التي انغرزت في قدمي. كنت مرهقاً جداً في تلك الليلة. وحين أفقتُ كانت الشمس الحادة ارتفعت، ورجلي انتفخت وتلتهب كأنها مغموسة في النار. وصلت إلى حافة اليأس، بدا دغلٌ من الصفصاف غير بعيد، فتوقعت أن يتوفر الماء قربه. نزلت إلى الوهدة على ركبتي، وغمرت قدميّ في الماء البارد آملاً أن تبردا. وفيما أتأمل الماء مفكراً في طريقة لحماية نفسي إذا بفارسَين من الأبزاخ فوق رأسي. انقطع كل أمل لي في النجاة: كان الرجلان على مسافة خطوتين ورائي. وأحدهما يمسك بالبندقية ملقّماً... ". المؤلف نقلاً عن مذكرات تورناو.

– لن أنهض، ولن أذهب إلى أي مكان.
– ولماذا لا تذهب؟ – صرخ عليه الأبزاخي شاهراً بندقيته عليه.
السبب هذا هو... – أخرج رجله المتورمة من الماء وأراه إياها.
– اِركب ورائي إن كنت عاجزاً عن السير.
فهِم والفارسان يحملانه، هو يردف الفارس الأصغر، والأكبر وراءهما، أنهما لا يعرفان شيئاً عن قضيته، ففكر في طريقة للتملص منهما دون حيلة أو دمٍ: " لا أحد لا يطمع في المال... من لا يغريهم قليلون جداً... هذان فلاحان من العامة على ما أرى. وربما كانا راعيين من نوع البشر الذين يستعبدهم تامبي... لا بأس أن يحصل هذان على فِديتي إن تفهّما وضعي وقبلا... "
لم يقد الراعيان تورناو إلى الجهة التي فاجآه فيها، بل مشيا قُرابة الساعة بموازاة النهر الصغير الذي لا يعرف بعدُ اسمه، ودارا حول حقل الذرة الصفراء التي في طور النموّ، ودخلا في البرية التي تنتهي في سفح الجبل، توجها إلى مستراح الأغنام الذي ظهر من بعيد.
دخلا به إلى الحظيرة، فقال له الأكبر:
– أنا اسمي جَجان، ورفيقي جأراش. وأنت أخبِرنا باسمك ريثما نتفقد رجلك.
– فهمتُ أيها الفارسان أنكما رجلان صالحان، ولكن أريد أن أسألكما: هل تعرفان الأمير تامبي أسلانبج؟
– الأبزاخ لا أمراء عندهم، ولكننا نعرف أن الأمير القبرتاي الذي ذكرت اسمه يعيش في الأبزاخ الدنيا. هل أنت عبده؟
– سأرجوكما، إن كنتما ستتفهمانني، في موضوع فيه فائدة لكما ولي. أنا لست فلاحاً – عبداً، أنا ضابط روسي، كنت أسيراً عند تامبي... واسمي فيدور فيدوروفيتش، ونسَبي تورناو.
– هذا أنت؟.. – سأل ججان، وقال لرفيقه: – أظننا وقعنا في مشكلة... وفي كل الأحوال نسمعك.
– سأعطيكما من النقود ما يكفيكما طوال عمركما إن خدمتماني.

– أنا مضى لي في هذه الدنيا نصف قرن أسفح عرقي، – ابتسم ججان، – ولم أسمع مثل هذا إلى الآن... نسمعك، نسمعك، كيف تريدنا أن نكسب هذا المال؟

– إن تبادلْنا الثقة وأوصلتماني حياً إلى الجنرال زاس فستكون الفدية التي ظلّ تامبي يلحّ عليها من نصيبكما.

– كم كان تامبي يطلب؟ – سأل الآن جأراش ذو الشفتين الغليظتين،الذي ظل ساكتاً إلى الآن.

– ستة آلاف سومة.

– هذا مبلغ كبير... – أعاد ججان السؤال وهو يمر براحته على رأسه المحلوق حديثاً: – من قلتَ اسمه؟ زاس الأصهب من تريد أن نوصلك إليه؟ لن أمثُل أمام هذا المجرم لو ملأت لي قبعتي نقوداً. ابحث عن أحد المتنفذين في الأبزاخ، وليس زاس.

– سأعطيك أكثر من اسم، – عادت الشجاعة إلى قلب تورناو بسبب ثقتهما فيه، – أعرف حجرت نقار والحاج جانسعيد وقرمرز تيمبولات.

– قل هكذا من البداية يا مبارك النسل! – قال ججان، ثم سأل بصوت جازم: – من أين يعرف ضابطنا الروسي العدو هؤلاء؟ – النغوي قومُ قرمرز آكلُ لحم الخيل ليسوا أصحابنا، ولكن قرمرز نفسُه نعرفه. أنا أتكلم على الفلاح نقار والأفندي جانسعيد.

– كأنك لا تعرف يا كبير أن لهؤلاء أصحاباً من القوزاق...

– وهل سألتُك؟ – ردّ ججان على رفيقه، – لا تتكلم في ما لا تعرف! – هيا نعالج قدم الضابط الروسي الموجوع. ولكن سنُطعمه أولاً. ثم نخرج القطعة من عقبه بالموسى الحادة. هل تتحمّل؟ – مزح معه.

– لا، لا يا ججان، رجلي أهمّ من الطعام!

– لا بأس إن لم تكن جائعاً، لا مشكلة مع رجلك... سنسقيك إذن من اللبن الرائب. – حلّ ججان سريعاً مشكلة القدم المتقيحة خلافاً لما توقّع تورناو.– وسقط العود من القيح والدم النازفين.

سأل ججان بعدما انتهى الثلاثة من الغداء:

– إذن هل أُرسِل جأراش وراء الفلاح حجرت نقار والأفندي جانسعيد أيها الضابط الروسي؟
– كما تريد أنت إذ وضعتُ حياتي تحت تصرفك، – رضخ تورناو حذراً، متوددا إلى المضيف.
– لا تتهاون يا جأراش. اركب واطلب إلينا جماعة نقار لأنهم ليسوا بعيدين. ولكن لا تؤاخذني أيها الضابط الروسي. – جزم ججان، – ستبقى يداك ورجلاك مقيدتين ريثما يصل أصحابك الطيبون فمن يدري؟
– ولماذا أعتب عليك؟ لو كنتُ في محلك لطلبت منك الطلب نفسه. – وافق النقيب تورناو بسرعة.
– وهذا كلام رجال، يرضيني.
كانت الشمس المرهقة بدأت بالمغيب حين رأى ججان الفرسان الأربعة ينبثقون من الغابة. تعرّف الثلاثة: نقار وجانسعيد وجأراش، والرابع كأنه يعرفه ولا يعرفه. ولكنه عرف قرمرز تيمبولات حين اقتربوا. فكّ ججان قيد الأسير واستقبل الفرسان قائلاً في نفسه: "ومن أين أتوا بهذا؟"
قفز قرمرز الذي لا يطيقه ججان متلهفاً، وأسرع إلى تورناو فعانقه دون اهتمام بالمضيف. وقال الحاج جانسعيد باسم رفيقيه:
– حياك الله يا ججان، لن ننسى أبداً ما قدمت من خدمة لهذا الضابط الروسي البائس. ما من شيء لا تستحقه.
حيّا ججان الزعيمين الأبزاخيين متظاهراً بعدم سماع كلمات قرمرز تيمبولات:
– تفضلا يا جانسعيد ونقار. – وأضاف إلى الضيف النغوي عارفاً أنه يخالف تقاليد الأديغة: – وأنت أيضاً يا قرمرز،لم نعرف أنك أنت والضابط الروسي الذي وجدناه في الغابة يعرف أحدكما الآخر.
– هذان، لا تستغرب يا ججان، كلٌّ منهما مدين للآخر... – قال نقار بطريقة تعرف بها من تحريكه لسوطه أنه لا ينوي المكوث، واستشار الحاج جانسعيد: – ماذا نفعل يا كبير؟
– واضح أننا لم نأت ضيوفاً، – أجاب الحاج الأفندي جواباً قاطعاً، وسأل ججان: – من أخبرتم بلقائكم بالضابط الروسي غيرنا؟

– هذا الموضوع يا زعيم الخير إن كنتم واثقين من قرمرز فلا أحد غيرُكم الثلاثة، ونحن الاثنين، يعرف به.
– لا شيء يجري في الكون دون علم الله، – ذكّر جانسعيد ججانَ بنسيانه الله تعالى، ثم نهض.– تعال يا تورناو، الضابط الكافر، الآن وقعتَ بيدنا بعلم الله تعالى. اركب وراء قرمرز.
– هذا لا يجوز، سأعطيكما حصاني... – لم يجد الفلاح ججان ما سمعه لائقاً به.
– لا، لماذا نكلّفكم مشقة أخرى؟.. – أنهى جانسعيد كلامه وهو يركب: – إن وصل إليكم تامبي فأنتم لم تروا شيئاً، ولا سمعتم.
– وعدتُ الرعاة بأن أُحسِن إليهم... – همس تورناو في أذن قرمرز.
– أحمل معي دائماً فِدْيتك.
– أعطهما!
– سأكرّمهما ولكن يجب أن نتقاسم مع رفيقينا أيضاً...
بعد أن" كرّم " قرمرز كلاً من الراعيين بسومة فضية واحدة، أعطى ما زاد على الآلاف الخمسة لجانسعيد الأفندي ونقار الزعيم الفلاحيّ بالتساوي. وعبَرَ نهر لابا في الليلة نفسها بالضابط الروسي الذي أُسِر سنتين عند الأبزاخ. وأوصله إلى قلعة فوزنيسينسك القوزاقية.

...

وجرى هذا في ليلة العاشر من أيلول عام 1837.

خاتمة

هكذا اكتملت عملية هروب النقيب الركن تورناو الذي أُحتُفظ به أسيراً عند الأبزاخ مدة سنتين.
مع أن أمور تورناو لم تجر كما يريد، فقد أعاده إلى قومه،سواءٌ بنوع من عمل المعروف أم بغيره، باسم " الهارب " الأبزاخُ الذين دخل إلى بلادهم.
حقق تورناو ما وعد به قرمرز تيمبولات: أعيد إليه بمعرفة القيصر أناسه وقريته وأراضيه. وأُعفي غازي إمام من الحكم الصادر بحقه. ومُنح قطعة أرض تفضُّلاً.

ولم ينس القيصر أسرة باي المريض الممنوع من مغادرة منزله، فمُنح أبناؤه الثلاثة مساحة كبيرة من الأرض في البسلني.

الأمير تامبي أسلانبج هو من دفع ثمن حُبثه دون فائدة: في يوم من أيام خريف العام نفسه عاد به حصانه قتيلاً دون أن يحصل على كوبيك واحد من الفدية التي كان يطالب بها. وتبعاً للخبر الذي انتشر بين الناس فإن الضابط التركي عبد الله أفندي لم يغفر له هروب الأسير من بيته. وعلى يد "الأفندي" نفسه تزعُم الأخبار في الأبزاخ أن بكر وبراغُنه أيضاً قضيا.

وفيما مُحَمَّد أفندي في حِجّته الثانية شُيِّع والده مرزخواي فلم يلحق بجنازته. ولكنه عقد قران ناقج وأسلانكوز فأسسا أسرتهما. ولما دخل الجيش الروسي إلى الأبزاخ بعد ثلاث سنوات عثر جامبج، بفضل تورناو،على أبويه في روسيا، وعاد مع الأسرة إلى موطنه الأصلي في القبرتاي دون البقاء في تامبي حابله. وسُمّي الصبي الذي رُزق به دداي وخان بمحمد تيمُّناً باسم النبي مُحَمَّد.

ويعيش الأمير داور ألمجري منذ قُتِل جاره تامبي دون أن يتدخل في شيء، ولا فرحةَ لديه غير اتخاذ ابنه يدج قالب الرجال. وتستدعي أسلانكوز ابن خادمتها السابقة خان فتربيه في حضنها. وتعيش قجنس شيخوختها مكتفية بما سعدت به أيام عزوبيتها وأيام حياة زوجها أسلانبج، متحاشية رؤية الضباط الروس، غير مُدرِكة ما ينتظرها.

ويكتب النقيب تورناو أخبار الحاج جانسعيد كما يلي: "قُتل الحاج جانسعيد على مرأى مني. كان الجنرال غوركه يستطلع مكان المعركة على ضفة نهر وارب بمرافقة كتيبتين من المشاة وخمسمئة من مقاتلي القوزاق، وسَدَنة أربعة مدافع. بدأ جيش العدو الذي لم يحتل بعدُ قمة المرتفع غير البعيد يتمدد في السفح، وكان المشاة الشراكسة يُسرِعون لملاقاة هؤلاء. وفيما أراقب العدو بالمنظار رأيت عمامة صفراء، وكان هو الحاج جانسعيد. وعرفني هو بمنظاره فتبادلنا شارات الاحترام برأسينا. هاجم الفرسان الشراكسة الثلاثمئة الذين يتقدمهم جانسعيد بعمامته الصفراء موقع القوزاق دون إطلاق رصاصة واحدة ودون أي ضجيج وبدؤوا يذبّحون فيهم. لم يكن جيش فرساننا قريباً منا، وجيش مشاتنا بعيد بما يكفي. وكان مدفع قوزاقي واحد قريباً منا، فأمرته أن يتصدى للشراكسة.

اقترب سدنة المدفع قرابة مئة خطوة وأطلقوا النار. واختفت العمامة الصفراء في الدخان. ورفع الشراكسة المنسحبون جثة أحدهم، فرأى قرمرز تيمبولات الذي كان واقفاً إلى جانبي بعينيه الحادتين حجرت نقار يُخلي جثة جانسعيد. صاح قرمرز وقد أُمتُقع لونه: "قُتل الحاج جانسعيد!كان رجلاً بكل معنى الكلمة، بطلاً وصالحاً..." ثم قفز تيمبولات من ظهر الحصان وشرع يدعو له.

ولم يُعمَّر حجرت نقار الذي أخلى جثمان الحاج جانسعيد الأفندي من ساحة الحرب طويلاً. بعد ثلاثة أشهر من مقتل صديقه الأكبر منه عمراً حقّق أمنيته الخفية التي بلبلت الروس والأديغة: اختطف ليزا ابنة الجنرال زاس. استقبلت مجموعة الفرسان الأبزاخ التي يقودها نقار الفتاةَ فجاؤوا بعربتها ومَن فيها إلى الأبزاخ واحتفظوا بهم عدة أيام دون أن يمسّوهم بأذى قولاً أو فعلاً. وكسَوا ليزا بزي أديغي جميل، وأرسلوها على طريق بروجني أوكوب وهم يوصونها أن تبلغ والدها "لسنا مثل من يعلق الرؤوس!"... وبعد هذه الأحداث اختفى حجرت نقار، وتفنن الناس في رواية نهايته إلى أن رأوا يوماً ما رأسه على عمود في جدار زاس...

وما مصير بكر وبراغُنه ومُحَمَّد أفندي وغُفس وإسلام ويدج وغُجبس وودداي، وابنه مُحَمَّد، ورجال الأبزاخ وشبابهم الذين سيؤلبهم ويخدعهم الموفد الثالث للإمام شامل إلى أديغَستان النائب مُحَمَّد أمين؟.. كانت الحرب القفقاسية الروسية التي سينتكب فيها وسيتشتت على إثْرِها الأديغة التي بقي على نهايتها أكثرُ من إحدى وعشرين سنة بانتظارهم وانتظار الكثيرين غيرهم...